الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثامن والأربعون . السنة الرابعة . يناير ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 48 - January 2003



ثورة يوليو : خمسون عاما

محمد حسنين هيكل

ساعة سقوط الملكية فى مصر

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الثامن والأربعون
يناير ٢٠٠٣

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

حقوق نشر جميع المواد والرسوم محفوظة

محتويات العدد:

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كتّاب العدد:

- **إبراهيم العريس**.. ناقد سينمائى من لبنان.
- **أحمد مستجير**.. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة.
- **أيمن الصياد**.. صحفى.
- **جيرشوم جورينبرج**.. صحفى.
- **جيمس ميك**.. صحفى بريطانى.
- **حمزة إبراهيم عامر**.. أستاذ الجيولوجيا التطبيقية.
- **رنا حايك**.. صحفية.
- **سلامة أحمد سلامة**.. صحفى.
- **عمرو محيى الدين**.. أستاذ الاقتصاد.
- **فاروق وهبة**.. أستاذ بكلية الفنون الجميلة.
- **كلود جوردا**.. رئيس المحكمة الجزائية لشئون دولة يوغسلافيا السابقة.
- **محمد البرادعى**.. مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية
- **محمد حسنين هيكل**.. صحفى.
- **وائل عبد الفتاح**.. صحفى.
- **وليام نوردهاوس**.. أستاذ الاقتصاد بجامعة ييل الأمريكية.
- **يحيى الرخاوى**.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة

يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغير إذن كتابى مسبق من الناشر.



المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٢ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير. اليمن ٢٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

الكتب.. والقراءة و«وجهات نظر»

بهذا العدد الثامن والأربعين - تختتم «وجهات نظر» عامها الرابع. وهى مناسبة تعودنا فيها أن نتوقف - فى هذا المكان - لنتذكر: لماذا كانت تلك المطبوعة؟ ولنتدبر ما هو آت، بعد أن نسأل: إلى أى مدى اقترب واقع ما كان مع أحلام الولادة وطموحات البداية.

ونتذكر - كعادتنا كل عام - كيف استقبل قراء العربية المطبوعة الوليدة يومها، استقبالاً تفاوت بين الترحيب والقلق.

رحب بها - كما أدركنا مبكرًا - من كانوا ينتظرون مطبوعة عربية تدقق اللفظ والمعنى.. واختيار الموضوع.

وأشفق عليها يومها أصدقاء خشوا أن الأصوات «الهادئة» قد لا تجد صدى فى ساحة امتلأت بالصخب والألوان والأصوات العالية.

وكان - كما نقول ونفخر دائمًا - أن توسط «عِقد» كتَّابنا الكرام؛ الأستاذ محمد حسنين هيكل عميد كتَّاب الصحافة العربية المعاصرة صديقًا «دائمًا» للمجلة، وقلمًا يتصدر شهريًا أقلامها. وفى حين نعترف أن هناك من رأى فى ذلك حسمًا حتميًا ومبكرًا لمنافسةٍ مفترضة مع مطبوعةٍ جديدة. رآه القائمون على تلك المطبوعة - كما نكرر دائمًا - تحديًا يفرض عليهم صرامةَ الالتزام بمستوى مهنى «يليق».



ويعرف قراء «وجهات نظر» أنها مطبوعة تعنى بشكل رئيسى بالكتب، كمصدر لا ينضب للمعرفة الإنسانية والأصول والمنابع والمرجعيات.

ويعرف كتَّابُ «وجهات نظر» أنها أبدًا لم تقصد، ولم تحاول، أن تكون مجرد نافذة تقليدية لـ«عروض الكتب» بالمفهوم أو المعنى الذى استقر طويلاً فى صحافتنا العربية. فتلك حالة قد تغنى فيها مطالعة الكتاب ذاته عن قراءة عرضه. فـ«وجهات نظر» - وهى بحكم الاسم والهدف - ساحة لـ«الرؤى المتمعنة» - عندما تعرض لكتاب أو لوثيقة، فإنما تقدم «قراءة» للأوراق تتضمن بالضرورة رؤية القارئ (الكاتب)، والتى يتصور القائمون على تلك المجلة أن لها خصوصيتها بالضرورة، بحكم تباينٍ طبيعى فى الخبرة، واختلافٍ واردٍ فى زاوية النظر.

يفترض القائمونَ على تلك المجلة إذن - ويوضحون فى كل مناسبة - أن «القراءة» التى تسعى إلى تقديمها هى فى الحقيقة «خلاصةٌ» لمزيج متفاعل حى بين الكاتب والكتَّاب.. أو لعلنا قائلون: بين فكر «الكاتب» وأفكار «الكتَّاب».

ينتظر قارئ «وجهات نظر» - ونعرف ذلك - أن لا تكتفى بتقديم ما فى الكتب، بل يتوقع دائمًا - وله ذلك - أن تقدم له قراءةَ كتَّابها لهذه الكتب.

ولأن القائمين على تلك المطبوعة يدركون ما ينتظره قارئها منها نترك ترجمة المقالات المتخصصة إلى المتخصصين. ففى هذا العدد يقدم دكتور أحمد شوقى - أستاذ علم الوراثة بجامعة الزقازيق - ترجمته لمقال مهم فى الهندسة الوراثية ننشره بترتيب خاص مع لندن ريفيو أوف بوكس.



الكاتب الأرجنتينى ألبرتو مانويل أصدر كتابًا ممتعًا ومحفزًا للتفكير اختار له عنوانًا قد لا يبدو مثيرًا «تاريخ القراءة». وفى هذا العدد من المجلة التى تعنى بحكم طبيعتها بالكتب والذى يواكب صدوره الدورة الـ ٣٥ لمعرض القاهرة الدولى للكتاب، يعرض وائل عبدالفتاح كتاب مانويل - أو بالأحرى - يقرأه. حيث يرى أن عملية القراءة فى العالم العربى مازالت عملية معقدة. تتشابك فيها طبائع الاستبداد فى الأنظمة السياسية مع خريطة الفقر والثراء فى المجتمعات العربية.. إلى جانب علاقات أخرى بين الدولة والمثقفين.. وبين المثقفين والمجتمع.. وفضلاً - الصدى المرعب للتقدم التكنولوجى الذى يخلق فى المجتمعات المختلفة طبقة من «العارفين الجهلاء» يعرفون استخدام الوسائل المتطورة لكنهم عاجزون عن اكتشاف المعرفة أو إبداعها من خلال هذه الوسائل.

وربما تكون رحلة الكتاب فى العالم التى يستعرضها مانويل مرت بمراحل تقنية من الحفر على ألواح الحجر ثم الصلصال.. إلى أوراق البردى فى مصر القديمة.. وحتى عجينة الورق الحديثة.. وصولاً إلى الكتاب الإلكترونى الذى يهدد بالعودة إلى الثقافة الشفهية بعد قرن من اكتشاف الكتابة.

إلا أن الكتاب العربى - يرى كاتبنا - مازال أسير رحلة أخرى. تبدأ مصاعبها مع فيروس الأمية المنتشر فى بعض البلاد العربية مثل الوباء. ولا تنتهى عند علاقة العرب المتوترة بفكرة الكتابة والكتب. توتر له أصول دينية. فالإسلام يعتبر أن الكتاب هو القرآن. كتاب الله الموحى به من السماء. وهذا يعنى أن الكتاب بعقد الألف واللام هو صناعة إلهية. وفى المقابل أى محاولة بشرية إما أن تأتى على هامشه. تفسيرًا أو شرحًا. فالعلم هو الدين والعلماء هم شارحو الدين ومفسرو نصه الكبير.

ورغم أن هذه العلاقة التاريخية المتوترة خفت حدتها الظاهرة إلا أنها للأسف لم تجعل الكتب عنصرًا أساسيًا فى الثقافة الشعبية. والإنسان العادى لا يلجأ إلى الكتاب إلا فى سنوات التعليم. وخارج هذا ليس هناك عادة إلا الكتب التراثية أو بعض كتب «الوجبات السريعة» حول القضايا التى تبدو ساخنة.

فالكتاب العربى لا يطبع منه الآن أكثر من ألف نسخة (هناك الآن دور نشر تطبع من الأعمال الأدبية خمسمائة نسخة فقط). ونجيب محفوظ الأوسع انتشارًا بين الروائيين، بسبب السينما ونوبل، طبعته لا تزيد على ثلاثة آلاف. أما نزار قبانى الشاعر الأشهر فديوانه لا يصل إلى رقم العشرة الاف إلا فى حالات نادرة. رغم أن أغانيه روَّجت لكتبه. ورغم أنه تعدى فكرة الشعر وأصبح من علامات المراهقة. وبدايات المعرفة.

غير هذا ليس هناك الآن إلا الكتاب السريع الذى يستثمر بهارات القضايا الصحافية المثيرة. توزيع هذه الكتب يعتمد على ضربة الحظ وعلى حساسية خاصة بالسوق ويعتمد أيضًا على «الموضة».. ضربة الحظ قد تصل بأحد هذه الكتب إلى رقم ٤٥ ألف نسخة كما حدث مع كتاب أشار عنوانه يومًا إلى اسم راقصة مشهورة.

ألبرتو مانويل من مواليد بيونيس أيرس (١٩٤٨). ورغم أن حياته كانت دائمًا حافلة بالكتب والأدب، إلا أنه ترك المدرسة مبكرًا دون أن يحصل على درجة جامعية. وقضى حياته بين موطنه الأصلى وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا قبل أن يستقر به المقام فى كندا حيث يعيش.



يكتب مانويل عن «تاريخ القراءة» ويَذهبُ الخوفُ من «القراءة» عند البعض إلى حد شن حملة لا تستهدف غير منع القراء من الاطلاع على كتاب/رواية كتبتها فتاة إيطالية من أصل مصرى لا يزيد عمرها على ١٥ عامًا.

الكتاب: «حالم بفلسطين»، والذى أثار غضب الجمعيات اليهودية على ناشريه بعد أن باع ١٤ ألف نسخة فى إيطاليا وحدها، قالت كاتبته «راندة غازى سلامة» أن مؤلفه الحقيقى هو «الجيش الإسرائيلى.. لأن جنوده يمارسون التعسف اليومى بحق الفلسطينيين. ويزودون الكتَّاب والروائيين بمادة خام من إنتاجهم».

وكانت دار الشروق قد استشعرت أهمية هذا العمل قبل وقت طويل من المعركة التى ثارت. وقد لا يعرف كثيرون أن رندا غازى زارت القاهرة قبيل شهور حيث اتفقت مع أميرة أبو المجد مدير قسم كتاب الأطفال بالدار على حق نشر الرواية باللغة العربية.

وجهات نظر



وقد أتم الأستاذُ الجزءَ الأولَ من سِفرِه الكبير المؤَرِّخ ليوليو بـ «الطرقِ على أبوابه»، فقد ارتأى أن تخرجَ بقية القصة فى كتاب. وأن يعود القلم من العدد القادم ليناقش همومًا حاضرة تتكاثف غيومها يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة.

«سقوط نظام.. لماذا كانت ثورة يوليو لازمة» هو عنوان الجزء الأول/ الكتاب الذى يصدر عن «وجهات نظر» هذا الشهر. ويلحق به قريبًا الجزء الثانى.

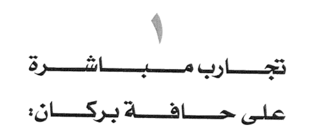
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

ســـاعة ســـقوط

ثورة يوليو / خمسون عاما



محمد حسنين هيكل



١ تجارب مباشرة على حافة بركان:

■■ [فى الساعة العاشرة والنصف من مساء يوم الثلاثاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - كنت فى بيتى أنتظر إشارة - اتصالا تليفونيا فى الغالب - من الصاغ «سعد توفيق» يبلغنى رسالة من البكباشى «جمال عبد الناصر حسين» (أو كذلك أوحى لى بأكبر قدر من الوضوح - دون قول صريح). ولم أكن أعرف موضوع الرسالة المنتظرة لكنى تصورته بالضرورة موصولا بالمشهد السياسى الجارى فى مصر تلك الأيام - وتداعياته الخطرة التى تحولت كل ساعة - وكل دقيقة - إلى سيل متدافع، متسارع، تتزايد حركته وتتعالى منذرة بأنه الطوفان!

....

....

[كانت الدقائق - والثوانى - تمر ببطء ثقيل كأن وحدات الزمن طال عمرها ونامت عقاربها على سطح الساعة لا تخطو من خط إلى خط ولا تنتقل وتمشى لتمارس حسابها للوقت.

وفى الساعة الحادية عشرة إلا ربعا دق جرس التليفون، لكن المتكلم لم يكن من أنتظره، وإنما كان «فريد زعلوك» (باشا) (وهو الآن وزير للدولة مع «نجيب الهلالى» (باشا) ومساعد مباشر له).

وبادرنى «فريد زعلوك» وصوته مشحون بنبرة قلق اختلف معها صوته الطبيعى كما ألفته (فقد كان صوته دائما مشحونا بكفاءة خطيب محرض من أيام زعامته للطلبة الوفديين فى جامعة فؤاد الأول لمدة عشر سنوات كاملة قضاها بالقصد المقصود طالبا فى كلية الحقوق).

وبتلك النبرة المشحونة بالنذر سألنى «فريد زعلوك» إذا كنت عرفت أن «ضباط الجيش نزلوا إلى الشارع؟» وبدا لى التعبير غريبا - وأضاف «فريد زعلوك» أن المعلومات «لديهم» - أى لدى القصر والوزارة - فى الاسكندرية تفيد أن هناك حالة عصيان فى الجيش، وأن هناك ضباطا تركوا ثكناتهم «ونزلوا إلى الشارع!» - واستطرد «فريد زعلوك» يقول أن «نجيب (باشا)» كان يريد أن يكلمنى لكنه الآن فى اجتماع مع رئيس الديوان الملكى (حافظ عفيفى) لتدارس التطورات».

وقلت «أنه ليس لدىَّ رد على سؤاله بشكل محدد - لكن «حواسى الصحفية» تقول لى أن هناك أمرا يجرى الآن وإن كنت لا أعرف على وجه اليقين شكله أو حجمه أو اتجاهه». وكان سؤاله التالى مباشرة «هل رأيت اللواء نجيب بعد عودتك من الإسكندرية أو سمعت منه؟»

وأجبت بالنفى وشعورى الداخلى أننى لا أريد لحديثنا أن يطول - من هاجس يلح علىَّ بأن أترك الخط التليفونى مفتوحا لاتصال أنتظره وقد يكون فيه جلاء ويقين.

وأخذت من «فريد زعلوك» رقم تليفون مكتبه فى بولكلى (مقر رئاسة الوزارة فى الاسكندرية) قائلا «إننى سوف أعود للاتصال به بعد قليل لعل لديه أو لدىَّ جديدا عن «تطورات الموقف».

ووضعت سماعة التليفون مكانها ورحت أنظر إليها وكأنها كائن حى أمامى أنتظر منه أن يشاركنى فى حوار. وعندما وصلت عقارب الساعة بشق الأنفس إلى الحادية عشرة لم تبق لدىَّ طاقة على الصبر، وكان الخاطر الذى يلح علىَّ «أننى لا أقدر على انتظار إشارة الصاغ «سعد توفيق» - بل إن الانتظار فى حد ذاته لم يعد مقبولا من «مخبر» صحفى «فى لحظات نزلت فيها الحوادث (ضباطا) إلى الشوارع» (حسب تعبير وزير الدولة «فريد زعلوك» (باشا)]

....

....

[وعندما فتحت باب بيتى لأخرج (وفى ذهنى أن أقصد إلى مبنى أخبار اليوم بظن أننى هناك أقرب إلى مجرى الحوادث) - سمعت رنين التليفون وعدت ملهوفا أسمع صوت الصاغ «سعد توفيق» دون مقدمات يسألنى بما معناه «إذا كنت أعرف محطة البنزين وراء كوبرى القبة؟ وإذا كان ذلك، فعلىَّ أن أكون هناك حوالى الساعة الثالثة قبل الفجر». ثم يضيف «لا تذهب عن طريق العباسية - جرب الطريق الخلفى من ناحية قصر القبة» ثم مضيفا وبسرعة «سوف تجدنى أو تجد خبرا منى هناك» - وانتهى الاتصال!

كانت «حواسى المهنية» يقظى، وكان أول ما فعلته أننى عدت إلى باب بيتى أغلقه بعد أن تركته مفتوحا حين سمعت رنين تليفون فى اللحظة الأخيرة قبل الخروج! - لأنى أحسست بحاجة إلى ترتيب خطاى قبل أن أتحرك على غير هدى مسوقا - ومشوقا إلى الجرى وراء «أمور» أعرف «أنها الآن تقع» أو «على وشك أن تقع» - لكن المعلومات اللازمة لتوجيه أى عمل لا تزال مجهولة - على الأقل غير محددة! وكان تفكيرى ينتقل من «تصور» إلى «تصور» كأنها طرفات جفن (وهى حالة يعرفها أولئك الذين يكون عليهم أن يختاروا على عجل فى مواقف يمكن أن تكون فارقة).

كانت أفكارى تتداعى واحدة متصلة بواحدة:

- لا وسيلة ولا جدوى من محاولة الاتصال مرة أخرى بالصاغ «سعد توفيق» لسؤاله عن أكثر مما نطق به «خطفا» ولم يزد ولم ينتظر - ثم إننى لا أعرف أين هو؟!

- ومن الآن الساعة الحادية عشرة وحتى ذلك الموعد المعلق فى الهواء عند الفجر - مدة أربع ساعات وهى فى السياسة «دهر»، وفى مثل أحوال مصر لحظتها «أبد» يستحيل انتظاره حتى يحل.

- والذهاب إلى مبنى «أخبار اليوم لن يفيد فى الغالب بشىء إلا البقاء رهن مكتب يستطيع أن يطلب محررين من بيوتهم لكنه لا يعرف إلى أين يدفع بهم - كما أنه لا يستطيع من هناك الاتصال بالإسكندرية - لأن الإسكندرية هى التى تحاول الآن أن تعرف شيئا عما يجرى فى القاهرة (بدليل اتصال «فريد زعلوك» بى).

- ولمع فى ذهنى خاطر مثل ومض برق وسط الضباب: «محمد نجيب» (وكان ذلك استطرادا من سؤال «فريد زعلوك» عما إذا كنت رأيت «محمد نجيب» أو سمعت منه بعد عودتى من الإسكندرية).

وبان وسط تضارب التصورات خط راح يزداد وضوحا كلما ركزت عليه:

- هناك أربع ساعات من الآن - حتى الفجر

- وإذا كان هناك «ضباط نزلوا إلى الشارع»

- فالغالب أن «محمد نجيب» يعرف شيئا - أو أنه يستطيع أن يعرف شيئا.

- وما داموا فى الإسكندرية (وزير الدولة باسم رئيس الوزراء يسألنى عن «محمد نجيب»)، فلا بد أنهم يظنون بوجود اتصال على نحو ما بينه وبين ما هو جار الآن أو ضمن توابعه.

- وفى كل الأحوال فإن «محمد نجيب» هو نفسه عقدة الموضوع فى أزمة حل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش التى هى بالتحديد بداية الانزلاق نحو ما يجرى هذه الساعة.

والغريب أننى أثناء ذلك كله لم أفكر فى الاتصال تليفونيا ببيت «محمد نجيب» وإنما وجدت نفسى أقود سيارتى على الطريق إليه: شارع فؤاد الأول - شارع الملكة نازلى - ميدان المحطة - شارع الملك - إلى الزيتون من وراء قصر القبة (وذلك طريق أطول قليلا من طريق العباسية لكننى - ربما - بوحى الوعى الباطن كنت أتبع نصيحة «سعد توفيق» - وكانت تلك «ضربة حظ» - فلو أخذت طريق العباسية لوجدته مغلقا بسبب التحركات العسكرية التى كان نطاقها يتسع)

....

....

[وعندما توقفت بسيارتى أمام بيت اللواء «محمد نجيب» كان البيت غارقا فى الظلام فيما عدا خطوط ضوء تبين من خلال الرقائق العرضية للباب الخشبى الذى يسبق الضلف الزجاجية لباب غرفة الاستقبال المجاورة لمدخل البيت الطبيعى.

ووقفت لحظة أتلفت حولى - وبدا كل شىء هادئا وكل الناس نيام. وصعدت درجات السلم القليلة إلى الشرفة الصغيرة التى يطل عليها البابان: باب الدخول الطبيعى إلى البيت وباب غرفة الاستقبال. وكانت خطوط الضوء العرضية وراءه هى الإيحاء الوحيد باليقظة أو بالسهر!

الملكيـــــة فى مصـــــر

واقتربت «أدق» على الباب خفيفا - وخيل إلىَّ أننى أسمع صوتا شبيها بصوت اللواء «محمد نجيب». ومضت ثوان مشدودة على الآخر كأنها وتر قوس مسحوب إلى أقصى حد ليدفع بسهم إلى أقصى مدى. ثم سمعت صوت الباب الزجاجي يفتح وبعده مزلاج الباب الخشبى (ولم أسجل ولا أتذكر من الذى فتح الباب وفى الغالب فإنه جندى المراسلة الذى كان يقوم على خدمة البيت) ثم وجدت صاحب البيت اللواء «محمد نجيب» جالسا وراء مكتبه والتليفون فى يده وهو مصغ باهتمام - ويشير إلىَّ أن أدخل وأجلس وأنتظره حتى يفرغ من حديثه!

كان انتباهى كله مركزا عليه أستشف من كلمات قليلة ينطق بها - موضوع حديثه أو شخصية محدثه. ثم كانت المفاجأة حين وجدته يقول ما معناه «أنه سوف يحاول تكملة الصورة ومعرفة التفاصيل» ثم يضيف على غير انتظار «وحتى عندى هنا الأستاذ هيكل من «أخبار اليوم» » ثم يزيد قائلا لمحدثه «نعم . . . نعم»! - ثم يمد سماعة التليفون ناحيتى يدعونى إلى الكلام هامسا «هذا مرتضى المراغى باشا (وزير الداخلية) .... طلب أن يتكلم معك حين قلت له أنك عندى». وفاجأنى ما فعل كما فاجأنى ما قال. ولم يكن هناك مجال للتردد.

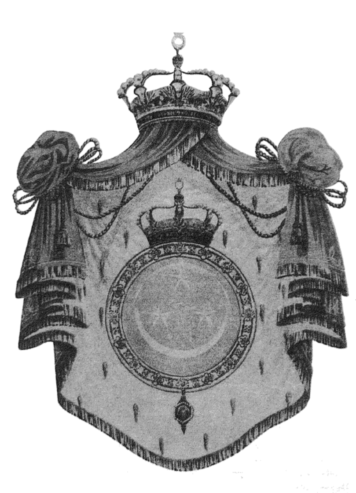
وسألنى «مرتضى المراغى» (وزير الداخلية ورجل الملك القوى المدخر للحظة العصيبة) دون مقدمات «عما يجرى عندكم!» وقلت «إن فريد زعلوك (زميله فى الوزارة) اتصل بى قبل أكثر من ساعة وأبلغنى بعض التفاصيل عما وصل إليهم فى الإسكندرية عن خروج ضباط فى الجيش من ثكناتهم إلى الشارع. وقد خطر لى أن أجيء إلى بيت اللواء نجيب بظن أنه قد يعرف شيئا، ولكنى وجدته وحده يتحدث إليك!» وقال «المراغى» - (كما سجلت فى أوراقى) - «هناك عيال مجانين .... ضباط جيش تركوا ثكناتهم وخرجوا فى حالة عصيان سوف تودى بهم «فى داهية» وهذا «الجنون» يجب أن ينتهى قبل أن يطلع الصباح، وأنا «كلفت» اللواء نجيب أن يتصرف كما يرى مناسبا وأن يتوجه إلى حيث يقابل «هؤلاء المجانين» ويقنعهم بفض اعتصامهم والعودة إلى بيوتهم. واللواء نجيب مخوَّل بإبلاغهم «أنه لن تجرى ملاحقة أحد منهم بعقاب وسوف نعتبر الأمر طيش شباب دفعت إليه الحماسة الزائدة...»

وتوقف لكنه لم يلبث حتى فاجأنى بسؤال مؤداه:

«إذا كنت أعتقد أنه (اللواء نجيب) يستطيع إقناعهم - لأن هذه فضيحة للبلد لا بد من تداركها قبل أن يعرف عنها أحد، والمطلوب هو لمُّ الموضوع بسرعة بحيث يمكن نفى خبره إذا تسرب شيء عنه» -

ثم يضيف «مرتضى المراغى»: «أعطنى اللواء نجيب» - ثم يزيد «إنه لا بد أن يتحرك اللواء نجيب فورا وخصوصا أنهم يعرفون أنه رجل محترم فى أوساط الضباط الشبان - على أنه يتعين عليه الآن أن يستعمل حزمه قبل طيبته قبل أن يضطروا إلى إجراءات لا داعى لها لأنه إذا مضى هؤلاء «المجانين» فى جنونهم فإن المشانق سوف تكون صفوفا قبل أن يطلع الصبح»!

مرتضى المراغى يطلب أن يتحرك اللواء نجيب فورا وخصوصا أنهم يعرفون أنه رجل محترم فى أوساط الضباط الشبان. يتعين عليه الآن أن يستعمل حزمه قبل طيبته ولأنه إذا مضى هؤلاء «المجانين» فى جنونهم فإن المشانق سوف تكون صفوفا قبل أن يطلع الصبح»!



ثم يصل «المراغى» إلى أن يقول لى «حاول أن تقوى عزيمة اللواء نجيب ما دمت معه الآن - وتعرفه».

وناولت سماعة التليفون إلى اللواء «نجيب» ولم يطل حديثه مع وزير الداخلية وإنما أنهاه وهو يقول ويكرر «حاضر... إن شاء الله خير».

وأعاد اللواء «محمد نجيب» سماعة التليفون إلى مكانها وسألته مستغربا وإلى حد ما معاتبا - «لماذا قال لوزير الداخلية أننى هنا؟» ورد بلهجة أحسست فيها بيقظة ذكاء بما مؤداه «أردت أن يطمئن المراغى باشا. أردت أن أؤكد له أننى لا أعرف شيئا بشهادة أننى الآن مع صحفى يمثل جريدة يقال أنها الأقرب إلى «السراى»!»

ومد يده فى هدوء إلى منفضة سجائر من المعدن ترك عليها غليونه عندما انهمك فى حديثه التليفونى مع وزير الداخلية - والآن عاد يشعله مرة أخرى وهو ينظر إلىَّ من وراء شعلة عود كبريت ينعكس لهبها فى عينيه]

....

....

[لم يكن اللواء «محمد نجيب» يعرف كثيرا عما يجرى وما أستطيع ترجيحه سواء من الحديث معه أو (فيما بعد) مع آخرين غيره ملخصه:

١ - إن اللواء «نجيب» كان بحكم الظروف محور ومدار أزمة نادى ضباط الجيش.

٢ - إن ذلك وضعه فى مكانة معنوية لها قيمة بين التنظيمات السرية النشطة فى الجيش وأولها تنظيم الضباط الأحرار (الذى يقوده البكباشى «جمال عبد الناصر حسين»).

٣ - إن تنظيم الضباط الأحرار لم يتصل باللواء «محمد نجيب» إلا فى وقت ما من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ لأن فكرة القيام بحركة عسكرية واسعة تحتاج إلى قائد من رتبة كبيرة لم تنشأ إلا فى ذلك الوقت.

٤ - ولأنه قبل أن تنشأ هذه الفكرة - أى حتى يوليو ١٩٥٢ - كان تركيز حركة الضباط الأحرار على عمليات اغتيال لقيادات سياسية وعسكرية تهز أعمدة النظام الملكى بحيث يصبح سقوطه محتملا (فى ظرف سنة أو سنتين) بما يفتح الطريق إلى ثورة شعبية سنة ١٩٥٣ حسب تصورات قيادة التنظيم.

٥ - ومع التدهور السياسى فى شهر يونيو والنصف الأول من شهر يوليو وتساقط الوزارات السريع فى تلك الأسابيع الحاسمة فإن «لجنة القيادة» فى تنظيم الضباط الأحرار قررت فى «وقت ما» «قرب» منتصف يوليو ١٩٥٢ - أن تقوم بتغيير أساسى فى خططها - ملخصه العدول عن فكرة الاغتيالات والتعجيل بـ «حركة عسكرية» تفتح الطريق إلى «التغيير».

٦ - وكانت خطة الحركة العسكرية هى «السيطرة على الجيش» وإملاء الشروط على الملك وعلى السياسيين وفتح الطريق لثورة شعبية.]

....

....

[وفيما بعد سمعت فكرة خطة السيطرة على الجيش من «جمال عبد الناصر» بنفسه وهى بالنص كما سجلته يومها:

«أدركنا أن منطق الاغتيال لا يحل شيئا سوى أنه يغرق البلد فى «بركة دم».

والحل الحقيقى أمامنا أن نفرض على الملك تغييرا كاملا.

كان تقديرنا أن الملك قادر على إملاء إرادته لأنه يستعمل الجيش عصا يرهب بها الشعب، ولذلك فإن خطتنا كانت أن نأخذ «العصا» من يد الملك ونضعها فى يد الشعب، أى أن ننقل ولاء القوات المسلحة من خدمة الملك لكى نضعها فى خدمة الشعب.

وجوهر الفكرة أننا إذا أخذنا الجيش من الملك فمعناه أن القصر فقد سلطته على فرض إرادته فوق الشعب.]

3- يترتب على ذلك أن الاتصال العملى باللواء «محمد نجيب» لقيادة «حركة الجيش» لم يبدأ إلا «فى وقت ما» من شهر يوليو ١٩٥٢ - لأن فكرة السيطرة على الجيش لم يؤخذ بها (بديلا لفكرة الاغتيالات) إلا فى تلك الفترة. ولم يكن معقولا أن تتصل جماعة من الشباب (تنظيم الضباط الأحرار) بضابط على مستوى اللواء «محمد نجيب» مبكرا عن شهر يوليو لإقناعه بالمشاركة فى عمليات اغتيال تمهد بعد سنة أو سنتين لثورة شعبية!

وربما أن ذلك اللقاء بين «جمال عبد الناصر» و«عبد الحكيم عامر» مع اللواء «محمد نجيب» فى بيته مساء يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢ والذى جرى أمامى دون أن أعرف ما دار فيه - كان بذاته المناسبة التى أكد فيها الضباط الأحرار عرضهم على «محمد نجيب» لكى يتصدر حركتهم (وتقديرهم المبدئى أن يتم ذلك فى ظرف شهر).

وكان «عبد الحكيم عامر» الذى خدم لبعض الوقت تحت قيادة «محمد نجيب» هو الذى اقترح اسمه أولا، وربما كان هو أول من فاتحه، ولعل التأكيد الرسمى لهذا العرض هو لقاء «جمال عبد الناصر» (ومعه «عبد الحكيم عامر») فى بيت «نجيب» (مساء ١٨ يوليو) - وعندما تصادف وجودى هناك]

....

....

[ومهما يكن الآن - الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف ليلة ٢٣ يوليو فإن اللواء «محمد نجيب» عرف بصورة قاطعة أن حركة الجيش بدأت مبكرة «جدا» عن الموعد الذى يتوقعه، ثم إنه تلقى هذه اللحظة من وزير الداخلية (ورجل القصر القوى) «أحمد مرتضى المراغى» (باشا) - تكليفا رسميا من أعلى مستوى بأن يبذل كل جهده لتدارك «تصرفات شبان مجانين» تركوا الثكنات ونزلوا إلى الشارع فى حالة عصيان ضد النظام توالت وقائعها حول مبنى رئاسة هيئة أركان حرب القوات المسلحة على طريق منشية البكرى وما فيه من مبان تضم رئاسات أسلحة الجيش وقتها.]

....

....

وهكذا كان اللواء «محمد نجيب» الذى جلست أمامه فى بيته رجل الساعة (وسط ذروة الأزمة) ربما دون أن يقصد - ذلك أنه:

معروض عليه - أولا - من تنظيم الضباط الأحرار أن يقود خطتهم الجديدة بالسيطرة على الجيش (وقد عجلوا بها شهرا عما أبلغوه به لأنهم وجدوا الظرف السياسى مناسبا إلى جانب اعتبار أمنى فرضه ما بلغهم من توصل أجهزة الأمن إلى قائمة بأسماء معظمهم).

ثم أنه مطلوب منه - ثانيا - بتكليف من القصر الملكى والوزارة القائمة على الحكم وعلى لسان «مرتضى المراغى» - «أن يبذل جهده لفض اعتصام أو عصيان قام به مجانين من ضباط الجيش نزلوا إلى الشوارع وإقناعهم بالعودة إلى بيوتهم وكان شيئا لم يكن تجنبا لفضيحة أو مصيبة سوف تقع قبل أن يطلع الصبح!»

وعندما فرغ اللواء «محمد نجيب» من حديثه التليفونى مع «مرتضى المراغى» - كان توقعه أنه سوف يتلقى مع أى لحظة إشارة أو رسالة أو دعوة من القائمين على حركة الجيش.

وكان الرجل (الذى رأيته فى تلك الساعة المتأخرة من الليل) يستشعر مسئوليته وكان قلبه وعقله فى حالة اتساق مستريح مع نفسه ولعله كان كذلك مطمئنا إلى فرصته:

بمعنى أنه:

«إذا وجد أن الشبان نجحوا فى السيطرة على الجيش فهو معهم (وذلك قلبه) - وإذا تعثرت خطاهم فهو وحده يقدر على حمايتهم بوعد رسمى يملكه «وكأن شيئا لم يكن» (وذلك عقله).

على أن الأهم هذه اللحظة كان أن يتلقى اللواء «نجيب» إشارة - أو رسالة أو دعوة من «الجماعة» كما كان يسميهم - ومشكلته الملحَّة أنه لا يعرف أين يذهب لو أراد أن يؤدى ما هو معروض عليه (من قيادة الحركة) وما هو مطلوب منه (بتكليف القصر).

ومرت قرابة نصف الساعة واللواء «محمد نجيب» يحاول الاتصال ببعض من يعرف من قواد الجيش (وفيهم شقيقه «على نجيب» قائد سلاح المشاة) - لكنه لم يوفق فى العثور على أحد منهم (لأن كبار الضباط الذين استدعاهم القصر لقمع حركة التمرد وقعوا فى أسر المتمردين واحدا بعد الآخر وهم فى طريقهم إلى اجتماع عاجل دعوا إليه فى مكتب رئيس هيئة أركان الحرب الفريق «عثمان المهدى»). ويدير اللواء «محمد نجيب» رقم سكرتير الفريق «عثمان المهدى» وحين يذكر اسمه - إذا هو يقع على «عبد الحكيم عامر» ويميز صوته من أول كلمة نطق بها، وكذلك تجيئه دعوة الجماعة لكى يتوجه إلى حيث كانوا هذه اللحظة - فى رئاسة هيئة أركان حرب القوات المسلحة (وهى مقر وزارة الدفاع الآن).

٣

وسط العاصفة بمحض مصادفة

[دخلت باب رئاسة هيئة أركان الحرب (وهو الآن مبنى وزارة الدفاع) فى الساعة الرابعة إلا ثلثا بالضبط.]

....

....

وكان اللواء «محمد نجيب» قد وصل قبل ذلك بسبعة وثلاثين دقيقة واستقبله الصاغ «عبد الحكيم عامر» ليبلغه أن القاهرة «تحت السيطرة». ويكون السؤال الأول للواء «نجيب» عن «موقف الفرقة الأولى مشاة فى العريش؟» (وهى القوة الرئيسية الضاربة فى الجيش المصرى ذلك الوقت) ويرد «عبد الحكيم عامر» بأن «تأييد الفرقة للمعركة مضمون وفى الطريق (ولم يكن ذلك دقيقا لأن قائد الفرقة فى تلك الساعة رفض قبول طلب بعض الضباط المنتمين إلى حركة الأحرار (صلاح سالم وآخرين) - بأن يعلن تأييده - للحركة. وخشى «صلاح سالم» وأربعة ضباط كانوا معه أن تأخير التأييد قد يدعو قيادات المناطق العسكرية (الموزعة على أقاليم البلاد) - إلى الانتظار والتردد مما يثير شكوكا لا داعى لها هذه اللحظة الحرجة وقرر «صلاح سالم» وزملاؤه التصرف على مسئوليتهم - وكان تصرفهم أن أشهروا السلاح فى وجه اللواء «سيف اليزل» ثم اقتادوه إلى حمام غرفته وأغلقوا عليه الباب مع حارس عليه منهم، ثم خرجوا ليبعثوا إشارة باسمه إلى قيادة الحركة فى القاهرة نصها «أنا ومن معى نؤيد حركتكم». وكان نص الإشارة غريبا لكن صياغته فى ذلك الموقف حققت غرضها!

....

....

[وقفت قرب باب المبنى أتأمل المشهد حولى وقد ازدحمت ردهته بأعداد من الجنود الذين شاركوا بالدور الحاسم فى الحركة قادمين من معسكر «هاكستيب» تحت قيادة المقدم «يوسف منصور صديق» الذى رأيته جالسا على كرسى بجوار الباب يسعل بشدة وهو يطلب أى «تموين» (طعام) لجنوده لأنهم منذ الأمس «على لحم بطونهم لم يأكلوا ولم يشربوا شيئا.» وبدا «يوسف منصور صديق» مستثارا لسبب لم أتبيَّنه. وكان بين نوبات السعال يطلق شتائم مرسلة كالقذائف فى كل اتجاه!

وصعدت درجات سلم المبنى إلى الدور الأول واتجهت يسارا إلى ناحية مكتب «عثمان المهدى» (باشا) وكان الممر المؤدى إليه مليئا بزحام شديد اختلط فيه الضباط وضباط الصف والجنود - بشرا وسلاحا. ولمحت وسطهم الصاغ «كمال الدين حسين» وفى يده مدفع رشاش (وكنت لقيته أول مرة مع «قوات أحمد عبد العزيز» فى الخليل وكان يومها قائد مدفعية تلك القوات من المتطوعين وقضيت معه يوما كاملا أتابع ضرباته الموجهة إلى مستعمرة «رامات راحيل» على مشارف «بيت لحم»). وقصدت ناحيته وبجانبى «سعد توفيق»، وحين رآنى اندفع معانقا - وبيننا مدفعه الرشاش! - يقول بلهجة الهتاف وليس لهجة الكلام - ! - «هذا نصر من الله وفتح مبين». ولم ينتظرنى لأعلق أو أسأل وإنما شدَّنى إلى جانب من الممر يقول لى «كان



فــاروق — جمال عبدالناصر — عبدالحكيم عامر

محمد نجيب — على أمين — مصطفى أمين

البكباشى جمال (عبد الناصر) يتحدث معنا قبل نصف ساعة عن «تقديرك بأن الإنجليز لن يتدخلوا»!» ورجوته أن ينتظر لأن كل ساعة لها حساباتها ولكل ظرف أحكامه. وكان «كمال الدين حسين» ذاهبا إلى غرفة أخرى فى نهاية الممر وكذلك قال لى: «سوف تراه الآن على أى حال» وأضاف «إن البكباشى جمال لم يكن يعرف أننى قابلتك منذ أيام الفرقة «الخفيفة الحركة» - (وهو الوصف الرسمى لقوات المتطوعين التى يقودها «أحمد عبد العزيز»).

ودخلت غرفة سكرتارية «عثمان المهدى» (باشا) وكان الباب الداخلى المؤدى منها إلى مكتب رئيس هيئة أركان الحرب مغلقا وعليه حراسة مسلحة. وقال لى «سعد توفيق»: «القيادة كلها فى الداخل مع سعادة اللواء (نجيب) يرتبون لبقية العملية».

ومضت قرابة العشر دقائق ثم خرج «جمال عبد الناصر» من مكتب رئيس أركان الحرب وأقبل وعلى شفتيه نصف ابتسامة وفى عينيه نظرة يصعب ترجمتها لكنها موحية بمعان كثيرة صامتة، وسألنى: «ما رأيك؟» وقلت على الفور «إننى مأخوذ مما أرى وأسمع»، واتسعت نصف الابتسامة وضوت عيناه بذلك البريق الذى لمحته فيهما قبل خمس ليال وقال: «لدينا اجتماع لم يبق منه كثير، نصف ساعة على أقصى حد ثم أعود!» وكان «عبد الحكيم عامر» وراءه وقد تصور ما قلته لـ«جمال عبد الناصر» تعبيرا عن القلق، وهكذا قال: «لا تخف، كل شىء يسير بالضبط كما رسمنا» وقلت بسرعة: «المشكلة أننى لا أعرف بالضبط ماذا رسمتم؟!» وعقّب «جمال عبد الناصر» وهو يتجه عائدا إلى حيث كان اجتماع القيادة: «سوف نتحدث فيه عندما نعود إليك» - سألنى «عبد الحكيم عامر» قبل أن يلحق بـ«جمال عبد الناصر»: «هل تلحق الجرائد ببيان يجرى إعداده الآن؟» ونظرت إلى ساعتى وكانت الخامسة إلا عشر دقائق بالضبط.

وأجبت بأننى «أشك»!]

....

....

[كان «عبد الحكيم عامر» هو الذى ذكّرنى عن غير قصد بما نسيته فى خضمّ أحداث بدت لى «غير معقولة»، وملأى بالاحتمالات».

وهكذا اتصلت لأول مرة بأخبار اليوم ورد علىّ «حامد» عامل التليفون المكلف بالسهر. وعرفت منه أن الأستاذين «مصطفى» و«على أمين» اتصلا من الإسكندرية «أكثر من عشرين مرة» يسألان عنى، ويطلبان منه استعمال كل مهاراته فى العثور علىّ أينما أكون. ثم إنه حاول فى الساعات الأخيرة وأيقظ أقارب لى وأصدقاء ولم يصل إلى شىء. وأخيرا وصل إلى القول بأن الأستاذ «حسين فريد» «سكرتير التحرير العام لأخبار اليوم موجود فى مكتبه» وطلبت توصيلى به. وراح «حسين فريد» فور أن سمع صوتى يبدى الانزعاج - «يظهر أن هناك أخبارا مهمة جدا ومصطفى (بك) يكاد يجن ليعرف أين أنت؟» سألت «حسين فريد» عن موقف «طبعة القاهرة» وقال: «هذا بالضبط ما كان مصطفى (بك) ينتظرك من أجله». لم نكمل حديثنا فقد قطعه «حامد» (عامل التليفون) الذى دخل على الخط يقول لى «إن مصطفى (بك) على الخط من فندق سيسيل فى الإسكندرية، وقد عرف أننى أتحدث مع حسين فريد وطلب قطع المكالمة مع حسين فريد وتوصيله بك». وجاءنى صوت «مصطفى أمين» كأنه يهز الأسلاك ويكاد يقطعها «هل تعرف ما جرى؟» ثم يواصل دون توقف «فريد زعلوك قال لى أنه اتصل بك أول الليل. وتصورتك وراء الحوادث التى تجرى عندكم وتوقعت أن أسمع منك لكنك اختفيت بالكامل والدنيا مقلوبة». عاد يكرر منفعلا (كما هى عادته أوقات الأزمات) «الدنيا مقلوبة، أين أنت؟» وقصدت أن أكون هادئا فقلت «بالضبط فى الموقع الذى انقلبت فيه الدنيا!»

وصرخ «مصطفى»: «إيه؟» وخطف «على أمين» منه سماعة التليفون وجاءنى صوته باندفاعه الطبيعى يصوب عشرات الأسئلة فى نفس واحد: «أين أنت؟ هل لديك صورة عما جرى؟ ماذا تقول؟» ثم زعق بأعلى صوته «هناك تمرد عسكرى!» وقلت - مرة أخرى - قاصدا إظهار الهدوء «إنى فى مركز هذا التمرد!»

وأراد «على» فى اندفاعه أن يتأكد فسألنى «ورحمة والدتك؟» وكان ذلك هو القسم الشائع على لسان التوءمين منذ رحيل السيدة «رتيبة» والدتهما. وقلت «على ... والدتى على قيد الحياة»، وتدارك معتذرا. وبدأت أشرح أننى تابعت حركة عسكرية يظهر لى أنها استولت على قيادة الجيش وسيطرت على القاهرة. وبدوره عاد «مصطفى أمين» يخطف سماعة التليفون من توءمه ولديه ألف سؤال كأنها طلقات مدفع رشاش، وقلت: «إننى لا أستطيع أن أرد على هذه الأسئلة الآن والقضية العاجلة فى رأيى هى ماذا نفعل بالطبعة الأخيرة من الأخبار وهل نضع فيها إشارة إلى ما جرى أو ننتظر؟» وتبادلنا الرأى من زواياه المهنية والسياسية واستقر الرأى بيننا «بلا خلاف» على أفضلية أن تصدر جريدة «الأخبار» دون إشارة لما جرى. وأول دواعينا أننا لا نعرف حدوده حتى هذه الدقيقة، ومع أن هناك بيانا منتظرا - فإن هذا البيان لم يصل إلينا حتى الآن «لأنهم ما زالوا يكتبونه هنا فى الغرفة المجاورة».

وسألنى «مصطفى» «هل أستطيع أن آخذ رقم التليفون الذى تكلم منه حتى نظل على اتصال؟!» ورجوته أن ينتظر حتى أسأل لأن التصرفات فى مثل هذه الأجواء لا تحتمل أى خطأ حتى إذا توافر فيها حسن النية.

....

....

[كان الصاغ «سعد توفيق» ما زال واقفا إلى جانبى وقد اعتراه توتر ظاهر من حديث تليفونى يسمعه ولا يعرف هل يتركه يستمر أو يقطعه - والتفتُّ إليه أستأذنه «هل من المسموح به أن أعطى لمصطفى أمين رقم تليفون هذا المكتب؟» واعترض «سعد توفيق» بحزم. وفى تلك اللحظة انفتح باب الغرفة التى كان فيها اجتماع القيادة وخرج «جمال عبد الناصر» ووراءه «عبد الحكيم عامر». ولاحظ «جمال عبد الناصر» فورا تفاصيل المشهد: سماعة التليفون فى إحدى يدىّ - ويدى الأخرى مطبقة على بوقها لكتمان الصوت - و«سعد توفيق» يبدو عصبيا - وأنا أحاول أن أشرح له شيئا. وبسرعة عرض «سعد توفيق» للمشكلة شارحا «مصطفى أمين على الخط من الإسكندرية يطلب رقم تليفون هذا المكتب» و«أننى سألته إذا كنت أستطيع إعطاءها له» «وهو معترض وأنا أحاول إقناعه» - وتطلعت ناحية «جمال عبد الناصر» انتظر رأيه وقد احتكم إليه «سعد توفيق». وسبقه «عبد الحكيم عامر» تلقائيا برفض قاطع - لكن «جمال عبد الناصر» تدخل ليقول «أعطه الرقم... ذلك لم يعد الآن يضر، وربما ينفع». ولم يجادل «سعد توفيق» ولا «عبد الحكيم عامر»، وأعطيت الرقم لـ«مصطفى» (وكان ٥٥٤٥٥). وأعدت سماعة التليفون إلى مكانها والتفتُّ لأجد «عبد الحكيم عامر» يعبر بملامحه عن الدهشة بينما «جمال عبد الناصر» يشرح له وجهة نظره، ويعرضها بتأنٍ وكأنه يفكر فى الأمر وهو يشرح:

«أولا لم يعد هناك خطر لأنهم عرفوا بالفعل بما قمنا به.

وإذا اتصلوا مع «الأستاذ هيكل» هنا فسوف نعرف نحن كيف يفكرون؟ وحتى كيف يتصرفون هناك فى الإسكندرية!

ثم إننا نحتاج إلى قناة اتصال إضافية معهم» ثم زاد «هم بدأوا يتصلون بنا - هناك عم للملكة ناريمان اتصل منذ قليل يبلغ رسالة ونحن أعطينا ردا - وسوف نرى ما يحدث والصبح لم يطلع بعد، والنهار أمامنا طويل!»

ولفت نظرى لحظتها «علامات» لها «دلالات»:

● لفت نظرى أن الطريقة التى استبعد بها جمال عبدالناصر ردة الفعل الأولية لعبدالحكيم عامر تظهر أن له وضعا خاصا فى الحركة يتقدم به على آخرين.

● ولفت نظرى أن جمال عبدالناصر أبدى رأيه على شكل قرار نهائى ولم يلتفت وراءه ليستأذن غيره، ومعنى ذلك أن المسئولية عنده.

● ولفت نظرى أخيرا أن جمال عبدالناصر أبدى رأيه بسرعة وعرض مبرراته فى وضوح، أى أنه يملك كفاءة ربط المنطق بالقرار، وبسرعة.]

....

....

[ومضت خمس وثلاثون دقيقة، وعند الساعة الخامسة والنصف وكنت قد تركت غرفة مكتب سكرتارية الفريق «عثمان المهدى» (باشا) وخرجت إلى الممر الواسع أمامها أراقب ما يجرى وأتابع الحركة دون تدخل بسؤال لأحد - حتى عندما لمحت فيها وجوها أعرفها. ونزلت على السلم إلى مدخل المبنى مأخوذا بمشهد جنود من الكتيبة الثالثة عشرة المشاة وقد افترشوا أرض الفناء الخارجى لمبنى القيادة وراحوا يتناولون طعامهم فى سكون (أرغفة من الخبز وقطع من الجبن الأبيض وفتافيت من الحلاوة الطحينية) وسؤالى لنفسى «ماذا يعرف هؤلاء عن



لفت نظرى أن جمال عبدالناصر أبدى رأيه على شكل قرار نهائى ولم يلتفت وراءه ليستأذن غيره، ومعنى ذلك أن المسئولية عنده. ولفت نظرى أيضا أن جمال عبدالناصر أبدى رأيه بسرعة وعرض مبرراته فى وضوح، أى أنه يملك كفاءة ربط المنطق بالقرار، وبسرعة

لعمل الذى شاركوا فيه، وهل كانوا مدركين منذ لبداية أنهم يشاركون فى تمرد عسكرى - عصيان - انقلاب؟ ثم ماذا يعرفون الآن بالضبط وكيف يشعرون هذه اللحظة وهم معرضون للعقاب - ربما على أعواد المشانق؟»

وتوقفت تاملاتى عندما سمعت صوتا ينادينى، والتفتُّ لأجد جاويشا يقول لى «إن جناب الصاغ سعد يريدك حالا فى المكتب».

وكان «مصطفى أمين» على الخط من الإسكندرية، يقول إنه فى مكتب وزير الدولة فى بولكلى (الإسكندرية). ثم سمعت «فريد زعلوك» (باشا) وصوته بالهمس يقول «سوف أحوِّلك إلى دولة الباشا». وسمعت تكة خافتة ثم صوت رئيس الوزراء («أحمد نجيب الهلالى» باشا) دون مقدمات يسألنى أولا أين أنا؟ - وقلت «إننى فى مبنى رئاسة القوات» - وكان سؤاله الثانى بما مؤداه «أفهم أنك لا تستطيع أن تتكلم على حريتك ولكن قل «لا» أو «نعم» وذلك يكفينى - هل هو انقلاب عسكرى؟» ورددت بأمانة بأننى لا أشعر أن هناك قيدا يمنعنى من الكلام - وأما عن سؤاله فالجواب أننى لا أعرف إلا ما أستطيع أن أرى، وهناك بالتأكيد فيما هو أمامى «حركة ضباط لديهم مواجع خاصة بالأحوال فى البلاد ويبدو لى أنهم قرروا أن يتصرفوا بنوع من الغضب إزاء السلطة السياسية». وسألنى رئيس الوزراء: «هل اللواء نجيب عندك فى نفس المبنى؟» وأضاف «عرفت من مرتضى (باشا) أنك كنت عند نجيب فى بيته بعد منتصف الليل». وقلت «إن اللواء نجيب هنا فى المبنى.» وسأل «الهلالى» (باشا) «ما هو موقفه؟» ولم ينتظر إجابة بل استطرد «هل له نفوذ وسطهم؟ - هل يسمعون كلامه؟ - أو هل هو معهم؟»

وقلت لرئيس الوزراء (ولم تكن الأمور تحتمل شيئا آخر): «دولة الباشا - كل ذلك لا أستطيع الإجابة عليه لأننى بحق لا أعرف.»

وساد الصمت لثوان وعاد «نجيب الهلالى» (باشا) يقول لى «الموقف خطير والبلد على كف عفريت، وسوف أضغط عليك أكثر وأسألك : هل اللواء نجيب فى مكان قريب منك؟ - وإذا كان - هل تقدر على رجائه بأن يجيء إلى هذا التليفون الذى تكلمنى منه لأسأله وأسمع منه؟»

وقلت لرئيس الوزراء: «دولة الباشا - لك علىَّ أن أحاول ورجائى أن تظل على التليفون وسوف أعود إليك بأسرع ما أستطيع». ووضعت سماعة التليفون على المكتب.]

....

....

[والتفت إلىَّ «سعد توفيق» الذى كان جالسا على كرسى أمامى وعيناه معلقتان بشفتىَّ لا يريد أن يفلت منه حرف أنطق به، وسألته «إذا كان فى مقدوره أن يدخل غرفة الاجتماع ويستأذن اللواء محمد نجيب - هل يستطيع المجيء إلى هنا لأن نجيب الهلالى (باشا) رئيس الوزراء يطلب أن يتحدث معه». وقال «سعد توفيق» «أنه لا يستطيع مقاطعة اجتماع القيادة ولكنه سيكتب ورقة للبكباشى جمال.» ثم خرج من باب المكتب إلى الممر الفسيح المزدحم بالضباط والجنود أمامه، ومضت قرابة الدقيقتين ثم انفتح باب غرفة الاجتماع (مكتب «عثمان المهدى» (باشا)) المؤدى إلى مكتب سكرتاريته

وظهر اللواء «محمد نجيب» ووراءه «جمال عبد الناصر» وخلفهما «عبد الحكيم عامر» و«كمال الدين حسين». وكان «جمال عبد الناصر» يهمس بشيء فى أذن اللواء «محمد نجيب» الذى تقدم من المكتب وعليه سماعة التليفون ورفعها وتحدث بأسلوب مؤدب ومنضبط: «أفندم دولة الباشا» - ولم نكن نسمع ما يقوله رئيس الوزراء بالطبع ولكن صوت اللواء «نجيب» كان واصلا إلينا بنبرته الهادئة.

ولم يطل الحديث، وكان ما سمعناه من ردود اللواء «نجيب» على رئيس الوزراء موحيا بعباراته المقتضبة - والواضحة فى نفس الوقت:

- «نعم يا دولة الباشا»
- «هم لديهم طلبات يصرون على تنفيذها»
- «طلباتهم خاصة بالجيش وضرورة تطهيره»
- «نعم، طلباتهم كلها فى إطار الجيش، هذا ما يهمُّهم»
- «طبعا . . . طبعا»
- «أوامرك يا دولة الباشا»
- «تستطيع الاتصال بنا فى أى وقت»
- «هم أيضا حريصون على الوطن وتهمهم مصر والكل يفديها بحياته!»

والتفت اللواء «نجيب» ناحيتى يقول: «رئيس الوزارة يريد أن يتحدث معك». وبينما كنت أتناول منه سماعة التليفون كان «جمال عبد الناصر» يستدير عائدا إلى قاعة الاجتماعات مفسحا الطريق أولا للواء «محمد نجيب».

وسألنى «نجيب الهلالى» (باشا):

«محمد - يظهر أن اللواء نجيب معهم؟»

وقلت «إن ذلك ظنى أيضا» - وعاد يسأل:

«هل انضم إليهم أم أنه كان معهم من البداية؟» وقلت «إننى صادقا لا أملك إجابة على هذا السؤال».

....

....

وفى الساعة السادسة وخمس دقائق توافق حدثان مع نفس اللحظة دعى «سعد توفيق» إلى غرفة اجتماع القيادة لأقل من دقيقة وعاد وفى يده ورقة عليها صورة من بيان سوف يعلن بعد قليل (الساعة السابعة) من إذاعة القاهرة (وقد تمت بالفعل سيطرة القوات على استوديوهاتها فى شارع الشريفين).

وكان «سعد توفيق» يناولنى الورقة قائلا «هل لديك رأى أو ملاحظة على هذا النص؟» ورحت أجرى بعينى على سطوره (وكان البيان رقم ١ من «قيادة حركة القوات المسلحة»).

ولحظتها دق جرس التليفون ورد «سعد توفيق» الذى كان واقفا بجوارى وفى يده نسخة نهائية من البيان رقم (١) وراح يناولنى سماعة التليفون قائلا: «مكتب رئيس الوزراء يطلبك».

وكنت قد وصلت إلى آخر نص البيان حيث «إمضاء اللواء محمد نجيب». وكذلك أعدت الورقة إلى «سعد توفيق» - لكنه قبل أن يسلمنى سماعة التليفون عاد يكرر سؤاله على عجل وقلت بسرعة «ما قرأته معقول - لكنكم تعرفون أكثر من أى طرف آخر ما الذى تريدونه - أو ما الذى تقدرون عليه». قلت ذلك وأمسكت بسماعة التليفون وسمعت صوت وزير الدولة («فريد زعلوك») يقول خطفا «دولة الباشا معك». ثم صوت «الهلالى» (باشا) فى لهجة مشحونة لم أسمعها منه قبلا:

«محمد - أريد أن أكلفك بمهمة هذه اللحظة من أجل مصلحة البلد. إذهب للواء نجيب حيث يكون الآن وأبلغه على لسانى «أننى توصلت إلى نتيجة مرضية مع جلالة الملك. الوزارة سوف تستصدر مرسوما ملكيا بتعيين اللواء محمد نجيب قائدا عاما للجيش (بدلا من «محمد حيدر» (باشا)) واللواء نجيب من هذا المنصب يستطيع إجراء أية تغييرات فى الجيش بما يحقق مطالب عرفنا أن «الجماعة عندك» مصرين عليها. وأنا شخصيا متحمس لهذه المبادرة الطيبة التى تظهر استعداد جلالة الملك للتعامل مع الموقف بحكمة وأضيف إلى ذلك أن الوزارة تضمن تنفيذ هذه المطالب كما تضمن عدم مساءلة أى ضابط عن أى تصرف قام به هذه الليلة!

وكذلك فإن المشكلة تصبح محلولة قبل أن تصحو الدنيا، وحلها يكون فى الإطار الدستورى السليم دون «فرقعة».» كرر «نجيب الهلالى»: «دون فرقعة لأن أى فرقعة فى هذا الظرف لها عواقب لا يعلم نتائجها غير الله وحده».

وأحس رئيس الوزراء بحرجى فاستطرد «إننى أقدر أننا نضغط عليك - لكنه لو كانت لدينا وسيلة أخرى فى هذا الوقت الضيق لأعفيتك من هذه المهمة - تحامل على نفسك وابذل جهدك لأن الظروف خطرة - وسوف أظل على التليفون حتى أسمع منك - والله يوفقك».

وتركت سماعة التليفون على المكتب وإحساسى أن دائرة حصار تضيق من حولى. وتنبهت بسرعة إلى صوت حركة تزايدت فى الممر الخارجى، ووجدت «سعد توفيق» يتجه بسرعة إلى الباب الرئيسى للغرفة قائلا «إن اجتماع القيادة انتهى». ولحقت به، وبالفعل فإن الاجتماع انتهى كما أن المشاركين فيه يخرجون وقد وقف عدد منهم يتحدث إلى بعض العسكريين من الضباط (وضباط الصف) - وكان «محمد نجيب» ومعه «جمال عبد الناصر» أول من وقع بصرى عليه وكأنه كتلة «مغناطيس مسحور» تشد إليها الأبصار دون انتظار - وقصدت إلى حيث يقف أرجو اللواء «محمد نجيب» فى «كلمة على جنب». واتجه إلى أول غرفة مفتوحة، وهو يسحب بيده «جمال عبد الناصر» ليجيء معنا ووراءه جاء «عبد الحكيم عامر» (وثلاثة أو أربعة من الضباط الذين كانوا يحضرون اجتماع القيادة) - ولم يكن لأحد خيار - وعلى أى حال فإن الموقف كان أدق من كافة الأسرار ولعله كان من الأوفق الآن لكل الأطراف أن يكونوا جميعا على معرفة ونور بما يجرى ويقال دون خفاء أو إخفاء!

ونقلت للواء «نجيب» رسالة «الهلالى» (باشا) وأنهيت بأنه على التليفون ينتظر، وسمعنى الكل فى صمت. وكان اللواء «نجيب» هو الذى قطع الصمت بسؤال وجهه إلى «جمال عبد الناصر» لفت نظرى فيه بقوله «ما رأيك ياجمال «بيه» ؟» (ولفت نظرى هذا اللقب المضاف فجأة) - ثم استطرد اللواء «نجيب» «مسألة تستحق البحث». وأخذ «جمال عبد الناصر» من يده وسحبه إلى ناحية نافذة الغرفة يقول له بالهمس شيئا. وعندما عادوا بعد نصف الدقيقة تقريبا كان «جمال عبد الناصر» هو الذى وجه إلىَّ القول بأن «اللواء نجيب يريد أن يتحدث بنفسه مع رئيس الوزارة ليسمع منه ما لديه ويقول له ما عندنا».

ورجعنا إلى غرفة المكتب حيث كانت سماعة التليفون فى مكانها عليه، وفى فترة الانتظار فإن «الهلالى» (باشا) كما ظهر تركها لـ«فريد زعلوك» الذى بادر فور سماعه صوتى بقوله «ثانية واحدة!» ثم ناول السماعة للهلالى باشا (لأن صوت رئيس الوزراء) هو الذى رد علىَّ. وبادرته على الفور «إن اللواء نجيب جاء ليتحدث بنفسه معك وهو واقف بجانبى الآن - فهل ذلك مناسب؟» ورد «الهلالى» (باشا) بسرعة «خير ما فعلت»!

قال لى الهلالى (باشا) أبلغ اللواء نجيب على لسانى «أننى توصلت إلى نتيجة مرضية مع جلالة الملك. الوزارة سوف تستصدر مرسوما ملكيا بتعيينه قائدا عاما للجيش (بدلا من «محمد حيدر» (باشا)) ومن هذا المنصب يستطيع إجراء أية تغييرات فى الجيش بما يحقق مطالب عرفنا أن «الجماعة عندك» مصرين عليها

وسمع اللواء «نجيب» (وفى الغالب فقد سمعه بنفس الألفاظ التى سمعته بها) وإن أضيف إليه مع تواصل الحديث (فيما بدا) لمسة من «السكر» رفضها اللواء «نجيب» وقصد أن يبين رفضه فقد رد بصوت يسمعه الواقفون حوله، قائلا «لا ـ يا دولة الباشا ـ الترقية إلى رتبة الفريق لالزوم لها، فلا أستطيع أمام إخوانى قبول مكافأة على واجب أديته معهم».

ثم جرى تبادل عبارات سريعة واستأذن اللواء «نجيب» لدقيقة أو دقيقتين يتشاور خلالها مع «زملائه» ـ واتجه مع «جمال عبد الناصر» وآخرين من ضباط القيادة إلى طرف الغرفة وكان واضحا أن اللواء «نجيب» يميل إلى قبول عرض رئيس الوزراء ـ ثم نادانى اللواء «نجيب» إلى حيث كانوا واقفين يسألنى «هل تفتكر أنهم جادون فيما يقولون به لتجنب حدوث «فرقعة»؟» وقلت «لكى أكون أمينا فيما أقول فأظنهم جادين فيما يتعلق بتعيينك قائدا عاما، وأما فيما يتعلق بعدم مساءلة أحد فيما قام به هذه الليلة فإننى لست متأكدا أن ذلك ممكن!» وتدخل «جمال عبد الناصر» مقاطعا بما معناه «إن لديه اعتراضا على سؤال اللواء نجيب من الأصل ـ وأما عن الفرقعة فإنها مطلوبة فى ذاتها ولا يمكن أن تكون الآن حجة فى يد طرف». وأراد اللواء «نجيب» أن يقول شيئا، وتدخلت ألفت نظر الجميع إلى أن رئيس الوزراء على التليفون ينتظر. وتوجه اللواء «نجيب» إلى ناحية «جمال عبد الناصر يسأله «ماذا أقول له؟» ورد «جمال عبد الناصر» بدون انتظار «قل له أن يفتح الراديو على إذاعة القاهرة الساعة السابعة وسوف يجد جوابا على أسئلته كلها».

كانت الثوانى تمشى مكثفة بثقل وعمق يجعل كل ثانية عمرا كاملا. وتحرك اللواء «نجيب» ناحية التليفون يستأنف حديثه مع رئيس الوزراء، وراح يتكلم محاولا انتقاء ألفاظه: «دولة الباشا ـ إخوانى هنا لا يوافقون وردهم سوف يصل للحكومة عن طريق الإذاعة الساعة السابعة (بعد أكثر قليلا من نصف ساعة) ـ يا دولة الباشا هذا رأينا هنا جماعة ـ والله يقدم ما فيه الخير للبلد وكلنا نريد خدمة مصر ـ نحن نقدر الظروف ولذلك قامت الحركة ـ اطمئن يا دولة الباشا كل الناس متحملة لمسئولياتها.»

وتوقف اللواء «نجيب» ثم التفت إلىَّ يقول «رئيس الوزراء يريد أن يكلمك ثانية». وسمعت «الهلالى» (باشا) يسألنى «ما رأيك؟ يظهر أن الجماعة عندك مصممين على الفرقعة؟» ورددت «بأن لديهم فى ذلك وجهة نظر». وسألنى عما أقصد، ولم أجد حرجا فى أن أقول له «إننى سمعت رأيا يقول إن الفرقعة مطلوبة فى حد ذاتها!» وسألنى عما يعنيه ذلك وقلت «لا أعرف بالضبط، لكنى أظن أن ما يعنونه هو الإعلان عن وقوع حدث كبير».

وكانت المفاجأة التى لم أتوقعها سؤال من «الهلالى» (باشا): «هل تستطيع سؤالهم إذا كانوا يريدون من الوزارة أن تستقيل؟» وعندما أحس رئيس الوزراء بدهشتى أكد أن السؤال ضرورى. وكذلك وضعت يدى على سماعة التليفون والتفتُ إلى اللواء «نجيب» أنقل إليه السؤال ـ وظهرت الحيرة واضحة على ملامحه من مفاجأة سؤال لم يكن ينتظره. ولكن «جمال عبد الناصر» تولَّى الإجابة مرة ثانية قائلا: «له حق ـ الأفضل أن تستقيل الوزارة»، وحاولت أن أتدخل برأيى لأول مرة فقلت ما معناه «إن الهلالى رجل نزيه وقدير. وهو بالكاد عاد أول أمس إلى رئاسة الوزارة بعد موقعة هائلة من أجل التطهير». ورد «جمال عبد الناصر» بما مؤداه «إن ذلك خارج الموضوع ـ قل له إن ذلك طلبنا وقد وفَّر علينا أن نحرجه بأن نطلبه منه». ولم يكن هناك بد مما ليس منه بد، وكذلك قلت عبارة (من أثقل العبارات التى وردت على لسانى طوال تجربتى الصحفية) «يظهر يا دولة الباشا أنهم يريدون ذلك». ولم يقل «نجيب الهلالى» (باشا) فى هذه اللحظة إلا كلمتين ـ أو كلمة واحدة كررها مرتين «حاضر. . حاضر».

وعندما أغلقت سماعة التليفون مع «نجيب الهلالى» (باشا) ـ التفتُ حولى لأجد أن لجنة القيادة اكتشفت على حين غرة وبتداعى التطورات أنها أمام مشكلة لم تخطر على بال أحد منهم، والمشكلة:

إذا كانوا قد طلبوا الآن استقالة وزارة «الهلالى» ـ وإذا كان ظاهرا أن «الهلالى» سوف يقدم استقالته ـ فمن يكون رئيس الوزراء فى هذه الحالة؟ وبالتأكيد فإن ذلك سؤال سوف يطرح عليهم حتى بإملاء الظروف ـ ولم يكونوا على استعداد له.

....

....

[والحاصل أن الإشكال وجد لنفسه حلا بالمصادفة، ففى ذلك الوقت وصل عدد من الصحفيين إلى مقر القيادة كان أولهم الأستاذ «حلمى سلاَّم» (من دار الهلال)، وبعده الأستاذ «إحسان عبد القدوس» (وهو رئيس تحرير روز اليوسف) ـ وكان «إحسان» هو الذى اقترح اسم «على ماهر» (باشا) لتشكيل الوزارة (الرجل المستعد دائما للمهام الصعبة فى الظروف الأكثر تعقيدا!) وقبلت لجنة القيادة بالاقتراح. والحقيقة أن أحدا لم يعترض عليه لأن المشكلة قفزت إلى داخل الصورة فى اللحظة الأخيرة وعلى غير انتظار!] ■

٣

فاروق يحاول الهرب صباح ٢٣ يوليو

■ ■ لأن الوثائق البريطانية والأمريكية والفرنسية تمثل أكثر المصادر حيدة واطلاعا على لحظات سقوط أسرة «محمد على» فى مصر ـ ومن رغبة فى الدقة ـ وفى نزاهة العرض فقد يكون من الأفضل ترك هذه الوثائق تروى قصة السقوط مشهدا بعد الآخر حتى نزل الستار عن مأساة الملك فاروق!

سرى

أسبقية ـ أسبقية

الساعة ٦:٢٥ صباحا

(١٠١٨/٨٢٠٤)

أفاد القائم بالأعمال السير مايكل كرسويل فى الإسكندرية إلى أن هناك تقارير تفيد أن عددا من ضباط الجيش المصرى المتضايقين (disaffected) من الأوضاع تمكنوا من السيطرة على القاهرة أثناء وجود البلاط الملكى والحكومة فى مصيفهم بالإسكندرية. ويبدو أن هؤلاء الضباط تمكنوا أيضا من إملاء رغباتهم على البوليس وقد وجهوا رسالة إلى القائم بالأعمال البريطانى لإخطاره بأنهم سوف يقاومون بكل سلاح معهم أى حركة للقوات البريطانية تقصد إلى التدخل ضد حركتهم. وقد أخطروه أيضا أن دوافع حركتهم هى التطهير الداخلى دون مقاربة للشئون الخارجية، وأنهم ـ كما يؤكد بيان يصدر عنهم ـ مسئولون عن حماية أرواح وممتلكات الرعايا الأجانب.

نرى إخطار دول الكومنولث عن طريق المفوضين السامين لها فى لندن (لأن هذه الدول قد تكون لها قوات أو أفراد عسكريين فى قواعد منطقة قناة السويس.)

الإسكندرية

سرى للغاية

الساعة ٦:٥٥ صباحا

٢٣ يوليو ١٩٥٢

(رقم ١٠١٨/٢٠٢)

١٠٦٠ ـ طوارئ

١ ـ تأكدت الآن أن مجموعة عسكرية يقودها ضباط متمردون تمكنت من السيطرة على القاهرة خلال الليل وفرضت طاعة أوامرها على البوليس المحلى. وبعثت المجموعة مندوبا إلى سفارة الولايات المتحدة تخطرها بأن ما قاموا به عمل داخلى بحت. وتطلب إخطار السلطات البريطانية بأنهم سوف يقاومون أى تدخل بكل شدة ـ وهم لا يرغبون فى أكثر من تطهير بلدهم من الفساد.

٢ ـ نحن نعلم أن سياستنا هى الامتناع عن التدخل عسكريا ـ بطريقة أوتوماتيكية ـ للدفاع عن الملك فاروق وموقفنا أننا إذا تلقينا منه طلبا رسميا بمساعدته فإننا سوف ندرسه فى وقته على ضوء الظروف. ومع ذلك فقد ترون ضرورة إخطار القائد العام للقوات البريطانية فى مصر باتخاذ ما يراه من إجراءات فى منطقة القناة أولا وذلك لضمان عدة أهداف: أولها أن تكون القوات جاهزة لما قد يطلب منها ـ وثانيها أن نضمن حرية الملاحة فى قناة السويس.

٣ ـ فهمنا من المعلومات المبدئية أن قيادة الحركة الحقيقية من شباب ضباط الطيران ـ وكان بعضهم مسئولا عن الشغب أثناء انتخابات مجلس إدارة نادى ضباط الجيش. ويظهر من معلومات أولية أن هؤلاء الطيارين لديهم مشاعر وفدية. ويبدو لنا أن الموقف خطر ودقيق خصوصا وأن زعماء الوفد أيضا كلهم فى فرنسا وسمعنا أنهم دعوا على عجل لكى يعودوا.

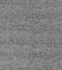
٤ ـ إننى لا أستطيع فى الوقت الحاضر أن أقرر مدى قوة الحركة واتساعها ولكنه يبدو أن اللواء نجيب قائد المنطقة المركزية فى القاهرة (يقصد اللواء «على نجيب» شقيق اللواء «محمد نجيب») قد انضم إلى الطيارين الشبان الذين دعوه لقيادة حركتهم.

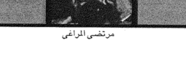
....

....

[كانت المعلومات الأولية كلها مغلوطة: ابتداء من وصف قيادة الحركة بأنها من ضباط الطيران ـ إلى الإشارة لميولهم الوفدية ـ إلى دعوة زعماء حزب







مرتضى المراغى

جيفرسون كافرى

الوفد للعودة من فرنسا - إلى أن قائد الحركة هو اللواء «على نجيب» (والمفارقة أن اللواء «على نجيب» كان ساعتها ضمن كبار الضباط الذين تم اعتقالهم بأمر من قيادة الحركة!]

سرى - عاجل
٢٣ يوليو ١٩٥٢
من السفير البريطانى فى واشنطن
السير أوليفر فرانكس
إلى وزير الخارجية - لندن

١ - أبلغتنى وزارة الخارجية الأمريكية أن الملك فاروق اتصل فى الساعة الخامسة صباحا (٢٣ يوليو) بالسفير الأمريكى المستر جيفرسون كافرى طالبا منه - بدافع إحساسه الشديد بالخطر - أن تساعده الولايات المتحدة على مغادرة الأرض المصرية بأسرع ما يمكن - وقد سأل فاروق «إذا كانت هناك أى قطعة بحرية أمريكية قريبة من الشواطئ المصرية تستطيع أن تتحرك بسرعة إلى ناحية الميناء الخاص بقصر رأس التين لكى تأخذه وعائلته إلى خارج مصر تحت حماية أمريكية». وذكر فاروق للسفير كافرى:

إنه لا يستطيع وأسرته أن يغامروا بالذهاب إلى أى مكان لأنهم قد يقعون فى الأسر، وهو لا يستطيع أن يتبين مدى الاتصال بين حركة الضباط فى القاهرة وبين قوات حامية الإسكندرية.

وقد فكر فى المغادرة بواسطة اليخت الملكى «المحروسة» لكن القومندان («جلال علوبة») قائد اليخت أبلغ جلالته أنه يخشى أن تكون بطاريات السواحل موالية للانقلابيين ومن ثم تقوم بضرب اليخت الملكى بمدافعها وتعطله أو تغرقه.

ذكر فاروق لكافرى أنه لم يوجه مثل هذا الطلب إلى السلطات البريطانية لأنه لا يريد أن يغادر مملكته تحت حماية المدافع البريطانية حتى لا تسوء صورته أمام شعبه، فضلا عن أنه ليس واثقا من النوايا البريطانية تجاهه.

٢ - إن وزارة الخارجية الأمريكية أبلغتنى أنها على اتصال بوزارة الدفاع لتحديد موقع أقرب سفينة حربية أمريكية من الشواطئ المصرية لكن ذلك الإجراء من قبيل الاحتياط فقط إذا دعت الظروف - كما سيجرى البحث فى إمكانية ترتيب نقل الملك وعائلته بالجو إذا استحال طريق البحر.

٣ - وفى الوقت الراهن فإن كافرى نصح الملك فاروق بأن يحتفظ بهدوء أعصابه لأن «ذعره» (panic) الظاهر لا يخدم هدفه ولا حياته والأفضل له أن يقعد ثابتا فى قصره فى انتظار الكيفية التى سوف يتصرف بها الانقلابيون - كما أنه أخطر الملك بأن الحكومة الأمريكية لن تخذله بما يعرض سلامته للخطر دون أن يتسبب ذلك فى تدخل أمريكى سافر فى شأن يبدو حتى هذه اللحظة داخليا لأن مطالب الضباط مقصورة على إبعاد عدد من رجال الملك فى الجيش.

٤ - إن الحكومة الأمريكية بتلك النصيحة بسطت حمايتها على الملك على أنه لا يظهر حتى الآن أن هناك تهديدا جديا لعرشه أو لحياته - والحكومة الأمريكية تتقصى الأمور بدقة وإذا ظهر أنه بين الانقلابيين ضباط شيوعيون فإنها سوف تعاود حساب موقفها من الامتناع عن التدخل المباشر.

٥ - إن السفير جيفرسون كافرى نصح الملك إلى جانب ذلك بفتح قناة اتصال مع «ضباطه المتمردين» واستطلاع نواياهم.

٦ - طلب منى «هنرى بايرود» (مساعد وزير الخارجية الأمريكى) من باب الاحتياط أيضا أن نخطرهم بموقع أقرب سفينة حربية بريطانية إلى ميناء قصر رأس التين الملكى فى الإسكندرية.



طوارئ - سرى جدا
من مايكل كريسويل (القائم بالأعمال البريطانى فى مصر)
إلى وزير الخارجية
(رقم ١٠٠٩/٢١٩)
٢٣ يوليو الساعة ٥٥:٧ (صباحا)

١ - أبلغت السفير الأمريكى كافرى موافقتنا الكاملة على النصيحة التى قدمها إلى الملك فاروق بأن يظل قاعدا فى مكانه (to sit tight) باعتبار أن ذلك هو أفضل الخيارات له ولسلامته الشخصية والمحافظة على عرشه.

٢ - أعلن الانقلابيون فى القاهرة بيانهم الرسمى ونقوم بإجراء تحليل له الآن، ويبدو أن قائد الحركة المعلن عنه هو اللواء محمد نجيب ولكن القوة الحقيقية كما بلغنا هو الضابط مصطفى كمال صدقى (النشط البارز فى تنظيم الحرس الحديدى!!). ويظهر أيضا أن الضابط الثانى بعده فى الحركة هو القائمقام أنور السادات الذى كان متهما فى اغتيال أمين عثمان (باشا).

٣ - يبدو أن حامية الإسكندرية لا تزال على الحياد حتى الآن ويبدو الموقف هادئا فى كل معسكرات الجيش فى هذه المدينة.

٤ - قرر الملك أن يتصل بقيادات التمرد وكلف وزير الداخلية مرتضى المراغى بأن يتصل باللواء نجيب (كان المراغى وزيرا للداخلية مع نجيب الهلالى ولكنه فقد هذه الصفة عندما قدم الهلالى استقالة وزارته).

٥ - علمت هذه اللحظة أن المراغى اتصل من الإسكندرية بقادة الحركة العسكرية فى القاهرة ودعا اللواء نجيب إلى مقابلته فى الإسكندرية لكن اللواء نجيب اعتذر عن السفر وطلب مجىء المراغى إلى القاهرة، وسوف يتوجه المراغى فعلا إلى القاهرة.

٦ - نقدر قوة الانقلابيين فى القاهرة بثلاثة ألوية - وتتكون حامية الإسكندرية من لواء واحد.

٧ - بعثت حركة المشاة المتمركزة على الحدود فى العريش برسالة تأييد إلى اللواء نجيب.

٨ - تعليق: رغم أننى غير متأكد من معلومة وصلتنى الآن ملخصها أن ضباط الحركة فى القاهرة يفكرون فى التخلص من الملك فاروق للقضاء نهائيا على سلطته فى العمل ضدهم - إلا أننى أرسل لكم هذه المعلومة كما بلغتنى حتى تتأكدوا منها.

....

....

[مرة أخرى تظهر الإشارة إلى «مصطفى كمال صدقى» كقائد للحركة العسكرية أن سفارات الدول الكبرى فى القاهرة لم تكن لديها معلومات كافية عن الحركة العسكرية وأن محاولاتها لمتابعة الحوادث كانت تعتمد على الإشاعات والتخمينات أكثر من الاعتماد على معلومات حقيقية.]

طوارئ - سرى للغاية
من القائم بالأعمال البريطانى
إلى وزير الخارجية
(رقم ١٠٧٤) الساعة ١١ صباحا

١ - لم يتمكن مرتضى المراغى من مقابلة اللواء نجيب فقد طلب إليه بعد وصوله إلى القاهرة أن يجىء لمقابلته فى وزارة الداخلية ولكن نجيب رد عليه بالطلب إليه أن يجىء هو («المراغى») إلى قيادة الحركة. رفض المراغى وعاد فورا إلى الإسكندرية.

٢ - طلب المراغى أن يقابلنى أو يقابل مسئولا مفوضا من السفارة البريطانية وبعثت هاملتون لمقابلته.

٣ - أوضح المراغى ما يلى:

أ - أن على ماهر (باشا) ضالع فى المؤامرة ويعاونه فيها مصطفى كمال صدقى(!) ومعهم بعض الضباط، وقد وضعوا خطة التمرد ونفذوها حتى الآن بنجاح باهر.

ب - إن الحركة العسكرية كما يراها «منظمة» و«موجهة» بواسطة الشيوعيين والإخوان المسلمين وقد طرحوا ثلاثة شروط:

أن يتولى على ماهر تشكيل وزارة جديدة — أن تجرى انتخابات برلمانية بأسرع وقت — أن تلغى الأحكام العرفية.

٤ - فى تقدير المراغى أن الملك فاروق انتهى عمليا وأن العسكريين يريدون الخلاص منه وإزاحته عن طريقهم (!)

٥ - أنه («المراغى») يتقدم إلينا بطلب تدخل عسكرى بريطانى قبل أن يتعقد الموقف ونجد أنفسنا أمام تحالف من الإخوان المسلمين والشيوعيين يمسك بالسلطة فى مصر ويوجه نتائج الانتخابات على هوى أفكارهم المتطرفة المعادية لمبادئ الرأسمالية.

٦ - سوف أقابل المراغى بنفسى وأسمع منه.

من السفارة - مصر
إلى وزارة الخارجية
١٠١١/٩١/٥٢٦٥
سرى جدا

قابلت الآن مرتضى المراغى وهو متشائم جدا من احتمالات الموقف ورأيه أن كل ما أعلن عن أهداف الحركة العسكرية هو ذر للرماد فى العيون (pure eye wash) مقصده التضليل، فى حين أن الهدف الحقيقى من الحركة هو إقامة حكومة عسكرية من ضباط كانت لهم جميعا أدوار فى العمليات الإرهابية التى وقعت



الملك «فاروق» أبلغ السفير الأمريكى «كافرى»، أنه فكر فى المغادرة بواسطة اليخت الملكى «المحروسة» لكن القومندان «جلال علوبة» قائد اليخت أبلغ جلالته أنه يخشى أن تكون بطاريات السواحل موالية للانقلابيين ومن ثم تقوم بضرب اليخت الملكى بمدافعها وتعطله أو تغرقه



ضــد القــوات الـبـريطانيــة فى منطقــة قناة السـويس فى الشـتـاء الماضـى، وهم جـمـيـعـا خليط من فوضـويين وشـيـوعـيـين وإخـوان مسلمين. وهو يعـتـقد أنهم إذا تركـوا لتدعيم موقفهم فى السلطة فإنهم لن يلبثوا بعد قليل حتى يدخلوا فى حرب عصابات حقيقية ضد القوات البريطانية فى منطقة القناة.

وقد أحسست أن المراغى متأثر برؤاه ـ كما أن الشعور بالمفاجأة والعجز غالب عليه ولذلك فهو يبالغ فى «سواد» الصورة على أنه ليس بمقـدور أحـد أن يدَّعى أن الصـورة بيـضــاء ولذلك فإن متابعة الاستعدادات لابد أن تأخذ طريقها.

طوارئ ـ سرى جدا
من السفارة البريطانية فى مصر
إلى وزارة الخارجية ـ لندن
٢٣ يوليو ١٩٥٢ (رقم ٢٠٦ / ١٠١٨)
الساعة الرابعة (بعد الظهر)

أبلغنى السفير الأمريكى كافرى أن الملك فاروق اتصل به قبل قليل (السـاعـة ٣ بعـد الظهر) وأبلغه أنه الآن لا يجد بديلا عن قبول مطالب العسكريين بما فيها استقالة الهلالى وتعيين على ماهر رئيسا للوزراء، خصوصا وأن على ماهر عندما ذهب إليه بعض المندوبين العسكريين عن القيادة لتوجيه الطلب إليه بتشكيل وزارة جديدة رجاهم أن يصدر إليه التكليف من الملك رعاية للدستور. وهكذا فإنه سوف يكلفه برئاسة الوزارة دون مشاكل!

أبدى الملك فاروق للسفير الأمريكى شعوره بالمرارة الشديدة ضدنا (بالطبع لأننا لم نبلغه باستعدادنا للتدخل). بل إنه قال لكافرى أنه يعرف أننا نحن المدبرين الحقيقيين للانقلاب ضده وهو على أى حال مستعد الآن لمواجهة كل الاحتمالات ولن يترك البلد مهما كان.

....

....

[يلفت النظر أن هذه الصورة كانت مختلفة عن الانطباع الذى تكوَّن عند «أحمد نجيب الهلالى» (باشا) ـ الذى روى لى فيما بعد (وفى حضور زوج ابنته الدكتور «محمود محفوظ» وابنه الأستاذ «نبيل الهلالى») ـ أنه توجه إلى قصر رأس التين بعد حديثه مع اللواء «نجيب» (فى حضورى) وعرض عليه الموقف بطريقة لا تحتمل اللبس ـ وبما مؤداه أن:

١ ـ هناك حالة تمرد فى الجيش ـ لكن التمرد كما هو واضح فى بيان «الحركة العسكرية» الذى أذيع قبل قليل (الساعة السابعة صباحا) من إذاعة القاهرة ينص على طرد عدد من ضباط الجيش الفاسدين، وعلى إخراج بعض رجال الحاشية الذى كان الملك بنفسه قد وافق على إبعادهم (بطلب منه ـ أى من «الهلالى» ـ عندما كلفه برئاسة وزارته الثانية). ومع أن قرار الإبعاد تأخر لسوء الحظ ولم يصل إلى علم ضباط الحركة ومن ثم تصرفوا على النحو الذى تصرفوا به ـ فإن «ضرورات أمن البلد» تقتضى الآن قبول طلباتهم «حتى لا يتسع الخرق».

٢ ـ إن جلالة الملك فى هذه اللحظة مطالب بالارتفاع من مشاعره الشخصية والقبول بمطالب الحركة حتى يمكن «حصر الفتنة» ولا ينفتح المجال لاحتمال تدخل خارجى.

٣ ـ إنه «كرئيس لوزراء جلالة الملك» ـ وكخادم مخلص له يرجوه ألا يلجأ إلى طلب تدخل أجنبى بريطانى أو غيره فى هذا الوقت حتى لا يكرر موقف عمه الخديو «توفيق» الذى طلب تدخل الأسطول البريطانى ضد «عرابى» (ثورة «عرابى» ١٨٨٢)، وهو الطلب الذى أدى إلى احتلال مصر ووقوعها فى قبضة الاستعمار البريطانى.

وفى رواية «نجيب الهلالى» (باشا) أن الملك «فاروق» وافق على ما قال وأضاف إليه «أنه ليس الرجل الذى يطلب تدخلا بريطانيا مسلحا لحماية عرشه أو أسرته أو نفسه، وقد استبعد هذا الخاطر من حساباته فور سماعه بما جرى فى القاهرة لأنه «لا يريد أن يعطى الانجليز هذا الشرف ـ ولا هذه الفرصة للشماتة فيه فضلا عن أنه لا يثق فى نواياهم أو حسن مقاصدهم».

وقال «نجيب الهلالى» «أنه خرج من المقابلة مع الملك مستريحا مطمئنا إلى صدق مشاعره الوطنية!».

وكذلك قدَّم له استقالة وزارته حتى يعطيه حرية التصرف بعد أن عرف أن الحركة تريد تغييرا وزاريا!]

٤

طلب تدخل عسكرى بريطانى

طوارئ ـ سرى جدا
من القائم بالأعمال البريطانى
إلى وزارة الخارجية ـ لندن
(رقم ٩١ / ١٠١٤)
٢٤ يوليو ١٩٥٢ الساعة ١٠:٦ صباحا

تقابلت الآن مع السفير الأمريكى المستر كافرى. قال لى أن الملك فاروق يلاحقه بالتليفونات منذ الفجر يقول له «إن الوسيلة الوحيدة لمساعدته هى تدخل عسكرى لإنقاذه وإنقاذ أسرته». وهو لم يطلب تدخل السفارة البريطانية ـ لكن تلميحاته واضحة نحو ذلك الطلب، ومن الواضح أن كافرى يريد أن يعرف رد فعلنا فى هذه الحالة وقد أخبرته أنه يستطيع أن ينقل إلى الملك ما يلى:

١ ـ إن حكومة جلالة الملكة على علم بما يجرى، وكذلك رئاسة أركان الحرب الإمبراطورية، ونحن فى انتظار تعليمات منهم.

٢ ـ أنه إذا أراد رأيى الشخصى فهو الآن أمام مشكلة داخلية عويصة ومن المشكوك فيه أن تدخلا أجنبيا يمكن أن يساعده على حلها ـ على أنه إذا أراد تدخلا عسكريا لصالحه فسوف نطلب منه توضيح طلبه.

٣ ـ سألت كافرى إذا كان ما سمعه منى سوف يؤدى إلى جعل الملك أكثر يأسا بحيث يحاول مغادرة البلاد فى أسرع وقت. وقال كافرى أن الملك فى حالة ذعر هائل (tremendous panic) وهو يبذل قصارى جهده لتهدئة مخاوفه وإقناعه بأن ينتظر فى ثبات. طلبت من كافرى أن ينقل إلى الملك أن تلك أيضا نصيحتى. وحتى الآن فإنه لا يبدو لى أن المتمردين فى القاهرة قد فرضوا عليه شيئا يخصه ـ وإذا انتظر فقد تتطور الأحوال لصالح ملك دستورى.

٤ ـ قال لى كافرى «إن الملك ذكر له أنه ما زال حتى الآن يستطيع أن يعتمد على ولاء البحرية المصرية واستعداد قيادتها لمساعدته.

٥ ـ لاحظنا ـ كافرى وأنا ـ أن الملك فى هذه الأزمة قطع صلته بحكومته وهو يجرى اتصالاته بنفسه وحتى بدون وساطة الديوان الملكى. وقد أبلغه كافرى أنه سوف يبعث إليه برسول معتمد يلازمه حتى يترجم له رغبات سيده فى حالة انقطاع الاتصالات التليفونية.



طوارئ ـ سرى جدا
من القائم بالأعمال البريطانى
مايكل كرسويل
إلى وزير الخارجية
ورئاسة الوزراء
٢٤ يوليو ١٩٥٢ الساعة ١٠:٨

يتضح لى أكثر فأكثر أننا أمام خطر حقيقى بقيام نظام عسكرى متطرف فى مصر ولذلك أتقدم بالمقترحات التالية:

١ ـ وضع الخطة روديو (التدخل العسكرى لاحتلال الدلتا والقاهرة) فى وضع الإنذار لتكون الخطة قيد التنفيذ بعد إخطار لا يزيد على أربع وعشرين ساعة، مع إمكانية أن تتقدم بعض الوحدات إلى نقط التماس ـ خط «أرسكين» الدفاعى (خط بلبيس ـ بحيرة المنزلة) بحيث يعرف الانقلابيون على الفور أن احتمال التدخل العسكرى من جانبنا وارد وجدىٌ. أقترح أيضا إجراء تحركات بحرية ظاهرة قرب الشواطئ المصرية. كذلك يمكن إخطار السلطات المصرية المعنية أن المدمرة البريطانية جلاسجو التابعة لأسطول صاحبة الجلالة البريطانية فى البحر الأبيض ومعها مدمرة ملحقة بها سوف تتوجه إلى ميناء الإسكندرية بدلا من وجهتها الأصلية إلى ميناء بورسعيد. ورأيى أن هذه الوحدات ـ وغيرها ـ لا يجب أن تظهر على الشواطئ المصرية حتى لا تتسبب فى تفجير مظاهر عداء ضد الرعايا البريطانيين والأجانب فى مصر وحين تكتمل الاستعدادات لبدء تنفيذ العملية روديو.

٢ ـ إن ملحقنا البحرى قد أقام صلات طيبة مع قيادة الأسطول البحرى المصرى ونحن واثقون أن وحداتنا البحرية لن تقابل بردود فعل عدائية من جانبهم. على أن موقف قائد بطاريات السواحل ليس مؤكدا حتى الآن.

٣ ـ إننا نرى خطرا كبيرا يزحف بسرعة على الموقف فى مصر، وهو يتطور على نحو فورى يدعو للقلق ويتطلب حلا وقائيا قبل أن تفوت الفرصة. والغالب أننا الآن على نحو مماثل مما عانته روسيا أيام الثورة البلشفية على طريقة كيرنسكى بمعنى ظهور واجهة تبدو معتدلة وهى فى الواقع تمهد للمتطرفين. ورأينا أن غالبية ضباط الجيش سوف يعودون إلى رشدهم إذا أحسوا بالخطر المحدق عليهم اليوم. وقد عرفنا الآن أن كل ضباط الجيش فوق رتبة العقيد قد طلب إليهم البقاء بعيدا عن وحداتهم حتى إشعار آخر، وذلك يخلق مناخا مناسبا لما نفكر فيه.

من وزارة الخارجية ـ لندن
إلى القائم بالأعمال البريطانى ـ الإسكندرية
طوارئ ـ عاجل

الساعة ١٥:١ صباحا ٢٤ يوليو ١٩٥٢
ردا على مقترحاتكم:

١ - نرى أن فترة الإنذار الخاصة بالخطة روديو يمكن تقصيرها بحيث تكون الخطة جاهزة للتنفيذ في ظرف ٢٨ ساعة للمرحلة الأولى - ٩٦ ساعة للمرحلة الثانية - وسوف تقوم رئاسة أركان الحرب بإصدار التعليمات المناسبة.

٢ - نختلف معكم في شأن القيام بحشود بحرية أمام الإسكندرية على الأقل في هذه المرحلة.

٣ - إنني أفكر في إجراء اتصالات مع كل من اللواء محمد نجيب ورئيس الوزراء المقترح على ماهر (باشا).



إشارة عاجلة
من القائد العام للبحر الأبيض
إلى رئاسة أركان الحرب
تقديراتنا لمقترحات الإسكندرية:

١ - لا يبدو لنا أن تقدم وحدات عسكرية من «فايد» إلى خط التماس مع وحدات الجيش المصري مناسبا في هذا الوقت.

٢ - المعلومات المتوافرة لدى القيادات العسكرية في فايد تظهر أن قوات الجيش المصري تقف بالكامل وراء حركة اللواء نجيب وأفرادها متحمسون لإقصاء الحاشية السيئة للملك فاروق وتحجيم نفوذه. وعليه فنحن نعتقد أن أي مظاهرة عسكرية من جانبنا لن تؤدي إلى تعليم ضباط الجيش المصري درسا في التعقل بقدر ما سوف تدفعهم أكثر إلى الوقوف وراء الحركة العسكرية.

٣ - إن منطقة قناة السويس هادئة الآن، وفي رأينا أن أي ظهور عسكري بريطاني سوف يجعل الجميع - بما فيهم قوات البوليس - في حالة عصبية تمكن لقوى الشغب من أن تعاود نشاطها. وسوف يبدو مثل ذلك النشاط في الوقت الراهن مبررا بتدخلنا في صميم الشأن المصري وتأييدا للملك تخلّى عنه رعاياه.

٤ - لا نرى فائدة محققة من اقتراح التظاهر البحري أمام الإسكندرية، وإذا كان مثل ذلك التظاهر لازما فإن توقيته لا بد أن يجيء مصاحبا لتنفيذ الخطة روديو إذا استقر الرأي على ذلك. وفي حالة ما إذا كان قراركم هو إجراء مظاهرة عسكرية بالقوة أمام الاسكندرية فسوف نجد أننا أمام ضرورة أن أتلقى منكم توجيها عن الهدف النهائي السياسي الذي يستدعي إجراء التظاهر البحري المقترح.



من وزارة الخارجية
إلى السفارة البريطانية (مايكل كرسويل القائم بالأعمال) - في مصر
مذكرة - عاجل وسري
٢٤ يوليو ١٩٥٢ (الساعة ١٥:٤ بعد الظهر)

إننا لا نريد - ولا نقصد - ممارسة هواية قيادة السيارات من المقعد الخلفي (backseat driving).

ونحن نرى أن المعلومات الواردة من مصر لا تزال غير كافية لاتخاذ قرارات كبيرة. ومن الأفضل أن ننتظر حتى جلاء الأمور. وحتى إذا تحوّل اللواء نجيب إلى ديكتاتور عسكري فنحن لا نريد أن نظهر باعتبارنا الطرف المعتدي من أول لحظة وقبل أن تتضح نوايا الآخرين على أن ذلك لا يمنع أن نكون مستعدين لكل الاحتمالات.

ونحن نقترح عليه إخطار رئيس الديوان الملكي حافظ عفيفي بوجهة نظرنا رغم أننا نشعر أن الديوان الملكي في عزلة عما يجري لدرجة أن عفيفي (باشا) لم يستطع أن يفرق بين اللواء محمد نجيب وبين شقيقه اللواء علي نجيب واعتبر الأخير هو قائد الانقلاب العسكري، ويكون إبلاغ حافظ عفيفي بوجهة نظرنا في الحدود التالية:

١ - إننا سوف نبذل جهودنا ونوظّف وسائلنا لمنع قيام ديكتاتورية عسكرية في مصر.

٢ - من مصلحة الملك أن يخرج من هذه الأزمة ملكا دستوريا، وهذا يعني أن عليه أن يترك حكومة يرأسها علي ماهر - الذي اختاره بنفسه قبل شهور لرئاسة الوزارة - تعمل دون عراقيل، وإذا كان له أن يقوم بدور بناء فعليه تشجيع حكومته للوصول في الوقت المناسب إلى تسوية مناسبة للعلاقات بين بلدينا.

٣ - ولعلمك الخاص فنحن الآن لا نرى باسا من أن يشعر فاروق بالخوف (scare).



إلى وزير الخارجية - أنتوني إيدن
من وكيل وزارة الخارجية - آلين
مذكرة

اتصل بي تليفونيا عبد الفتاح عمرو (سفير مصر في لندن) يبلغني رسالة مقتضاها أن من المهم جدا أن نتجنب أي اشتباك بين القوات البريطانية في منطقة قناة السويس وبين الحركة العسكرية التي قامت في مصر.

ومع أنه يرى ضرورة أن نكون مستعدين لكل الاحتمالات فإنه من الخطر أن يظهر وكأن القوات البريطانية تستعد لاجتياح الدلتا والقاهرة. وهو يرى أنه إذا كان ضروريا أن تقوم طائراتنا في قواعد القناة بعمليات استطلاع جوي فمن المستحسن أن يظل عمل الطائرات في أجواء منطقة القناة.

طلب مني عمرو أن أنقل ذلك إليكم وإلى مجلس الوزراء بسرعة - وأبلغته أن تفكيرنا ليس بعيدا عما يقترحه.



عاجل - سري (إشارة ٢٢٥)
من قيادة القوات البريطانية في فايد
إلى السفارة البريطانية في مصر
٢٤ يوليو ١٩٥٢

هناك معلومات قد تهمكم في الجانب السياسي من الأحداث الجارية في مصر الآن.

أولا - إن الكولونيل ميللور من رئاسة أركان القوات البريطانية في فايد توجه اليوم (٢٤ يوليو) لمقابلة اللواء شوقي بك (اللواء «أحمد شوقي عبد الرحمن») قائد القيادة الشرقية المصرية (في منطقة قناة السويس) يستطلع رؤيته للموقف الجديد في القاهرة وقد أبدى له اللواء شوقي:

١ - أنه تلقى اتصالا تليفونيا من اللواء نجيب الذي أبلغه بقيام الحركة وأنه سوف يتلقى منه الأوامر من الآن فصاعدا - وقد رد عليه اللواء شوقي بأنه يقبل سلطته.

٢ - إن معلومات شوقي عن اللواء نجيب أنه رجل لا يهتم بالسياسة وهو رجل طيب (a good man) وإنما وراءه مجموعة من الضباط الشبان الوطنيين لم يستطع بعد أن يتعرف على أسمائهم.

٣ - إنه يعرف من اتصالات سابقة أن القوات البريطانية لن تتدخل لإنقاذ الملك من مستنقع سياسي تسبب فيه لنفسه ودخل إليه بحماقة، وهو يأمل أن يظل ذلك موقفنا حتى تنجلي الأمور - وإنه يعرف أن قوات الجيش المصري وضعت عوائق ضد الدبابات على طريق السويس وأنهم مستعدون لمقاومة أي تدخل لأن ذلك يجنب الجميع بدائل خطرة وغير مؤكدة.

٤ - إننا لم نصل بعد إلى نتيجة مؤكدة تقنعنا بقبول الأحوال المستجدة في مصر - لكن علينا أن نراقب بحذر - مستعدين لمختلف الاحتمالات.

٥ - في رأينا أن الوقت قد يكون مناسبا لاتصال على مستوى معين مع محمد نجيب، ومن الأفضل أن يتم الاتصال بواسطة دبلوماسي من هيئة سفارتك.

من القيادة العامة للقوات البريطانية - فايد
إلى السفارة البريطانية
(عاجل - سري رقم ١٦٦٨/ت.ن.أ)

للعلم فإن البريجادير جولبرن (الملحق العسكري البريطاني في مصر والذي كان قد سافر بالأجازة يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢) عاد إلى هنا بالجو من قبرص. وقد التقى أمس باللواء شوقي (اللواء «أحمد شوقي عبد الرحمن» - قائد المنطقة الشرقية) في قيادته بالمعسكر، وطبقا لما قاله اللواء شوقي يظهر الآن:

١ - اللواء نجيب دفع إلى قيادة الحركة بواسطة عدد من الضباط الشبان الذين يكرهون الملك.

٢ - إن هذه المجموعة من الضباط الشبان لا يزيد عددها على عشرة وهم الذين قاموا على التنظيم.

٣ - إن الوفد والإخوان ليس لهم دور في الحركة - ولكن التأييد يصل إلى القيادة من كل أنحاء البلاد.

٤ - إن هدف الحركة تطهير حاشية الملك ووضع حد للفساد في السياسة - والعناية بقوة الجيش.

٥ - إن سياسة قيادة الحركة الآن تجنب تدخل عسكري بريطاني ضدها.

٦ - إن الملك فاروق عندما أحس بحرج موقفه السياسي قبل أسبوع طلب من بعض رجاله في البوليس السياسي تدبير عملية اغتيال لعدد من الرعايا البريطانيين في مصر حتى يحوّل اهتمام الشارع المصري من مشاكل الداخل إلى مخاطر خارجية، وإن مثل ذلك الاحتمال كان واردا في ذهن اللواء فؤاد صادق عندما فاتحه بعض شباب الضباط كي يقود حركة تفرض الإصلاح على الملك، وأن ذلك الاحتمال كان أول أسبابه عندما تردد في قبول عرضهم.

٧ - إن اللواء نجيب كان هو الذي اختار على ماهر لرئاسة الوزارة بعد الحركة لأنه يعرفه من وقت ترشيحه وزيرا للحربية بعد حريق القاهرة.

٨ - إن ضباط الحركة لا يفكرون في

فاروق   أنطوني إيدن

في إشارة من القائد العام البريطاني للبحر الأبيض إلى رئاسة الأركان: المعلومات المتوافرة لدى القيادات العسكرية في فايد تظهر أن قوات الجيش المصري تقف بالكامل وراء حركة اللواء نجيب وأفرادها متحمسون لإقصاء الحاشية السيئة للملك فاروق وتحجيم نفوذه



إجراءات متعصبة (fanatic) ضد الملك، بل هم على استعداد لقبوله وفق شروط مختلفة.

٩ - إن ضباط البوليس مستاءون من ضباط الحركة بسبب اعتقالات وقعت ضد قياداتهم خصوصا اللواء طلعت (قائد بوليس القاهرة)، وقد اضطر هو (اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن») إلى تهدئة خواطر ضباط البوليس فى بورسعيد حتى لا يتصرف أحد منهم بحماقة.

١٠ - إن اللواء نجيب يتلقى التوجيهات من عدد من الضباط الشبان الذين يريدون تصحيح العلاقة مع بريطانيا باتفاق جديد يسمح بتقوية الجيش المصرى.

وهنا قال البريجادير جولبرن للواء أحمد شوقى عبد الرحمن إذا كنت تستطيع إيجاد وسيلة لإبلاغ هؤلاء الشبان فى القاهرة فأرجوك إبلاغهم بما يلى:

ليست هناك معاهدة جديدة منا (no new treaty)

وليس هناك سلاح جديد لهم (no new arms)



طوارئ - سرى (١٧٠)
من السفارة البريطانية (القاهرة)
إلى القائم بالأعمال البريطانى (الإسكندرية)
٢٤ يوليو ١٩٥٢

هذه الرسالة من هاملتون (المستشار القانونى للسفارة) إلى كرسويل (القائم بالأعمال) «التقى مساعد الملحق العسكرى الكولونيل «تاملين» هذا الصباح مع صديق له على اتصال مع بعض ضباط نجيب وعرض عليه فكرة ترتيب اجتماع لى معه. وقد عاد هذا الصديق واتصل بـ«تاملين» وأبلغه أن فكرة اللقاء غير مناسبة لأن القيادة العسكرية تفضل أن تجرى اللقاءات العسكرية مع رئيس الوزراء «على ماهر» - خصوصا وأن أهداف «حركة الجيش» ليست سياسية.



طوارئ - سرى جدا
من وزير الخارجية - أنتونى إيدن
إلى القائم بالأعمال البريطانى فى مصر - الإسكندرية - مايكل كرسويل
٢٤ يوليو ١٩٥٢ - (رقم ١٠١١/٩٦/٥٢٤)

إذا لم يكن لديك ما يدعوك إلى الاعتراض فإننا نرى أن عليك مقابلة على ماهر بأسرع ما يمكن والتحدث إليه بالخطوط التالية:

١ - إن حكومة صاحبة الجلالة الملكة لا ترغب فى التدخل فى الشأن المصرى لكنها تجد نفسها إزاء ضرورة إخطار رئيس الوزراء المصرى بأن الحكومة البريطانية لن تتردد فى التدخل إذا نشأت أحوال تتطلب حماية أرواح الرعايا البريطانيين. ولذلك فإن حكومة صاحبة الجلالة البريطانية أصدرت أمرها إلى قواتها المسلحة فى مصر بأن تكون فى حالة الاستعداد القصوى للتدخل. وقد أبلغنا اللواء نجيب بوسائلنا («جولبرن» إلى اللواء «شوقى عبد الرحمن») ليكون واضحا أمامه أن أية استعدادات تراها وحدات من الجيش المصرى ليست موجهة بشكل من الأشكال فى صورتها الراهنة ضد القوات المصرية المسلحة. بل إن الأوامر لدى القوات البريطانية هى تجنب وقوع أى حادث.

٢ - عليك أن تنتقل من هذه المقدمة إلى إبلاغه بأننى شخصيا أراقب تطورات الموقف فى مصر خلال الشهر الحاضر بكثير من القلق وأشعر أن المستجدات الأخيرة طرأت نتيجة حتمية لفساد شديد وسوء فى الحكم سببا أضرارا كبيرة لمصر. لكننا نأمل أن تتحسن الأوضاع فى ظل إدارة مستقرة. ومع أنه من الصعب علينا التنبؤ بمسار الحوادث فإننا نخشى أن الحديث فى الساعات الأخيرة عن إلغاء الأحكام العرفية وإجراء انتخابات نيابية كلها سابقة لأوانها لأن أهم شىء هذه اللحظة هو إعادة شىء من التوازن تستطيع به مصر أن تقف على قدميها. ■

٥

طابور مسلح يتجه إلى الإسكندرية

■■ طوارئ - عاجل
إلى وزير الخارجية - أنتونى إيدن - لندن
من مايكل كرسويل القائم بالأعمال البريطانى - الإسكندرية
٢٥ يوليو ١٩٥٢

١ - قابلت على ماهر هذا الصباح وأبلغته برسالتكم وطلب منى نصا مكتوبا للفقرتين (١) و (٢) منها. ويظهر كما ألمح أنه يريد هذه النصوص مكتوبة فى حوزته لأنه يخشى أن يضغط الانقلابيون الجدد على الوزارة بدباباتهم وطائراتهم! وقد ألمحت له بأن هؤلاء الشبان عليهم أن يعرفوا أن هناك دبابات أقوى وطائرات أحدث مما لديهم!

٢ - كان على ماهر يبدى الود الخالص طوال المقابلة وقد أبلغنى أن أشكركم بحرارة على رسالتكم وحتى تعرفوا أنه يرى الموقف بوضوح ويوافق على كل شىء فى رسالتكم.

٣ - قدم لى على ماهر وصفا تفصيليا لأحداث الأزمة، وأبلغنى أنه جاء إلى الإسكندرية أمس (٢٤ يوليو) يحمل مطالب محددة من اللواء نجيب وضباطه وهى على النحو التالى:

أ - بالنسبة للجيش: تثبيت اللواء محمد نجيب قائدا عاما للقوات المسلحة وتفويضه بإجراء تطهير فى الجيش يتضمن إنهاء خدمة ٥٦ ضابطا بينهم ٢١ لواء وقع اعتقالهم فعلا.

وبالتوازى مع ذلك ضرورة البدء فى تسريح الحرس الحديدى التابع للملك مباشرة وتسليم سلاحه إلى الجيش، كما أنه يتعين على أعضائه تسليم أنفسهم إلى قيادة الحركة فى القاهرة.

ب - بالنسبة للقصر: طرد سبعة رجال من أعوان الملك فاروق فورا وهم: محمد حسن أمين الخدمة الشخصية - وأنطون بوللى مدير شئونه الخاصة - وإلياس أندراوس مدير أعماله المالية - وكريم ثابت مستشاره الصحفى - والقائمقام حلمى سائقه الخاص الذى أصبح قائد الملكية - ويوسف رشاد طبيبه الخاص - واللواء عاكف طياره الخاص.

وأضاف على ماهر أنه عندما قابل الملك بطلبات الجيش وجده فى البداية عنيدا يرفض الاستغناء عن أقرب رجاله - لكنه استسلم للحقائق فى النهاية بشرط ألا يطرد هؤلاء جميعا وإنما يقدمون استقالاتهم.

٤ - ذكر لى على ماهر أنه لا يعرف من هو القائد الحقيقى للانقلاب لكن تخمينه أنه «البكباشى» أنور السادات الذى جاءه صباح يوم الانقلاب يبلغه باختياره لتشكيل وزارة جديدة، وهو لا يعرف عنه الكثير. وإن كان الملك فاروق قال له عندما قابله أمس أن «هذا الضابط أنور السادات هو فى الواقع مجرم (criminal).

٥ - قال لى على ماهر أيضا أنه أبلغ بعد أن غادر القاهرة إلى الإسكندرية أمس أن القيادة العسكرية أمرت باعتقال قائد بوليس القاهرة اللواء طلعت وكذلك مدير القلم السياسى المخصوص فى وزارة الداخلية إلى جانب وكيل الوزارة - وقد أضيف إليهم اعتقال الأخوين مصطفى وعلى أمين وأبدى أن هذه تصرفات لا تريحه على الأقل لأنه لم يعلم بها إلا بعد حصولها.

٦ - وأبلغنى على ماهر أنه يتوقع وصول مبعوث من اللواء نجيب إلى الإسكندرية ولا يستبعد وصول اللواء نجيب نفسه ظهر اليوم - وعلى أى حال فهو ينوى إعادة الحكومة إلى القاهرة وإنهاء مصيفها فى الإسكندرية مع نهاية الأسبوع. أبلغنى أيضا أن الأحزاب السياسية كلها تحاول الاتصال به وهو ينوى تشكيل وزارة من المستقلين لكنه سوف يختار وزير دولة معه يتولى مهمة ضابط اتصال بين الوزارة وبين الأحزاب السياسية الرئيسية. وعلى أى حال، فإنه قرر بالفعل إبقاء الأحكام العرفية وتأجيل أى تفكير فى إجراء انتخابات نيابية. وقد طلب من القيادة العسكرية أن تترك له القرار فى هذه المسائل لأنها موضوعات سياسية يختص هو شخصيا ووزراؤه بالقرار فيها.

٧ - تكلم على ماهر عن خطط لديه لإعادة تنظيم الحكومة وتطهير الإدارة الحكومية من الفساد السياسى الذى لحق بها من جراء التعيينات الحزبية وأهواء الوزراء المتعاقبين، وأنه كذلك سوف يعمل على تخفيف حدة الأزمة التموينية، وعلى سبيل المثال ذلك النقص الخطير فى السكر.

٨ - وصل على ماهر إلى القول بأن الجيش يشعر بالضيق لتخلف سلاحه، وهو يفهم مشاعر الضباط فى هذا الصدد خصوصا وأن القيادة العليا فى الجيش اقتصرت على المقربين من القصر الملكى، وأن تسليح الجيش وتدريبه أهمل أمره وصرفت الاعتمادات العسكرية فى غير موضعها. ونبهت رئيس الوزراء إلى أن تلك كلها مشاكل يمكن تسويتها عندما نتوصل إلى اتفاق دفاعى مع مصر.

....

....

[كان اعتقال الأستاذين «مصطفى» و«على أمين» نتيجة

فاروق كافرى

من القائم بالأعمال البريطانى فى مصر إلى وزير خارجيته فى لندن: «أبلغنا الملحق البحرى الأمريكى أنه شاهد طابورا عسكريا يحوى عناصر من الدبابات يزحف بسرعة على الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية، وأن طلائعه تصل إلى الإسكندرية فى أية لحظة. وفى الغالب فإن الملك فاروق أمامه ساعات مزعجة»



لتبليغ من رئيس تحرير جريدة «المصرى» (الأستاذ «أحمد أبو الفتح») يتهم فيه الأخوين بنقل معلومات حساسة عما يجرى فى مصر إلى جهات أجنبية. وقد سجل الأستاذ «مصطفى أمين» هذه الواقعة بخط يده فى التحقيق الذى أجرى معه (بعد ذلك بسنوات). وفى مسار الوقائع بعد اعتقال الأخوين فقد سارعت بالاتصال بـ«جمال عبد الناصر» ورتبت مقابلة حضرها معنا الأستاذ «محمد التابعى»، وكان عرضنا للموضوع بحضوره وحضور اللواء «محمد نجيب» نفسه أن اعتقال اثنين من الصحفيين فى مصر فى الساعات الأولى من الثورة مسىء إلى صورتها، ثم أن العلاقة بين أسرة «أبو الفتح» وأسرة «أمين» - علاقة معقدة شهدت فى بعض الأحيان شراكة مالية كما شهدت فى بعضها الآخر عداوة لا تتضح أسبابها الحقيقية، وأن المسألة تحتاج إلى تحقيق دقيق لأن التهمة خطرة والأوقات مضطربة. وفى كل الأحوال فإن «الحركة» لا ينبغى لها من الساعات الأولى لعملها أن تقوم بإجراءات تبدو منحازة - أو تحسب فى الخارج وكأنها تخويف للإعلام المصرى وإنذار له].

....

....



إلى وزارة الخارجية البريطانية

من مايكل كرسويل القائم بالأعمال البريطانى فى مصر

(رقم ٩١ / ١٠٩٥)

٢٥ يوليو ١٩٥٢ - الساعة الثالثة بعد الظهر

أبلغنى القنصل الفرنسى العام أن هناك وحدات من قوات الجيش المصرى تصل الآن إلى الإسكندرية وتتجه إلى معسكر مصطفى باشا كما أن بعضها تمركز فى استاد الإسكندرية قرب محطة السكة الحديد.

وفى رواية القنصل الفرنسى أن هذه القوات القادمة إلى الإسكندرية قوبلت بترحيب وحماس عند مرورها فى حى المكس وتجمع حولها حشد من الجماهير مهنئين للجيش ولنجيب ويطلقون شعارات معادية للملك بلغت حد الوقاحة.

وفى معلومات القنصل الفرنسى أيضا أنه سمع من مصادر مطلعة أن هناك خلافات بين رئيس الوزراء على ماهر وبين اللواء محمد نجيب الذى وصل إلى الإسكندرية فعلا فى الصباح الباكر بالطائرة.

إلى وزير الخارجية - لندن

من القائم بالأعمال فى مصر

عاجل جدا (١٠٩٥/٩٦)

٢٥ يوليو ١٩٥٢

أبلغنى السفير الأمريكى جيفرسون كافرى أن الملك فاروق اتصل به منفعلا يطلب حاملة طائرات أمريكية تقترب من الشاطئ المصرى أمام قصره وتنقله إليها طائرة هليوكوبتر تابعة لها لأنه مقتنع الآن بضرورة الإفلات هربا من بلده.

وقد بذل السفير الأمريكى كل نفوذه وحججه ليقنع الملك بعدم مغادرة بلاده حتى لا يفتح الطريق أمام إعلان جمهورية متطرفة، وذلك خطر شديد على مستقبل أسرته. ومن المحتمل أن ينجح كافرى فى إقناع الملك بالبقاء خصوصا إذا لم يشعر فاروق بأن هناك إجراءات مستجدة تتخذ ضده. وقد أبلغت السفير الأمريكى أننى أوافق على موقفه بغير تحفظات.

ويظهر أن الحرس الملكى قرر نقل ولائه إلى اللواء نجيب، وقد عرف فاروق ربما عن طريق التنصت أن اتصالا جرى بين عدد من ضباط حرسه وبين قيادة اللواء نجيب، كما أن قادة الحركة تلقوا معلومات عن اتصالات قام بها الملك فاروق وطلب خلالها تدخلا بريطانيا ضدهم وأن ذلك أثار الانقلابيين عليه.

وقد أبلغنا الملحق البحرى الأمريكى أنه شاهد طابورا عسكريا يحوى عناصر من الدبابات يزحف بسرعة على الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية، وأن طلائعه تصل إلى الإسكندرية فى أية لحظة.

وفى الغالب فإن الملك فاروق أمامه ساعات مزعجة.



(درجة السرية القصوى للمعلومات)

من جفرسون كافرى (السفير الأمريكى بالقاهرة)

إلى وزير الخارجية (واشنطن)

اتصل بى الملك فى الساعة الثامنة صباحا ليبلغنى أن قصره محاصر - ثم عاد يتصل بى بعد نصف ساعة ليقول لى أن هناك إطلاق نار فى محيط القصر وأنه فى موقف «يائس» (desparate) ويسألنى إذا كنت أستطيع أن أساعد بسرعة (could I help quickly)

كافرى



إلى وزارة الخارجية - لندن

من السفارة فى مصر (مايكل كرسويل القائم بالأعمال)

(٩ ج ٢ - ١٠١٨)

أبلغنى رئيس الوزراء على ماهر أنه حينما غادر القاهرة يوم ٢٤ يوليو قادما إلى الإسكندرية كان ما فهمه من اللواء نجيب أن ضباط الحركة لن يذهبوا إلى أبعد مما وصلوا إليه من إجراءات تتصل بإقصاء عناصر من حاشية الملك. لكنه عندما لحق به اللواء محمد نجيب فى الإسكندرية - فى اليوم التالى ٢٥ - عرف منه أنه وضباطه قرروا المضى إلى أبعد من ذلك وفيه اتخاذ إجراءات حاسمة يتطلبها الموقف وإلا فإن الملك سوف يلجأ إلى ألاعيبه القديمة مرة أخرى (his old tricks) وقال لى على ماهر أنه بعد التروى والتفكير توصل إلى أن تفكير «الحركة» فى الاتجاه الصحيح.



من رئاسة أركان الحرب الإمبراطورية - لندن

خطة طوارئ لإنقاذ الملك فاروق

رقم (أ / ٢٤٠ - ١٠١٨)

٢٥ يوليو ١٩٥٢ - ليلا

١ - لقد سئلنا فى واشنطن - البرقية رقم ١٤٢٠ مساء ٢٥ يوليو بواسطة وزارة الخارجية - عن موقفنا عندما تظهر الحاجة إلى إنقاذ الملك فاروق وتعرضت حياته للخطر وما إذا كنا مستعدين لإرسال سفينة حربية للمشاركة فى العملية. وقد ناقشنا الموضوع آخذين فى اعتبارنا أن قوات الحركة العسكرية تحاصر القصر الملكى الذى يوجد فيه فاروق.

٢ - وجوابنا أن المدمرة «مانكس مان» وهى أسرع سفينة فى الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط تستطيع القيام بالمهمة. وفى اللحظة الراهنة فإن هذه المدمرة موجودة فى ميناء بورسعيد وتستطيع أن تصل إلى الإسكندرية فى ظرف عشر ساعات ونصف، ويمكن اختصار هذه المدة بمقدار ساعتين ونصف إذا صدر إليها أمر بالتحرك مبكرا لأن الست ساعات ونصف هى مدة الإبحار الفعلى إذا كانت لدى المدمرة أوامر مبكرة من الأميرالية. ولذلك فقد ترون من المناسب إخطار الأميرالية بالاستعداد حتى قبل اتخاذ القرار بالمشاركة فى إنقاذ الملك فاروق. ونحن نستحسن ذلك فى كل الأحوال لأن عطلة نهاية الأسبوع (كان الوقت مساء جمعة) قد تتسبب فى غياب بعض طواقم البحارة.

٣ - لا بد أن نأخذ فى اعتبارنا أننا لا نستطيع إنقاذ الملك فاروق من قصره بقوة السلاح لأن ذلك قد يتسبب فى اشتباكات بيننا وبين القوات المصرية التى تحاصر القصر مما تنتج عنه عواقب سياسية خطيرة، مع العلم بأن المقصود بإنقاذ الملك هو إنقاذ حياته، وعليه فلا يجب تعريضه لموقف يجد نفسه فيه وسط اشتباكات مسلحة.

٤ - وعلى هذا الأساس فإن الملك فاروق أمامه من الناحية الواقعية خياران:

أ - إما أن يجد وسيلة يطير بها إلى قاعدة قناة السويس

ب - أو يجد وسيلة يخرج بها من ميناء القصر وملاقاة المدمرة «مانكس مان» خارج المياه الإقليمية. وفى هذه الحالة فإنه يسهل علينا اعتباره لاجئا إلى الأسطول البريطانى.

٥ - هناك خيار يستحق أن يبحث وهو إصدار تعليمات حازمة إلى الوزير المفوض البريطانى فى مصر مايكل كرسويل بأن يتدخل بطريقة حازمة مع المتمردين (the rebels) محذرا من التعرض لحياة الملك أو إصابته بسوء. وفى هذا السياق فإنه يستطيع إخطارهم بأنه من الأفضل أن نتلقى منهم موافقة على إرسال إحدى قطعنا البحرية إلى الإسكندرية لكى تأخذ الملك فاروق منها.



إلى القائد العام للبحرية البريطانية بالبحر الأبيض المتوسط

من الأميرالية

عمليات - عاجلة

١ - قد تنشأ الحاجة بسبب التطورات الجارية فى مصر الآن إلى التقاط (to pick up) الملك فاروق خارج المياه الإقليمية المصرية أمام الإسكندرية. وفى هذه الحالة فإنه يمكن إعطاؤه حق الحماية (sanctuary) إذا وصل فى مثل هذه الظروف إلى إحدى قطع أسطول صاحبة الجلالة البريطانية.



٢ ـ وإذا نشأت الضرورة لهذه العملية فإن رأينا أن المدمرة «مانكس مان» هى الأكثر ملاءمة للمهمة.

٣ ـ وفى اللحظة الراهنة فإننا نرى وضعها تحت الإنذار استعدادا للحركة فى ظرف أربع ساعات.

٤ ـ وفى هذه الحالة فإننا سوف نرسل إليكم إشارة رمزية هى الكلمة (halo Manx) وهذه الإشارة الأولى تعنى أن (Man) «مانكس مان» عليها أن تكون مستعدة للتحرك فورا ولكن دون إبحار.

٥ ـ وعندما تتسلمون الإشارة الرمزية وفيها كلمة «برسيل» (persil) قبل (halo) فإن «مانكس مان» لا بد أن (Manx Man) تتحرك نحو الإسكندرية بأقصى سرعة.

٦ ـ سوف نبعث إليها أثناء الإبحار بالموعد المتفق عليه وإشارات التعارف اللازمة لإتمام المهمة.



من الأميرالية ـ لندن
إلى وزارة الدفاع

إن قائد الأسطول (The First Lord) يريد أن يكون الأمر واضحا فى ذهنه بشأن طلبكم إلى الأميرالية استخدام المدمرة «مانكس مان» فى إنقاذ الملك فاروق. ويريد قائد الأسطول أن يتأكد أن المهمة الملقاة على «مانكس مان» فى هذه الظروف تحظى بموافقة رئيس الوزراء مباشرة وبنفسه.

إن بطاريات المدافع الساحلية المصرية فى حالة جيدة ويمكن أن تكون فى هذه الظروف مستعدة للعمل. ولذلك فإن وقوع خسائر أمر محتمل وهو ما يتطلب موافقة رئيس الوزراء.

إلى وزارة الخارجية ـ لندن
من السفارة البريطانية ـ مصر (القائم بالأعمال مايكل كرسويل)
٢٦ يوليو ١٩٥٢

بعثت الآن بالملحق البحرى ومعه نسخة من تعليماتكم الأخيرة للتنسيق مع قائد البحرية المسئول فى قصر رأس التين (فى عملية ترتيب أية وسيلة بحرية يجدها الملك للوصول إلى موقع المدمرة «مانكس مان» ـ بما فى ذلك التوقيت والموقع). وقد وجد الملحق البحرى أن الطريق إلى قيادة البحرية وإلى القصر مغلق بحشود من الجماهير ووحدات من الجنود كما شاهد بعض قطع المدفعية مصوبة إلى القصر. وقد أبلغوه فى قصر رأس التين أن ضباط البحرية مشغولون باجتماع فى ثكنات البحرية بالأنفوشى. وقصد إلى هناك حيث وجد عددا من شباب الضباط الذين أبلغوه أن أية رسالة لا بد أن تذهب إلى اللواء نجيب وهو يقوم بتحويلها إلى الجهات المعنية.

وقد تكون لدى ملحقنا البحرى الانطباع بأن ضباط القيادة برأس التين جرى اعتقالهم بواسطة شباب الضباط الذين كانت نظراتهم إليه غير ودية، وقد شعر بالقلق لأن جموعا من الناس أحاطت بالقيادة وبدت مشاعرهم متحفزة ضد عسكرى بريطانى رأوه أمامهم.

لاحظ الملحق البحرى أن بعض القوات تتجه إلى قصر المنتزه.

علمت الآن أن سفير الولايات المتحدة قد بعث برسالة عاجلة إلى على ماهر وإلى اللواء نجيب يحث على ضبط النفس وسوف أتوجه الآن لمقابلة المستر كافرى والتنسيق معه.

من جفرسون كافرى
إلى وزارة الخارجية الأمريكية
واشنطن

تمكن السكرتير الأول للسفارة (ماكلينتوك) من مقابلة اللواء نجيب وأبلغه بقلقنا من التطورات الحادثة هذا الصباح كما أبلغه أنه ليس من مصلحة أحد أن تتدهور الأمور إلى حد يمس شخص الملك. وقال اللواء نجيب أن التحركات العسكرية الجارية الآن هدفها تعزيز القوة العسكرية فى الإسكندرية بعد معلومات تلقتها قيادة الحركة عن نشاط تقوم به عناصر من الطابور الخامس، وأن نشاط هذه العناصر قد تمت مواجهته بحزم (severely dealt with) وأن هناك اعتقالات أخرى جارية، وأن ذلك هو ما استوجب الإجراءات الإضافية التى تقرر اتخاذها اليوم. قال السكرتير الأول للسفارة للواء نجيب إننا نعتمد على كلمته فى أن ضررا لن يلحق بالملك.

حاولت أن أتصل بالملك تليفونيا بنفسى لأبلغه تأكيدات اللواء نجيب ولم يجب قصر رأس التين. واتصلت برئيس الديوان حافظ عفيفى فى بيته أبلغه الرسالة بظن أنه قد يجد وسيلة لإبلاغها للملك، واكتشفت أن رئيس الديوان تحت الإقامة الجبرية فى بيته.

إلى وزارة الخارجية ـ لندن
من القائم بالأعمال بالسفارة فى مصر (مايكل كرسويل)

١ ـ اتصل الملك فاروق تليفونيا بالسفير الأمريكى وأبلغه أن الموقف يتدهور دقيقة بعد دقيقة، وأن إطلاق النار يشتد. بعث السفير الأمريكى مرة أخرى بالسكرتير الأول للسفارة (روبرت ماكلينتوك) ليقابل اللواء محمد نجيب فى ثكنات مصطفى باشا. وفى نفس الوقت اتصل بعلى ماهر يطلب منه ألا يكون هناك سفك للدماء.

أكد اللواء نجيب لمبعوث كافرى أنه وقع سوء فهم لأن أفرادا من الحرس الملكى أطلقوا النار على إحدى الوحدات المكلفة بحصار القصر الملكى مما تسبب فى جرح بعض الجنود. وقد أكد اللواء نجيب أنه يدرك أهمية الحيلولة دون سفك الدماء وحفظ الأمن والقانون، وأنه يتعهد بأن الملك لن يصاب بسوء. وقال أنه يعطى كلمة شرف بضمان هذا الوعد.

٢ ـ لم يستطع كافرى أن يتصل بالملك تليفونيا لأن الخطوط كلها قطعت، وقرر إرسال سكرتيره الخاص لمحاولة الوصول إلى قصر رأس التين ومقابلة الملك بأى وسيلة. (وكان سكرتير السفير وهو الكولونيل سمبسون صديقا شخصيا للملك فاروق).

٣ ـ توجه المستر كافرى الآن لمقابلة على ماهر وتسليمه رسالة من الحكومة الأمريكية.

من جفرسون كافرى (السفير الأمريكى فى القاهرة)
إلى وزارة الخارجية ـ واشنطن
٢٦ يوليو ١٩٥٢

عندما فشلت كل وسائلى فى الاتصال تليفونيا بالملك فاروق أرسلت إليه سكرتيرى العسكرى الكولونيل سمبسون الذى قاد سيارته إلى قصر رأس التين مصمما فى كل مرحلة وأمام كل عقبة على الوصول إلى أبواب القصر. وقد تمكن فعلا من دخول القصر فى الساعة ١٠:١١ صباحا، وأخذوه مباشرة إلى حيث كان الملك فاروق. وهناك قدم له الضمانات التى قطعها محمد نجيب على نفسه بشأن سلامته الشخصية. قال له الملك فاروق أنهم أخطروه الآن بأن عليه أن يعلن تنازله عن العرش لصالح ابنه، وأنه لا يملك وسيلة غير الرضوخ. وقام الملك بإبلاغ سمبسون رسالة لى يطلب فيها ألا أتدخل لصالحه من أجل تغيير قرار تنازله عن العرش. لكن لديه منى طلبين محددين:

الأول: أن أضمن سلامته حتى يخرج من مصر

والثانى: أن أكون بنفسى معه حتى يغادر. أرتب الآن لكى أقابل الملك وأبقى معه حتى أودعه.

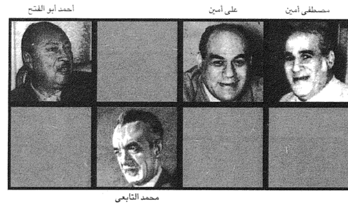
إلى وزارة الخارجية ـ لندن
من السفارة فى مصر (الوزير المفوض مايكل كرسويل)
٢٦ يوليو ١٩٥٢ ١٢:٢ ظهرا

قال لى على ماهر أنه سعيد لأنه كلف بأن ينقل إلى الملك فاروق طلب التنازل عن العرش، لأنه كان يخشى أن يقوم اللواء نجيب أو أحد من ضباطه بهذه المهمة ويتصرف بطريقة غير مناسبة مع الملك فاروق. ويكفى أن إنذارهم له كان مكتوبا بصيغة مهينة جدا (in very insulting terms) وقال لى على ماهر أن ذلك الخطاب أحرجه إلى درجة أنه نسيه دون قصد فى سيارته عندما دخل من باب القصر ليقابل الملك ويقدم له الإنذار.

قال لى على ماهر أيضا أن الملك بعد أن اطمأن بعض الشىء قال موجها كلامه لرئيس الوزراء «إنهم سوف يطردونك بعد قليل من رئاسة الوزارة كما طردونى من العرش» ـ ثم أضاف «أنه فى الواقع أدرك خطورة مطالب الضباط ومداها البعيد عندما وجدهم يطلبون السيطرة الكاملة على وزارة الداخلية.»



من جفرسون كافرى (سفير الولايات المتحدة فى مصر)
إلى وزير الخارجية ـ واشنطن



مصطفى أمين — على أمين — أحمد أبو الفتح — محمد التابعى

قام الملك بإبلاغ الكولونيل «سمبسون» السكرتير العسكرى للسفير الأمريكى بالقاهرة «كافرى» رسالة يطلب فيها ألا يتدخل لصالحه من أجل تغيير قرار تنازله عن العرش، لكن لديه طلبين محددين: الأول: أن يضمن سلامته حتى يخرج من مصر والثانى: أن يكون السفير بنفسه معه حتى يغادر



قابلت على ماهر الذى أعطانى كل التأكيدات التى طلبتها عن سلامة الملك فاروق وعن مسئولية الحركة العسكرية عن حماية أرواح الرعايا الأجانب فى مصر. أبلغنى على ماهر أن الملك اختار أن يسافر باليخت الملكى «المحروسة» ومعه عائلته ـ زوجته وكل أبنائه. وأن الملك سوف يتنازل لصالح ابنه لكنه مصمم أن يأخذه معه إلى أوروبا وقد وافقه على ماهر فى ذلك. وقال لى على ماهر إن بعض الضباط المتهورين(hotheaded young officers) كانوا مصممين على قتل الملك ولذلك قرر اللواء نجيب ألا يتواجد أى ضابط شاب قرب الملك عند سفره.

أبلغنى على ماهر أن ضباط الحركة وافقوا على سفر الملك على المحروسة شريطة أن يتعهد بعودتها إلى مصر فور وصوله إلى ميناء نابولى.



أولوية ـ أولوية
إلى وزارة الخارجية ـ لندن
من السفارة فى مصر (مايكل كرسويل الوزير المفوض)
(١١٢٢/٢٦٣) ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ـ الساعة السابعة مساء

غادر الملك فاروق الأراضى المصرية فى الساعة السادسة مساء بالضبط. وفيما يلى المشهد الذى وصفه لى المستر جفرسون كافرى السفير الأمريكى الذى كان مشاركا فى وداع الملك بناء على طلبه (طلب الملك):

١ ـ لم يكن هناك غير على ماهر والمستر كافرى وقائد اليخت الملكى وعدد من ضباط الحراسة الشخصية للملك وبعض من أفراد الخدمة الخاصة لجناحه. وقد انفجر هؤلاء بالبكاء عندما بدأ الملك يتحرك نحو القارب الذى ينتظره، وفى هذا الوقت كان الملك محافظا على أعصابه أثناء إجراء مراسم الشرف العسكرية التى أديت له.

٢ ـ قبل أن يخطو الملك إلى القارب التفت إلى كافرى وإلى على ماهر قائلا لهما «إن هؤلاء الذين أرغموه على الخروج هم مجرمون وأن على ماهر سوف يكتشف ذلك بنفسه مع الأيام، وهو متأكد أن أيامه لن تطول ويعتقد أن على ماهر لن يظل على رئاسة الوزارة إلا لعدة أيام».

٣ ـ تأخر اللواء نجيب وضباطه الذين كان مقررا أن يشاركوا فى وداع الملك. وعندما سمع الملك دقات الساعة السادسة من برج القصر قال «إن الوقت قد حان للذهاب فهذه لحظة انتهاء الإنذار وهو ليس مستعدا للمجازفة بالبقاء على الأرض المصرية ثانية واحدة بعدها». وبعد تحرك قاربه وصل اللواء نجيب ومعه بعض ضباطه وقد أبدوا ضيقهم لأن فاروق تحرك قبل وصولهم ولحقوا به إلى اليخت الملكى المحروسة.

٤ ـ إن وجهة سفر الملك ليست محددة بالضبط ولكنها إلى إيطاليا.

٥ ـ انتشرت أخبار سفر الملك وامتلأت شوارع الإسكندرية عن آخرها بجماهير تحتفل وتصفق بحماسة للمركبات العسكرية التى يتصادف مرورها.

٦ ـ قال لى كافرى فى ختام تلخيصه للموقف «إن لديه شعورا بالقلق وإن أمامنا أياما من الشك لأنه إذا ظهر أن الإخوان المسلمين لهم دور فى الحركة العسكرية فإن العواقب قد تكون بالغة الخطورة. وقد طلب منى أن أنصح بإبقاء استعداداتنا العسكرية للتدخل قائمة حتى تنجلى الأمور.



من الاستطلاع
إلى القائد العام للأسطول البريطانى فى البحر المتوسط
(أس ٥٩١٩) ٢٦ يوليو ١٩٥٢
برجاء إخطار الأميرالية

تم رصد اليخت الملكى المحروسة الآن ومرافقته ـ موقع اليخت الآن فى اتجاه جزيرة كريت:
٣٤ درجة ٥٤ دقيقة شمالا
٢١ درجة ٥٠ دقيقة شرقا
اتجاه ٣١٠ درجات
سرعة ١٨ عقدة

تم تبادل إشارات التعارف بيننا وبين اليخت.



من جفرسون كافرى (السفير الأمريكى فى القاهرة)
إلى وزارة الخارجية ـ واشنطن

كان الملك فاروق مرتابا عندما صافحته للمرة الأخيرة وسألنى إذا كان يمكن لإحدى قطع الأسطول الأمريكى أن تتولى حراسته. وعندما عدنا إلى الرصيف بعد سفر اليخت الملكى المحروسة اتصل بى رئيس الوزراء على ماهر يبلغنى أن العسكريين يريدون إرسال طائرة عسكرية لملاحقة اليخت الملكى وإرغامه على العودة مرة ثانية لأنهم عرفوا أن صناديق محملة بالذهب قد نقلت ضمن أمتعته. وأبلغت رئيس الوزارة أن مثل هذه الخطوة لو اتبعت فسوف تكون خطأ قاتلا (a fatal mistake) وقد وافقنى رئيس الوزراء، لكنى أشعر أنه غير مطمئن إلى الضباط. وأنا أعد الساعات راجيا أن يكون اليخت الملكى قد جاوز المدى الذى تستطيع أن تبلغه طائرات السلاح الجوى المصرى على فرض أن الأوامر صدرت إليها بمطاردة المحروسة. وآمل أن أقصى ما سوف يستطيعون تحقيقه هو أن يجعلوا أنفسهم مزعجين. وأتمنى أن أتلقى من مالطا تأكيدا أن اليخت أصبح الآن فى دائرة الأمان.



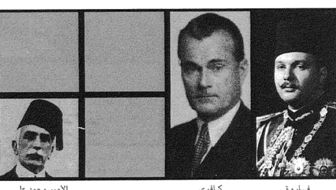
من وزارة الخارجية البريطانية ـ لندن
إلى سفيرها فى مصر
(٥٢٩ـ١٤٢ـ١٠١١)

اتصل الأمير محمد على (عم الملك فاروق الذى كان ولى عهده قبل أن تنتقل ولاية العهد إلى ابن الملك فاروق) بمكتب وزير الخارجية وعزز اتصاله كتابة بتبليغ أكد فيه: «إنه ابتداء من الآن فصاعدا يعتبر نفسه المسئول عن حقوق الأسرة المالكة فى مصر وأن قرارها فى الشأن المصرى ابتداء من الآن فى يده وحده».

....

....

ولم يدرك الأمير «محمد على» أن ما فى يده كان قبضة رماد من بقايا حريق، وأن القرار فى الشأن المصرى لم يعد لأسرة «محمد على» لأن صفحة من التاريخ المصرى طويت، وصفحة أخرى بدأت ـ ومعها زمان مختلف!



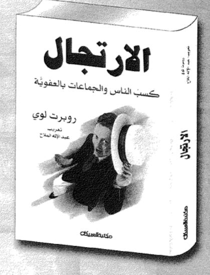
فاروق — كافرى — الأمير محمد على

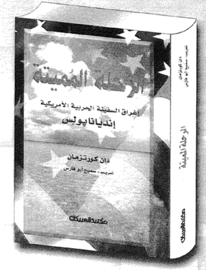


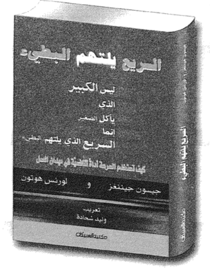


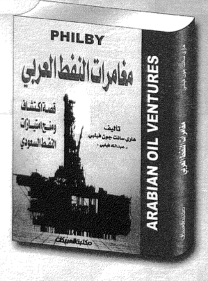


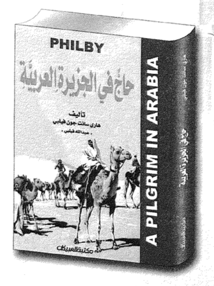
Publishers & Booksellers

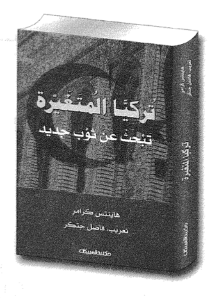












الرياض: تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة. هاتف: ٤١٦٠٠١٨-٤٦٥٤٤٢٤ - **الدمام:** حي الشاطئ - طريق الكورنيش . هاتف : ٨٠٩١٣٩٩

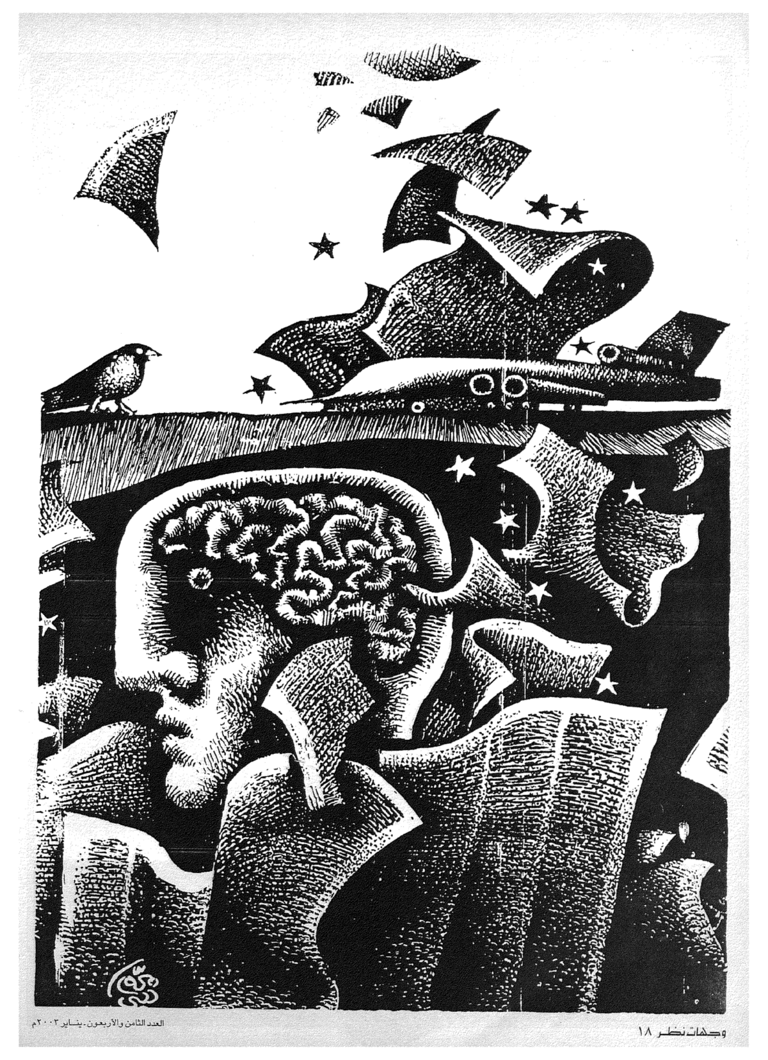
أبها: طريق أبها - خميس مشيط . هاتف: ٢٢٧٥٠٥٠- **المدينة المنورة:** طريق سيد الشهداء مع تقاطع الطريق الدائري . هاتف: ٨٣٧٨٣٩٣

الأحساء: مركز البستان التجاري - طريق الثريات . هاتف : ٥٨٦٤٦٦٦ - **القصيم:** بريده - طريق الملك خالد . هاتف : ٣٢٦٦٦٣٣

حفر الباطن: عقارية حفر الباطن . هاتف: ٧٢١١١١٨

www.obeikanbookshop.com - www.obiekanbooks.com

E-Mail: obeikan @ obeikanbookshop.com.sa



عـــودة إلى الأساسيات

مــحـــمـــد البــــرادعى

لا شك أن إحدى الحقائق المؤلمة فى عالمنا المعاصر هى أنه فى فترة تتجاوز نصف القرن بقليل، تم تصنيع ما يزيد على ١٢٥٠٠٠ رأس حربى نووى، تتعدى القوة التفجيرية لمعظمها قنبلة «ليتل مان» Little Man التى استخدمت فى هيروشيما، هذا بالإضافة إلى ما تم من تجارب للأسلحة النووية فى نفس الفترة والتى زادت على ٢٠٠٠ تفجير نووى - فى الجو وفى الفضاء وتحت الماء وتحت الأرض. وعلى الرغم من انتهاء الحرب الباردة، فإن هناك تحديات كثيرة مازالت تواجه محاولات الحد من التسلح ليس فقط بالنسبة للأسلحة النووية، بل بالنسبة لجميع فئات «أسلحة الدمار الشامل» - سواء كانت نووية أو بيولوجية أو كيمائية. وعلى الرغم من أننا لم نبلغ مستوى التوقعات التى سادت فى الستينيات - بأن عدد الدول الحائزة لأسلحة نووية سيتراوح فى المستقبل بين ١٥ و ٢٠ دولة - فإن الواقع المؤسف هو أنه بعد مرور ٤٠ عامًا هناك ثمانى دول على الأقل تمتلك أسلحة نووية، وأن هدف إخلاء العالم من الأسلحة النووية مازال هدفًا طويل الأمد وصعب المنال.

وحتى الآن فإن معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية المبرمة فى عام ١٩٧٠، والتى تضم حاليًا ١٨٨ دولة طرفًا، مازالت تمثل حجر الزاوية فى الجهود المبذولة على المستوى العالمى لتحقيق عدم انتشار السلاح النووى وإخلاء العالم منه. ولكن إذا كان لنا أن نحرز المزيد من التقدم نحو عالمية نظام منع الانتشار النووى وإخلاء العالم من تلك الأسلحة، فإنى أعتقد أنه من الضرورى إعادة النظر فى عدد من الافتراضات والسمات الأساسية التى يقوم عليها نظام منع الانتشار، وأن نفكر فى عدد من المناهج الجديدة.

معالجة الاختلال بين «من يملكون ومن لا يملكون»

هناك فرضية أساسية تكمن فى صميم معاهدة عدم الانتشار، وهى أن الاختلال القائم بين الدول الحائزة للأسلحة النووية والدول غير الحائزة لها سيختفى تدريجيًا، طبقًا لالتزام الدول الخمس الحائزة للأسلحة النووية - أى الدول التى كانت قد صنعت سلاحًا نوويًا وفجرته قبل (كانون الثانى / يناير ١٩٦٧) بالتخلص من تلك الأسلحة عن طريق مفاوضات تجرى «بحسن نية» فى مقابل التزام جميع الدول الأخرى الأطراف فى الاتفاقية بعدم حيازة أسلحة نووية وبقبول تحقق الوكالة الدولية للطاقة الذرية (التى سأشير إليها بعد الآن اختصارًا باسم «الوكالة») من جميع أنشطتها النووية السلمية، وفى مقابل الحصول على التكنولوجيا النووية السلمية.



ولكن إذا راجعنا سجل تنفيذ تلك الالتزامات فإننا سنجد أنه سجل مختلط يشمل نجاحًا وقصورًا فى ذات الوقت. فالاستفادة من التكنولوجيا النووية السلمية على مستوى العالم - فى مجالات توليد الطاقة والصحة البشرية واستخدام موارد المياه وإنتاج الأغذية وإصلاح البيئة - ونقل تلك التكنولوجيا إلى دول العالم الثالث قد أحرز تقدمًا كبيرًا بفضل جهود الوكالة وغيرها فى هذا المجال، وكذلك يمكن القول إن نظام عدم الانتشار قد نجح بشكل عام وإن شابه بعض أوجه النقص التى سأتناولها فيما بعد. أما فى مجال نزع السلاح النووى، فإنه مازال هناك الكثير الذى يجب عمله وتنفيذه بالرغم من بعض التقدم المحدود الذى تم إحرازه.

لقد ركزت معظم استراتيجيات نزع السلاح النووى على عقد اتفاقيات ثنائية للحد من الأسلحة النووية بين حائزى أكبر ترسانتين نوويتين - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، بالإضافة إلى عدد قليل من الاتفاقيات المتعددة الأطراف التى تهدف إلى السيطرة على تطوير الأسلحة النووية كمًا ونوعًا. وبانتهاء الحرب الباردة وما كانت تمثله من دافع كبير للتسلح، تم إحراز قدر ما من التقدم فى أوائل التسعينيات ومنتصفها نحو نزع السلاح النووى، ولكن للأسف، تباطأت هذه العملية مرة أخرى فى أواخر العقد. فعلى الرغم من أن معاهدة تخفيض الأسلحة الاستراتيجية - ستارت الأولى - بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والتى دخلت حيز النفاذ فى عام ١٩٩٤ قد حققت خفضًا كبيرًا فى عدد الأسلحة النووية الاستراتيجية المنشورة (Deployed)، فإن معاهدة ستارت الثانية، التى وقعت فى عام ١٩٩٣، تم التخلى عنها بالكامل. وبالرغم من أن الجهود التى بذلت لإنهاء تطوير الأسلحة النووية قد حققت تقدمًا مهمًا بعقد معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية فى أيلول / سبتمبر ١٩٩٦، إلا أن التصديق عليها كان بطيئًا من جانب الدول الـ ٤٤ التى يشترط تصديقها على المعاهدة لدخولها حيز النفاذ. ولا شك أن رفض مجلس الشيوخ الأمريكى لهذه المعاهدة فى ١٩٩٩ قد شكل انتكاسة بارزة بالنسبة لدخول تلك المعاهدة حيز النفاذ فى المستقبل القريب، ومن ناحية أخرى فإن التفاوض بشأن التوصل إلى معاهدة لوقف إنتاج المواد الانشطارية لأغراض التسلح يسير بخطى متراخية فى مؤتمر نزع السلاح فى جنيف بالرغم من مضى أكثر من سبع سنوات على تفويض المؤتمر بالعمل للتوصل إلى هذه المعاهدة.

وفى رأيى أنه يمكن إيعاز هذه المشاكل بوجه عام إلى استمرار الاعتماد على نظرية الردع النووى والافتقار إلى استراتيجية شاملة لنزع السلاح، وفى بعض الحالات - مثل معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية واتفاقية الأسلحة البيولوجية والسامة - فإن التعثر فى إحراز تقدم يرجع بقدر كبير إلى تشكك بعض الأطراف فى فعالية نظم التحقق الخاصة بهذه الاتفاقيات. وقد أدت هذه الانتكاسات مجتمعة إلى جمود عملية نزع السلاح، وإلى تثبيط الأمل فى إحراز مزيد من التقدم.



وبالرغم من أن المؤتمر الذى عقد فى عام ٢٠٠٠ لاستعراض ومراجعة معاهدة عدم الانتشار النووى قد أسفر عن عدد من التعهدات والالتزامات المشجعة، والتى من أبرزها «الالتزام المطلق» من جانب الدول الخمس الحائزة للأسلحة النووية بإزالة ترساناتها النووية تمامًا. فإننا الآن، وبعد انقضاء عامين، نجد أننا قد ابتعدنا كثيرًا عن تلك التعهدات، والدليل على ذلك أن عددًا من «الخطوات الـ ١٣» على طريق نزع السلاح النووى التى تم الاتفاق عليها فى المؤتمر - مثل عدم جواز الرجوع عن التعهدات التى قطعتها الدول على نفسها، وإجراء مزيد من التخفيضات «من طرف واحد» فى الترسانات النووية، وإجراء مزيد من التخفيض فى عدد الأسلحة النووية غير الاستراتيجية، والانتظام فى تقديم التقارير عن تنفيذ المادة السادسة من معاهدة عدم الانتشار والخاصة بالتفاوض للتوصل إلى نزع السلاح النووى - بقى دون متابعة بل وفى بعض الحالات تم العدول عنه تمامًا.

هذا لا يعنى أنه لم تكن هناك بوادر مشجعة أيضًا تستحق الذكر. فقد وقع الرئيس الروسى ورئيس الولايات المتحدة فى صيف هذا العام معاهدة لخفض الرؤوس الحربية النووية الاستراتيجية الروسية والأمريكية المنشورة إلى ما بين ١٧٠٠ و ٢٢٠٠ رأس بحلول نهاية عام ٢٠١٢. كما اتفقا على سحب كميات إضافية من المواد النووية من الاستخدامات العسكرية. وبالإضافة إلى ما تقدم فقد اتفق رؤساء دول مجموعة الـ ٨ فى اجتماع القمة الذى عقد فى حزيران / يونيو هذا العام فى كندا على قيام «مشاركة لمكافحة انتشار أسلحة ومواد الدمار الشامل»، وتعهدوا بتخصيص مبلغ ٢٠ مليار دولار خلال السنوات العشر المقبلة لتمويل جملة أنشطة منها التخلص من المواد النووية الناتجة عن تخفيض عدد الأسلحة النووية.

وبالرغم مما تقدم فإن الاختلال بين من أشار إليهم الرئيس الأمريكى كيندى بعبارة «من يملكون ومن لا يملكون» مازال قائمًا بشكل واضح. فضلاً عن أن بعض الدول الحائزة للأسلحة النووية قد عكست مؤخرًا اتجاه سياستها التى أصبحت تؤكد على استمرار أهمية الأسلحة النووية فى الدفاع عن المصالح الأمنية الوطنية، بما فى ذلك مناقشة جدوى تطوير أنواع جديدة من هذه الأسلحة وكذلك مناقشة سيناريوهات مختلفة لاستخدام الأسلحة النووية ضد دول غير نووية.

وفى تقديرى أنه كلما طال أمد هذا الاختلال، كلما زادت خطورته على البنية الأساسية التى يرتكز عليها نظام عدم الانتشار. فالوضع الحالى، مثلما وصفته لجنة كانبرا - التى شكلتها الحكومة الأسترالية قبل بضع سنوات للنظر فى موضوع نزع السلاح النووى - «لا يمكن أن يظل على ما هو عليه لأن امتلاك أى دولة للأسلحة النووية هو حافز مستمر للدول الأخرى لكى تمتلكها أيضًا». وعلى الرغم من أن نزع السلاح النووى التام فى المستقبل القريب قد يكون أملاً غير واقعى، إلا أنه من الضرورى فى رأيى أن تتخذ جميع الأطراف المعنية خطوات جدية لإظهار استعدادها لخفض ما لديها من الأسلحة النووية وتقليل اعتمادها عليها، وذلك تنفيذًا لتعهداتها بموجب اتفاقية منع الانتشار.

وفى رأيى كذلك أن خطوة حيوية وأساسية على طريق نزع السلاح النووى تتمثل فى ضرورة إعادة النظر فى نظرية «الردع النووى» وهى النظرية القائمة منذ أمد طويل، والتى مازالت راسخة فى استراتيجيات الأمن القومى لجميع الدول الحائزة للأسلحة النووية، والتى يعتمد عليها كذلك



على الرغم من أننا لم نبلغ مستوى التوقعات التى سادت فى الستينيات - بأن عدد الدول الحائزة لأسلحة نووية سيتراوح فى المستقبل بين ١٥ و ٢٠ دولة - فإن الواقع المؤسف هو أنه بعد مرور ٤٠ عامًا هناك ثمانى دول على الأقل تمتلك أسلحة نووية، وأن هدف إخلاء العالم من الأسلحة النووية مازال هدفًا طويل الأمد وصعب المنال

عدد كبير من الدول غير النووية من خلال ما يسمى بترتيبات «المظلة النووية» - والتى تلتزم بمقتضاها دولة نووية عضو فى تحالف أو ترتيب أمنى معين بتوسيع غطاء الحماية التى توفرها ترسانتها النووية وتأثيرها الرادع ليشمل الدول غير النووية الأعضاء فى هذا التحالف أو الترتيب - كجزء أساسى من مكونات أمنها.

وبغض النظر عما كان للأسلحة النووية من أثر رادع أثناء الحرب الباردة، فالواقع أنها تفقد الآن قيمتها تدريجيًا كعملة للقوة يمكن استخدامها - خاصة عندما يتعلق الأمر بمنع النزاعات المحلية والتصدى للتهديدات التى تشكلها الجماعات الإرهابية. وبالتالى، وإذا كان الاستخدام الوحيد الممكن تصوره لتلك الأسلحة هو لحماية وجود الدول، فإنه ينبغى للدول الحائزة للأسلحة النووية على أقل تقدير أن تسارع فى التحرك نحو تخفيض مخزونها من تلك الأسلحة إلى الحد الأدنى.

تقوية نظام التحقق

كان اكتشاف وجود برنامج سرى للتسلح النووى فى العراق بعد حرب الخليج فى عام ١٩٩١ دليلاً ملموسًا ومؤلمًا على أن نظام الوكالة للتحقق بتركيزه على الأنشطة النووية المعلنة وسلطاته المحدودة فيما يتعلق بالاطلاع على المعلومات ومعاينة المواقع، ليس كافيًا لكى توفر الوكالة التأكيدات الشاملة المطلوبة بموجب معاهدة عدم الانتشار بأن الأنشطة النووية لدولة ما مقصورة على الاستخدامات السلمية. وكان إدراك هذه الحقيقة القاسية دافعًا للمجتمع الدولى لكى يوسع صلاحيات الوكالة فى مجال التحقق بشكل كبير، وقد ضُمنت هذه الصلاحيات الجديدة فى بروتوكول إضافى لاتفاقيات الضمانات اعتمد فى عام ١٩٩٧ ودعيت جميع الدول إلى الانضمام إليه.

ونتيجة لذلك أصبحت الوكالة الآن قادرة على أن توفر، بالنسبة للدول غير النووية التى لديها اتفاق ضمانات وبروتوكول إضافى معًا، تأكيدات جديرة بالثقة ليس فقط بعدم استخدام المواد النووية المعلنة لأغراض عسكرية، بل - وبنفس الأهمية - تأكيدات كذلك بعدم وجود مواد وأنشطة نووية غير معلنة. ولكن من دواعى الأسف أن العديد من الدول لم تتخذ الخطوات اللازمة حتى الآن لعقد اتفاقيات الضمانات المطلوبة مع الوكالة، ناهيك عن البروتوكولات الإضافية، فمازالت هناك ٤٩ دولة من الدول غير النووية - الأطراف فى معاهدة عدم الانتشار - بدون اتفاقات ضمانات مع الوكالة ولم يدخل حيز النفاذ إلا ٢٨ بروتوكولاً إضافيًا، ومن الواضح أن الوضع يتطلب بذل مزيد من الجهود لكى تأخذ الدول غير النووية التزاماتها بعدم الانتشار بمزيد من الجدية. وهنا يجدر بى أن أذكر أن بعض الدول غير النووية تبرز تباطؤها فى عقد البروتوكولات الإضافية المطلوبة، بعدم إحراز تقدم ملموس على صعيد نزع السلاح النووى، وفى كل الأحوال فإن الوكالة لاتستطيع القيام بأى أنشطة تحقق أو توفير أى تأكيد بعدم الانتشار بدون اتفاقات الضمانات، وبالنسبة للدول بدون بروتوكولات إضافية فتبقى صلاحيات التحقق التى تتمتع بها الوكالة فى هذه الدول كما كانت عليه قبل اكتشاف البرنامج النووى العراقى غير المعلن. وباختصار، فلكى تتمكن الوكالة من توفير التأكيدات المطلوبة فيما يتعلق بمنع انتشار الأسلحة النووية فإنه يجب أن تتوافر لها الصلاحيات اللازمة.

من الواضح أن نجاح تحقق الوكالة سيعتمد بشكل كبير على تحقيق عالمية اتفاقات الضمانات والبروتوكولات الإضافية اللازمة من جانب جميع الدول غير النووية الأطراف فى معاهدة عدم الانتشار. وسيستفيد نظام تحقق الوكالة أيضًا من توثيق التعاون مع الدول الأعضاء فى مجال تقاسم المعلومات. وبغض النظر عما لدى الدول من معلومات عن احتمال عدم امتثال أحد الأطراف فى اتفاقية منع الانتشار لالتزاماته، فإن الوكالة فقط هى التى يمكنها - من خلال التفتيش - التأكد من تلك المعلومات والتوصل إلى نتائج محددة، ولهذا فإنه من الأهمية بمكان أن تقوم الدول بتقديم ما لديها من معلومات فى الوقت المناسب، بشأن حالات الشك فى عدم الامتثال إلى الوكالة، فنجاح الوكالة فى عمليات التفتيش يتوقف على مدى توافر المعلومات لديها سواء المستخدمة فى عمليات التفتيش ذاتها أو تلك التى توفرها الدول. وبوسعى أن أقول إن تقدمًا ملموسًا يجرى إحرازه حاليًا بشأن وضع إجراءات عملية تحصل الوكالة بموجبها على المعلومات التى تهمها فى الوقت المناسب من الدول الأعضاء مع حماية سرية هذه المعلومات، من جهة، واحترام استقلالية الوكالة، ووضعها كإحدى منظمات الأمم المتحدة، من جهة أخرى.

نهج موحد فى التعامل مع حالات عدم الامتثال لالتزامات منع الانتشار

من أهم جوانب نظام عدم الانتشار التى تحظى حاليًا بأقصى قدر من الاهتمام الشق الخاص بالامتثال لالتزامات منع الانتشار - والتى يثيرها فى الوقت الحالى الوضع فى العراق وفى كوريا الشمالية.

العراق

لقد أوضحت فى مقالة افتتاحية فى جريدة واشنطن بوست مؤخرًا تقديرى لماهية الغرض من عمليات التفتيش على الأسلحة فى العراق وأهمية هذه العمليات. فعمليات التفتيش التى توقفت فى كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٨ كانت قد نجحت فى إحباط مساعى العراق لتطوير برنامج العراق للتسلح النووى كما قمنا بإزالة جميع المرافق والمعدات ذات الصلة بإنتاج الأسلحة النووية. أو تحييدها بالإضافة إلى مصادراتنا للمواد الصالحة لصنع الأسلحة النووية وفى حين أننا لا نزعم أنه كان لدينا يقين مطلق، إلا أننا كنا على ثقة من أننا لم نغفل أى مُكون ذى حيثية من مكونات البرنامج النووى العراقى.



وعلى الرغم من أن الرصد بالأقمار الصناعية والعمل التحليلى قد استمرا منذ مغادرتنا العراق فى ديسمبر ١٩٩٨، إلا أنه لا يمكن للتحليل عن بعد أن يحل محل عمليات التفتيش أو أن يمكننا من التوصل إلى نتائج محددة بشأن أية محاولات لتطوير أسلحة نووية فى العراق أثناء السنوات الأربع الماضية. فالتفتيش هو السبيل الوحيد لاستجلاء الحقائق.

وأعتقد أن نجاح عمليات التفتيش فى العراق سيعتمد على خمسة شروط مسبقة ترتبط ببعضها البعض:

١- معاينة أى مكان أو موقع فى العراق ودون شروط، وممارسة جميع السلطات التى خولنا إياها مجلس الأمن ممارسة كاملة - بما فيها السلطات الإضافية المنصوص عليها فى القرار الجديد ١٤٤١.

٢- تيسير اطلاع الوكالة على جميع المعلومات التى فى حوزة الدول والخاصة بأية أنشطة مرتبطة بتنفيذ قرارات مجلس الأمن.

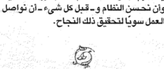
٣- دعم كامل من مجلس الأمة لمهمة التفتيش فى العراق، مع تصميم حازم على التصرف بسرعة فى حالة عدم الامتثال.

٤- تعاون إيجابى من جانب العراق، مع إظهاره على الدوام استعداده المعلن للتحلى بالشفافية وتمكين المفتشين من تنفيذ مهمتهم دون شروط.

٥- صوت هيبة ونزاهة عملية التفتيش وتحررها من التدخل الخارجى لضمان قبول استنتاجاتها باعتبارها موضوعية وجديرة بالثقة من جانب جميع الأطراف. فمساعى الحكومات الوطنية لاختراق التفتيش ستأتى بنتائج عكسية فى نهاية الأمر، لأنها تؤدى إلى تدمير بنية العملية ذاتها، ناهيك عن مصداقيتها.

وأحيانًا يتم توجيه الانتقاد لعمليات التفتيش بأنها مجدية أو فعالة فقط فى حالة إبداء الدولة التى يتم التفتيش عليها التعاون الكامل فى هذا الاتجاه. إلا أن هذا الانتقاد يشوبه بعض اللبس وخلط الأمور، حيث إن ماهية مهمة التفتيش، سواء فى العراق أو فى أى دولة أخرى، لا تعتمد فى الأساس على مبدأ «الثقة» وإنما تعتمد أساسًا على جهد دءوب ودقيق من أجل استقصاء الحقائق من خلال معاينة وفحص جميع المعلومات والبيانات المتوفرة، علمًا بأن المعلومات ذات الصلة التى فى حوزة الدول الأخرى والتى تحصل عليها الوكالة تشكل أحد العناصر الأساسية لإنجاح التفتيش وأهدافها، خاصة إذا كانت الدولة المعنية التى يتم التفتيش فيها لا تبدى التعاون المطلوب.

غير أننى واثق فى أن المفتشين، إذا ما منحوا السلطات المناسبة وحصلوا على المعلومات اللازمة، سيتمكنون من التحقق بفعالية من نزع سلاح العراق. وفى اعتقادى أن استعمال القوة ينبغى أن يكون الملاذ الأخير لا الخيار الأول. ولكن بغض النظر عن مجرى الأحداث فى المستقبل المنظور، ستبقى عمليات التفتيش هى الأساس على الأمد الطويل التى تستهدف كشف وإحباط المساعى السرية لتطوير الأسلحة النووية فى العراق أو فى أى مكان آخر. فليس هناك يقين، مثلاً، بأن أى نظام جديد فى العراق سيتخلى تلقائيًا عن الأسلحة غير التقليدية، إذا كان هذا التخلى لا يتسق فى مفهومه مع تصوره للتهديدات الخاصة بأمنه. فعلى الرغم من أن مهمة التفتيش تستغرق بعض الوقت فى بعض الأحيان، إلا أن نتائجها مضمونة وذات مصداقية، وإذا نجحت فى تحقيق الأهداف المرجوة منها فإنها ستسهم بالتأكيد فى تجنب إزهاق أرواح بريئة. ولهذا فإن من الضرورى أن نبذل كل جهد لإنجاح نظام الوكالة للتحقق، والذى يشكل محور جميع الجهود المبذولة للحد من الأسلحة النووية - فى العراق وفى أى مكان آخر، وهذا يستلزم أن نواصل التعلم من تجاربنا الماضية وأن نحسن النظام و- قبل كل شىء - أن نواصل العمل سويًا لتحقيق ذلك النجاح.



وإننى لآمل وأثق أيضًا بأن إبداء العراق تعاونًا كاملاً وشاملاً سيؤدى إلى تجنب استخدام القوة، وسيفتح الطريق لتعليق العقوبات - التى عانى منها الشعب العراقى طويلاً - ثم إزالتها بالكامل فى مرحلة لاحقة، أما فى حالة عدم التعاون الكامل، وكما أوضح قرار مجلس الأمن الأخير، فستكون هناك عواقب وخيمة بالنسبة للعراق. ولذلك فإن من الأهمية بمكان أن تعمل جميع دول المنطقة على التأكيد

للعراق بأن التعاون الشامل والمستمر من جانبه مع مهام التفتيش يمثل شرطًا جوهريًا لتجنيب المنطقة حربًا غير معروفة العواقب أو النتائج، وهو ما قد أشار إليه الرئيس الفرنسى شيراك عندما ذكر «إنما تمثل الحرب دومًا الحل الأسوأ» لأية مشكلة.

كما يجب أن أضيف فى هذا السياق بأنه فى اعتقادى أن إحراز تقدم على مسار المسألة العراقية وحلها، سيساهم بشكل واضح وملموس فى دعم فرص إحلال السلام فى الشرق الأوسط، وسيساهم كذلك - فى إطار هذا السلام - فى دعم إمكانية التوصل إلى ترتيبات خاصة بالأمن الإقليمى، والتى يجب أن تتضمن إنشاء منطقة خالية من السلاح النووى وأسلحة الدمار الشامل الأخرى فى الشرق الأوسط.

كوريا الشمالية

انضمت كوريا الشمالية إلى معاهدة عدم الانتشار فى كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٥، ولكن اتفاق الضمانات الذى عقدته لم يبدأ نفاذه إلا فى نيسان/أبريل ١٩٩٢، بعد ست سنوات من انضمامها إلى المعاهدة. وبعد ذلك بفترة وجيزة، فى عام ١٩٩٣، أعلنت الوكالة ومجلس الأمن أن كوريا الشمالية غير ممتثلة لاتفاق الضمانات الذى عقدته. ويعزى ذلك إلى عدم منح الوكالة حق الاطلاع الكامل على المعلومات ومعاينة الأماكن والتى بمقتضاها يتسنى لها أن تتحقق من أن كوريا الشمالية قدمت إعلانًا كاملاً وصحيحًا عن المواد النووية التى تمتلكها والخاضعة لنظام الوكالة للتحقق.

وطبقًا لتقديراتنا، فإن العمل اللازم للتحقق من صحة واكتمال الإعلان المبدئى لكوريا الشمالية يمكن أن يستغرق من ثلاث إلى أربع سنوات، على افتراض أنها ستتعاون تعاونًا تامًا. إلا أنه وفقًا لمعلومات حديثة فإن كوريا الشمالية يمكن أن تكون قد عكفت خلال السنوات القليلة الماضية على تنفيذ برنامج جديد غير معلن لإنتاج اليورانيوم الشديد الإثراء، بالإضافة إلى برنامجها السابق لإنتاج البلوتونيوم.

وكما هو معروف، فإن المقارنة بين النهجين المختلفين المتبعين حيال العراق وكوريا الشمالية لا تتوقف، لأن البلدين كليهما ينتهكان التزاماتهما المتعلقة بعدم الانتشار، ولقد طرحت تفسيرات شتى لهذا الاختلاف بين النهجين. وبديهى أن الحالتين مختلفتان وفى غاية التعقيد، ومن المفهوم استخدام سياسة «الجزرة والعصا» بدرجات متفاوتة فى كلتا الحالتين، ولكن فى تصورى أنه على الرغم من أن اختلاف الظروف قد يستلزم اختلاف الاستجابات للتحديات المطروحة، فإن النهج فى جميع الأحوال يجب أن يكون نهجًا واحدًا لا يتغير: وهو عدم التسامح إطلاقًا فى حالة عدم الامتثال لالتزامات عدم الانتشار، وذلك حرصًا على مصداقية النظام ذاته.

تقوية نظام عدم الانتشار

بالإضافة إلى ما تقدم، ينبغى أن نواصل استكشاف مزيد من الطرق التى تؤدى إلى تحقيق النتائج المنشودة من أجل تقوية نظام عدم الانتشار. والنهج المتبع إزاء الدول الثلاث الباقية خارج نظام عدم الانتشار - الهند - باكستان - إسرائيل - أمر وثيق الصلة بهذا الموضوع. وينبغى لنا، فى اعتقادى، ألا نواصل معاملة هذه الدول باعتبارها مجرد دول خرجت عن الإجماع، وإنما ينبغى أن نحثها على العمل كشريك فى الجهود العالمية المبذولة لتقوية نظام عدم الانتشار وإحراز التقدم نحو نزع السلاح النووى.



ويمثل موضوع الضوابط المفروضة على تصدير المواد والتكنولوجيا النووية مثلاً جيدًا على ذلك. فالهند وباكستان تواصلان تشغيل بعض المفاعلات النووية والمرافق المتصلة بها الخاضعة لضمانات الوكالة، ومع ذلك لا يستطيع أى من البلدين - بسبب الضوابط المفروضة على التصدير - الحصول على معدات وتكنولوجيا خاصة بالأمان النووى هما فى أشد الحاجة إليها. فبدلاً من التركيز - فقط - على سياسة الحرمان، يجب أن نبحث عن فرص لاشتراكهما، وعلى سبيل المثال من خلال تقديم الحوافز دون الاقتصار فقط على فرض العقوبات، فمثلاً، يمكن فى مقابل الحصول على المساعدة فى مجال الأمان النووى - وهو استثناء تسمح به المبادئ التوجيهية Guidelines لمجموعة موردى المواد النووية Nuclear Suppliers Group أن تلتزم هذه الدول باتباع تلك المبادئ التوجيهية بالإضافة إلى دعم معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية والعمل نحو عقد معاهدة لوقف إنتاج المواد النووية للأغراض العسكرية.

العمل من أجل وضع نهج جديد للأمن

يتعلق الموضوع الأخير الذى سأتطرق إليه بالمسألة الأساسية، وهى الأمن. وفى اعتقادى أنه يجب علينا، لفهم كيفية تحقيق التقدم المطلوب، ألا نكتفى بفحص الأعراض، وإنما نبحث كذلك فى الأسباب أى فى العوامل المحركة والحافزة التى تفضى للانتشار النووى. فلماذا، يشكل الشرق الأوسط، مثلاً، منطقة تعج بأنشطة الانتشار بشكل كبير بالمقارنة بمناطق أخرى، كإسكاندنافيا مثلاً؟ من الواضح أن حالة النزاع والتوتر الدائمين هى التى تخلق هذا الوضع، ويمكن أن يقال الشىء نفسه بالنسبة لجنوب آسيا وشمال شرق آسيا.

لقد تم حسم شواغل واعتبارات الأمن الأساسية فى بعض المناطق، عن طريق ترتيبات، المظلة النووية، التى أشرت إليها من قبل أو عن طريق ترتيبات وتسويات إقليمية. وبالتالى فإن الطلب على أسلحة الدمار الشامل منخفض أو منعدم فى المناطق التى عولجت فيها شواغل الأمن، ولا يجب أن نندهش إذا رأينا أن المناطق التى تشهد قصورًا فى الأمن أو نزاعًا لم يحسم، هى أيضًا المناطق التى يكون فيها الطلب مستمرًا على نظم الأسلحة المختلفة.

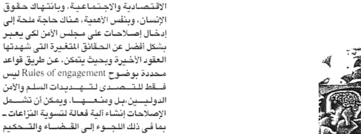
وفى كل تلك المناطق التى تعانى من مشكلة أمنية ونزاعات إقليمية، فإن حيازة بلد واحد لأسلحة الدمار الشامل هى حافز واضح لكى يمتلكها الآخرون. وبالتالى فإن مناقشات الأمن الإقليمى، بالنسبة لمثل هذه المناطق، لا يمكن فصلها عن تسوية النزاعات الإقليمية ويجب معالجتها بالتوازى وبصورة شاملة تأخذ فى الحسبان الشواغل الأمنية للجميع، فالأمن المطلق لطرف ما قد يكون على حساب الأمن المطلق لطرف آخر.

وقد بدأت تبرز حاليًا استراتيجية يزداد الاعتماد فيها على نظم الأمن الإقليمية، مثل النظام الذى يقام حاليًا فى أوروبا. وسوف تكشف لنا الأيام مدى فاعلية هذه النظم. ولكننى أعتقد أن إمكانية المضى إلى الأمام - ليس يخص شواغل الانتشار فحسب، بل أيضًا فى اتجاه تحقيق تخفيضات ذات شأن فى الترسانات النووية الحالية - تعتمد بشكل حاسم على قدرتنا على وضع استراتيجيات أمنية بديلة جديرة بالثقة، استراتيجيات ليس من سماتها الردع النووى، استراتيجيات يمكن العمل بها ويمكن لجميع الدول أن تعتمد عليها بدقة.

ولتحقيق هذه الغاية هناك حاجة ملحة لإعادة تنشيط نظام الأمن الجماعى لعام ١٩٤٥ على نحو ما ورد فى ميثاق الأمم المتحدة، وذلك عن طريق وضع تعريف أوسع لمفهوم التهديد للسلم والأمن الدوليين - بحيث لا يقتصر الأمر على التهديدات العسكرية وحسب، وإنما يشمل أيضًا التهديدات المرتبطة بالنظم الاستبدادية واغتصاب سيادة الشعوب، وبانعدام التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وبانتهاك حقوق الإنسان. وبنفس الأهمية، هناك حاجة ملحة إلى إدخال إصلاحات على مجلس الأمن لكى يعبر بشكل أفضل عن الحقائق المتغيرة التى شهدتها العقود الأخيرة وبحيث يتمكن، عن طريق قواعد محددة بوضوح Rules of engagement ليس فقط للتصدى لتهديدات السلم والأمن الدوليين، بل ومنعها. ويمكن أن تشمل الإصلاحات إنشاء آلية فعالة لتسوية النزاعات - بما فى ذلك اللجوء إلى القضاء والتحكيم الدوليين، وإيجاد نظام عقوبات ذكى للتصدى لعدم الامتثال يمكن تكييفه حسب اختلاف أنظمة الحكم، وإنشاء قوات تابعة للأمم المتحدة دائمة الاستعداد ومجهزة بشكل أفضل لاحتواء النزاعات وإدارتها قبل أن تستفحل، ووضع حدود متفق عليها لاستعمال حق الاعتراض (الفيتو).

الخلاصة

برغم التحديات التى أشرت إليها، فإنه لا يمكن إنكار المساهمات الإيجابية التى مازالت تقدمها نظم المعاهدات متعددة الأطراف من أجل منع الانتشار النووى، ومنع استخدام أسلحة الدمار الشامل. وتجدر الإشارة فى النهاية إلى كلمات قالها الجنرال الأمريكى عمر برادلى منذ نصف قرن تقريبًا: «لقد كشفنا النقاب عن أسرار الذرة ولكننا نسينا دروس «موعظة الجبل» فنحن نعرف عن الحرب أكثر مما نعرف عن السلم».





مازالت هناك ٤٩ دولة من الدول غير النووية - الأطراف فى معاهدة عدم الانتشار - بدون اتفاقات ضمانات مع الوكالة ولم يدخل حيز النفاذ إلا ٢٨ بروتوكولاً إضافيًا، ومن الواضح أن الوضع يتطلب بذل مزيد من الجهود لكى تأخذ الدول غير النووية التزاماتها بعدم الانتشار بمزيد من الجدية



٥٠ مليـــــار دولار معـــــارك..

ويلـيـــــام نــوردهـــاوس

تسير الولايات المتحدة نحو حرب العراق، حيث تتقدم خطوتين وتتراجع واحدة. وقد أعلنت حكومة بوش عما لديها من أسباب لخوض الحرب، إلا أنها لم تقدم تقديرات رسمية لما ستكلفه الحرب. ومع أن معظم الناس كثيرًا ما يتجاهلون تقديرات التكاليف حين يدور النقاش حول الحرب، إلا أنهم يعترفون بأن التكاليف بالدولار، وبالدم بصورة خاصة، تكون مقبولة فقط ما دامت منخفضة. فإذا بلغت تقديرات الخسائر الأمريكية آلاف الأرواح، وإذا كانت التكاليف التي يتحملها الاقتصاد زيادة كبيرة في الضرائب أو ركودًا اقتصاديًا شديدًا، أو إذا كانت الولايات المتحدة ستصبح منبوذة من العالم بسبب الهجمات التي لا تراعي أية مشاعر تجاه السكان المدنيين، فإن على متخذي القرار في البيت الأبيض والكونجرس ألا يسرعوا الخطى إلى المعركة.

ومع ضخامة التكاليف، فمن المستغرب عدم وجود تحليلات عامة معتمدة لاقتصاد الصراع العسكري مع العراق. وهذا المقال محاولة لملء هذا الفراغ. ولا بد أن نبدأ بالاعتراف بأن التقديرات المقدمة هنا يفترض أن خطأها مؤكد في بعض الجوانب، ذلك أن ضباب الحرب يمتد إلى ما وراء ميدان القتال بكثير ليشمل ردود الأفعال السياسية والنتائج الاقتصادية. إلا أنه، كما يقول كينز، من الأفضل أن تكون على صواب بشكل غير واضح من أن يكون خطؤك شديد الوضوح.

[١]

لا بد أن يعتمد تقدير تكاليف الحرب مع العراق على سيناريو خاص بإدارة الحرب، والأعمال العدوانية التي تعقبها، وآثار ذلك على سوق النفط وما يتصل بها من أسواق أخرى، والآثار «الاقتصادية الكلية»، أي على الاقتصاد الأمريكي بالكامل. ومن المستحيل التنبؤ بالاستراتيجيات العسكرية المفصلة. إلا أنه يمكننا بيان الخطوط العامة الخاصة بـ«الانتصار السريع» و«الصراع المطول» ومحاولة وضع بطاقة سعر على كل منهما.

ولا يتوقف الفرق بين الحالات الجيدة والحالات السيئة على من الذي سيفوز، ذلك أن هناك شكًا قليلاً لدى المتخصصين العسكريين بأن الولايات المتحدة سوف تكون لها الغلبة إن هي دخلت بقوة ساحقة وكانت لديها الرغبة في المثابرة عند مواجهة العقبات جميعها. إلا أن الفرق يكمن في طول أمد الصراع، وما يلحق بالعراق من أضرار، والخسائر بين المدنيين، واحتمال الحرب غير التقليدية، وامتداد الصراع إلى خارج العراق.

أوضحت دراسة أعدها أعضاء لجنة الموازنة من الديمقراطيين في مجلس النواب ودراسات أخرى لمتخصصين مثل أنطوني كوردسمان ومايكل أوهانلون نقطة تبدو مقنعة يبدأ من عندها التحليل. فهذه التحليلات تقدر أنه لكي تحقق الولايات المتحدة القوة الساحقة سوف تنشر ما بين ١٥٠ و٣٥٠ ألف فرد، وهو ما يساوي تقريبًا نصف مستوى نشر القوات في حرب الخليج الأولى في عامي ١٩٩٠/ ١٩٩١. ويقدم الاختصاصيون تشكيلة كبيرة من سيناريوهات الحرب، بما في ذلك الاعتماد بشدة على القوات الخاصة، والحرب الجوية المكثفة والغزو البري. ولا يمكن التكهن بالتفاصيل التكتيكية، غير أنها لا تهم التحليل الاقتصادي.

سوف يشبه سيناريو «الانتصار السريع» حرب الخليج الأولى، وحرب كوسوفو، وحرب أفغانستان. وسوف ينطوي على توليفة ما من الاستراتيجية والحظ يلقى فيها القبض على صدام حسين وقياداته أو يقتلون، ويستسلم الجيش العراقي بسرعة، وتمنع القوات الأمريكية انتشار الاضطرابات في الجنوب أو في المناطق الكردية في الشمال. وهذه هي «الحرب الجديدة أ» المحللة في تقرير الأعضاء الديمقراطيين، حيث تتصور أنه ستكون هناك حرب جوية وبرية تتراوح مدتها بين ثلاثين وستين يومًا، يليها شهران ونصف من وجود القوات بعد الانتصار على مسرح العمليات. ومن الصعب رؤية أن هناك شيئًا أقل تكلفة من هذا السيناريو سوى الاستسلام الوقائي من جانب النظام العراقي.

و«الصراع المطول» هو الموقف الذي يتدحرج فيه زهر الحرب على غير هوى من يرميه. ويشير المحللون إلى مجموعة من المضاعفات والتكاليف المحتملة التي لا بد من أخذها في الاعتبار. وتشمل هذه المضاعفات الصراع المطول والاستراتيجية العراقية الخاصة بتركيز القوات في المناطق الحضرية كبغداد، والآثار الضارة على النفط والأسواق، وتصعيد إسرائيل للحرب، والأعمال الإرهابية في أنحاء العالم، وتكاليف الاحتلال وحفظ السلام الباهظة، وتكاليف إعادة التعمير وبناء الدولة الباهظة، والمساعدات الإنسانية المكلفة، والصدمات التي ستحدث للاقتصاد الأمريكي إجمالاً، واستخدام أسلحة الدمار الشامل.

[٢]

هناك نقطتان أساسيتان لا بد من توضيحهما قبل بدء التحليل. النقطة الأولى هي أننا نحاول تقدير التكاليف الإجمالية التي تتحملها البلاد، وليس مجرد تكاليف الميزانية. ونحن نسأل عن مقدار مُخْرَجنا القومي الذي ستضحي به الحرب ونتائجها؛ وهو في الواقع ضياع الزبد بسبب اللجوء للسلاح. أما الثانية فهي أن هذه التقديرات يجب أن تحسب فقط تكاليف الحرب المتزايدة. فالفرقة الثانية والثمانون المحمولة جوًا تُدفع لها رواتبها سواء أكانت في العراق أم في كارولينا الشمالية. ولكن التكاليف الإضافية كتلك الخاصة بالنقل ورواتب القتال، وتكاليف الاستبدال الخاصة بالذخيرة، هي التي ينبغي حسابها ضمن تكاليف الحرب.

هناك دراستان مفصلتان فقط عن تكاليف الحرب مع العراق، وكلتاهما من إعداد لجنة الميزانية بالكونجرس. إحداهما دراسة سبق ذكرها أعدها الأعضاء الديمقراطيون في لجنة الميزانية بمجلس النواب والثانية أعدها مكتب الميزانية بالكونجرس.

وكانت دراسة مجلس النواب «من أعلى لأسفل». وهي تتنبأ بتكاليف حرب الخليج الثانية بناء على تكاليف صراع ١٩٩٠-١٩٩١، وقدرت الدراسة تكلفة سيناريوهين للحرب. وتشمل الحرب التي نحن بصدد الحديث عنها ٢٥٠ ألف فرد. وطبقًا لسيناريو مجلس النواب، تتراوح التكلفة المقدرة بين ٤٨ و٦٠ مليار دولار بخلاف الفوائد. ويقل هذا الرقم بعض الشيء عن تكلفة حرب الخليج الأولى التي بلغت ٨٠ مليار دولار بأسعار ٢٠٠٢.

واستخدمت دراسة مكتب الميزانية طريقة بحث مختلفة، وهي طريقة «من أسفل لأعلى» التي حسبت أسعار المكونات المختلفة للحرب مع العراق ثم طلبت منا جمعها. وتشمل الحالة الأوثق صلة، وتسمى خيار «الأرض الثقيلة»، ٣٧٠ ألف فرد عسكري في العراق وبالقرب منها.

ويمكننا مقارنة دراستي الكونجرس بمطابقة الافتراضات التي وراء تقديرات تقرير مجلس النواب على تقديرات مكتب الميزانية الخاصة بمختلف المكونات. وبالنسبة لما يسميه مجلس النواب صراع «الحرب الجديدة أ»، باعتبارها حربًا قصيرة ناجحة، يصل مجموع صيغ مكتب الميزانية إلى ٤٤ مليار دولار، مقابل تقدير مجلس النواب الذي يتراوح بين ٤٨ و٦٠ مليار دولار. وبناء على هاتين الدراستين، فإن التقدير التقريبي هو أن الحرب القصيرة الناجحة سوف تكلف حوالي ٥٠ مليار دولار. هذا مقابل تكلفة حرب الخليج الأولى البالغة ٨٠ مليار دولار بأسعار ٢٠٠٢.

ولا يقدم أي من التقريرين تقديرات لتكاليف الحرب المطولة. فهذه التكاليف سوف تتوقف على طول مدة الصراع، ومقدار امتداده إلى الدول الأخرى، والموارد الإضافية المكرسة للدخول في الحرب. ولنتأمل حالة ترفض فيها الدول المجاورة حق الولايات المتحدة في إنشاء القواعد واستخدام الأجواء ويسعى العراق إلى اتباع استراتيجية لدفاع المدن، حيث قد يمتد الصراع إلى عام كامل، وقد تضطر الولايات المتحدة إلى تكريس ٥٠ بالمائة من الموارد إضافة إلى ما تكرسه في حرب «الأرض الثقيلة» التي يحللها مكتب الميزانية. في تلك الحالة سوف ترتفع التكاليف من ٥٠ مليارًا إلى ١٤٠ مليار دولار. ومع أن هذا التكاليف ستكون أكبر بكثير، فهي ستظل في حدود ١,٥ بالمائة من إجمالي الناتج المحلي؛ أي في حدود تكلفة الحربين المكسيكية الأمريكية أو الأسبانية الأمريكية وليس الحربين الفيتنامية أو الكورية الأكثر تكلفة.

تعد دراستا الكونجرس مساهمتين قيمتين في الوعي العام بتكاليف الصراع العسكري. إلا أنهما غير كاملتين. فبالإضافة إلى التكاليف العسكرية المباشرة للحرب في العراق، من المفترض أن هناك نفقات حتمية أخرى بعد الصراع. وتلخص التقديرات التالية التكاليف الكبيرة التي يمكن تحديدها وتتحملها الولايات المتحدة على مدى العشر سنوات التالية للحرب، أي من ٢٠٠٣ إلى ٢٠١٢.

بطبيعة الحال تتعلق الفئة الأولى بضرورة وضع قوات احتلال وحفظ سلام ضخمة في العراق لمدة طويلة بعد الحرب. وليس هناك ما يدل على أن الشعب الأمريكي مستعد للمدى المحتمل للعملية. وتقدر لجنة الميزانية بالكونجرس أن يتكلف الاحتلال ما بين ١٧ و٤٥ مليار دولار سنويًا، أي حوالي ٢٥٠ ألف دولار لكل فرد من أفراد حفظ السلام في العام. وهذا الرقم هو الحد الأدنى من تكلفة أفراد حفظ السلام الأمريكيين في كوسوفو. وقد يكون هذا التقدير أقل مما يجب إذا كانت بيئة ما بعد القتال في العراق معادية وتشبه أخطارها تلك الأخطار التي في الضفة الغربية أكثر من تلك التي في البلقان.

كما أنه ليس بالإمكان التنبؤ بالزمن الذي يستغرقه جهد الاحتلال وحفظ السلام. فقد استمر احتلال اليابان سبع سنوات، بينما وضعت الولايات المتحدة أكثر من ٣٠ ألف جندي في كوريا الجنوبية لمدة نصف قرن. ومن الصعب أن نرى كيف يكون احتلال العراق الناجح أقل من خمس سنوات وربما يمتد بسهولة إلى عشرين سنة. وبينما لا توجد تقديرات عامة للإجمالي، فإن الحد الأدنى المقدر للتكاليف سيكون ٧٥ مليار دولار، بينما يصل الحد الأقصى للتكاليف إلى ٥٠٠ مليار دولار؛ وسوف تتساوق هذه الأرقام مع عمليات حفظ السلام في البلقان وحجم مهمة العراق ومداها.

وحين تُفرض درجة ما من النظام، لا بد أن تتجه الولايات المتحدة وشركاؤها إلى إعادة الإعمار وبناء البلاد. فما هي الأهداف الخاصة بالعراق، وكيف ستحقَّق هذه الأهداف؟ هل سيعقب «تغيير النظام» أن يُعهد بمهمة اختيار قيادة إلى لويا چيرجا، كما في أفغانستان؟ وهل ستضع الولايات في الحكم نظامًا كذلك الذي كان في ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية، أم تفرض دستورًا على النمط الغربي، وصحافة حرة، وانتخابات حرة، وكل البنية التحتية الخاصة بالديمقراطية الغربية؟ وهل ستقدم الولايات مشروع مارشال جديدًا لديمقراطيات الشرق الأوسط؟

يحذر الباحثون الذين درسوا تاريخ بناء الدول من أن العملية صعبة ومكلفة وتزخر بالمآزق. وتشير النماذج الحديثة لمحاولة الولايات المتحدة بناء الدول، ومنها هاييتي والبوسنة وأفغانستان، إلا أن الولايات المتحدة لم تكتشف أية صيغة للنجاح السريع وغير المكلف. كما أن طول الزمن الذي يستغرقه جهد بناء الدولة غير مؤكد إلى حد كبير، إلا أنه من الصعب رؤية مدى إمكانية تحقيق محاولة جادة لتحويل العراق إلى مجتمع ديمقراطي خلال أقل من عشر سنوات.

الذي سيحدد تكاليف إعادة التعمير وبناء الدولة إلى حد كبير هو الطموحات الخاصة بعراق ما بعد الحرب. فإذا كان لا بد أن يصل

فاتورة حرب العراق من يدفعها هذه المرة؟

نصيب الفرد في العراق من إجمالي الناتج المحلي إلى مثيله في مصر وإيران. وإذا كان نصف الموجودات الرأسمالية بحاجة إلى إعادة بناء، فإن هذا يوحي بأن إعادة الإعمار يحتاج إلى حوالي ٨٠٠ دولار للفرد، أو إلى مبلغ إجمالي قدره ٢٠ مليار دولار. ويقترب هذا التقدير من تقديرات إعادة إعمار ما بعد الصراع الخاصة بلبنان وتيمور الشرقية والبوسنة الصادرة عن البنك الدولي التي تستلزم حوالي ألف دولار للفرد.



قد تكون الخطة الأكثر طموحًا هي «مشروع مارشال من أجل العراق». ولنتذكر أن مشروع مارشال كلف الولايات المتحدة ١٣,٣ مليار دولار خلال فترة تزيد على أربع سنوات. وهو ما يصل إلى ٤.٥ بالمائة من إجمالي الناتج المحلي، أو ٤٥٠ مليار دولار. وحسب مستويات الدخل الحالية، بلغت المساعدات حوالي ألفي دولار للفرد، أو ٥٠٠ دولار للفرد، في السنة في الدول المتلقية، وهو ما يزيد مرتين على حجم الـ ٨٠٠ دولار للفرد المذكور آنفًا.

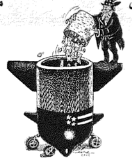
هذا التشبيه متفائل بل تبسيطي، ذلك أن مشروع مارشال قُدِّم بعد أن كانت دول أوروبا الغربية قد نفذت جزءًا كبيرًا من جهود إعادة الإعمار داخلها بنفسها، وكان لدى الدول الأوروبية الجزء الأكبر من بنية الديمقراطية التحتية والمجتمع المدني قبل الحرب. واعترافًا بأن بناء الدولة في العراق يبدأ بقدر يقل كثيرًا من رأس المال الاجتماعي والبنية التحتية المدنية، فإننا قد نتوقع بتحفظ أن يتطلب الأمر ست سنوات وليس أربع سنوات من الجهد بمعدل إنفاق مشروع مارشال، بإجمالي قدره ٧٥ مليار دولار.

ولذلك فإن تقديرات إعادة الإعمار وبناء الدولة ضخمة وتتراوح بين ٢٥ مليار دولار و١٠٠ مليار دولار لإعادة الإعمار.

وسوف تكون المساعدات الإنسانية ضرورية لرعاية اللاجئين والجرحى والمرضى في العراق، وربما في الدول المجاورة. ولكن تقديرات المساعدات الإنسانية غير مؤكدة لأنها تنطوي على معرفة عدد السكان المعرضين للخطر، ومستوى الحاجة بعد الحرب، وطول مدة المساعدة. وتشير أرقام البلقان في التسعينيات إلى أن المساعدات الإنسانية قد تكلف حوالي ٥٠٠ دولار للفرد في العام.

قد يكون التقدير الذي يبدو مقنعًا هو أن ما بين مليون وخمسة ملايين من سكان العراق (من بين إجمالي عدد السكان البالغ حوالي ٢٤ مليون نسمة) سيحتاجون إلى مساعدة في بيئة ما بعد الحرب. وإذا كان الوقت اللازم للمساعدة يتراوح ما بين سنة وأربع سنوات، ففي هذه الحالة ستتراوح تكلفة المساعدات الإنسانية ما بين مليار و١٠ مليارات دولار.

من الذي سيدفع ثمن كل هذه الجهود؟ أحد مصادر التمويل المحتملة هو عائدات النفط العراقي. وإذا كان بإمكان العراق إعادة إنتاجه إلى ثلاثة ملايين

برميل يوميًا، فسوف يحقق ذلك ٢٥ مليون مليار دولار سنويًا بأسعار النفط الحالية. إلا أن هذه العائدات عليها مطالبات كثيرة. بدايةً، يبلغ نصيب الفرد في هذه العائدات ألف دولار حسب تعداد العراق الحالي. وسوف يكون جزء كبير من هذا المبلغ مطلوبًا لاستيراد الغذاء والدواء وغيرها من ضرورات الحياة اليومية. وسوف يحتاجون إلى بعض العائدات لتمويل إعادة إعمار بنية العراق الاقتصادية التحتية وتحديثها. يضاف إلى ذلك أن إجمالي مطالبات الدول الأخرى من العراق بعد حرب ١٩٩١ كانت تزيد على ٣٠٠ مليار دولار دُفع منها القليل أو شُطب. وسيكون نقل الأموال من الضرورات الحيوية إلى دفع نفقات قوات الاحتلال الأمريكية حماقة اقتصادية وسياسية.





هل ستتقدم دول أخرى لدفع الفواتير، كما فعلت بعد حرب الخليج الأولى؟ قد لا يحدث ذلك. ذلك أنه إذا شُنَّت الحرب بدون إذن من الأمم المتحدة أو دعم دولي واسع، قد تُجبر الولايات المتحدة على دفع معظم التكاليف.

هل ستقوم الولايات المتحدة فعلاً بالجهد الموسع اللازم لإعادة بناء العراق ومقرطته؟ من الناحية العملية حدث في كل دولة تدخلت فيها الولايات المتحدة عسكريًا على مدى العقود الأربعة الماضية أن اتُبعت فلسفة «اضرب واجري»، حيث نادرًا ما كان يلي القصف دخول أطقم التشييد. وأحدث الحروب في أفغانستان مثال واضح على ذلك. ففي العام الذي انتهى في سبتمبر ٢٠٠٢ أنفقت الولايات المتحدة ١٣ مليار دولار على المجهود الحربي. وفي المقابل بلغ إجمالي جهد البنتاجون الملتزم به نحو الأشغال المدنية أو المساعدات الإنسانية ١٠ ملايين دولار فقط.

ولا ينبئ عدم التناسب بين التدمير العسكري والتشييد المدني في أفغانستان وفي غيرها بخير بالنسبة لأي جهد إعادة بناء طموح في العراق. هل يبدو مقنعًا أن يخصص الكونجرس اعتمادات لهذا المجهود المدني، بينما لا تنفق الولايات في الوقت الراهن سوى ١٥ مليار دولار سنويًا على المساعدات الخارجية للعالم كله؟ ويبدو أن خطة بناء الدولة الطموح التي تترك العراق نصف مبني هي التوقع الأكثر واقعية.

[٣]

قد تحدث الحرب في الخليج اضطرابًا ضخمًا في أسواق النفط، إما بسبب الدمار الفيزيقي أو لأن الأحداث السياسية تجعل منتجي النفط يقيدون الإنتاج بعد الحرب.

النتيجة التي تبعث على القلق إلى حد كبير هي حدوث دمار على نطاق واسع في منشآت النفط في العراق، وربما في الكويت وإيران والمملكة العربية السعودية. ففي حرب الخليج الأولى دمر العراق جزءًا كبيرًا من آبار النفط الكويتية وغيرها من البنية التحتية النفطية عند انسحابه من الكويت. وقد أوقف التخريب إنتاج النفط الكويتي لما يقرب من العام، ولم يعد مستوى إنتاج النفط إلى ما كان عليه قبل الحرب إلا في عام ١٩٩٣؛ أي بعد عامين تقريبًا من انتهاء الحرب في فبراير ١٩٩١.

وما لم يكن هناك حذر تام إزاء القيادة العراقية في الحرب الجديدة، فمن المحتمل أن تتمكن القوات العراقية من تدمير منشآت النفط العراقية. والأساس المنطقي الاستراتيجي لهذا التدمير غير واضح في وقت السلم، ولكن هذا العمل من تدمير الذات لا يمكن استبعاده في زمن الحرب. بل إن تلويث منشآت النفط في منطقة الخليج بالوسائل البيولوجية أو الكيماوية سيشكل خطرًا أكبر على أسواق النفط.

ومع ذلك فإن الاحتمال الآخر هو تخفيض إنتاج النفط المنسق من جانب دول الأوبك. وقد يحدث ذلك من خلال مقاطعة للولايات المتحدة كتلك التي أعقبت الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٧٣، كما يمكن أن تحدث إذا أصبح جزء كبير من موارد نفط الأوبك تحت سيطرة العناصر المعادية للغرب.

أجرى مؤخرًا جورج بيري الخبير الاقتصادي بمعهد بروكنجز دراسة على الآثار الاقتصادية لاضطراب واردات النفط العالمية. وقد حلل حالة سيئة، وحالة أسوأ منها، وحالة هي الأسوأ على الإطلاق. ومع أن دراسته أشارت إلى الإرهاب، فإن التحليل الاقتصادي الأساسي ينطبق بشكل جيد كذلك على أي نوع من تخفيض العرض.

وتمثل أسوأ حالات بيري نتيجة سيئة تبدو معقولة للحرب المطولة في العراق. وتفترض هذه النتيجة انخفاضًا في إنتاج النفط العالمي مقداره سبعة ملايين برميل يوميًا، يعوض بشكل جزئي بتقديم ٢,٥ مليون برميل يوميًا مسحوبة من مخزون النفط الاستراتيجي الأمريكي. ويمكن أن تؤدي توليفات كثيرة من الأحداث - التي تنشأ عن دمار زمن الحرب أو الإرهاب أو رد الفعل السياسي للحكومات في المنطقة - إلى مثل هذه النتيجة. وقد تكون النماذج الملموسة تدمير معظم قدرة إنتاج النفط العراقية إلى جانب ربع القدرة الإنتاجية لدول الخليج الأخرى. وسوف يشمل السيناريو المحتمل الآخر مقاطعة الأوبك للولايات المتحدة ودول أخرى، مما يخفض إنتاج النفط بنسبة ٢٥ بالمائة. ويبدو استخدام هذه المقاطعة مقنعًا من الناحية الاقتصادية في أسواق النفط، لأن أرباح المنتجين تزيد ولا تنقص مع تخفيض الإنتاج.

وقد تشمل آثار مثل هذا الهبوط في الإنتاج زيادة حادة في أسعار البترول، وارتفاعًا في معدلات التضخم، وانتقالات ضخمة للثروة من مستهلكي البترول إلى منتجي البترول. وفي هذه الحالة الأسوأ، يتنبأ بيري بزيادة أسعار البترول إلى ثلاثة أضعاف ما هي عليه الآن لتصل إلى حوالي ٧٥ دولارًا للبرميل، حيث يزيد سعر البنزين ليصل إلى ٣ دولارات للجالون. وسوف ترتفع تكلفة واردات النفط المستوردة بمقدار ٢٠٠ مليار دولار في العام، وربما تؤدي صدمة أسعار النفط والدافع التضخمي إلى بدء الركود الاقتصادي. ولتقدير التكاليف الإجمالية، افترضت أنا استمرار تخفيض الإنتاج لمدة عام ونصف العام. ويمكن استنباط نتائج مشابهة من نموذج اقتصادي لأسواق النفط باستخدام الزيادة التي قدَّرها بيري في أسعار النفط. وتستبعد هذه الأرقام الآثار التي ستقع على دائرة الأعمال الأمريكية، وهي الآثار التي سنناقشها فيما بعد.

قد يراهن خبراء الاستراتيجية في حكومة بوش على النتائج السعيدة لأسواق النفط. ذلك أن الانتصار الحاسم في العراق، مع عدم تدمير منشآت النفط، وأن يتبع ذلك استقرار سياسي في المنطقة، قد يؤدي إلى زيادة في قدرة إنتاج النفط في العراق. وقد يخفف هذا، الضغط على أسعار النفط. إلا أنه لا ينبغي المبالغة في تقدير السرعة التي يمكن أن يزيد بها العراق إنتاج النفط. ويشمل السيناريو المتفائل المعقول زيادة العراق لقدرته الإنتاجية إلى حوالي أربعة ملايين برميل يوميًا خلال خمس سنوات بعد الحرب. وطبقًا لافتراضات تبدو مقنعة بشأن الآثار على واردات النفط من المناطق الأخرى، سوف يؤدي هذا إلى انخفاض ضئيل يقل عن الدولار الواحد في البرميل على مدى السنوات العشر المقبلة. وباستخدام توقع أساسي مقداره ٢٥ دولارًا للبرميل، سوف يؤدي هذا إلى انخفاض في تكلفة واردات الولايات المتحدة من النفط بمقدار ٣٠ مليار دولار على مدى العشر سنوات المقبلة.

الهم الاقتصادي الأخير هو أثر الحرب على إجمالي النشاط الاقتصادي. ففي الماضي كانت الحروب الكبرى تُحْدِث انتعاشًا اقتصاديًا، بما تسببه من زيادة كبيرة في نفقات الدفاع. ففي الحرب العالمية الثانية، على سبيل المثال، زاد إنفاق الدفاع بمقدار ١٠ بالمائة تقريبًا من إجمالي الناتج المحلي قبل بيرل هاربر، وساعد ذلك على خروج الاقتصاد من ركود فترة الكساد الأكبر. كما صاحبت حشود عسكرية مشابهة ولكنها أصغر التوسعات الاقتصادية أثناء حربي كوريا وفيتنام.



وفي المقابل، شهد إنفاق الدفاع الخاص بحرب الخليج الأولى زيادة مقدارها ٠,٣ فقط في إجمالي الناتج المحلي. وأسفر الغزو العراقي للكويت عن رد فعل نفسي سلبي على أسعار الأسهم وعلى رأي المستهلكين. وقللت تلك العوامل إنفاق المستهلكين، وبالأخص على السلع الاستهلاكية المعمرة، وحدَّت من الاستثمار التجاري؛ بينما لم يسد إنفاق الدفاع الفجوة. وكانت النتيجة كسادًا حادًا بدأ في الشهر التالي لغزو العراق للكويت، وهو أمر فريد بالنسبة لما حدث في زمن الحرب خلال التاريخ الأمريكي القريب.

ومن المحتمل أن تكون التكلفة العسكرية المباشرة لحرب الخليج الثانية صغيرة نسبيًا، وهو ما يوحي بأن الأثر الاقتصادي الكلي ستحركه إلى حد كبير العوامل النفسية. ومن غير المحتمل تكرار هبوط ١٩٩٠-١٩٩١ لأن الأسواق خفضت إلى حد ما توقع الحرب، وخفضت قيمة الدولار، كما أن مؤشرات رأي المستهلكين في أدنى مستوى لها خلال عشر سنوات تقريبًا. وفي حالة النصر السريع، من المحتمل أن يكون الأثر الاقتصادي الكلي تافهًا.

وإذا سارت الحرب بصورة سيئة في مراحلها الأولى، فقد تسوء الآثار الاقتصادية الكلية بسرعة. ولنتخيل توليفة ما من الخسائر الثقيلة في الأفراد، أو حرب المدن المطولة، أو الصور الدموية في أخبار المساء، أو انتشار

تقدر لجنة الميزانية بالكونجرس أن يتكلف الاحتلال ما بين ١٧ و٤٥ مليار دولار سنويًا، أي حوالي ٢٥٠ ألف دولار لكل فرد من أفراد حفظ السلام في العام. وهذا الرقم هو الحد الأدنى من تكلفة أفراد حفظ السلام الأمريكيين في كوسوفو



الاستنكارات الأجنبية للسياسة الأمريكية، أو شائعات استخدام الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية، أو الأعمال الإرهابية الكبيرة في الداخل والخارج. وحتى بدون أية صدمة في أسعار النفط، فقد تشبه ردود الأفعال الاقتصادية ذلك الهبوط الذي أعقب الحادي عشر من سبتمبر. وسوف تكون النتيجة التي تبدو مقنعة هي ركود اقتصادي متوسط يحدثه الصراع المطول، مع خسائر في المُخْرَجات تتراوح بين ٢ و٥ بالمائة من إجمالي الناتج المحلي (أي ما بين ٢٠٠ و٥٠٠ مليار دولار بأسعار هذه الأيام). ولكي أجعل الأمر ملموسًا أفترض أن الحرب المطولة ستؤدي إلى ركود اقتصادي مساو لذلك الذي أعقب حرب الخليج الأولى.

[٤]

يمكننا الآن جمع تقديرات مختلفة لتكلفة الحرب. ولا بد أن نؤكد على أن التقديرات تتفاوت في الدقة وفي الأدلة الإمبريقية التي تدعمها. والواقع أنه بصرف النظر عن التكهنات الخاصة بالتكاليف العسكرية المباشرة، ينبغي النظر إلى التقديرات على أنها تخمينات قائمة على المعلومات. بل إن هذه التكاليف لا تحاول تقدير فوائد اللجوء إلى السلاح. وبما أن تجنب الأعمال التدميرية التي سيقوم بها العراق في المستقبل هو السبب البارز لشن الحرب خلال الشهور المقبلة، فإنه لا يمكننا أن نوازن تكاليف الحرب وفوائدها موازنة حقيقية بدون أن نأخذ في اعتبارنا أي تخفيض في المخاطرة التي سوف تنشأ عن نزع السلاح وتغيير النظام في العراق.

ويبين الجدول (١) ملخصًا لتجميع العناصر المختلفة التي يمكن معايرتها. وتستلزم الحالة المواتية في عمود الأرقام الأول تكاليف اقتصادية متواضعة نسبيًا، تبلغ حوالي ١٢٠ مليار دولار. (هذه هي التكاليف الإجمالية على مدى السنوات العشر المقبلة). وتفترض هذه النتيجة نجاح الحملات العسكرية والدبلوماسية وحملات إعادة بناء الدولة.

أما الحالة غير المواتية فهي توليفة من النتائج غير المواتية المحتملة وليست سيناريو واحدًا. وهي تبين مجموعة من التكاليف التي قد توجد إذا طال أمد الحرب، وامتد زمن الاحتلال، وكان بناء الدولة باهظ التكاليف، ودمرت الحرب جزءًا كبيرًا من البنية التحتية النفطية العراقية، وكانت هناك مقاومة عسكرية وسياسية طويلة الأمد للاحتلال الأمريكي، وكانت للصراع ردود أفعال نفسية سلبية. وإذا جمَعنا الآثار السلبية المختلفة معًا لبلغت ١,٦ تريليون دولار، يأتي معظمها من خارج الصراع العسكري المباشر.

إلا أن هذه المناقشة تبالغ إلى حد كبير في تبسيط التحليل بخلق حالتين فقط، بينما يمثل الواقع مجموعة فظيعة من النتائج. وعودة إلى تشبيه الحرب بعملاق يلقي بالزهر، فإننا قد نقول إن الأمر قد ينتهي بالولايات المتحدة إلى دفع تكاليف «منخفضة» تبلغ حوالي ١٢ مليار دولار إذا كان الزهر مواتيًا. أما إذا كانت الرمية

	تكاليف الحرب (بمليارات الدولارات بأسعار ٢٠٠٢)	
	التقدير الأدنى الخاص بالحرب القصيرة التي تفضلها الولايات المتحدة	التقدير الأعلى الخاص بالحرب المطولة التي لا تفضلها الولايات المتحدة
الإنفاق العسكري المباشر	$٥٠	$١٤٠
تكاليف المتابعة (*)		
الاحتلال وحفظ السلام	٧٥	٥٠٠
إعادة الإعمار وبناء الدولة	٢٥	١٠٠
المساعدات الإنسانية	١	١٠
أثر الحرب على سوق النفط	٣٠-	٥٠٠
أثر الحرب على الاقتصاد الكلي	صفر	٣٤٥
الإجمالي	١٢١	١,٥٩٥

(*) هذه التكاليف هي إجمالي الأعمال التي تعقب الحرب (أي في الفترة من ٢٠٠٣ إلى ٢٠١٢) بأسعار ٢٠٠٢. وتعتبر الأرقام السلبية فوائد.

غير مواتية، فسوف تكون التكاليف في موضع ما بين الحالتين المنخفضة والمرتفعة. إلا أنه إذا كانت لدى الولايات المتحدة سلسلة من سوء الحظ والأحكام الخاطئة أثناء الحرب وبعدها، فقد تصل النتيجة إلى ١,٦ تريليون دولار الخاصة بالتقدير الأعلى، وهو أمر أقل احتمالاً.

بل إن التقدير الأعلى لا يبين مقدار عبوس الحظ. وتستبعد التكهنات التي أوضحتها أية تكاليف تتحملها دول أخرى، باستثناء النتائج الأكثر تطرفًا (مثل الحرب الكيماوية أو البيولوجية) ومع استبعاد «أسوأ» حالات بيري في أسواق النفط. بل إن التكاليف المعايرة تتجاهل الخسائر المدنية والعسكرية التي ستقع بين العراقيين وأية آثار جانبية ملموسة أو غير ملموسة تنتج عن رد فعل عالمي ضد أي تجاهل أمريكي متخيل لأرواح الآخرين وممتلكاتهم.

[٥]

يبدو من المحتمل أن يقلل الأمريكيون تقدير الالتزام الاقتصادي الذي تنطوي عليه الحرب مع العراق. وليس هذا بالجديد، لأن السجل حافل بالتوقعات الفاشلة بشأن نتائج الحروب الاقتصادية والسياسية والعسكرية. إن تاريخ الحروب هو مسيرة الحماقة، وهو ما اتخذته باربرا تكمان عنوانًا لكتابها المدهش. فهل تكتب أمريكا فصلاً من فصول مسيرة الحماقة؟ من المستحيل معرفة ذلك مقدمًا، ولكن المؤرخين قد يعودون إلى العديد من علامات التحذير المبكرة العديدة الخاصة بالحسابات الاقتصادية والسياسية الخاطئة.

الهم الأول هو أن حكومة بوش لم تقدم أي تقدير علني جاد لتكاليف الحرب المقبلة. والجمهور والكونجرس عاجزان عن إصدار حكم قائم على المعلومات بشأن تكاليف الصراع المقبل وفوائده حين لا يقدم أي تقدير. والأمر الذي يبعث على القلق بشكل خاص هو وعد ما يعقب الحرب من احتلال وإعادة إعمار وبناء الدولة في العراق. وإذا رفض دافعو الضرائب الأمريكيون دفع الفواتير، فسوف يخلِّف هذا جبلاً من الركام و غوغاء غاضبين في العراق وفي المنطقة.

وهناك متلازمة ثانية ترتبط بذلك ارتباطًا وثيقًا، وكثيرًا ما وجدناها في الصراعات السابقة، وهي الخاصة بدخول الحرب مستعدين عسكريًا وغير مستعدين اقتصاديًا. لقد تدهورت اقتصاديات البلاد تدهورًا حادًا منذ تولي جورج دابليو بوش السلطة. فقد انخفضت الميزانية الفدرالية السنوية بمقدار ٣٦٠ مليار دولار من ربيع ٢٠٠١ إلى خريف ٢٠٠٢، ومن المحتمل مع خوض حرب قصيرة أن يزداد عجز الميزانية في السنوات المقبلة. ولم تجهز حكومة بوش الجمهور لتكلفة تمويل ما قد يثبت أنها مغامرة باهظة التكلفة. ربما كانت الحكومة تخشى من أن تغذي المناقشة العلنية لاقتصاد زمن الحرب الشكوك المحيطة بالحرب، وربما كانت تخشى من أن يعرِّض الاعتراف بالتكاليف خفض الضرائب الكبير في المستقبل - الذي هو أهم ملامح السياسة الديمقراطية - للخطر. ومع ذلك لا بد من دفع الثمن؛ بزيادة الضرائب، أو بتقليل النفقات، أو بإجبار بنك الاحتياط الفدرالي على رفع سعر الفائدة، وبذلك يحد من الاستثمارات وخاصة الإسكان. وسوف يدفع الأمريكيون الثمن بصورة أو بأخرى ثمن الحرب.

الأمر الثالث هو أن اتجاه الولايات المتحدة في عهد حكومة بوش الخاص اتخاذ إجراءات أحادية يشكل مخاطر كثيرة. فمن الناحية العسكرية، يمكن أن يجعل الهجوم بدون تحالف واسع من الدول، إدارة الحرب أكثر صعوبة وتكلفة. وربما يزيد آمال القيادة العراقية في مجيء الآخرين لنجدتهم، مما يؤدي إلى اتساع مدى الصراع. ومن الناحية السياسية، فإن الإجراءات الأحادية، وخاصة تلك التي تتخذ دون دعم من العالم الإسلامي، تلهب مشاعر المعتدلين، وتشجع الراديكاليين، وتزيد من أعداد الإرهابيين في تلك البلاد. ومن الناحية القانونية، سوف يقضي إصرار أمريكا على حقها في خلع الحكومات الأجنبية دون إذن من القانون الدولي على مجموعة كبيرة من الجهود التعاونية الخاصة بالتمويل العالمي ونزع السلاح والبيئة ومنع انتشار الأسلحة النووية ومعاداة الإرهاب. ومن الناحية الاقتصادية، توحي الإجراءات الأحادية بأن الولايات المتحدة سوف تتحمل أغلب التكاليف.

الأمر الرابع هو أن خبراء الاستراتيجية قد يخدعون أنفسهم بشأن رد فعل العالم الإسلامي والشعب العراقي تجاه التدخل الأمريكي. ويتعلق شك أساسي بولاء القوات العراقية واستعداد القادة العسكريين العراقيين للقيام بالدفاع من داخل مدينة بغداد. بل إنه رغم عدم وجود حكومة عربية كبرى تساند الولايات المتحدة مساندة قوية، يبدو أن الحكومة الأمريكية مقتنعة بأن المسلمين ينتظرون الإطاحة بصدام حسين كي يرقصوا في الشوارع، وبأن الأمريكيين سيستقبلون في بغداد استقبال المحررين وليس استقبال الكفار. إلا أن التكاليف الإضافية الكبيرة يمكن أن تحدث إذا ثبت أن المعارضة أكثر ضخامة وأن الإعجاب بالأمريكيين أقل انتشارًا مما تعتقد الحكومة الأمريكية.

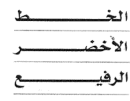


وأخيرًا، يشعر المرء بفكرة مسيطرة تقترب من الغباء في تركيز حكومة بوش على العراق بصورة عامة وعلى تغيير النظام بصورة خاصة. فعلى النقيض من الخطر الواضح للأنشطة الإرهابية، ليس هناك خطر وشيك من العراق. إن الحرب في العراق تهدد بالمطالبة بالموارد النادرة والاهتمام بالجيش الأمريكي لعدة سنوات، مما يشتت اهتمام البلاد بمناطق مضطربة أخرى، مثل كوريا الشمالية، أو بالصراع العربي الإسرائيلي. وتركز الحكومة الأمريكية على العراق بينما هناك نمو اقتصادي بطيء، وعجز مالي، وأزمة سيطرة الشركات، ومشاكل الرعاية الصحية التي تهدد البلاد في الداخل. وسوف يحتل الاقتصاد المحلي وسائر العالم المقعد الخلفي، بينما الولايات المتحدة مشغولة بالحرب في العراق.

ورغم كل علامات التحذير، تمضي الحكومة في طريقها غير آبهة بالواقع المالي ولا تعوقها تحذيرات الأصدقاء والحلفاء والأعداء. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Book
ترجمة: أحمد محمود

الجنود الرافضون للقتال فى الأراضى



«الأمر ليس صدمة بل أزمة نفسية خطيرة تشكل قنبلة موقوتة».. هكذا وصف أحد الأطباء النفسيين الإسرائيليين ظاهرة إصابة مئات الجنود الإسرائيليين، الذين نفذوا مهمات عسكرية فى الأراضى الفلسطينية خلال شهور الانتفاضة الفلسطينية الراهنة، بأعراض نفسية وتحولهم إلى تعاطى المخدرات، بسبب ما قاموا به من عمليات قتل ضد الفلسطينيين وإزاء هذا الوضع المخيف سعى المسئولون فى الجيش الإسرائيلى إلى إنشاء قرية خاصة لمعالجة هؤلاء الجنود. وجرى إطلاق اسم «إيزون» - أى التوازن - على هذه القرية التى بلغ عدد الجنود الذين قدموا للعلاج فيها أكثر من ٩٠٠ جندى حتى نهاية نوفمبر الماضى.

وبين الحالات التى وصلت إلى القرية العلاجية عشرات الجنود ممن حاولوا الانتحار، وحسب أقوال الأطباء النفسيين الذين يشرفون على علاجهم فإن الجنود يبكون ويتهمون أنفسهم بقمع الفلسطينيين وتعذيبهم وسرقتهم ولا يجد هؤلاء الجنود مخرجاً من هذا الموقف سوى الاتجاه نحو المخدرات.

وقد نشرت صحيفة «ها آرتس» فى ١٨ نوفمبر الماضى أن الجيش الإسرائيلى يشهد أزمة خطيرة بسبب التهرب من الخدمة العسكرية ازدادت بشكل حاد خلال الفترة الأخيرة مع تزايد تدهور الأوضاع الاقتصادية. وقالت الصحيفة إن عدد الفارين من الخدمة العسكرية فى ٢٠٠٢ بلغ ٢٦١٦ جندياً أغلبهم من جنود الاحتياط مقابل ١٥٦٤ فاراً من الخدمة عام ٢٠٠١، الأمر الذى يعنى ارتفاع نسبة عدد الفارين بحوالى ٧٦,٢٪. والتحقيق التالى يلقى ضوءاً كاشفاً على الظاهرة التى يحاول المسئولون الإسرائيليون بكل جهدهم تحجيمها دون إدراك أن الاحتلال هو السبب الرئيسى فى تفاقمها.

المحــــرر



■■ عند الظهيرة تمامًا، يصل الشبان الستة إلى ميدان مظلل على الجانب الغربى من القدس، وبدقة عسكرية يضعون طاولة تحت فروع شجرة زيتون. أخبار الإذاعة التى تنساب من أحد المقاهى هى كالمعتاد عن الإرهاب: محاولة فلسطينية فاشلة لتفجير خزان وقود وسط حى مزدحم من أحياء تل أبيب (كانت فى حال نجاحها ستودى بحياة أعداد أكبر من تلك التى راحت فى هجمات الحادى عشر من سبتمبر) والاتهام المتوقع للعديد من مستوطنى الضفة الغربية اليهود لمحاولة تفجير قاموا بها فى القدس الشرقية العربية. شرطية صففت شعرها على هيئة ذيل حصان ذهبى تراقب عن كثب كل من يعبر الميدان، على أمل التعرف على ذلك الشخص الذى يخفى المتفجرات تحت ملابسه.

يرتدى الشبان فانلات عليها عبارة «رسالة الجنود». ينزل أحدهم علامة مفرزته بين ظهره وحقيبة الظهر كى يتعلق فوق رأسه المستطيل الأبيض الذى يضم كلمات«أنا جندى مقاتل يرفض من أجل إسرائيل» كأنه مستطيل كلام فى رسم كاريكاتيرى سياسى. ولو كان ذلك كاريكاتيرًا لكان عن جنود الجيش الاحتياط الذين نشروا رسالة فى وقت سابق من العام الحالى معلنين رفضهم الخدمة فى الضفة الغربية وقطاع غزة، قائلين إن تلك «المهام الخاصة بالاحتلال والطغيان» لا علاقة لها بالدفاع عن البلاد. وكان الرسم الكاريكاتيرى سيصور هؤلاء إما على أنهم خونة أو وطنيون بناء على موقف الفنان فى ذلك النقاش العنيف الذى أثارته رسالة الجنود. يسلم جندى الاحتياط ذو اللوحة منشورًا إلى رجل فى الخمسينيات يعبر الميدان فى اتجاه محل سوبر ماركت فيردها قائلاً: «أنا، أنا أؤيد الاحتلال».

يزداد حجم الجدل السياسى بسرعة إلى أن يتحول الميدان بعد نصف ساعة إلى مكان صاخب. يصيح رجل أصلع أشيب فى وجه الجندى الرافض إيال نير: «أنا ضد الاحتلال ولكنى ضد رفض أداء الخدمة العسكرية كذلك! حين ترفض الذهاب فى بلد ديمقراطى، فإنك تقوض الأساس».

فسأله نير:«حين رفض الأمريكيون الذهاب إلى فيتنام، هل تحسنت الديمقراطية أم انهارت»؟

فرد عليه الرجل وهو يبتعد عنه بقوله: «فى حالة فيتنام لم يكن هناك تهديد لأمريكا». دفع النقاش رافضًا آخر لأن يقول لنير:«إنك تجادل أكثر مما يجب مع اليساريين».

فيرد نير، وكله مرارة من هؤلاء الذين يعتبرهم مدافعين عن السلام فى الصالونات: «اليساريون هم الأسوأ على الإطلاق». تكاد كلماته تختفى تحت صياح رجل عريض الصدر يقول:«كن واقعيًا. لقد قدم لهم باراك أقصى ما يمكن وقال عرفات: «لا، إننا نريد البلد بكامله». إن دينهم يأمرهم بأن يكونوا مفجرين انتحاريين».

على مقربة من ذلك، رافض آخر يسلم منشورًا لشاب يرتدى «تى شيرت» يحمل شعار وحدة المدرعات الخاصة به. يقول الشاب بصوت مهتز:«يجب على الجندى أن يطيع الأوامر، ما لم تكن غير قانونية. إذا طلبوا منى أن أسقط قنبلة على جمع من الناس، سوف أرفض. ولكن إذا كان هذا الشخص يقول «لا» لهذا السبب، وذلك الشخص يقول«لا» لذاك السبب، فمن ذا الذى سيدافع عن البلاد»؟

يرد عليه الرافض إيتاى هافيف، وهو نقيب نحيف طويل فى احتياطى سلاح المدفعية قائلاً:«اسمع. أمرونى بالقيام بدوريات فى معسكرات اللاجئين، وقمت بذلك، وأمرونى بإطلاق الطلقات المطاطية على قاذفى الحجارة، وأطلقت. وأمرونى بمطاردة سيارة الإسعاف إلى المستشفى وإلقاء القبض على شخص ما، وطاردت، واليوم أدرك أن هذا هو أبو الأوامر غير المشروعة».

وبينما أشاهد ما يجرى، أشعر بإغراء لأن أقفز وسط النقاش أكثر مما كان لدى فى أية مظاهرة غطيتها فى هذا البلد الملتهب سياسياً، على الجانبين فى وقت واحد فى بعض الأحيان. وباعتبارى صحفياً إسرائيلياً، لم أخف اعتقادى بأن احتلال إسرائيل الذى بلغ عامه الخامس والثلاثين للضفة الغربية وغزة لا بد أن ينتهى. إلا أن من يعارضون الاحتلال يرون أن رسالة جنود الاحتياط معضلة عويصة: هل يصح للجيش، الذى ينبغى أن يكون محايدًا من الناحية السياسية، أن يصبح منبرًا للعصيان المدنى ضد سياسات الساسة الذين انتخبوا بطريقة ديمقراطية؟ ومن ناحية أخرى، هل يمكن أن نطلب من الجنود أن يضعوا لوعتهم جانبًا وينتظروا حتى يجد الساسة حلاً؟



كان دافيد زونشتاين هو الذى كتب رسالة الجنود فى أواخر ديسمبر. وكان مرشحًا غير محتمل لهذا العمل الراديكالى: فهو المقابل الإسرائيلى لخريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية «ويست بوينت»، وهو كشاف نسر سابق من عائلة أمريكية قديمة كانت لوحة من لوحات نورمان روكويل (الذى كانت رسوماته رؤية مثالية للحياة اليومية الأمريكية تعبر عن الحنين للماضى). إلا أن هذا ما يجعل احتجاجه مهمًا؛ فتحوله الشخصى يبين كيف خلق الاحتلال لبعض الإسرائيليين توترًا غير محتمل لأهم قيم البلاد.

نلتقى فى مقهى فى شارع جانبى متفرع من شارع ديزنجوف الذى تصطف على جانبيه الأشجار شمالى تل أبيب، حيث يرتشف كل اثنين يرتديان ملابس الكاجوال قهوة الإسبريسو على موائد صغيرة ويناقشان أمورهما العاطفية. على الجانب الآخر من الشارع تقع العمارة التى يعيش فيها زونشتاين مع حبيبته فى المدرسة الثانوية، بعد ١٤ عامًا من أول لقاء لهما. العنوان مرادف ليسار الوسط، مؤسسة إسرائيل، وهو ما يناسبه. نشأ فى أحد أحياء تل أبيب حيث تعلم كفتى كشاف ألا يعبر الشارع والإشارة حمراء لأن هذا يجعل منه نموذجًا سيئًا. إنه مهندس برامج كمبيوتر، وهى أكثر المهن حداثة فى إسرائيل. ويجعله وجهه المستدير الحليق يبدو أصغر من ٢٩ سنة. وحتى وقت قريب كان من الناحية السياسية«وسطياً إلى أقصى حد». وبينما يميل على الطاولة ليتحدث إلىّ بصوت خافت وبتركيز، كثيرًا ما يستعيض عن ضمير المتكلم بضمير المخاطب لتحاشى التباهى بشأن السيرة الذاتية التى يحلم بها أى مدرس للتربية الوطنية.



الواقع أن الخدمة العسكرية واجب عام فى إسرائيل؛ فهى ضرورة تعبر كذلك عن قيم المساواة والعطاء من أجل المصلحة العامة. ولا يزال زونشتاين يؤمن بهذه القيم.«إنك تنشأ هنا، وتتعلم كى تخدم فى أفضل وحدة، وتعطى أفضل ما عندك. مات جزء كبير من عائلتى فى الهولوكست.... لو كان هناك جيش (يهودى) أثناء الهولوكوست ما كنا متنا».

منذ العاشرة كان يرغب فى ارتداء البيريه الأحمر الخاص بقوات المظلات، وهى أفضل ما فى الجيش. وفى عام ١٩٩١ حصل على البيريه وهو فى الثامنة عشرة، حيث تطوع للانضمام لوحدة خاصة يقول إنها ذات طابع سرى. ومن هناك اتجه إلى تدريب الضباط وانتهى بحصوله على مرتبة الشرف. كان جزء كبير من خدمته فى لبنان. وهو يصف بهدوء موت أحد أصدقائه فى المدرسة الثانوية فى كمين نصبه حزب الله، والكمين الذى نصبته وحدته ردًا على ذلك، حيث قضوا على مهاجمى حزب الله.

عند تسريحه من الخدمة عام ١٩٩٦ كُلِّف بالانضمام لإحدى وحدات الاحتياط. ومن حيث المبدأ، يظل كل الرجال الإسرائيليين حتى الأربعينيات يؤدون خدمة احتياطية سنوية؛ ومن الناحية العملية، الأرجح هو أن يستدعى الجنود المقاتلون، ويخدم الضباط فترة أطول. وهو يقول مبتسمًا خجلاً من جديته: إن كونك مواطنًا إسرائيليًا يعنى أن«تكون جندياً فى أجازة لمدة عشرة أشهر فى السنة. إنه جزء من أخلاق المجتمع....إنى أشعر أن البلاد كلها تجلس على كتفى». كثيرًا ما كان يقضى خدمة الاحتياط فى الضفة الغربية وقطاع غزة، حيث كان يشارك فى نقاط التفتيش ويقوم بدوريات

فى الشوارع ويلقى القبض على المشتبه فى أنهم إرهابيون.«هذه هى الطريقة التى تمارس بها الاحتلال، مثل فرنسا فى الجزائر. إنك تبين للناس أنك ملك». بهذه الكلمات ينتقل من تحديد الهوية إلى المرارة، حيث يمثل من جديد، بينما أستمع أنا إليه، تحوله المؤلم من ابن كل إسرائيل إلى منشق.

بدأ منذ عامين فى طرح الأسئلة.«تقف فى نقطة التفتيش وتعرف أن (المستوطنين الإسرائيليين) يمرون على الفور والعرب لا يمرون، وتتذكر جنوب أفريقيا....تدخل أحد المنازل ليلاً (للقبض على رجل)، وتفصل الرجال عن النساء. لقد نشأت على قصص الهولوكوست. ليس هذا هو الشىء نفسه بحال من الأحوال، ولكن الصورة هى هى».

وكما لو كان مجبرًا على ذلك، عاد إلى الموتيفة التى ترد فى كل المناقشات الإسرائيلية الخاصة بالقوة. فـ«الهولوكوست» اختصار لـ«الضحايا اليهود». وهو يعلم مدى الحاجة إلى القوة، وإلى تمكين الناس الذين طال اضطهادهم. بل إن حل المشاكل بالطرق السلمية ليس موضوعًا للمناقشة. إلا أن الهولوكوست يقوم مقام المجاز المطلق بالنسبة لكيفية إساءة استغلال القوة: إنه أقوى مثال للسبب فى أن على الجيش الاحتفاظ بما يسميه«نقاء الأسلحة» أو الاستخدام الأخلاقى للقوة.

والواقع أن صورة الهولوكوست تستخدم دائمًا على أنها مبالغة، سواء أكانت تصف الأعداء أو أعمال إسرائيل نفسها. إلا أنها تعبر عن الأزمة التى يشعر بها زونشتاين، وغيره ممن قد ينضمون إليه وهم يؤدون الخدمة فى المناطق. فقد كان يعتقد أن لبلاده الحق فى استخدام القوة: إلا أنه يؤمن بأنها كانت تطلب منه استخدام القوة بطريقة غير مشروعة.

وعلى غرار قول ألبير كامى«أنا أومن بالعدل، غير أنى سوف أدافع عن أمى قبل العدل» يقول زونشتاين:«لو قالوا لى إننى يجب أن أفعل شيئًا ما وإلا قتلوا أمى غدًا فى تل أبيب، فإنى سأفعله بكل وضوح». لم تكن مشكلته هى الدفاع عن بلده. بل كانت مشكلته أنه لم يعد يؤمن بأن أوامره تخدم هذا الغرض.

ركز زونشتاين إعادة نظره بشكل مميز عن طريق قراءة الرواية الطوباوية التى كتبها المؤسس الصهيونى تيودور هرتزل Altneu-land(الأرض الجديدة القديمة). وهو يقول إن الكتاب كشف عن رؤية إنسانية للدولة اليهودية لم تحققها إسرائيل. وهو مثل قول أحد الأمريكيين إنه تعلم الراديكالية من إعلان الاستقلال. وبعد ذلك جاء ديكارت وماكيافيللى وإحصاءات الحكومة. وهو يشير إلى أنه منذ توقيع اتفاق أوسلو فى ١٩٩٣ تضاعف تقريبًا



جيرشوم جورينبرج

المحتلة .. قنبلة موقوتة فى وجه إسرائيل

عدد المستوطنين اليهود في المناطق؛ وهو خرق واضح للاتفاق. كما يقول إن «القليل من الإسرائيليين يعلمون ذلك. فالغالبية تظن فقط أن الفلسطينيين هم الذين خرقوا الاتفاق».

بعد بداية الانتفاضة الفلسطينية الجديدة في عام ٢٠٠٠، لم تزدد أسئلته إلا عمقًا. فبينما أقنع رفض ياسر عرفات لعروض السلام التي قدمها باراك وما أعقب ذلك من هجمات إرهابية الكثير من مؤيدي عملية السلام بأن الفلسطينيين لا رغبة لديهم في حل وجود دولتين، سارت شكوك زونشتاين في اتجاه مختلف. وهو يتساءل: «الذي أثار انتباهي هو لماذا بدءوا الانتفاضة....إذا كانوا يكرهوننا، فلماذا ظل الوضع هادئًا حتى الآن؟ وإذا كان باراك قد أعطى كل شيء، فلماذا لم يأخذوه»؟

في الوقت الذي تلقى فيه طلب الاستدعاء في الخريف الماضي لمدة ٢٥ يومًا في قطاع غزة «كان واضحًا لي أنني سوف أفعل أشياء تضر بالفعل الأمن القومي، وتضر الأساس الأخلاقي للدولة». إلا أنه ذهب إلى هناك.

وهو يصف تلك المهمة بحرص واضعًا قيدًا على مشاعره. فحين دخلوا القطاع رأى مساحات من الأراضي على جانبي الطريق جرى «تنظيفها» من البساتين أو الصوب أو المباني لإزالة مخابئ المسلحين الفلسطينيين؛ وهو حل لمشكلة عسكرية تكلف المدنيين ثمنًا فادحًا. وكانت وحدته تتولى مسئولية نقطة تفتيش عند مفترق طرق تتقاطع عنده حركة السير الفلسطينية بين بلدتين كبيرتين مع حركة السير الإسرائيلية من مجموعة مستعمرات قطيف. كان أحد الجنود يدير إشارة المرور؛ وحين كان يلمح سيارة إسرائيلية تقترب كان يضئ النور الأحمر للفلسطينيين. وكان الغرض هو منع إطلاق النار على السيارات الإسرائيلية. وكانت النتيجة أن ينتظر الفلسطينيون ساعات كي يعبروا، أما المستوطنون - الذين يقول زونشتاين إنهم «لوردات البلاد» - فلم يروا الإشارة الحمراء قط. ويضيف قائلاً: «لا أعني أن قوات الدفاع الإسرائيلية جيش بلا أخلاق. بل إنه يتلقى أوامر غير أخلاقية».

وطبقًا للقانون الإسرائيلي، فإن أي جندي مجبر على رفض أي أمر «يحمل راية عدم المشروعية السوداء». وقد وضع هذا المبدأ بعد مذبحة ١٩٥٦ التي اتبعت فيها القوات أوامر بإطلاق النار على أي إنسان يعود إلى إحدى القرى العربية بعد حظر التجول. ففي دولة يهودية، وبعد حوالي عشر سنين من الهولوكوست، وجدوا أن دفاع «اتباع الأوامر» غير مقبول. ويقول زونشتاين إن المشكلة في غزة هي أن كل أمر على حدة كان مبررًا في السياق؛ إلا أن السياق لم يكن له ما يبرره.

وحين عاد إلى داره في أوائل شهر ديسمبر لم يستطع النوم. «اندهش أصدقائي. كنت أبدو مختلفًا، غاضبًا. كل ما كنت أدافع عنه اتضح أنه كذب». ظل أسبوعًا يتحدث مع ملازم آخر من وحدته اسمه يانيف إزكوفيتس كان غاضبًا مثله. ثم التقى بقائده. «قلت: لن أعبر الخط الأخضر» أي الحد بين إسرائيل ذات السيادة والمناطق المحتلة. وسوف يعصي أمر الاستدعاء التالي، ويدفع ثمن ذلك دخوله السجن.

ولكن الاحتجاج المنفرد لم يكن كافيًا. ويقول زونشتاين إنه عند مدخل القاعدة التي يجري فيها تدريب الضباط لوحة تعلن عن مبدئهم: «راقبني وافعل كما أفعل». قرر أن يكون عمله علنيًا؛ فقد كان عليه أن «يقاتل كي يضمن عدم أداء أي جندي الخدمة» في المناطق المحتلة. سوف يحارب ذلك كي يدافع عن بلده.

وفي الساعة الثالثة من إحدى ليالي شهر ديسمبر كتب زونشتاين رسالته. وبعد ثلاثة أسابيع، وقع ٥٠ من جنود الاحتياط المقاتلين على النص. وفي أواخر شهر يناير نُشر الإعلان كمادة إعلانية في «ها آرتس» الصحيفة القومية ذات التاريخ المعروف: «نحن... الذين كنا أول من ننفذ أية مهمة... لحماية دولة إسرائيل... نعلن بذلك أننا لن نستمر في القتال فيما وراء حدود ١٩٦٧ كي نسيطر على شعب بكامله ونطرده ونجوّعه».



على خلفية الانتفاضة والشلل الذي أصاب حركة السلام، كانت رسالة الجنود مثيرة للانتباه. أجرى مقدمو أكبر برامج التلفزيون الحوارية مقابلات مع الجنود الرافضين وخصصت صحيفة «يديعوت أحرونوت» واسعة الانتشار موضوع الغلاف في عددها الأسبوعي لهم. ويصف النشطاء اليساريون الرسالة بأنها كانت سببًا رئيسيًا وراء تجدد نشاط الاحتجاج ضد الاحتلال. وأدى الإعلان إلى ظهور موجة ثانية من التوقيعات؛ ٥٠ في أول أسبوع بعد الإعلان، و١٠٠ في الأسبوع الذي تلاه.

كان أول من أضاف اسمه هو إيتاي هافيف. ويتحدث دارس الجيولوجي ابن الثلاثين عن قراره بابتسامة الشخص الذي حقق السلام مع نفسه بعد معركة طويلة. فطوال عشرة أعوام، أثناء خدمته العسكرية النظامية وفترات الاحتياط، خدم في المناطق المحتلة. وكان على الدوام يعاني من معضلة أخلاقية. إلا أنه لم تكن هناك أوامر تحمل «راية غير المشروعية السوداء»، إن نحن نظرنا إليها بمفردها. «يأمرونك بتدمير منزل ما لأنه يطل على طريق ويستخدم لإطلاق النار منه. وهذا من الناحية العسكرية أصح ما يمكن عمله على الإطلاق... ولكن حين يستمر ذلك ٣٥ سنة، فإنه يتحول إلى راية سوداء». ويقول هافيف إنها وجهة نظر نادرًا ما تكون لدى الطفل الذي أنهى للتو دراسته في المدرسة الثانوية ولا يعرف سوى الجيش. وكجندي احتياط «تدرك أنهم يغشونك»، وأن المسألة ليست للدفاع عن البلاد، وإنما «للدفاع عن المستوطنات». وحتى قبل ظهور الإعلان كان قد عقد العزم على تحدي أمر الاستدعاء للقيام بمهمة بالقرب من أريحا في شهر مارس.



وكما يشير قرار هافيف، فلم تكن رسالة الجنود بداية الاعتراض الواعي الانتقائي. فتاريخه يعود إلى عام ١٩٨٢ حين بدأت منظمة تسمى «ييش جفول» - هناك حد - تدعو الجنود إلى رفض المشاركة في غزو إسرائيل للبنان. وكان «الأب الروحي» للحركة كما يشير أحد الرافضين المخضرمين هو البروفيسور إشعياهو لايبوفتس، وهو فيلسوف متدين يحظى بالاحترام، معروف بأنه أحد أول المنتقدين للاحتلال، وربما كان أعلاهم صوتًا. (توفي لايبوفيتس عام ١٩٩٤؛ وحفيده شاماي لايبوفيتس محام وجندي احتياط وهو اليوم يؤيد بشدة رفض الخدمة في المناطق من الناحيتين القانونية والدينية).

ويقول بيريتس كيدرون عضو «ييش جفول» منذ مدة طويلة، إنه بعد عامين دخل السجن ١٦٨ جندي احتياط بدلاً من أن يدخلوا لبنان. وهو يقدر أنه أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧-١٩٩٣) سُجن ٢٠٠ آخرون لرفضهم الخدمة في المناطق. إلا أنه يشير إلى أن الكثير من القادة كانوا يمتنعون سرًا عن وضع الرافضين في الحبس، وكانوا بدلاً من ذلك يكلفونهم بمهام داخل الخط الأخضر ويغطون على النسب الكاملة من رفض الخدمة.



ويؤكد كيدرون على أن ييش جفول ترفض حل النزاع سلميًا - «الداعي إلى التسوية السلمية للنزاع يترك الجيش للفاشي» - ولكنها تصر على أن «كل جندي مسئول عن أفعاله». وبذلك تدعم المنظمة كل تنويع على الرفض الاختياري، من رفض حراسة سجن يحتجز فيه فلسطينيون إلى رفض الخدمة بالمرة مادام الاحتلال مستمرًا. وتختلف رسالة الجنود من حيث إنها خلقت معيارًا واضحًا، وهو عدم عبور الخط الأخضر. ويعترف كيدرون بسعادة أن المسعى الجديد أعاد الرفض مرة أخرى إلى الأجندة الوطنية. وربما أدى كذلك إلى تشدد الجيش.

وفي استدعائه للاحتياط في ٣ مارس، عرض إيتاي هافيف أداء الخدمة داخل إسرائيل. وهو يقول: «لو كان الأمر بيد «قادته» لتم ذلك. إلا أنه كان هناك جو في الجيش يشير إلى ضرورة معاقبتنا». وفي محاكمة تأديبية قصيرة أمام كبار الضباط، حُكم عليه بالحبس ثلاثة أسابيع. إلا أنه طالب بأن تجري له محاكمة عسكرية كاملة، وهي التي كان من المحتمل أن تصدر ضده حكمًا بالسجن ثلاث سنوات، إلا أنها كانت ستصبح بمثابة «منبر عام لشرح ما يحدث في المناطق». ورفض الجيش طلبه.

وبحلول الصيف كان حوالي ٥٠٠ جندي احتياط قد وقعوا على رسالة الجنود، وكان أكثر من ربعهم ضباطًا. وكان أكثر من ٩٠ منهم قد أمضوا عقوبات في الحبس. وتحولت قائمة التوقيعات إلى حركة احتجاج، أوميتس ليزاريف، أو شجاعة الرفض. ويقول زونشتاين: «لدينا تنظيم قوي من أناس في سن الشباب مستعدين لدفع ثمن معتقداتهم». ومنذ فترة قريبة قال له عمه، وهو أحد مستوطني الضفة الغربية الذي يختلف بطبيعة الحال مع كل ما يفعله: «المجتمع الإسرائيلي ينظر إليكم على أنكم مستوطنو اليسار». وهذه إشارة إلى عدم توازن قديم قدم المعركة السياسية بين اليمين واليسار بشأن إذا ما كان ينبغي لإسرائيل أن تبني المستوطنات أو تنسحب من المناطق المحتلة. فالمطالبون بالسلام ينظمون المظاهرات ثم يعودون إلى بيوتهم. أما المستوطنون فيخاطرون بحياتهم، وفي بعض الأحيان يتحدون القانون كي يستولوا على الأرض. ويؤكد زونشتاين على أن الجنود الرافضين يبينون للجمهور أن اليسار مخلص كذلك لقضيته.



ومع ذلك يرفض اليمين الإسرائيلي أية صورة من حجج الرافضين. ويقول يوفال شتاينيتس عضو الكنيست عن حزب الليكود: «تمنحك الديمقراطية حرية التعبير وتجبرك على إطاعة القانون». ثم يضيف قائلاً: «وعلى عكس الدول الأخرى، تقاتل إسرائيل من سوف يدمرونها....اسألني عن رأيي فيمن رفضوا مقاتلة هتلر».

إلا أنه على جانب اليسار كذلك، أثارت رسالة الجنود الجدل. فمن ناحية يعود هذا إلى أن الخدمة العامة تظل قيمة مدنية راسخة. بل إن إسرائيل، كما يراها معظم الإسرائيليين من يسار الوسط، تقاتل في عهد شارون معركتين: معركة ضد الإرهاب والأخرى لاستدامة الاحتلال والمستوطنات. المعركة الأولى دفاع عن النفس، أما الثانية فلا معنى لها. والمشكلة هي إن كان بالإمكان فصل المعركتين عن بعضهما. والتأكيد على أن كامل نسيج العمل العسكري في الضفة الغربية وقطاع غزة هو فقط ما تسميه رسالة الجنود «حرب المستوطنات»، يعني الزعم بأن الإرهاب سوف ينتهي إذا انسحبت إسرائيل إلى الخط الأخضر وتخلت عن المناطق، أو أن قدرة إسرائيل على الدفاع نفسها من داخل حدودها ستكون أفضل من قدرتها على ذلك من داخل المناطق.

هذان الزعمان قد يكونان صحيحين. إلا أنهما في الوقت ذاته حكمان سياسيا؛ وتفضيل الجنود لوجهات نظرهم السياسية على أوامر الحكومة المنتخبة يمثل سابقة خطيرة. يصح هذا على وجه التحديد في بلد صغير، حيث لا يزالون يضعون قواعد الديمقراطية. إلا أن الجنود الرافضين يقولون إن الجندي يجب أن يرفض الأعمال غير الأخلاقية أو غير القانونية؛ وإنه مقضي في الظروف الراهنة على محاولة الفصل بين الأحكام السياسية والأحكام الأخلاقية والقانونية بالفشل.

لم تكن رسالة الجنود بداية الاعتراض الواعي الانتقائي. فتاريخه يعود إلى عام ١٩٨٢ حين بدأت منظمة تسمى «ييش جفول» - هناك حد - تدعو الجنود إلى رفض المشاركة في غزو إسرائيل للبنان

ويظل رون شاتسبرج على عدم اقتناعه. وقد يكون شاتسبرج صورة نموذجية لليسار. فهو يقيم في مدينة بيت شمش العمالية في كيبوتس تموز الحضري؛ وهو محاولة لتجديد نموذج الحياة الجماعية التي لم تعد تتماشى مع إسرائيل في الوقت الحاضر إلى أبعد حد. وهو يعمل في مؤسسة التعاون الاقتصادي، وهي منظمة صغيرة كانت تقود المفاوضات السرية التي أدت إلى اتفاق أوسلو. واليوم يصف عمله بأنه «إدارة الأزمات» بصوت يبلغ من الانخفاض بحيث يبدو أنه مقصود به محو إمكانية الصياح بالقرب منه. وهو يقول: «إنني أساعد على إنهاء الاحتلال».

إلا أن شاتسبرج ابن السادسة والثلاثين يخصص ٨٠ يومًا من كل عام لخدمة الاحتياط باعتباره مقدمًا يقود إحدى كتائب المشاة. (هذا ليس بالأمر غير الشائع. ففي إسرائيل لا تعني كلمة «عسكرى» أن من يحملها «صقر». فكثير من الساسة والنشطاء الإسرائيليين من الحمائم سبق لهم العمل ضباطًا مقاتلين، ويدافع بعض الجنرالات السابقين عن الانسحاب باعتباره أفضل طريق إلى الأمن). وقد أمضى شاتسبرج شهر مايو في القيام بدوريات في التلال المحيطة بالخليل. وكان ذلك هو وقت حصاد القمح، وكذلك الاشتباكات المحتملة بين المستوطنين والفلسطينيين القريبة حقولهم من المستوطنات. وقد أجرى اتصالات مع السكان الفلسطينيين المحليين، من خلال جماعة سلام إسرائيلية تحمل اسم «حاخامات حقوق الإنسان»، كي يعرف متى وأين سيقومون بالحصاد. وهو يقول: «أرسلت جنودي إلى هناك لخلق منطقة عازلة؛ لحماية المستوطنين وللتأكد من أنهم لا يتحرشون بالفلسطينيين». وتبين القصة سبب اعتقاد شاتسبرج أنه من الضروري أن يستمر الإسرائيليون المؤيدون للسلام في أداء الخدمة العسكرية في المناطق، «وإلا فإننا نترك اتخاذ القرار لأناس... ليست لدى فكرة عن قيمهم».

«لا بد أن يكون هناك قرار ديمقراطي للعودة إلى حدود ٦٧ مقابل اتفاق سلام. إنها مسألة وقت». وفي الوقت ذاته يقول شاتسبرج: «أقبل أن جزءًا من مهمتي في بلد ديمقراطي هو حماية المستوطنين، رغم إدراكي أن المستوطنين هم مصدر كل التلوث». وهو يقول إن الجنود الرافضين مخطئون لسعيهم إلى تغيير الحقائق على أساس من تحدى المسئولين الإسرائيليين المنتخبين. ويقول شاتسبرج إن هذا الأمر الواقع جزء من ذخيرة المستوطنين، وهو يود تركهم هناك. كما يقول: «في بلد على هذا القدر الكبير من الانقسام وهذا القدر الكبير من التشظي لا بد من الحفاظ على قواعد اللعبة الديمقراطية».

ولا يقبل شاتسبرج كذلك أن حماية المستوطنين هي المهمة الوحيدة الخاصة التي يقوم بها الجيش الإسرائيلي في المناطق: «بما أن المناطق تتعامل مع البلد ككل على أنه جبهة قتال وتشن هجمات داخل إسرائيل، فهذه المقولة ليست صحيحة». فالدفاع الاستراتيجي يتطلب النشر المتقدم للقوات «بالقرب من مصدر الهجمات... حيث يمكنك خلق الشك لدى العدو». وهو يقول إن إسرائيل يمكن أن تتخلى عن هذا النوع من الدفاع في ظل اتفاق سلام وحسب؛ وهو الأمر الذي يمكن أن يحدث فقط حين يكون الطرفان مستعدين.



ويؤكد شاتسبرج على أن رسالة الجنود «أثارت مناقشة مسألة السلوك الأخلاقي أثناء الاحتلال. وأنا لا أنكر ذلك». إلا أنه يعود فيقول إنها «ماتت. إنها لم تعد تحدث أمواجًا». وهو يقول إنه حتى من ناحية الأمر الواقع ليس رفض ٥٠٠ جندى كافيًا لإنهاء الاحتلال.

أنماط الحجج التي يسوقها شاتسبرج يناقشها آخرون في منابر اليسار التي لا حصر لها، وبالأخص في حزب ميرتس، وهو حزب اليسار الذي يشغل ١٠ مقاعد من بين أعضاء الكنيست المائة والعشرين وهو صوت المعارضة الرئيسي لحكومة أرييل شارون. ويقول عضو الكنيست عن حزب ميرتس ران كوهين، وهو عقيد سابق ومعارض مخضرم للاحتلال: «إذا كان معسكر السلام يريد أن يقود البلاد، فلا بد أن يفوز في معركة الرأي العام. ولا يمكنكم أن تفعلوا ذلك عن طريق رفض الخدمة، لأن هذا هو ما يوصمكم بأنكم غرباء. ولهذا السبب لا يحظى اليسار بالشعبية».

عرضت المشكلة بالتفصيل في مناسبة وقعت يوم العاشر من يونيو في ذكرى مرور ٣٥ عامًا على الاحتلال برعاية ميرتس في إحدى ضواحي تل أبيب. حضر تلك المناسبة مائة شخص، وكان أغلبهم من التقدم في العمر بحيث يتذكرون متى بدأ الاحتلال. وكان المتحدثان من شجاعة الرفض، وهما رائدان في أوائل الثلاثينيات. كانا يجلسان خلف طاولة ويتحدث كل منهما على استحياء، وكأنه في حرج من مناقشة شيء شخصي مثل رفض الاستدعاء للاحتياط، وكان يقابل بتصفيق حاد.

وبعد ذلك يرفع عضو الكنيست عن حزب ميرتس أفشالوم فيلان، وهو جندى صاعقة سابق ومؤسس حركة السلام الآن، الميكروفون بيده ويهدر صوته قائلاً: «سؤالي هو الفاعلية السياسية». يجب أن يكون هدف الحركة السياسية هو الوصول إلى أكبر عدد من الجمهور». وهو يقول إنه في المجتمع الإسرائيلي ليس السبيل إلى تحقيق ذلك هو رفض الخدمة. وللتأكيد على ما قاله، يتذكر أنه أثناء حرب لبنان، التقى دعاة السلام الإسرائيليون مع الفيلسوف الأمريكي مايكل والتزر. امتدح والتزر حقيقة أنه على عكس ما فعله المحتجون الأمريكيون أثناء حرب فيتنام، لم ينسلخ الإسرائيليون عن التيار العام، ولم يتخلوا عن الرغبة في أن يكونوا أغلبية سياسية. وعند هذه النقطة صاح أصحاب الشعر الأبيض من الرجال والنساء في وجه فيلان قائلين: «ولكنهم أخرجوا أمريكا من فيتنام!». واستمرت المضايقة بالأسئلة حتى بدا فيلان في نهاية الأمسية غريبًا في حزبه.

ومع ذلك ظل سؤال فيلان في الهواء. إنها معضلة قديمة: فما يثير المخلصين قد يكون على وجه الدقة هو ما يسكت الوسط. ومن المفارقة أنه حتى صورة الجندي الرافض باعتباره ابن كل إسرائيل يمكن أن تؤدي إلى نتائج غير مرغوبة. وغالبًا ما صور زعماء اليسار السياسي أنفسهم على أنهم أكثر إسرائيلية من أي إنسان آخر، وطوال عشرات السنين وهذه النبرة المتعالية الأرستقراطية تبعد الناس عن قضيتهم. قد يكون جذب انتباه الجمهور صعبًا؛ فما إن خفت حدة الصدمة الأولى لقول الضباط المقاتلين «لن أذهب»، حتى انتقلت أخبار حبس الجنود الرافضين إلى الصفحات الأولى من الصحف الإسرائيلية.



قد يتغير هذا حين يقدم زونشتاين للمحاكمة.

في أوائل شهر يونيو استدعى ضابط المظلات للاحتياط في شمالي الضفة الغربية. وكما هو متوقع أبلغ قائده أنه على استعداد للخدمة في أي مكان غير المناطق المحتلة. وحين أتوا به أمام رتبة أعلى طالب بمحاكمته محاكمة عسكرية كاملة. وطبقًا للوائح، رفع طلبه إلى ضابط التحقيقات العسكرية لإصدار الحكم. رفض الطلب في ذات اليوم بدون إبداء الأسباب. وهكذا حكم عليه القائد بالحبس لمدة ٣٥ يومًا.

في اليوم السابق حذرني زونشتاين من أن ذلك سيحدث. فقد قال إنه يريد أن يحاكم محاكمة علنية وأن يأتي بشهود وأن يتقدم بدعوى قانونية أمام قضاة مؤهلين ضد الخدمة في المناطق. كما كان يريد أن يفعل ذلك بينما الإعلام يشاهده. كان يعلم أن فرص تبرئته «قريبة من الصفر» وأنه من المحتمل أن يقضي في الحبس فترة أطول، إلا أنه قال: «أريد أن يعلم الجمهور أن الشخص الذي يقود هذا الكفاح مستعد للمخاطرة بدخول السجن».

طبقًا للنظام القضائي الإسرائيلي، يمكن لأي مواطن أن يتقدم بالدعوى إلى المحكمة العليا مباشرة ضد أعمال السلطة التنفيذية، بما في ذلك الجيش. وفي صباح اليوم التالي لإصدار الحكم ضد زونشتاين، تقدم محاميه - وهو رقيب احتياط وجندي رافض للخدمة - بالتماس للمحكمة كي تأمر الجيش بمنحه الحق في محاكمة عسكرية كاملة.

وفي ١٧ يونيو جاءوا بزونشتاين من السجن الحربي إلى المحكمة العليا لحضور الجلسة الأولى. جلس على مقعد في جانب من جوانب قاعة المحكمة بينما كان محاميه ومحامي الحكومة يتجادلان أمام ثلاثة من قضاة المحكمة العليا. امتلأت قاعة المحكمة بشبان جادين ذوي أكتاف معتدلة، هم زملاء زونشتاين من الجنود الرافضين. وحين انتهت الجلسة، خرج زونشتاين حيث كانت الميكروفونات والكاميرات في انتظاره في البهو. كان يرتدي زيًا عسكريًا أخضر وعلى كل كتف من كتفيه مستطيلان من النحاس الأصفر وقد دس البيريه الأحمر تحت الاسبلايات على أحد كتفيه. لقد طوى خجله وتركه مع ملابسه المدنية، وأدركت أنه قرر محاربة الاحتلال من خلال معركة واحدة مع الدولة.



وبعد أسبوع أمرت المحكمة بإطلاق سراحه بينما أيدت حقه في المحاكمة. وقال كبير القضاة أهارون باراك: «المشكلة ليست سهلة بالمرة والمحكمة بحاجة إلى وقت وتفكير كي تصدر حكمها». لقد كسب زونشتاين الجولة الأولى. وفي منتصف يوليو فاز في جولة أخرى. وطلبت المحكمة العليا من زونشتاين اتخاذ إجراء مطالبة الإدارة القانونية في الجيش بمراجعة الحكم التأديبي الصادر ضده. وفي حالة تأييد الجيش للحكم (عكس ذلك قد يطلق العنان للأمور) يمكن لزونشتاين تقديم دعواه مباشرة للمحكمة العليا. والواقع أن القرار خلق مسارًا قضائيًا سريعًا متخطيًا مرحلة المحاكمة العسكرية. ويقول محامي زونشتاين إنه بحلول الخريف «سوف تدخل أعلى محكمة في البلاد في جدل مع القضايا القانونية والأخلاقية» التي أثارها الجنود الرافضون.



الميدان المظلل في القدس: رجل ذو شعر أحمر في الأربعينيات من عمره يتجادل بهدوء مع العديد من الجنود الرافضين للخدمة. تقف زوجته صامتة على بعد أقدام خلفه وقد أمسكت بسلسلة كلبهما. يقول الرجل: «صحيح أن الاحتلال يدمرنا، ولكن لدى مشكلة صغيرة مع مسألة الرفض. لقد خدمت طوال حياتي. ويؤدي ابني الخدمة في قوات المظلات. وحين يضطر للذهاب إلى بيت أحد تغرورق عيناه بالدمع، ولكنه يذهب».

تتقدم زوجته خطوة وتنظر إليه وتسأله: «وماذا يفيد روعي حين يدخل والدموع في عينيه؟» وفجأة تحول كل من سواهما إلى كومبارس. وإذا سلطت أضواء المسرح على المشهد بدلاً من الشمس، فسوف تركز عليهما تاركة الجميع في الظل، بينما الاثنان ينظر كل منهما إلى الآخر.

«هل تريدينه أن يرفض؟»

«وإذا لم يرفض، هل سيمزقه ذلك حين يبلغ الخامسة والأربعين؟».

يصيح عابر سبيل. يبدأ الجدل من جديد، وهو كله خاتمة لأسئلته وأسئلتها. ■

ترجمة: أحمد محمود
بترتيب خاص مع مجلة
MOTHER JONES

في إسرائيل لا تعني كلمة «عسكرى» أن من يحملها «صقر». فكثير من الساسة والنشطاء الإسرائيليين من الحمائم سبق لهم العمل ضباطًا مقاتلين، ويدافع بعض الجنرالات السابقين عن الانسحاب باعتباره أفضل طريق إلى الأمن

هــــوس .. هـــلع .. انهيـــــار

عمـــرو محـــيى الـــدين

الكتاب هو إحدى العلامات البارزة فى الدراسات والكتابات الاقتصادية فى نظرية التجارة الخارجية فى القرن العشرين، والكتاب المعروض فى هذه الصفحات يمثل الطبعة الرابعة الصادرة عام ٢٠٠٠. وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٧٨ حيث تناولت الأزمات المالية خاصة تلك الأزمات السابقة على الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩، إلا أن يوم الاثنين الأسود فى ١٩ أكتوبر ١٩٨٧ بجانب دراسة أكثر عمقا تتعلق ببعض المشكلات والاضطرابات السابقة أظهرت الحاجة إلى إعادة النظر أو ربما إلى نظرة ثانية فكانت الطبعة الثانية، أما الطبعة الثالثة فقد دفع إليها وشجع على إصدارها الانهيار اليابانى عام ١٩٩٠، و أما الطبعة الرابعة فكان الدافع إليها الأزمة المكسيكية عام ١٩٩٤/ ١٩٩٥ وبصورة أكثر حدة الصعوبات والأزمات التى واجهتها بلدان شرق آسيا عام ١٩٩٧/ ١٩٩٨ والتى لا تبعد زمانيا عنا كثيرا الآن، وقد تناولت هذه الطبعة أيضا وباستفاضة موضوع المقرض الأخير المحلى والدولى ودوره فى معالجة هذه الأزمات وضرورة وجوده من عدمه والحجج التى تسانده ودور صندوق النقد الدولى وإمكاناته فى القيام بدور المقرض الأخير على المستوى الدولى. وتحتوى هذه الطبعة على إضافة تاريخية مهمة بجانب أزمة ١٩٩٧، ذلك أن الطبعات الثلاث الأولى تبدأ بأزمة (فقاعة) الميسيسيبى Mississipi Bubble وأزمة (فقاعة) السوث سى South Sea Bubble فى القرن الثامن عشر (١٧١٩ـ ١٧٢٠) أما الطبعة الرابعة فتبدأ بتناول أزمة التيوليب فى القرن السابع عشر (١٦٣٦ـ١٦٣٧) المعروفة بهوس Mania التيوليب، بل هناك تناول للأزمة المالية عام ١٥٥٠.



ولد تشارلز كندلبرجر فى مدينة نيويورك عام ١٩١٠، وقد جاءت اهتماماته بموضوع التجارة الخارجية نظرا لالتحاقه بوظيفة عامل رصيف فى ميناء نيويورك خلال العطلات الصيفية، كما درس العلاقات التجارية الدولية فى إجازة الصيف فى مدرسة جنيف، وحصل على البكالوريوس فى الاقتصاد من جامعة بنسلفانيا عام ١٩٣٢، وحصل على الدكتوراه فى الاقتصاد من جامعة كولومبيا عام ١٩٣٧. وفى عام ١٩٣٦ بدأ عمله فى الجهاز الحكومى لمدة ١٢ عاما حيث عمل فى بنك الاحتياط الفيدرالى فى واشنطن واللجنة المشتركة الأمريكية الكندية فى عام ١٩٤٢، والمركز الأمريكى للخدمات الاستراتيجية (١٩٤٢ـ ١٩٤٤)، وفى النهاية فى وزارة الخارجية حتى كان اهتمامه منصبا على عملية إعادة بناء أوروبا، وفى عام ١٩٤٩ عين فى قسم الاقتصاد بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا فى بداية انطلاقة هذا القسم، وذاعت شهرته العالمية وظل فى هذا القسم حتى عام ١٩٨١ حيث بلغ سن التقاعد، وقد أشرف على تخريج المئات من الاقتصاديين العظماء، وظلت كتبه تمثل مقررات دراسية مهمة فى أغلب الجامعات الأمريكية، وقد اهتم أساسا بموضوع التجارة الدولية ومعدلات التبادل الدولى ونظم المدفوعات الدولية، وحركات رؤوس الأموال، وله العديد من المؤلفات التى تربو على السبعين مؤلفا، وقد اهتم بموضوع التاريخ المالى وله كتاب صدر عام ١٩٨٤ حول التاريخ المالى لأوروبا الغربية، وأدى ذلك إلى اهتمامه بموضوع الأزمات المالية فى أوروبا أولا وامتد هذا الاهتمام لبقية أجزاء العالم.

وعلى الرغم من خفة دم الكتاب، واحتوائه على مواقف مسلية وكوميدية، إلا أنه خلف ذلك كله هناك بحث جاد وباحث مبتكر، فالنمط الذى يسلكه البشر فى اكتساب معيشتهم ودخولهم ليس بالأمر المضحك أو الهزلى، خاصة إذا قام كل فرد بهذا المسعى على حساب الآخرين. وهذا ما يؤكده كندلبرجر، إن الهوس والهلع والانهيار هى نتاج بيئة تساعد على تفريخ الجشع وحب التملك، والنصب والخداع، وشهوة المال. وقد استخدم كندلبرجر التاريخ ليثبت ويؤكد أفكارا نظرية على جانب كبير من الأهمية، وهو يعرف هذه العملية جيدا حين يشير إلى أن «التاريخ خاص، أما الاقتصاد فهو عام»، ولا شك أن محاولته لمزج الاثنين تمثل المساهمة الإبداعية لكندلبرجر فى كلا الفرعين من فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويستند كندلبرجر إلى حجج قوية لإثبات فروضه وأحكامه ومقولاته، وهو يقف موقفا ناقدا للجمود الفكرى والالتزام الأعمى للعقيدة الذى يسود نظرة البعض بأن الأسواق تعمل دائما برشد وكفاءة، والبعض الآخر الذى يرى أنها لا تعمل بكفاءة ورشد إلا إذا تدخلت الدولة، إذ يرى أن الأسواق فى أغلب الأحيان أو فى العادة تعمل بكفاءة وتميل إلى السلوك الرشيد إلا فى بعض الأحيان حيث يصيب هذا السلوك الفشل، ومن هنا كان ناقدا لاذعا لفريدمان وللنقوديين الذين يرون أن الأسواق تعمل دائما بكفاءة ولا تخطئ أبدا.

وترتبط الأزمات المالية بذروة الدورة الاقتصادية، والدورات الاقتصادية وهى إيقاع عملية الانتعاش والركود وتواليهما ليست هى محل الاهتمام، ولكن ينصب اهتمام الكتاب على الأزمة المالية، إذ تمثل أقصى أو ذروة فترة التوسع والانتعاش حيث تؤدى إلى التدهور والركود، وإذا كانت هناك دورات اقتصادية لم تصاحبها أزمات مالية فهى تقع خارج اهتمام الكتاب، كما أن الأزمات المالية التى أمكن إدارتها بنجاح ليست هى أيضا محل الاهتمام.

والهوس Mania هو الإفراط فى المضاربة، وهو يؤدى إلى الفقاعة، والفقاعة هى الارتفاع الحاد والمتواصل فى سعر أصل أو عدد من الأصول، على أن يخلق الارتفاع الأول فى الأسعار توقعات باستمرار الارتفاع مما يجذب معه مستثمرين جددًا. هذا الارتفاع عادة ما يعقبه انقلاب فى التوقعات وانهيار حاد فى الأسعار وهو ما يطلق عليه الأزمة المالية. وهكذا فالأزمة المالية كما يشير إليها الكتاب هى «انهيار حاد، قصير الأمد، فى ذروة الدورة الاقتصادية فى عدد من المؤشرات المالية كأسعار الأصول (الأسهم، العقار، الأراضى) وعدم ملاءة أو إفلاس فى القطاع التجارى... إلخ.

أ ـ نموذج الأزمـــــة:

الأزمة المالية كالمرأة الجميلة من الصعب تعريفها وإن كان من السهل التعرف عليها حين رؤياها. وعلى الرغم من عدم إيمان كندلبرجر بالنماذج الرياضية إلا أنه يتبنى نموذجا للأزمة يتسم بالاتساق الداخلى والمنطقى وبتواتر الأحداث بنمط لا يتغير، وقد حاول كندلبرجر الاستناد إلى المادة التاريخية منذ بدء الأزمات المالية فى القرن السابع عشر وحتى أزمة النمور الآسيوية فى التسعينيات من القرن الماضى لإثبات صحة هذا النموذج للأزمة المالية.

وقد استند هذا النموذج على نموذج هيمان مينسكى H. Minisky وهو اقتصادى معروف بين المنظرين النقوديين، وقد اشتهر بتشاؤمه الشديد، وهو نقودى منظر وليس مؤرخا اقتصاديا إلا أن نموذجه قادر إلى حد بعيد على تفسير التاريخ المالى والاقتصادى. ولا يختلف نموذج مينسكى ومن ثم كندلبرجر عن نموذج تم بناؤه مع بعض الاختلاف الطفيف من مفكر إلى آخر من أمثال جون ستيوارت ميل، والفرد مارشال، نت فيكسل، وارفنج فيشر... إلخ.

ما هو النموذج؟ أو ما هو النمط المعتاد للأزمة؟ يبدأ الأمر بحدث مهم أو صدمة يترتب عليها تغير فى الرؤية الاقتصادية تدفع إلى الإفراط فى التفاؤل وهو النشوة، وهو ما يدفع إلى الإفراط فى المضاربة «الهوس»، وهى عملية بناء الفقاعة، والهوس يؤدى إلى المحنة ثم الهلع أو الذعر، وهو أول خطوات الانهيار (الأزمة). إذًا صدمة، فتفاؤل، فهوس، ففقاعة، فمحنة، فهلع، فانهيار. وهو يتشابه وإن كان يختلف بعض الشىء، مع النموذج الكلاسيكى الذى يبدأ بالإزاحة Displacement، فالإفراط فى التجارة، فالتشنجات أو التقلصات (توقف البنوك عن الإقراض بضمان هذه الأصول)، وفقدان الثقة، فالانهيار.

وهكذا طبقا لنموذج مينسكى وكندلبرجر تبدأ الأزمة أو نموذج الأزمة بالصدمة وهو حدث خارجى أى خارج النظام، ويختلف نوع الصدمة من رواج إلى آخر فقد يكون اشتعال حرب أو انتهاءها، أو محصولا استثنائيًا جيدًا جدًا، أو فشل محصول، أو انتشار استخدام اختراع معين كالسكك الحديدية، أو السيارات، أو بعض الأحداث السياسية أو الأحداث المالية المهمة... إلخ.



وأيا كانت طبيعة ومصدر هذه الصدمة فلابد أن تكون كبيرة وعميقة الانتشار بحيث يترتب عليها تغير جذرى فى الرؤية الاقتصادية وإلا انتفت عنها صفة الصدمة. هذا التغير فى الرؤية الاقتصادية إنما يتأتى عن طريق تغيير فى فرص الربحية المتاحة على الأقل فى قطاع واحد من قطاعات الاقتصاد، هذه الصدمة تؤدى إلى استغلال فرص جديدة متاحة لتحقيق الأرباح تدفع المستثمرين (المضاربين) أو الجمهور إلى الإفراط فى استغلالها والتكالب عليها بصورة تبعد عن الرشاد بحيث تشكل ما يمكن تسميته بالهوس، وحينما يدرك الجميع الطابع المفرط لعملية الرواج أو حينما يتأكد الجميع من أن هناك إفراطا صاحب عملية التوسع والانتعاش يبدأ النظام المالى يعانى من محنة Distressأو بمعنى آخر تبدأ محنة النظام المالى، وتحدث المحنة حينما تتوقع الوحدات الإنتاجية وجود احتمال لعدم وفائها بالتزاماتها، وتمثل المحنة ضغوطا شديدة تدفع إلى الرغبة والتكالب لتغيير اتجاه هذا التوسع والرواج أو الحد من غلوائه، هذا الاتجاه قد يكون من السرعة والعجلة بحيث يبدو وكأنه حالة هلع أو ذعر. والهلع أو الذعر يؤدى حتما إلى الانهيار.

وفى مرحلة الهوس (الإفراط فى المضاربة) فإن أصحاب الثروة والمقترضين تميل اختياراتهم نحو الخروج من السيولة النقدية أو التحول من الأصول السائلة نحو الأصول الحقيقية (العينية) والأصول المالية غير السائلة، أما فى حالة الهلع فتحدث عملية معاكسة أى يسير اختيار الأصول فى اتجاه عكسى أى الانتقال من الأصول الحقيقية (العينية) أو غير السائلة إلى السيولة النقدية والميل إلى سداد القروض، ويصاحب ذلك انهيار أسعار السلع الأولية، والمساكن والمبانى والأراضى والأسهم والسندات وكل ما كان محلا للمضاربة.

وتتم تغذية هذا الرواج فى المضاربة ودفعه بواسطة التوسع فى الائتمان المصرفى الذى من شأنه زيادة عرض النقود، ولا تقتصر الزيادة فى عرض النقود بواسطة البنوك على إصدار البنكنوت ـ كما كان يتم فى الماضى البعيد ـ ولكن عن طريق الإضافة إلى نقود الودائع، وقبل أن تنشأ البنوك كان يتم تغذية هذا الهوس بالتوسع اللانهائى فى الائتمان الشخصى، وهكذا فالتوسع فى وسائل الدفع ليس بالضرورة أن يتم داخل النظام المصرفى ولكن هناك وسائل عديدة للتوسع فى الائتمان خارج إطار النظام المصرفى خاصة الائتمان الشخصى، ومادام هناك حافز للمضاربة، فسيظل الائتمان الشخصى مصدرا مهمًا لتمويل هذا الرواج فى المضاربة.

والرغبة فى المضاربة تتحول إلى طلب فعلى على السلع والأصول المالية، وبعد فترة زمنية فإن الزيادة فى الطلب تمارس ضغوطا

Manias, Panics, and Crashes:
A History of Financial Crashes

هوس، هلع.. وانهيار..
دراسة فى تاريخ الأزمات المالية

Charles P. Kindleberger
John Wiley & Sons, 2000 (4th Edition)

.. دراسة فى تاريخ الأزمات الاقتصادية

«هذا كتاب ممتع
ويصدق عليه ما قاله بول سامولسون
الحائز على جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ١٩٧٠ من أنك قد تكون مضطرا لركل
نفسك أكثر من مرة إذا فاتتك قراءة
وإعادة قراءة هذا الكتاب»

على الطاقة الإنتاجية المتاحة للسلع وعلى عرض الأصول المالية مما يترتب عليه ارتفاع فى أسعارها، هذا الارتفاع فى الأسعار يخلق فرصا جديدة للربحية مما يترتب عليه جذب مستثمرين جدد، وينتج عن ذلك آلية تغذية راجعة حيث يؤدى الاستثمار الجديد إلى زيادة الدخل وهو ما من شأنه تنشيط ودفع استثمارات جديدة ومن ثم الزيادة فى الدخول وهذه هى المرحلة التى وصفها كندلبرجر بمرحلة النشوة، وهى الإفراط فى التفاؤل، والمضاربة لارتفاع الأسعار تضيف إلى الاستثمار الموجه لزيادة الإنتاج والمبيعات وإذا استمرت هذه العملية فإنها تؤدى إلى «الإفراط فى التجارة»، كما وصفها آدم سميث ومعاصروه.



ومفهوم الإفراط فى التجارة Over-Trading مفهوم غير دقيق وغير واضح إذ يتضمن مجرد المضاربة بهدف رفع السعر، أو الغلو فى تقدير العائد المتوقع، أو الإفراط فى المديونية، والإفراط فى التجارة على مستوى الوحدة الإنتاجية معناه توسع الوحدة الإنتاجية إلى درجة لا تسمح بها الموارد المتاحة لديها. والمضاربة تنطوى على الشراء بهدف البيع بدلا من الاستخدام (الاستهلاك) فى حالة السلع أو البيع بدلا من الدخل (العائد) فى حالة الأصول المالية، وحينما ترى الشركات والأفراد أن الآخرين يحققون أرباحا من المضاربة عن طريق الشراء وإعادة البيع فإنهم يفعلون بالمثل طبقا للميل للمحاكاة والتقليد «القرد يرى، القرد يفعل»، وحينما يزداد عدد الشركات والأسر (العائلات) التى تقوم بهذه الممارسات وما يترتب عليه من دخول قطاعات من السكان كانت بطبيعتها بعيدة عن هذا المضمار فإن المضاربة من أجل تحقيق الأرباح الرأسمالية تؤدى إلى الانحراف عن النمط الرشيد للسلوك المعتاد إلى ما يمكن تسميته بالهوس ويسميه البعض بالفقاعة، وإن كنا نرى أن الفقاعة قبل انفجارها أو فرقعتها هى تراكم هذا الهوس. ويطلق البعض خطأ على دخول هذه الفئات الجديدة إلى طابور المضاربة ديمقراطية السوق، أى دخول أناس هواة لا علاقة لهم بالسوق وقواعده وفهم آلياته مما يترتب عليه حدوث هذا الانحراف. ويرى البعض أن الفقاعة هى انحراف عن الأساسيات سواء إلى أعلى أم إلى أسفل حيث تؤدى إلى الفقاعة السالبة أى الانفجار وهو الانهيار، وتحركات الأسعار الصغيرة حول القيم الأساسية يطلق عليها الضوضاء، أما فى هذا الكتاب فإن الفقاعة هى الحركة المستمرة إلى أعلى للأسعار عبر فترة ممتدة من الزمن.

وإذا استمر الرواج والانتعاش المبنى على المضاربة فإن أسعار الفائدة، وسرعة تداول النقود، والأسعار تستمر جميعا فى الارتفاع، وفى مرحلة معينة يقوم بعض المستثمرين المطلعين على بواطن الأمور أو العارفين ببعض الأسرار الداخلية للسوق بجنى أرباحهم وبيع أصولهم أو ما لديهم من سلع، أى يتجهون نحو الانسحاب من

السوق، وفي ذروة السوق هناك نوع من التوازن بين الداخلين الجدد إلى السوق وبين المنسحبين العارفين ببواطن الأمور، وهكذا تستقر الأسعار وتتجه نحو الثبات النسبي أو تتوقف حركة الارتفاع ويبدأ التراخي، ويعقب ذلك فترة تسودها الضغوط والمحن المالية، وهو مفهوم يأتي من موضوع تمويل الشركات حينما تبدأ الشركة بالتخوف من احتمال عدم قدرتها على سداد التزاماتها والوفاء بها. أما بالنسبة للاقتصاد ككل فهو انتشار الوعي لدى جزء مهم من مجتمع المضاربين بتصاعد الاتجاه الضاغط نحو السيولة - أي للخروج من الأصول المالية الأخرى والتوجه نحو السيولة النقدية وهو ما سوف تترتب عليه آثار مدمرة على أسعار السلع والأصول المالية والعينية بحيث يصعب على بعض المدينين سداد ديونهم. وإذا استمرت المحنة يتحقق المضاربون سواء بالتدريج أو بشكل مفاجئ من أن السوق لن تتجه نحو الارتفاع وأن الأوان قد آن للانسحاب من السوق، والسباق والتسابق لتحويل الأصول الحقيقية أو المالية طويلة الأجل إلى سيولة نقدية سوف يتولد عنه الهلع أو الذعر.

والمؤشر الذى يسبق الأزمة أو الإشارة المحددة التي تسبق الأزمة قد تتمثل في فشل بنك أو شركة مهمة ضعفت سيولتها، اكتشاف أو الإفصاح عن عملية نصب واحتيال كبيرة أو عملية اختلاس بواسطة شخص يحاول تفادي المحنة والهروب منها بطرق ملتوية وغير قانونية أو بصورة أدق بطرق غير شريفة، أو انخفاض حاد في أسعار بعض موضوعات المضاربة كان هناك شعور سائد وقناعة بارتفاع أسعارها أكثر من اللازم.

وحينما يستمر الهجوم نحو السيولة النقدية تنخفض الأسعار (أسعار الأصول والسلع موضوع المضاربة) وتزداد الإفلاسات، وقد تقوم البنوك باستدعاء قروضها، وقد يلجأ البعض إلى تصفية أوضاعه مما يدفع الأسعار نحو مزيد من الانخفاض ويجعل البنوك تحجم عن الإقراض بضمان هذه السلع والأصول، وتتحول هذه الحالة إلى هلع إذا ذاع الاعتقاد بأن السيولة النقدية المتاحة غير كافية لإشباع كافة الطلبات عليها لمن يريد البيع فتتجه الأسعار نحو الانخفاض الحاد. وهذا هو الانهيار أي انفجار الفقاعة. وينطوي الهلع على تغذية ذاتية كما هو الحال في المضاربة، ويتمثل الهلع كما يقول المثل الألماني (الباب - مغلق - ذعر) في قيام الناس بالازدحام على الباب محاولين الدخول منه قبل إغلاقه. وتتوقف التغذية الذاتية للهلع كما هو الحال في المضاربة حين يحدث واحد من ثلاثة وهي: ١) انخفاض الأسعار إلى الدرجة التي تغري المستثمرين نحو العودة إلى الأصول غير السائلة: ٢) وقف التداول بوضع حدود على انخفاض الأسعار، أو إغلاق البورصة، أو وقف التداول: ٣) وجود مقرض أخير قادر على إقناع السوق أن السيولة سوف تكون متاحة وبكميات كافية.

وتجدر الإشارة إلى أن مرحلة النشوة وما يعقبها من مرحلة الهوس إنما هي بيئة مواتية لعمليات النصب والاحتيال والاختلاس وكافة أنواع الجرائم المالية التي قد يكون من شأنها تفجير الأزمة.

ب- الهوس: Mania

كلمة هوس في هذا الكتاب تعني فقدان الصلة بالواقع أو البعد عن الرشاد، وهو شيء قريب بشيوع الهستيريا لدى الجماعة أو عدم العقلانية. وهو مفهوم يتم استخدامه بصورة متكررة في التاريخ الاقتصادي الملىء بهوس القنوات المائية، هوس السكك الحديدية، هوس الشركات المساهمة، هوس الأراضي، هوس أسهم التكنولوجيا، ومجموعات أخرى. ومع ذلك فإن العلوم الاجتماعية بصورة عامة تتبنى فرضية أن الرجل أو الرجال يسلكون سلوكا رشيدا، فكيف يمكن التوفيق بين سلوك الفرد الرشيد وسلوك الجماعة غير الرشيدة. وماذا نعني بأن الأسواق رشيدة؟ هل من المفروض أن أغلب الأسواق تسلك سلوكا رشيدا في أغلب الأوقات، أو أن كل مشارك في السوق لديه ذات مستوى الذكاء، وذات المعلومات، وذات الأهداف، وذات النموذج الاقتصادي في ذهنه حينما يتخذ قراره، أو أن كل الأسواق تعمل برشاد كل الوقت؟ والرشاد هو فرضية مسبقة عن السلوك الإنساني وليست وصفا للعالم. وتبنى كندلبرجر صيغة توفيقية وهي أن الأسواق تعمل أو تسير برشاد أغلب الأوقات ولكنها أحيانا تفشل.

وما تجدر الإشارة إليه هو أن فرض رشاد الأسواق ورشاد السلوك معناه طبقا لميلتون فردمان أن المضاربة لن تؤدي إلى عدم الاستقرار وأن المضارب المتسبب في عدم الاستقرار «الذي يشترى حينما ترتفع الأسعار ويبيع حينما تنخفض الأسعار» لن يوجد. وقد انتقد كندلبرجر هذه الحجة بالرجوع إلى العديد من الأمثلة التاريخية بدءا من هوس شركة السوث سي وشركة الميسيسيبي في القرن الثامن عشر، وهو يؤكد بأمثلة متعددة ارتباط الهوس بعدم رشاد السلوك بين العامة أو الهستيريا التي تمثل انحرافا مؤقتا عن السلوك الرشيد، وهو يشير إلى أمثلة عديدة مثل أثر المحاكاة الذي يدفع الدول النامية لتبني أنماط استهلاكية لا تتلاءم وقدراتها الإنتاجية، وما يطلق عليه في علم الاقتصاد «أثر دينرنبوري» وهو رفض تخفيض الاستهلاك حينما ينخفض الدخل أسوة بزيادة الاستهلاك مع زيادة الدخل، أو ما هو معروف بأثر المزفة Bandwagon Effect وهي الانضمام إلى زفة العروس واللحاق بها والتصفيق مع المصفقين وهو يؤدي إلى تقليد أنماط الاستهلاك للطبقات العليا ظنا أن ذلك سيؤدي إلى الانضمام الاجتماعي إليهم. وأشار كندلبرجر إلى موجات الإفراط في التفاؤل أو النشوة Euphoria التي يعقبها موجات في الإفراط في التشاؤم حيث تتحول الأولى إلى هوس وتتحول الثانية إلى هلع. وفي ظل الهوس يسلك الأفراد والمؤسسات المالية وغير المالية سلوكا، كان لا يمكن قبوله بأي حال في ظل طقس أكثر عقلانية. أما عن أمثلة متعلقة بالحدود الفاصلة بين الرشاد وعدم الرشاد في السلوك فيشير كندلبرجر إلى أربع حالات تتعلق بأثر دينرنبوري، منحنى عرض العمل المائل إلى الخلف (أثر جون بول)، الرواج والانتعاش في السوق الدولية للقروض المشتركة للدول النامية ١٩٧٠ - ١٩٨٢، الاستناد أحيانا في السلوك إلى نموذج رشيد ولكنه النموذج الخطأ.

هوس.. هلع.. انهيار



ويرى كندلبرجر أن المضاربة تمر بمرحلتين تمثلان تطورها، المرحلة الأولى يمكن تسميتها بالمرحلة العقلانية للاستثمار حيث يستجيب القطاع العائلي، الشركات، والمستثمرون وكافة اللاعبين في السوق إلى «الصدمة» بأسلوب رشيد ومجرد، أما في المرحلة الثانية فإن الأرباح الرأسمالية تلعب دورا فعالا في تحريك التوجهات. في المرحلة الأولى الرغبة هي في سعر الفائدة، العائد أو الدخل المرتفع، ولكن هذه الرغبة ما تلبث أن تأتي في المرتبة الثانية، إذ أن هناك شهية وشهوة الوصول إلى مكاسب كبيرة من بيع الأصل وقد أعطى كندلبرجر لتأكيد هاتين المرحلتين أمثلة من المضاربة على الأراضي في ثلاثينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة، والمضاربة على أسهم السكك الحديدية ومشروعاتها قبل ١٨٣٥ في بريطانيا وبعد ١٨٣٥، وكذلك مرحلتا المضاربة على أراضي البناء في فيينا في سبعينيات القرن التاسع عشر. ويرى المؤلف أن المرحلتين تثيران قضية مجموعتين من المضاربين، هؤلاء الذين يعلمون من الداخل والمطلعين على الأسرار وبواطن الأمور، وهؤلاء القادمون من الخارج أو الزائرون أو الضيوف، أما الفئة الأولى من المضاربين فهم الذين يدفعون الأسعار إلى أعلى ويلعبون دورا في عدم استقرار السوق ويقومون بالبيع إلى الزائرين أو الواقفين في الخارج حينما تصل السوق إلى ذروتها محققين بذلك أرباحا طائلة، أما الآخرون أو الفئة الثانية فهم الذين يشترون حينما تصل السوق إلى ذروتها ويبيعون حينما تصل السوق إلى القاع أي حينما يقوم المطلعون بدفع حركة السوق إلى أسفل، ولا شك أن مكاسب هؤلاء تساوي خسارة أولئك. ويشير الكتاب إلى العديد من الأمثلة التاريخية بدءا من ١٨٦٩ أيام هلع الذهب وحتى يوم الاثنين الأسود في أكتوبر عام ١٩٨٧ ليؤكد هاتين المرحلتين لعملية المضاربة والاستثمار.

أما عن موضوعات المضاربة فقد تكون العملات المعدنية (١٦١٨ - ١٦٢٣) وقد تكون الأزهار النادرة مثل التيوليب أو المنازل الفاخرة (١٦٣٦ - ١٦٤٠)، أو دين الحكومة البريطانية (أمستردام ١٨٦٣) وقد استعرض الكتاب مئات الأمثلة من التاريخ على موضوعات المضاربة مثل المواد الأولية، والأسهم والسندات لكافة أنواع الشركات محلية وأجنبية، وأراضي البناء، والأراضي الزراعية، والأسواق المركزية، والمنازل الفاخرة، ومجمعات المساكن والشركات والعملات الأجنبية، والأوراق المالية والتجارية، وقد أشار الكتاب إلى تاريخ استخدام هذه الموضوعات للمضاربة وموقعها الجغرافي وذلك منذ القرن السابع عشر وحتى نهاية التسعينيات من القرن العشرين.

ج- تأجيج النار: (التوسع النقدي)

يتسارع إيقاع المضاربة من خلال التوسع النقدي عن طريق التوسع في الائتمان، وقد تبدأ موجة هوس المضاربة نتيجة لتوسع ائتماني ونقدي في البداية، ويستطيع الإنسان أن يعود إلى الوراء ويتابع بعض أنواع الهوس التي حدثت وانتهت إلى أزمة انهيار ليعرف أين يكمن الخطر والخطأ. فالمتتبع للأزمات بدءا من هوس التيوليب (١٦٣٦ - ١٦٣٧) وهوس شركة سوث سي في إنجلترا (١٧١٩ - ١٧٢٠) وشركة الميسيسيبي في فرنسا(١٧١٩ - ١٧٢٠) بجانب الأزمة الهولندية ١٧٦٣، وأزمة الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ورواج الخمسينيات من القرن التاسع عشر، يرى أنها قد استندت جميعا إلى التوسع النقدي من خلال التوسع في الائتمان، وكذلك فإن توسع إنشاء البنوك في كل من إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ومؤسسات بيوت المقاصة وبيوت الخصم كلها ساعدت على التوسع النقدي خلال القرن التاسع عشر، كما شهدت العشرينيات من القرن الماضي التوسع في نظام البيع بالتقسيط وسوق النقود الحالة أو تحت الطلب الذي ساعد على تمويل انتعاش سوق الأسهم قبل أزمة عام ١٩٢٩، وتؤكد كل من أزمة المكسيك ١٩٩٤وأزمة دول شرق آسيا ١٩٩٧ أن التوسع النقدي وانفكاك الائتمان كان هو العامل الحاسم في تأجيج نار الأزمة. وبلغ التوسع في الائتمان المصرفي مداه خلال السنوات ١٩٧٧ - ١٩٨٢ حينما كانت الأصول العقارية والمالية (الأسهم) تباع في سوق المناخ بالكويت (السوق غير الرسمية) بناء على شيكات آجلة وصلت إلى بلايين الدينارات (٢٢ بليون دينار) ولم يكن هناك ضرورة لوجود رصيد مقابل في حساب البنك لإصدار شيك آجل لأن المستفيد كان يتوقع وجود الرصيد حين يحل الأجل وقد حدث الانهيار حينما تقدم بعض المستفيدين لصرف شيكاتهم حين حلول الميعاد فلم يجدوا رصيدا.

ويشير كندلبرجر إلى أنه في تاريخ النظرية النقدية كانت هناك معركة مستمرة بين ما يعرف قديما بمدرسة العملة «٢» ومدرسة البنوك أو المصارف «٣» وهي الأسماء التي عرفت بها هاتان المدرستان حينما انفجر الحوار بينهما بعد عام ١٨١٠ حول تقرير المعادن، مدرسة العملة تقابل اليوم مدرسة النقوديين ومدرسة البنوك تقابل اليوم المدرسة الكينزية، الأولى ترى عدم التوسع النقدي وضرورة تثبيت عرض النقود أو على الأكثر تحديد معدل نمو ثابت للمعروض النقدي، في حين أن مدرسة المصارف ترى ضرورة التوسع النقدي في بداية عملية الانتعاش والرواج لإعطاء الدفعة الأولى. وقد أيقنت مدرسة العملة الحاجة إلى حدود عليا على زيادة المعروض من النقود ويتمثل ذلك في تحديد حدود عليا على معدل نمو النقود، والمشكلة التي أثيرت هي أن النقود اصطلاح من الصعب تعريفه فهو مفهوم مراوغ من الصعب تحديده بدقة أو كما قال والتر باجيهوت «أن النقود من الصعب تعريفها ومن السهل عدها»، ويؤكد التاريخ الاقتصادي أنه في كافة الحالات التي حاولت فيها السلطات النقدية تحديد كمية النقود بشكل مطلق أو تثبيت معدل نموها فإن نشوة الانتعاش وفورة الرواج تدفع دائما إلى كمية أكبر بكثير، والنظام الاقتصادي في ظل موجة الهوس يبحث عن وسائل جديدة لزيادة الائتمان ومن ثم عرض النقود. ففي الدول المتقدمة يوجد عدد غير محدود من المؤسسات المالية المصرفية وغير المصرفية وكذلك العديد من الأصول السائلة التي تمثل بديلا قريبا

للنقود بحيث يمكن حيازتها وهى أقل منها حينما تأتى لحظة الدفع.



والمشكلة لا تتوقف عند حدود توسع الائتمان مع نشوة الانتعاش والهوس، لكن هذا التوسع يأتى مصحوبا دائما بتدنٍّ فى مستوى الدين فمع التوسع فى الائتمان يتم الانتقال فى تمويل المشروعات من تلك الأقل خطورة إلى الأكثر خطورة أو التى ترتفع درجة مخاطرها، وفى التمويل التجارى والشخصى يتم بالضرورة مع التوسع فى الائتمان الانتقال إلى من هم أقل جدارة ائتمانية حسب تصنيف عملاء البنك، بمعنى آخر مع التوسع فى الائتمان ترتفع بالضرورة درجة مخاطر هيكل الأصول للبنك أو الشركة المالية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ففى حالة الرواج والارتفاع المتواصل فى أسعار الأصول، فإن منح الائتمان بضمان هذه الأصول يصبح أكثر سهولة بل تتخطى قيم الضمانات حجم المديونية الممنوحة وهو ما يخلق اطمئنانا اصطناعيا لدى المؤسسة المانحة للائتمان، وفى ظل الهوس بالرواج تصبح المؤسسات المالية أكثر تراخيا وأقل شدة فى تطبيق القواعد المصرفية المتعارف عليها فى منح الائتمان أى تصبح أكثر سهولة. ويشير الكتاب إلى مثال سندات الخردة Junk Bonds على أنها مثال لتدنى نوع المديونية مع انتعاش سوق السندات فى الثمانينيات، وهى سندات تصدرها شركات تقع جدارتها الائتمانية أسفل درجة «مستثمر» طبقا للتصنيف الذى تقوم به أكبر مؤسستين عالميتين هما موديز وستاندارد آند بور، فهى سندات ذات مخاطر عالية وبالتالى يرتفع عائدها.

وعند حدوث الانهيار الحاد فى أسعار الأصول، أى عند انفجار الفقاعة، تنخفض قيم ضمانات القروض، وقد تقوم البنوك باستدعاء قروضها، ويتعثر المدينون عن السداد وترتفع نسبة الديون غير المنتظمة فى المحافظ الائتمانية للبنوك وهو ما يدفع البنوك إلى الإحجام عن منح ائتمان جديد أو التشدد فى شروط منحه حتى للمدينين ذوى الجدارة المقبولة مما يحول دون تشغيل طاقاتهم الإنتاجية وتوليد التدفقات النقدية التى تمكنهم من سداد ديونهم فيتعثرون وقد يعلنون إفلاسهم...الخ، وهكذا يدخل الجهاز المصرفى فى حلقة مفرغة.

وقد أشار الكتاب وبنوع من التفصيل إلى بعض الأدوات المستخدمة والتى يمكن عن طريقها التوسع فى الائتمان على أساس قاعدة نقدية ثابتة مثل الكمبيالات، فأوراق البنكنوت وهى وعد بالدفع عند الطلب، والكمبيالة هى ورقة تجارية تتضمن أمرا من شخص يسمى الساحب إلى شخص آخر يسمى المسحوب عليه بأن يدفع لشخص ثالث مبلغا معينا فى تاريخ معين أو قابل للتعيين، والكمبيالة يمكن خصمها لدى البنوك حيث تتحول إلى أوراق بنكنوت ويمكن تداولها كأداة إبراء عن طريق تظهيرها ولها قوة الإبراء كالنقود، وقد تحوى الكمبيالة خمسين أو ستين تظهيرا. وتثار المشكلة عندما تنفلت نسبة الدين فى شكل كمبيالات إلى ثروة المدين وهو ما يمكن أن يحدث فى فترة الهوس، ويكتب جون بول عام ١٨٥٧ عن شركات برأس مال ١٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى فى حين بلغت مديونيتها ٩٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى، وفى عالم اليوم هناك مثال «صندوق المخاطر» المعروف باسم لونج تيرم كابيتال مينجمنت (LTCM) وهو صندوق مخاطر تم إنقاذه بواسطة بنك الاحتياط الفيدرالى فى سبتمبر عام ١٩٩٨ حيث بلغت قاعدته الرأسمالية ٥ بلايين دولار فى حين بلغت مديونيته ١٢٥ بليون دولار من البنوك وبيوت الاستثمار وصناديق المعاشات، وهى نسبة ١:٢٥ فى حين أن النسبة المعتادة لا تتعدى ١:١٠ وفى القرن الثامن عشر كما يشير الكتاب هناك العديد من الشركات التى ضاربت بما يزيد على ٢٠ ضعف رأس مالها خلال رواج ١٧٦٣.



أما المثال الثانى للتوسع فى الائتمان فيتمثل فى النقود تحت الطلب أو الودائع تحت الطلب «Call Money» وقد لعبت هذه الأداة دورا فى أزمة عام ١٨٨٢ وأزمة عام ١٩٢٩ وهى حالة كلاسيكية للهوس الذى تم تمويله بواسطة الودائع أو النقود تحت الطلب، وهى نقود تم إقراضها من البنوك إلى السماسرة «تحت الطلب» وهى قروض يمكن استدعاؤها فى أى وقت، وهى عادة لمدة ٢٤ ساعة.

أما المثال الثالث من الإمكانيات اللانهائية المتاحة للتوسع فى الائتمان على أساس قاعدة نقدية ثابتة ولكنها لها الطابع الدولى فتتمثل فى قاعدة الذهب (قاعدة الصرف بالذهب) أو نظام الإضافة إلى الاحتياطات الدولية للبنك المركزى برصيد ثابت من الذهب على أساس أن يحتسب ضمن هذا الاحتياطى حيازة أو رصيد العملات الأجنبية فى مواجهة الدول الأخرى التى تتبنى قاعدة الذهب.

د- النصب والاحتيال:

ترتبط الأزمة المالية والتجارية برباط وثيق بأنواع من المعاملات تتخطى حدود القانون والأخلاق مهما بدت لنا هذه الحدود غامضة بعض الشىء، فالميل للنصب والاحتيال والغش يسير موازيا للميل للمضاربة خلال فترات الرواج وحالة الذعر والهلع بتعبيرها الشائع Sauve qui peut أى أنقذ ما يمكن إنقاذه وهو ما قد يدفع إلى مزيد من الغش رغبة فى الإنقاذ، كما أن أحد مؤشرات الهلع قد يتمثل فى اكتشاف عملية غش، أو سرقة، أو اختلاس أو تزوير.

ويشير الكتاب إلى ما يعرف باسم نظام بونزى Ponzi Scheme وهى حيلة كلاسيكية تم تكرارها فى العديد من المرات قبل وبعد تشارلز كارلو بونزى عام ١٩٢٠ وهو الذى أعطاها اسمه. ويتمثل ذلك فى إقامة مؤسسة مالية أو بنك لتلقى الودائع ويقوم المحتال بدعوة الجمهور بوضع ودائعهم فى هذه المؤسسة المحتالة مع وعد بدفع فائدة غاية فى الارتفاع بحيث يتم دفع الفائدة من الودائع النقدية الجديدة فى حين يعيش المحتال عيشة فاخرة من الودائع القديمة. وينهار هذا البناء حينما لا توجد ودائع جديدة كافية وقادرة على تغطية مدفوعات الفوائد على الودائع القديمة، وفى الوقت الراهن يتمنى بونزى الجديد أو الحديث أن يعيش متمتعا بدفء حرارة الشمس فى بلاد جميلة ليس لها قوانين لتسليم المجرمين، وقد وعد بونزى بدفع فائدة نسبتها ٥٠٪ على ودائع لمدة ٤٥ يوما استنادا إلى خطة للمراجحة فى أسواق الصرف الأجنبى، وقد تلقى حوالى ٧,٩ مليون دولار فى حين وجد فى حوزته ٦٠ دولارا عند القبض عليه فى بوسطن عام ١٩٢٠. ويمتد نظام بونزى إلى حالات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال سداد القروض القديمة عن طريق قروض جديدة.

وينصب اهتمام الكتاب على الأسواق المالية ومن ثم بالاحتيال والنصب على أصحاب الأسهم أو حاملى الأسهم بواسطة المديرين، النصب على المستثمرين بواسطة المروجين للأوراق المالية بما فيهم السماسرة، بنوك





إن الهوس والهلع والانهيار هى نتاج بيئة تساعد على تفريخ الجشع وحب التملك، والنصب والخداع، وشهوة المال

الاستثمار، والمصدرون للأوراق المالية، والنصب من خلال الأسماء الوهمية على الكمبيالة. ويرى البعض أن الاحتيال هو نتاج للتضخم حيث يحطم ميزانية الأسرة فيدفعها للمخاطرة من أجل البحث عن مصدر للدخل، والحقيقة أن الجرائم المالية يقارن فيها المحتال بين العائد من عملية الاحتيال وبين مخاطر عملية الاحتيال ألا وهو احتمال اكتشافه والقبض عليه وهو احتمال يزيد أو يقل حسب قوة النظام الرقابى والقضائى.



ويرى كندلبرجر أن الاحتيال والنصب يتحددان من جانب الطلب وذلك جريا على قانون كينز وهو أن كل طلب يخلق العرض عليه، خلافا لقانون ساى وهو أن كل عرض يخلق الطلب عليه، ففى أثناء الرواج والهوس تتراكم الثروات ويزداد الأفراد جشعا، وهنا يتقدم النصابون والمحتالون لاستغلال هذا الجشع من أجل الحصول على الثروة وزيادتها - والمثل القديم يشير إلى أنه «هناك مغفل يولد كل يوم». والجشع لا يخلق فقط الذين يتم الاحتيال عليهم ولكنه من ناحية أخرى يدفع بعض الهواة إلى ارتكاب جرائم التزوير والاختلاس، والغش وجرائم مالية أخرى.

والاحتيال والنصب كما ذكرنا ينمو مع الانتعاش وفى ظل الهوس به وهى تزداد أكثر أثناء المحنة المالية "Financial Distress" حيث يسود نظام ائتمانى مشدود - وهو ما يعنى نظاما ائتمانيا توسع بما لا تسمح به موارده المتاحة - وحيث توقفت الأسعار عن الارتفاع واتجهت نحو الهبوط، وحينما يتم اكتشاف النصب والاحتيال تزداد المحنة وهى عادة تسبق حالة الهلع والذعر ثم الانهيار، وفى عام ١٧٢٢ هرب الكسندر نورديز من لندن إلى أوروبا تاركا شركاءه لمواجهة الالتزامات - إذا أمكنهم ذلك وطبعا لم يكونوا قادرين - والبالغة ٥٥٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى فى صورة كمبيالات مقبولة الدفع مشكوك فيها.

والفقاعة قد تكون احتيالا أو لا تكون، ففقاعة المسيسيبى (١٧١٩-١٧٢٠) وهى الشركة التى تكونت لتمويل عمليات الاستيطان فى لويزيانا وتطوير التجارة مع الأسبان فى تكساس والجنوب لعب فيها الدور الرئيسى جون لو Law J. وهو مصرفى ومنظر نقودى مع الحاكم الإدارى سيردى بينفل، وكانت مثلا لسوء استخدام الموارد، إذ أعلن عن وعد بتوزيع كوبون للسهم نسبته ١٢٪ فى عام ١٧١٩ ثم ارتفع الوعد إلى ٤٠٪ مما أدى إلى صعود شاهق فى أسعار الأسهم حيث تم تمويل شراء هذه الأسهم بقروض مصرفية بسعر فائدة منخفض. أما شركة سوث سى فقد أسست أساسا لمعالجة ديون الحكومة البريطانية ومنحت احتكار التجارة إلى الإمبراطورية الأسبانية، وقد ارتفعت أسهم هذه الشركة نظرا لزيادة حجم الإقراض من الشركة بضمان أسهمها وكانت القاعدة هى أنه مقابل كل إيداع لأسهم بقيمة ١٠٠ جنيه إسترلينى يمنح المودع قرضا مقداره ٢٥٠ جنيها إسترلينيا.

وفى مراحل لاحقة أصبح ترويج أسهم الشركات لا علاقة له بالواقع كما يشير بذلك المؤرخون والروائيون، فقد تم إنشاء شركات عديدة دون أن تقوم بأى نشاط كما أنشئت سكك حديدية دون طرق أو أحجام يتم نقلها، وبدلا من البناء قام الكثيرون بالمضاربة على أراضى البناء، وتدفع المحنة المالية إلى الغش بغرض تحويل عبء الخسارة إلى الغير.

وأدبيات التاريخ الاقتصادى مليئة بالإدانة للعديد من المقامرين النبلاء والعالمين ببواطن الأمور أى بالأسرار الداخلية للمؤسسات وكان يظن بهم مراعاة الالتزامات المالية كديون شرف ولكنهم على العكس من ذلك اشتهروا «بالكفاءة بالوعد» بالدفع بدلا من دفع اكتتابهم، ومن الأمثلة على ذلك الماركيزدى يوهان مؤسس بنك يونيفرسال الذى كان «إذا كسب يضع المكسب فى يده وإذا خسر فلا يدفع» ويسعى النبلاء إلى الحصول على مقاعد فى مجالس إدارات الشركات الصناعية والبنوك للحصول على معلومات تمكنهم من استغلالها للحصول على مكاسب فى السوق أو بيع هذه المعلومات للغير.



والأشكال المختلفة للجنح المالية كثيرة العدد، بجانب السرقة المباشرة، والكذب، وقول الحقيقة ناقصة، فهناك ممارسات عدة تكاد تقترب من ذلك مثل تحويل الأرصدة المالية من الأغراض المخصصة لها إلى أغراض أخرى، ودفع أرباح من

رأس المال أو عن طريق الاقتراض، تداول أسهم شركة معينة بناء على معلومات سرية داخلية، بيع الأوراق المالية دون الإفصاح عن المعلومات الجديدة، استخدام أرصدة الشركة لإعطائها كقروض إلى مصالح داخلية، والتغيير في دفاتر الشركة ونقل الأموال المخصصة من بند إلى آخر دون أساس محاسبي لذلك.

وهناك رجل أصبح محل إعجاب الكثيرين حيث ارتكب أغلب ما سبق من جرائم عام ١٨٤٦ أثناء ما عرف بهوس السكك الحديدية وهو جورج هدسون الذى شغل فى وقت واحد مدير أربع مناطق للسكك الحديدية، إذ اعتقد أنه فوق القانون الذى رأى أنه ينطبق فقط على منافسيه، وكانت حساباته مغشوشة ومدلسة، وقد حصل على أسهم وأرصدة ملك سكك حديد يورك وميدلاند فى إنجلترا، وقد قام كفرد بالتعاقد مع شركات كثيرة كان يعمل بها مخالفا بذلك قانون الشركات السائد، ورفع عائد السهم فى سكك حديد المقاطعات الشرقية من ٢٪ إلى ٦٪ قبل إعداد البيانات المالية ثم قام بتغيير البيانات ليبرر هذه المدفوعات، كما قام بدفع عائد السهم فى سكك حديد يورك وميدلاند من رأس المال.

ويعتبر عقد العشرينيات من القرن الماضى فى الولايات المتحدة كما يشار إليه دائما «العصر الأكبر للنصب والاحتيال فى التمويل لم ير العالم مثله» ومن أشهر النصابين والمحتالين فى هذه الحقبة التاريخية هارولد راسل سيندر الذى كانت السرقة هى الطريق الذى سلكه للخروج من الخراب الذى وصل إليه فى انهيار سوق الأسهم، وارثرمونتجمرى الذى أعد برنامجا للاستثمار فى العملات الأجنبية يولد عائدا نسبته ٤٠٠٪ فى ستين يوما واحتفظ بأغلبها لنفسه، وغيرهم كثيرون، وأنتج عقد الثلاثينيات من القرن الماضى أمثلة لا يمكن أن تنسى من التزوير والاحتيال يقع على قمتها إفلاس بنك الولايات المتحدة، وشركة كروجرأند تول، والشركة القابضة لتوفير المنافع العامة لغرب الوسط والتى هرب صاحبها «ساموبل إنسل» من المحاكمة. أما النصف الثانى من التسعينيات للقرن العشرين فقد تميز بالانتعاش الكبير إلى درجة إنتاج محصول وفير من عمليات النصب والغش والاحتيال، وسلوكيات عديدة تنطوى على أحكام خاطئة وعلى أخلاقيات محل شك كبير، وقد قدمت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب أمثلة صارخة سواء من النصف الأول أو النصف الثانى من الثمانينيات من القرن الماضى وقد حكم بالسجن على العديد من المختلسين بعد محاكمات طويلة. ويحوى الكتاب عينة صغيرة من القضايا.

مثال هذه القضايا قضية البانيا وهى مشروع جذب حوالى بليون دولار، وقد قام على أساس تمويل بونزى أو شبيه بذلك حيث وعد المستثمرين بعائد ٣٠٪ شهريا وانهار هذا المشروع فى يناير ١٩٩٧ فى أعقاب اكتشاف الاحتيال والنصب، ليس فقط هناك ولكن فى دول أخرى من شرق أوروبا شاملة روسيا، وهناك قضية بانكرزترست حيث تم الاعتراف بالجرم فى مارس ١٩٩٩ فى جريمة تحويل ودائع غير مطالب بها كان يجب أن تذهب إلى الحكومة طبقا للقانون السائد، وقد أعاد البنك الأموال ودفع غرامة قدرها ٦٧,٥ مليون دولار أمريكى وقد اتهم بنك أوف أمريكا بسان فرانسيسكو بذات التهمة وقام برد المبالغ ودفع غرامة، وهناك قضية بنيت فندنج جروب (مجموعة بنيت للتمويل) وهى شركة صغيرة فى سيراكيوز(نيويورك) كانت تقوم بتأجير معدات وأدوات مكتبية وقامت ببيع ما مقداره ١,٥ بليون دولار عقود تأجير لحوالى ١٠٠٠٠ مستثمر، وقد استخدمت هذه العقود كضمان للاقتراض من البنوك، هذه الأموال التى تم اقتراضها استخدمت لتمويل نمط معيشة

هوس.. هلع.. انهيار

معينة فاخر لنائب الرئيس الأول للشركة شاملة المقامرة بهذه الأموال التى منىَ فيها بخسارة كبيرة وأفلست الشركة فى عام ١٩٩٥، وهناك روبرت.ب. برنان الشهير وهو رجل خير من نيوجرسى عاشق لسباق الخيل أنشأ شركة نيوجيرسى للأوراق المالية، وقد تم اتهامه بأنه احتال ونصب على المستثمرين خلال الفترة من ١٩٨٨ - ١٩٩٥ بحوالى ٣٠٠ مليون دولار باستخدام تكتيكات عجيبة وباللعب فى الدفاتر وقد تم تسوية الاتهام بالغش فى الأوراق المالية ودفع حوالى ١٠٠ مليون دولار إلى بلدية نيوجيرسى وشطب من سجل المتداولين فى الأوراق المالية.

ولا يفوتنا ذكر شركة بركس إكس مينرال ليمتد ونائب رئيسها جون فيلدرهوف حيث تم توجيه التهمة لهما فى ١١ مايو عام ١٩٩٩ بالتجارة بناء على أسرار داخلية وبالغش والتزوير بالإعلان عن اكتشاف منجم ذهب فى إندونيسيا أدى إلى صعود أسعار أسهم الشركة صعودا فلكيا وحدث الانهيار حينما تأكد عدم وجود المنجم. ومن القصص الطريفة أيضا قصة «ديوا بوندترادر» أو تاجر سندات ديوا فقد اعترف تاكاشى فرجيساوا فى سيرته الذاتية أنه قد خسر حوالى ١.١ بليون دولار فى تجارة السندات الأمريكية خلال أحد عشر عاما حتى عام ١٩٩٥. وقد حاول تغطية هذه الخسارة ببيع الأوراق المالية التى يملكها بعض عملائه، وقد حكم عليه بالسجن أربع سنوات وبغرامة ٢.٦ مليون دولار. أما قضية مارفن بى فرنكل فقد اتهم بسلب ونهب سبع شركات تأمين ويضاف إليها مؤسسة سانت فرنسيس أوف أسبسى للفاتيكان بما مقداره ٢ بليون دولار تقريبا وقد عاش فرنكل فى جرينتش كينتكت فى منزل فاخر يحيط به ويقوم على خدمته العديد من النساء والكثير من الخدم وفى مايو ١٩٩٩ هرب من الولايات المتحدة وقد تم القبض عليه فى هامبورج بألمانيا.

ويتضمن الكتاب أيضا الإشارة إلى قضية س. جولدمان وشركاه وهو سمسار فى نيوجرسى تم اتهامه والحكم عليه فى ٨ يوليو عام ١٩٩٩ حيث قاد عملية غش وتزوير كبيرة فى الأوراق المالية كلفت بعض المستثمرين ١٠٠ مليون دولار. ويشير الكتاب أيضا إلى فضيحة وزارة المالية والبنك المركزى اليابانى حيث تم فى مارس عام ١٩٩٨ الكشف عن سلسلة من الفضائح متعلقة ببعض المسئولين الكبار الذين يقومون بإخطار البنوك بمواعيد التفتيش القادمة. وقد تم القبض على أربعة من هؤلاء المسئولين فى حين قام رئيسهم بشنق نفسه، وفى مارس عام ١٩٩٨ استقال محافظ البنك المركزى اليابانى متحملا مسئولية اثنين من العاملين بالبنك قاما بكشف الأسرار المتعلقة بالسياسة النقدية، وهناك الفضيحة المالية لهنرى ليونز الرئيس السابق لمؤتمر الناشيونال بابتست والذى حكم عليه بالسجن ٥ سنوات فى يونيو عام ١٩٩٩، ولا يفوتنا أن نشير إلى قضية شركة سوميتومو الشهيرة، إذ أعلنت فى سبتمبر عام ١٩٩٦ أن أحد موظفيها ويدعى ياسو هماناكا قد ترتب على سلوكه تراكم خسارة من تداول المشتقات فى سوق النحاس بلغت ٢.٦ بليون دولار بدلا من ١,٨ بليون دولار والتى أعلنت قبل ذلك فى شهر يونيو عام ١٩٩٦، وقد أعلنت الشركة فى يونيو عام ١٩٩٩ أنها ستقاضى بنك سويسرا المتحد مقابل ٢٣٠ مليون دولار، وبنك تشيس منهاتن مقابل ٥٣٢ مليون دولار، وكانت قد قاضت بنك جـ. ب. مورجان، وبلغت قيمة القضايا لمورجان وتشيس مانهاتن حوالى بليون دولار - وذلك لقيام هذه البنوك بإقراض هماناكا بالرغم من علمهم أنه ليس لديه السلطة لإلزام الشركة، وفى مارس عام ١٩٩٨ تم الحكم على هماناكا بالسجن ٨ سنوات فى طوكيو.

وقد تساءل كندلبرجر عما إذا كانت العقوبات فى هذه الجرائم الخاصة بالنصب والاحتيال والغش والتدليس والتزوير والاختلاس المالى كافية أم لا؟ وهو لا يحاول الإجابة عن هذا السؤال لأنه يقع خارج نطاق دراسته وإن كان يشير إلى قيام أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى أيام أزمة شركة سوث سى (١٧١٩ - ١٧٢٠) باقتراح أن ينظر إلى المتهمين فى هذه الشركة على أنهم من قتلة الأبوين وتطبيق العقوبة التى قررها الرومان لهذه الجريمة وهى وضع المجرم فى شوال مع قرد أو ثعبان ويلقى فى البحر.

هـ - المرحلة الحرجة:

فى النموذج الذى سار عليه الكتاب لتتبع تاريخ الأزمات المالية يسير الترتيب كالتالى، الصدمة فالنشوة، فالهوس، فالمحنة، فالهلع، فالانهيار، وهو نمط فى التتابع لا يختلف عن ذلك الذى أشار إليه لورد أوفر ستون أحد رواد البنوك فى منتصف القرن التاسع عشر اقتبسه ووافق عليه والتر باجيهوت وهو: هدوء، تحسن، ثقة، انتعاش، هياج، إفراط فى التجارة، تشنجات، ضغوط، ركود، ثم هدوء، هذه الصيغة تؤدى إلى مدّ فترة النشوة إلى خمس مراحل وهو غير مستساغ، كما أنها تضع الضغوط تالية بدلا من كونها سابقة للتشنجات أو التقلصات(الأزمة)، إذ تغير الترتيب فإن المحنة والضغوط يتكونان فى فترة تتحول فيها سواء بالتدريج أو بالمفاجأة التوقعات الوردية للرواج لكى تفسح الطريق للتوقعات المتشائمة.

وهكذا يلعب التغير فى التوقعات من حالة الثقة إلى فقدان الثقة دورا محوريا فى سير الأزمة، إلا أن التوقعات فى التاريخ المالى تختلف عما تقول به نظرية التوقعات الرشيدة من أن التوقعات تتغير فوريا استجابة لأحداث محددة. فالتوقعات قد تتغير فوريا وقد تتغير ببطء شديد وفترة المحنة قد تمتد إلى أسابيع أو أشهر أو سنوات وقد تتركز فى عدد محدد من الأيام. وإحدى المؤسسات التى تلعب دورا مهمًا فى التأثير فى التوقعات وتغيير مسارها هى الحكومة. ولذا يرى فردمان أن الحكومة إذا كانت لديها معلومات أكبر من الأفراد فلا بد من الإفصاح عنها، صحيح أن كلمة من العاقل قد تكفى ولكنها أحيانا لا تكفى، ولكن السؤال هو هل تدخل الحكومة قبل الأزمة بالإفصاح عن معلومات أو بالإنذار المبكر يمكن أن يؤثر فى التوقعات وفى سلوكيات الأفراد؟



تتبع الكتاب تحذيرات الحكومة بدءا من أزمات ١٨٢٥ - ١٨٥٧، واستمر فى إعطاء الأمثلة حتى أزمة أسواق المال خاصة أسواق الأسهم فى أمريكا فى النصف الثانى من التسعينيات خاصة تصريحات جرينسبان محافظ بنك الاحتياط الفدرالى عام ١٩٩٦ عن الارتفاعات غير المقبولة لأسعار الأسهم وعن تأثير أسعار الأسهم على صياغة أسعار الفائدة إلا أن كل هذه التحذيرات للأسف لم يكن لها صدى ولم تؤثر فى سير حركة التوقعات ولم تقيّد حركة المضاربين فى البورصات.

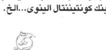
دعنا الآن نناقش حالة المحنة باعتبارها حالة حرجة، فللمحنة معنيان، الأول أنها حالة من المعاناة والثانى أنها موقف ينطوى على مخاطرة كبيرة، والمحنة التجارية تتضمن المعنى الأول فى حين تتضمن المحنة المالية المعنى الثانى، وبالمعنى الدارج تعنى المحنة التجارية وجود حالة انخفاض حاد فى الأسعار والنشاط الاقتصادى وإفلاس العديد من المنشآت الصناعية والتجارية، أما المحنة المالية على مستوى شركة أو مؤسسة واحدة فتعنى أن قدرة المؤسسة على اكتساب الدخل أو توليد التدفقات النقدية قد انخفضت مما يثير احتمالات بعدم القدرة على سداد الالتزامات (الفوائد وأصل الدين) وبالتالى تولد احتمال تدهور المركز الائتمانى، أما المحنة بالنسبة لاقتصاد ما، فهى أمر ينطوى على احتمالات أو توقعات بالمستقبل بدلا من كونها تعبيرا عن حالة فعلية، إنه الهدوء الذى يسبق العاصفة وليس بداية العاصفة.

والمحنة المالية تبدو تعبيرا غير دقيق ولكنها على الرغم من ذلك كثيرة الاستخدام جدا فى مناقشات الأزمات المالية، أما الاصطلاحات التى تصف الحالة أو المهلة بين انتهاء النشوة وبداية ما يطلق عليه الكلاسيكيون التشنجات أو التقلصات فى النموذج الحالى (هلع وانهيار) فهى: عدم الراحة، الخوف، التوتر، الضغوط، الشح، عدم اليقين، الضعف والهشاشة، وتستخدم كثيرا هنا التعبيرات المستخدمة فى علم المترولوجيا، وقد كتب لورد أوفر ستون عام ١٨٤٥ لصديقه جو مونتاجو نورمان محافظ بنك إنجلترا فى أوائل القرن العشرين «لا يوجد لدينا انهيار فى الوقت الحالى ولكنه هاجس بسيط بأن الأرض تتحرك من تحت أقدامنا» وكان ذلك لعامين قبل هلع وانهيار عام ١٨٤٧.

وإذا كانت المحنة Distress حالة موضوعية بالنسبة لشركة واحدة، فلا يمكن النظر إليها باعتبارها كذلك بالنسبة للاقتصاد ككل، والنظرة التاريخية توضح كيف توترت حالة الأسواق حينما انحرفت مؤشرات بعض الكميات الاقتصادية والمالية عن مسارها المعتاد مثل نسبة الاحتياطى للبنوك المركزية، نسبة المديونية إلى الثروة فى القطاع العائلى وقطاع الشركات، نسبة خدمة الدين الخارجى لحصيلة الصادرات وما شابه ذلك، كما قد يحدث وعى وصحوة مؤقتة نتيجة لاقترابنا من سقف بعض الكميات مثل حدود إصدار البنكنوت بواسطة بنك إنجلترا طبقا لقانون البنوك عام ١٨٤٤، والحد الأدنى من الذهب

المطلوب لوزارة الخزانة الأمريكية ١٨٩٣ (١٠٠ مليون دولار أمريكي) والحد الأعلى للإقراض للخزانة بواسطة بنك فرنسا عام ١٩٢٤.

ومن الصعب فصل أسباب الأزمة عن مظاهرها وسماتها ولكنها تتضمن الطلب على سوق رأس المال من أجل السيولة النقدية حينما تشح تلك النقدية، والارتفاع الحاد في الأسعار في بعض السلع والأصول التي كانت محلا للمضاربة، وانتهاء فترة ارتفاع الأسعار يؤدي إلى المحنة حيث تعود كل من المستثمرين والمضاربين على ارتفاع الأسعار وما تنطوي عليه من أرباح ورقية، ومن الصعب جدا في هذه الآونة التفرقة بين التوقف المؤقت في ارتفاع متواصل وبين الوصول إلى الذروة التي بعدها يبدأ النزول. وقد تنشأ المحنة من الاستنزاف الخارجي، مثل محصول سيئ يتطلب زيادة الواردات ومن سياسة نقدية متشددة في الخارج تؤدي إلى جذب رؤوس الأموال المحلية نحوها، عودة العائد على رأس المال الأجنبي إلى بيئته الطبيعية، المهم في كل ذلك أن جوهر المحنة المالية هو فقدان الثقة، ما يأتي بعد ذلك هو انهيار الأسعار، الهلع والتسابق للسحب من البنوك والتسارع للتخلص من الأصول غير السائلة... الخ. ولعل السؤال المهم هو إلى متى تطول المحنة، إذا لم يل المحنة ذعر أو هلع كما هو الحال في فرنسا عام ١٨٦٦، وبريطانيا ١٨٧٣ و ١٩٠٧ فإن المحنة المالية سوف تصفي نفسها أي تنتهي ذاتيا وتدريجيا، أما إذا تلت المحنة حالة الهلع فلا يوجد معيار لهذه الفترة أو الفجوة فقد تكون أياما أو شهورا أو أسابيع أو سنين. ويستعرض الكتاب أمثلة عديدة منذ عام ١٨٢٥ وحتى أزمة ١٩٨٧ عن المحن المالية خاصة في الولايات المتحدة في الوقت الحاضر نتيجة لفشل بنوك الإقراض والادخار المحلية، بنك أوف أمريكا، بنك كونتيننتال الينوي...الخ.



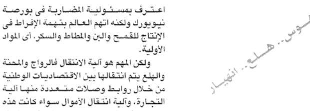
والسؤال المهم هو عن ابتداء الأزمة فلا بد أن يتذكر طلبة المنطق المناقشة التي دارت حول المفرقعة التي رماها (أ) لتستقر عند أقدام (ب) ومن (ب) إلى (ج) إلى (د) وهلم جرا لتنفجر بعد أن رماها (و) في وجه (ى). من الملوم في هذه الحالة؟ هل هو (أ) المسبب البعيد أم هو (و) المسبب القريب؟ الأسباب البعيدة للأزمة هي المضاربة والتوسع في الائتمان، والأسباب القريبة هي حدث يترتب عليه فقدان الثقة في النظام المالي والاقتصادي ككل، وهو ما يؤدي بالناس إلى التفكير في مخاطر وعواقب الفشل والانهيار بحيث يدفعهم إلى التخلص مما لديهم من السلع والعقارات والكمبيالات والسندات الإذنية، - أيا كان - هربا إلى السيولة النقدية، ومسببات الأزمة القريبة قد تكون تافهة مثل إفلاس، انتحار، هروب، كشف عملية تزوير أو اختلاس، رفض منح الائتمان لمقترض كبير، تغير في الرؤية أو وجهة النظر تدفع لاعبا كبيرا إلى التخلص من حمولته، فتنخفض الأسعار وتتغير التوقعات وتنقلب توجهاتها، ويتسارع إيقاع هذه الحركة النزولية. وحيث تم تمويل المضاربين بواسطة الائتمان المصرفي، فإن انخفاض الأسعار يؤدي إلى استدعاء البنوك لقروضها لتسوية شروط التمويل بالمارجن أو لتوفير السيولة النقدية، وهو ما يدفع المقترضين إلى تصفية أصولهم وهو ما يؤدي إلى مزيد من انخفاض الأسعار الذي يترتب عليه تعثر القروض المصرفية وهو ما قد يدفع إلى فشل واحد أو أكثر من البنوك أو الشركات المالية أو بيوت الخصم أو السمسرة، يبدو النظام الائتماني مهتزا كمن يقف على رمال متحركة، وهكذا يستمر الاندفاع نحو السيولة النقدية، والكتاب مليء بالأمثلة القديمة والحديثة من القرن الثامن والتاسع عشر وكذلك من أواخر القرن العشرين عن حالات الهلع والانهيار أي الخوف المفاجئ الذي يدفع إلى تصفية الأوضاع والاتجاه نحو السيولة النقدية ثم انهيار الأسعار.

وكما يبدو من الكتاب فالنموذج السابق للأزمة هو نموذج قائم على التغذية الراجعة، إذ يترتب على انخفاض الأسعار، انخفاض في قيمة الضمانات المقدمة إلى البنوك وهو ما يدفع البنوك إلى استدعاء قروضها من ناحية ووقف منح قروض جديدة، مما يؤدي ببيوت التجارة إلى بيع ما لديها من سلع، وقيام القطاع العائلي ببيع ما لديه من أصول مالية (أوراق مالية) وقيام الصناعة بتأجيل الاقتراض وهو ما يؤدي إلى انخفاض أكثر في الأسعار ومن ثم الانخفاض الأكثر في قيم الضمانات مما يدفع إلى مزيد من التصفيات. وإذا فشلت الشركات والمشروعات تتحول القروض المصرفية إلى قروض رديئة وغير منتظمة مما يترتب عليه فشل بعض البنوك، وإذا فشلت البنوك يتجه المودعون نحو سحب ودائعهم بسرعة، وقد كان هذا هو الحال قبل قوانين ضمان الودائع. وسحب الودائع يدفع إدارات البنوك إلى استدعاء قروضها للسداد مما يدفع بكثير من الأصول المالية وغير المالية نحو البيع. وتقوم بيوت التجارة والمستثمرون والشركات الصناعية ببيع أسوأ ما في حوزتهم من أصول إذا أمكنهم ذلك وأفضل ما لديهم من أصول إذا اضطروا إلى ذلك.

و- العدوى: المحلية والدولية:

يبدأ الكاتب في معالجة هذا الموضوع بطرح أمثلة من الواقع التاريخي بادئا بأزمة التيوليب أو هوس التيوليب «Tulip Mania» فيما بين (١٦٣٦-١٦٣٧) وقد حدثت في هولندا حين انكمش اقتصادها في العشرينيات من القرن السابع عشر حيث بدأت مرة أخرى الحرب مع أسبانيا بعد توقفها ١٢ عاما، وترتبط أزمة التيوليب بالرواج المرتبط بالحرب. وكان موضوع المضاربة أسهم شركة الهند الشرقية الهولندية، أنواع التيوليب الفاخرة، أنواع التيوليب العادية، العقار والمنازل الفاخرة، والقنوات المائية. ووصلت الذروة في فبراير عام ١٦٣٦ وحدث الذعر والانهيار في فبراير عام ١٦٣٧.

أما العلامة المهمة في العدوى الداخلية فتتمثل في انتقال العدوى من سوق الأسهم إلى سوق العقار والعكس، كذلك أسعار السلع الأولية ويشير كندلبرجر إلى كتاب «مائة سنة من قيم الأراضي في شيكاغو» عام ١٩٣٣ حيث تتبع الكاتب خمس دورات من الرواج والانكماش موضحا العلاقة الوطيدة بين تحركات سوق الأسهم وسوق العقار وذلك في المائة السنة السابقة على عام ١٩٣٠. والأمثلة على هذه الروابط واضحة أيضا في فيينا وبرلين حتى عام ١٨٧٣ حيث ارتبط الرواج في السوقين معا، وانتقال النشوة والهلع من سوق لأخرى أصبح أمرا مفهوما الآن، ولعل المثل الواضح على الارتباط بين سوق الأوراق المالية وسوق العقار ومنها إلى البنوك هو اليابان في السبعينيات والثمانينيات فقد كان مؤشر نيكي للأسهم = ١٠٠ عام ١٩٤٩ ووصل إلى ٥٠٠٠ في أوائل السبعينيات وإلى ١٠،٠٠٠ عام ١٩٨٤ وارتفع إلى ١٢٠٠٠ في عام ١٩٨٦ ثم انطلق في مسار الفقاعة بالغا ٣٩٠٠٠ في نهاية عام ١٩٨٩ قبل انفجار الفقاعة بعام ولم يتأخر كثيرا سوق العقار فالرقم القياسي لأسعار العقار السكني في ست مدن كبيرة بدأ عام ١٩٥٥ = ١٠٠ وصل إلى ٤١٠٠ في منتصف

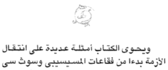


عند انفجار الفقاعة، تنخفض قيم ضمانات القروض، وقد تقوم البنوك باستدعاء قروضها، ويتعثر المدينون عن السداد وترتفع نسبة الديون غير المنتظمة في المحافظ الائتمانية للبنوك وهو ما يدفع البنوك إلى الإحجام عن منح ائتمان جديد

السبعينيات و ٥٨٠٠ في عام ١٩٨٠ ثم قفز إلى ذروته عام ١٩٨٩ إلى ٢٠٦٠٠، وتوقفت حركة أسعار العقار عن الصعود حينما انخفض مؤشر نيكي ثم اتجهت بعد ذلك إلى الانخفاض، وقد ساعدت البنوك في تأجيج حمى المضاربة وهوس الأسهم والعقار نتيجة للاتجاه نحو التحرير وإلغاء القيود وحينما تراجعت سوق الأسهم والعقار ظهرت المديونية المتعثرة في البنوك اليابانية التي بلغت حوالي ٥٥٠ بليون دولار أمريكي، ووصل معدل إفلاس الشركات الصناعية أو التجارية حوالي ١٠٠٠ وحدة شهريا، ويقرب من الإفلاس عدد لا بأس به من البنوك.

أما عن العدوى الدولية فقد كان التقليد السائد قديما هو توزيع مسئولية الأزمة جغرافيا، ففي أزمة ١٨٣٧ المالية قسم الرئيس جاكسون المسئولية بين بريطانيا والولايات المتحدة، وفي عام ١٩٢٩ اتهم الرئيس هوفر أوروبا باعتبارها مسئولة عن الأزمة وإن اعترف بمسئولية المضاربة في بورصة نيويورك ولكنه اتهم العالم بتهمة الإفراط في الإنتاج للقمح والبن والمطاط والسكر، أي المواد الأولية.

ولكن المهم هو آلية الانتقال فالرواج والمحنة والهلع يتم انتقالها بين الاقتصاديات الوطنية من خلال روابط وصلات متعددة منها آلية التجارة، وآلية انتقال الأموال سواء كانت هذه الأموال في شكل نقدية سائلة أم ودائع أم كمبيالات أم أنواع وأشكال مختلفة من رؤوس الأموال مثل الاستثمار الأجنبي المباشر والاستثمار في المحافظ المالية، وكذلك عملية المراجحة Arbitration تمثل رافدا مهما لانتقال الأزمات، وهناك أيضا القنوات السيكولوجية التي تسبق الإشارة إليها. فالرواج والهلع في دولة يبدو وكأنه يدفع إلى الرواج والهلع في دولة أخرى، وتؤكد الدراسات الحديثة الروابط القديمة بين أسواق الأسهم والسندات في العالم كله خاصة في ظل العولمة. هناك أيضا الروابط السعرية فحينما ارتفع سعر القطن في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر في دولة واحدة انتقل إلى باقي الدول. هناك أيضا تحركات أسعار الصرف وارتباطها بحركة الأسعار المحلية ولعل المثل الواضح على ذلك تخفيض سعر الصرف في الأرجنتين وأورجواي واستراليا ونيوزيلندا في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين وتأثيره على أسعار الغلال في أمريكا وانهيارها وإفلاس المزارعين الأمريكيين وفشل البنوك في المجتمعات الزراعية الأمريكية خاصة عام ١٩٣٠ في ميسوري، إنديانا، الينوي، أيوا، أركانساس.



ويحوي الكتاب أمثلة عديدة على انتقال الأزمة بدءا من فقاعات المسيسيبي وسوث سي حتى أزمة عام ١٩٩٧ في شرق آسيا، فأزمة عام ١٧٢٠ كانت هي الأزمة العالمية الأولى لأن المضاربة فيما بين عامي ١٧١٨ - ١٧٢٠ في فرنسا وإنجلترا كان لها صداها في هولندا وشمال إيطاليا وهامبورج، وأزمة عام ١٧٦٣ شملت كلا من هولندا، هامبورغ، بروسيا، واسكندنافيا، كما امتدت آثارها إلى لندن، وحرب السنوات السبع كانت موجهة ضد فرنسا، ولعبت المضاربة على الأراضي في الولايات المتحدة دورا في الأزمة، وأزمة عام ١٧٧٢ انتقلت من لندن واسكتلندا إلى امستردام ومن ثم إلى استكهولم وسانت بيترزبرج. أما أزمة عام ١٨٢٥ فقد شملت بريطانيا وجنوب أمريكا، وتولدت عنها آثار خارجية مميزة إلى باريس وامتدت حتى تولد الهلع هناك في يناير عام ١٨٢٨، وحينما ظهر الهلع في لندن في ديسمبر عام ١٨٢٥ توقفت المبيعات في أوروبا. والرواج الذي تحول إلى هلع عام ١٨٥٧ كان عالميا وشرحه الكثيرون من المؤرخين الاقتصاديين، اكتشاف الذهب في كاليفورنيا وأستراليا، المحاصيل السيئة نتيجة لحرب القرم وما ترتب عليها من ارتفاع أسعار القمح لكل المزارعين في العالم، وانفجار الهلع يوم الجمعة الأسود في ١١ مايو عام١٨٦٦ حيث ارتبط بالحرب البروسية - النمساوية عن طريق انهيار أسواق الأسهم الراجعة إلى شائعات الحرب. كذلك فإن قضية ١٨٧٣ معروفة ولا تحتاج إلى رصد حيث حدثت بعض الصدمات المهمة منها افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، خطأ الحكومة الألمانية في تقديم عملة جديدة بدل العملة التي تم سحبها، التفاؤل الشديد المصاحب للوحدة الألمانية تحت قيادة بسمارك، الانهيار في مارس عام ١٨٧٣ في النمسا وألمانيا بعد شهور من المعاناة. ولا يفوتنا الإشارة إلى الأزمة المالية الشهيرة عام ١٩٠٧ والتي توضح

بجلاء الارتباط والتفاعل المتبادل بين الانهيار في الخارج والانهيار في الداخل، حيث بدأت المحنة المالية عام ١٩٠٥ نتيجة المضاربة عن طريق الاقتراض وإفلاس العديد من الشركات، ويعالج الكتاب بالتفصيل أزمة عام ١٩٢٩ وكيف تحولت إلى أزمة عالمية شملت العالم كله، والنموذج الأخير الذي عالجه الكتاب هو أزمة جنوب شرق آسيا عام ١٩٩٧ وانتقالها إلى كل من روسيا والبرازيل عام ١٩٩٨ و ١٩٩٩.

ز- كيفية الخروج من الأزمة:

١- دعها تحرق نفسها: لا إدارة

أول الحلول التي يناقشها كندلبرجر هي تحت عنوان لاحل، أو لا إدارة للأزمة، أو اترك النار تطفئ نفسها، أو دع الهلع ينهي مسيرته التي بدأها. إذ يعتقد أغلب النقوديين وبعض غير النقوديين أن شرور الهلع سوف تخلق حلولها، ومن ثم فإن أفضل الحلول هو ترك الحريق يطفئ ذاته. ويشير أوفرستون أحد أهم رجال البنوك في إنجلترا في القرن التاسع عشر أن دعم النظام المالي وقت الأزمة غير ضروري، لأن موارد النظام من الكبر بحيث تكفي لتوفير القروض وقت الشح لمن هو على استعداد لدفع سعر فائدة مرتفع. ويقتطف أمثلة من أزمة عام ١٨٤٧ حيث ارتفع سعر الخصم في لندن وتوقف تدفق الذهب إلى الولايات المتحدة. ويرى الكثيرون أن هناك مخاطر عديدة من الدخول إلى السوق لإنقاذه ووقف حالة الهلع قبل الوقت الملائم لذلك، في حين أن وجهة النظر المعارضة ترى ضرورة التدخل لتطهير الفقاعة من الاستثمارات المتراكمة نتيجة للهوس، وأهم من هذا وذاك هو توفير السيولة وقت الأزمة عند الانهيار، ويعطي كندلبرجر أمثلة عديدة على الأزمات التي تعمقت وتحول الانهيار إلى هاوية نتيجة لصعوبات الاقتراض وقت الأزمة بل استحالة هذا الاقتراض، ومن أمثلة ذلك أزمات عام ١٧٣٦، عام ١٨٢٥، عام ١٨٤٧، عام ١٨٥٧، عام ١٨٦٦، عام ١٨٧٣، عام ١٨٨٣، وعام ١٨٨٤. وفي هذا الصدد لا يفوتنا الإشارة إلى حالة اليابان عام ١٩٩٠ وما بعدها حيث اتجه سعر الخصم نحو الانخفاض حتى وصل إلى الصفر، ومع ذلك لم يتزايد الطلب على السيولة إطلاقا، ومعنى ذلك دخول اليابان في ما يمكن أن نسميه «بمصيدة السيولة Liquidity Trap»، وذلك لأن البنوك والشركات مقيدة بالقروض المتعثرة، وللتناقض بين طرق وأدوات وسياسات متعددة لمعالجة الأزمة.

٢- التوقف المؤقت:

في حالة الهلع يهرع المودعون إلى البنوك في عجلة من أمرهم من أجل سحب أموالهم، أما البنوك فهي ليست في عجلة من أمرها، وفي الهجوم على البنوك خلال الفترة من عام ١٩٣١ وحتى عام ١٩٣٣ كانت هناك قصص عديدة لبنوك تلكأت ومنحت نفسها الوقت للوفاء بديون المودعين على أمل أن يحدث شيء لعلاج المشكلة خلال فترة التوقف المؤقت، هذا الأسلوب قديم جدا ويرجع إلى القرن الثامن عشر وقد اتبعه بنك إنجلترا عام ١٧٢٠، وهناك أسلوب خداع المودعين وخلق قناعة لديهم بأن البنك سوف يقوم بالوفاء بودائعهم، ففي بعض الأحيان كان بنك إنجلترا يضع في الصفوف الأمامية أكثر عملائه ثقة ليسلمهم ودائعهم أمام الجمهور ثم يقومون بعد ذلك برد هذه الودائع دون أن يراهم أحد من الباب الخلفي.

٣- الإغلاق الكامل:

إحدى الوسائل لوقف الهلع هو إغلاق

هوس.. هلع.. انهيار

أدبيات التاريخ الاقتصادي مليئة بالإدانة للعديد من المقامرين النبلاء والعالمين ببواطن الأمور، أي بالأسرار الداخلية للمؤسسات وكان يظن بهم مراعاة الالتزامات المالية كديون شرف ولكنهم على العكس من ذلك اشتهروا بالكفاءة بالوعد بالدفع بدلا من دفع اكتتابهم

السوق، حدث ذلك في سوق نيويورك للأوراق المالية عام ١٨٧٣ وفي ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١، كما حدث في لندن وعدد من العواصم الأوربية عند اندلاع الحرب عام ١٩١٤. ويرى البعض أن إغلاق السوق قد يزيد الطين بلة بحيث يزداد الهلع ويتعمق الانهيار، ولذا كانت آخر مرة لإغلاق سوق نيويورك هي عام ١٨٧٣، ومن أشكال إغلاق السوق إعلان إجازة رسمية، وإيقاف إصدار بيانات مالية عن البنوك، ومن الإجراءات المقبولة في حالة السلع الأولية وضع حدود لتغيير السعر اليومي، أو إعلان موريتاريوم أي وقف سداد الديون أو بعض أنواع الالتزامات مؤقتا، كما حدث في مصر في الثلاثينيات.

٤- شهادات بيت المقاصة: Clearing House Certificates

هي وسيلة استخدمت في الولايات المتحدة قبل إنشاء نظام الاحتياط الفيدرالي، وشهادات بيوت المقاصة هي شهادات تصدرها مؤسسات نشأت في أمريكا في منتصف القرن التاسع عشر.

٥- تعاون البنوك فيما بينها:

ويعطي كندلبرجر مثالين على ذلك، الأولى هي أزمة الساتيان عام ١٨٢٨ حيث بدأت بفشل ثلاث شركات للنسيج في ديسمبر عام ١٨٢٧، وأزمة هامبورج عام ١٨٥٧.

٦- ضمان الالتزامات (المطلوبات):

ويعطي كندلبرجر مثالين على هذا الأسلوب وهو أزمة بارنج في إنجلترا عام ١٨٣٦ وأزمة لونج تيرم كابيتال منجمنت عام ١٩٩٨ وهي إلى حد ما شبيهة بأزمة بارنج.

٧- النظام الفيدرالي لضمان الودائع: FDIC

منذ عام ١٩٣٤ ساعد هذا النظام على منع سحب الودائع من البنوك في شكل هجوم أو تزاحم بتقديم ضمان سابق لهذه الودائع أولا في حدود ١٠٠٠٠ دولار ثم في حدود ١٠٠٠٠٠ دولار.

وبجانب ما سبق تشمل الحلول التاريخية أيضا إصدار أذونات الخزينة Exchequer Bills وهي وسيلة قديمة جدا وتتمثل في إقراض شركة تعاني من مشكلات عن طريق إصدار أوراق مالية قابلة للتداول لهذه الشركة على أساس ضمان مقبول، ويبدو استخدام هذه الآلية صعبا وقت الأزمة لصعوبة تسويق حتى أكثر الأوراق سيولة، هذه الأوراق المالية قد تكون خاصة وقد تكون عامة، وكان النوعان جزءا من توليفة مركبة تم تطبيقها في هامبورج عام ١٨٥٧، أما التطور الواسع فقد كان إصدار أذونات الخزينة في بريطانيا عام ١٧٩٣ وعام ١٧٩٩ و عام ١٨١١. وقد تحولت هذه الأداة بعد ذلك لتصبح أداة عامة تصدرها الحكومة فقط لتمويل العجز في الموازنة العامة ولضبط السيولة النقدية. ومن الحلول الأخرى تعديل لوائح البنوك وتقوية أجهزة الرقابة والمتابعة لنشاطها.

ح- المقرض الأخير: محليا ودوليا

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر تطور فن إدارة البنوك المركزية ومن هذه التطورات خروج مفهوم المقرض الأخير (Lender of Last Resort) وهو تعبير مأخوذ عن الفرنسية (Dernier Ressort) ويعني به ذلك المستوى القضائي الذي لا يمكن الاستئناف بعده، وقد شاع الاستخدام الإنجليزي وهو استخدام يعطي وزنا أكبر لجانب المقرض وواجباته بحيث يفوق جانب المقترض وحقوقه. والمقرض الأخير يقف دائما على استعداد لوقف هروب المستثمرين من الأصول الحقيقية وغير السائلة إلى السيولة النقدية وذلك بتوفير كميات إضافية من السيولة النقدية، والأسئلة المطروحة في هذا الصدد هي كم من السيولة؟ ولمن؟ وبأي سعر؟ ومتى؟ وهي أسئلة تؤكد بعض معضلات المقرض الأخير، إلا أنه يجب في البداية أن تحدد من هو المقرض الأخير؟

والمقرض الأخير ليس هو نتاج العقل الاقتصادي ولكنه نتاج تجربة السوق، فحينما تحدث الأزمة لابد أن تقوم المؤسسة المالية (المقرض الأخير) بتغذية المعاملات التجارية عن طريق توفير كميات كبيرة ورخيصة من الخصم للتخفيف من كثافة وحدة الأزمة.

ولم يكن دور المقرض الأخير محل تقدير من جانب أصحاب النظرية حتى جاء كتاب والتر باجيهوت ولومبارد ستريت عام ١٨٧٣، كما قام سير فرانسيس بيرنج بجذب الانتباه إلى المفهوم عام ١٧٩٧ وقام كتاب هنري ثورنتون الكلاسيكي عن الائتمان الورقي بتطوير النظرية والحجج المناهضة لها أثناء مناقشته للبنوك الإنجليزية. من هو المقرض الأخير إذن؟

في بريطانيا لم يكن هناك تحديد صريح أو دقيق لمن هو المقرض الأخير ولا توجد قاعدة ثابتة لمن يقوم بهذا الدور، وقد أعطيت المهمة إلى بنك إنجلترا، وقد قامت وزارة المالية قبل ذلك بهذه المهمة ولكنها انتقلت شيئا فشيئا إلى بنك إنجلترا، كذلك في فرنسا فإن بنك فرنسا الذي أنشئ عام ١٨٣٠ وافق على تحمل مسئوليات الأزمة، كذلك خبرة الولايات المتحدة تستحق الذكر ويشير إليها الكتاب باستفاضة حيث قامت وزارة المالية بهذا الدور في البداية بقبول الأوراق التجارية وتوفير الودائع الحكومية...إلخ، ثم تولى بنك الاحتياط الفيدرالي بعد إنشائه هذه المهمة.

إلى من؟ القاعدة المتفق عليها والتي يشير إليها الكتاب هو أن القروض لابد أن تمنح لكل من يتقدم على أساس توافر ضمانات سليمة، أي تمنح للمقترضين المتمتعين بالملاءة وبضمانات جيدة إلا في حالة استثنائية حتمية، ولدى البنوك المركزية أدوات كثيرة منها تحديد شروط قبول الضمانات، وتغيير فترات استحقاق الكمبيالات، وتخفيض نسبة الاحتياطي.

متى وكم؟ قليل جدا ومتأخر جدا من الجمل الحزينة ليس فقط في قاموس البنوك المركزية ولكن في أغلب الأنشطة، والسؤال هو ما هي كمية السيولة النقدية التي يجب أن يوفرها المقرض الأخير، افترض أنه يتدخل في الأزمة عن طريق عمليات السوق المفتوحة، وقد رأى الكثيرون بما فيهم بنك الاحتياط الفيدرالي في نيويورك أن توفير ١٦٠ بليون دولار في أكتوبر ١٩٢٩ ثم إضافة ٢١٠ بلايين دولار في نوفمبر عام ١٩٢٩ لم يكن كافيا بأي معيار. وكان توقيت قيادة بنك الاحتياط الفيدرالي مثاليا في التدخل يوم الاثنين الأسود ١٩ أكتوبر عام ١٩٨٧، كذلك المساعدة في سوق رأس المال في الولايات المتحدة حينما انهار لونج تيرم كابيتال منجمنت في سبتمبر عام ١٩٩٨، هذان التاريخان يؤكدان قدرة البنوك المركزية على التعلم، ويمثل التوقيت قضية مهمة فمع تصاعد الانتعاش إلى الذروة فلا بد من إبطائه دون إحداث هلع، وبعد حدوث الانهيار فمن الأهمية الانتظار وقتا كافيا لحين فشل الشركات غير المليئة، ولكن لا يجب الانتظار إلى الدرجة التي يترتب عليها انتقال الأزمة إلى الشركات المليئة والتي هي في حاجة إلى سيولة، بمعنى آخر لا يجوز «تأجيل موت السباحين الأقوياء».

ولعل السؤال الأهم الذي يطرحه الكتاب ويعالجه بتوسع شديد هو من هو المقرض الأخير على المستوى العالمي؟ لأنه في ظل عدم وجود حكومة عالمية، وعدم وجود بنك مركزي عالمي، وفي ظل سيادة قانون دولي ضعيف فإن طرح هذا السؤال يعتبر من الأهمية بمكان. ويؤكد التاريخ الاقتصادي أن المركز المالي القيادي في العالم عادة ما يقدم يد المساعدة للدول الأخرى كما يؤكد التاريخ أنه حينما لا يوجد المقرض الأخير العالمي كما هو الحال عام ١٨٧٣، وعام ١٨٩٠، وعام ١٩٣١، فإن

الانكماش التالى للأزمة المالية يكون بالضرورة طويلا وعميقا، هذا بخلاف الحالات التى توافر فيها المقرض الأخير.

وتوضح خبرة السنوات الماضية أهمية هذه القضية، ولنذكر على سبيل المثال أزمة مديونية العالم الثالث عام ١٩٨٢، وانهيار عملة بعد أخرى كالاسترليني والليرة الإيطالية عام ١٩٩٢، وانهيار الروبل الروسى فى أكتوبر عام ١٩٩٤ وأغسطس عام ١٩٩٨، وأزمة دول شرق آسيا عام ١٩٩٧/١٩٩٨ وأزمة البرازيل عام ١٩٩٩ فقد تطلب كل ذلك ضرورة التدخل من جانب مقرض أخير.



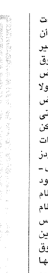
وقد حاول الكاتب تتبع الأزمات المالية وكيف احتاجت إلى مقرض أخير وأعطى أمثلة عديدة على قيام بنك إنجلترا بأداء دور المقرض الأخير أحيانا بمفرده وأحيانا بمساعدة بنوك خاصة، وكيف حاولت فرنسا أن تنافس إنجلترا كمركز مالى رئيسى وأعطى أمثلة عديدة للتعاون بين البنوك المركزية، بدءا بأزمة عام ١٧٦٣، وأزمة عام ١٧٧٢ والتعاون بين بنك فرنسا وبنك إنجلترا خلال الفترة عام ١٨٣٦ - ١٨٣٩، ويؤكد كندلبرجر أن التعاون بين البنوك المركزية لم يكن مستحبا عالميا - وهذا التعاون لا ينفى أن لندن ظلت هى المركز المالى حتى عام ١٩١٤.

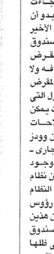
أما بعد عام ١٩١٤ فلم يكن هناك مقرض دولى أخير فى أزمة عام ١٩٢٠/١٩٢١ وقد عوض النقص جزئيا بنظام سعر الصرف المتغير أو العائم، أما عن انكماش عام ١٩٣١ الممتد فقد كان هناك حاجة لمقرض أخير بطريقة تختلف فى نطاقها ونوعيتها عن الفترات السابقة - ففى يوليو عام ١٩٣٢ خرجت إنجلترا من قاعدة الذهب، ولكن قبل المؤتمر الاقتصادى لعام ١٩٣٣ بحثت لجنة مجلس الوزراء حول المعلومات الاقتصادية والتى كان كينز عضوا فيها فى وظيفة المقرض الأخير. وأوضح تقرير اللجنة عدم قدرة بريطانيا على القيام بهذا الدور، ويقترح التقرير تعديل لائحة بنك التسويات الدولية للقيام بهذه المهمة، وذلك من خلال إصدار الورق الذهبى وهى شهادة دولية مثل حقوق السحب الخاصة التى تم تقديمها بعد ذلك بحوالى ٣٦ عاما. وبدء الأمر فى مايو عام ١٩٣١ بانهيار بنك كريدت إنستالت بفيينا، وانتقل التزاحم على السحب من البنوك إلى ألمانيا حيث ضعف مركز البنوك الألمانية نتيجة للإفراط فى المضاربة، وإلغاء أوراق مالية كثيرة، عمليات الغش والاحتيال، الصراع والتشاحن بين البنوك، دعم البنوك لأسهمها وتخفيف الاحتياطى السائل وهى المشاكل الكلاسيكية المعتادة - ثم جاءت إنجلترا بعد ذلك حيث بدأ التهافت على البنوك فى منتصف يوليو عام ١٩٣١، وقد دفع إليها الخسارة الكبيرة فى أوربا وتمت تغذية الأزمة من خلال تقرير ماى ومكميلان حول عجز الموازنة والتقدير المرتفع للأرصدة الأجنبية فى لندن والمحتمل سحبها. وفى ٥ أغسطس عام ١٩٣١ كتب كينز إلى رئيس الوزراء ماكدونالد لاتخاذ سلسلة من المقترحات لتخفيض الجنيه الاسترلينى واقامة نظام سعر الصرف الثابت المستند إلى قاعدة الذهب بحوالى ٢٥٪ أقل من سعر التعادل الذى دعيت للمشاركة فيه كافة دول الإمبراطورية (الكومنولث). وقد أثبتت أزمة عام ١٩٣١ ما يلى: ١) عدم قدرة بريطانيا على القيام بدور المقرض الأخير؛ ٢) عدم رغبة الولايات المتحدة للقيام بهذا الدور، هذا بصرف النظر عن الجهد غير الكافى تجاه بريطانيا وهى الدولة ذات العلاقة الخاصة؛ ٣) عدم تحمل الدول الصغيرة للمسئولية.

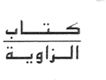
ومع قرب نهاية الحرب الثانية جاءت اتفاقية بريتون وودز عام ١٩٤٤، ويبدو أن دروس عام ١٩٣١ والحاجة إلى المقرض الأخير لم يتم استيعابها بعد، ذلك أن إنشاء صندوق النقد الدولى لا يشبع الحاجة إلى المقرض الأخير، فلا لائحة الصندوق ولا أهدافه ولا موارده المتاحة تسمح له بالقيام بدور المقرض الخير، ويقوم الصندوق بمساعدة الدول التى تعانى عجزا فى ميزان المدفوعات يمكن تصحيحه بواسطة بعض الإصلاحات المحدودة، ولقد تطلب نظام بريتون وودز القابلية للتحويل بالنسبة للحساب الجارى - التى اكتملت بحلول عام ١٩٥٨ - مع وجود قيود على حركة رؤوس الأموال، بل إن نظام سعر الصرف الثابت الذى فرضه هذا النظام يتطلب وجود هذه القيود على حركة رؤوس الأموال. وقد ثبتت صعوبة الجمع بين هذين الأمرين، وفى عام ١٩٦٠ امتد نظام الصندوق بواسطة الاتفاقية العامة للإقراض، وفى ظلها اتفقت عشر دول مالية كبرى على تقديم ضمانات بحوالى ٦ بلايين دولار بالإضافة إلى ١٤،٤ بليون دولار الخاصة بحصص الصندوق بحيث تصبح متاحة فى حالة حدوث انقلاب مفاجئ فى توجه حركة رؤوس الأموال، وقد ثبت عدم كفاية هذه الأموال. وقد أوضح كندلبرجر كيف أن تدفق الأموال الساخنة أظهر الحاجة إلى سبل جديدة وأدوات جديدة لمواجهتها فى فترة ما بعد الحرب الثانية.

وقد تطور مفهوم المقرض الأخير فى الستينيات متمثلا فى اتفاق بازل ويتطلب ذلك تعاونا دوليا متعدد الأطراف. وحين حدثت أزمة الإسترلينى اجتمعت مجموعة من الدول الكبرى ونظمت قرضا بحوالى ١ بليون دولار لبريطانيا للسحب منه، وجاء صندوق النقد الدولى فى خط الدفاع الثانى، أما خط الدفاع الأول أو المقرض الأخير الأول فيتمثل فى نادى البنوك المركزية حيث نظم ١ بليون دولار لكندا عام ١٩٦٢، ١ بليون دولار لإيطاليا عام ١٩٦٣ و٢ بليون دولار من النادى وصندوق النقد الدولى لبريطانيا عام ١٩٦٤ وارتفع إلى ٣ بلايين دولار، وبليون أخرى من أعضاء النادى عدا فرنسا عام ١٩٦٥، وحزمة أخرى قدرها ٢ بليون دولار لإنجلترا فى أبريل عام ١٩٦٦، ولعبت الولايات المتحدة دورا مهمًا فى نادى بازل. وقد انهار هذا النظام لأنه تم الاعتماد عليه دون اعتبار لعيوبه وهو تأجيل عمليات التصحيح الضرورية وفقدان الاعتماد على الذات وضعف الحوافز، بجانب خطأ فى فهم كل من ألمانيا والولايات المتحدة لما يجب اتباعه من سياسات نقدية.

وانتقل الكتاب لتناول أزمات عام ١٩٨٢ للمديونية العالمية وكيف تبين أن استفحال الأزمة يرجع إلى عدم وجود المقرض الأخير وعدم إمكانية قيام صندوق النقد الدولى بهذه المهمة، وكانت أزمة المكسيك عام ١٩٩٤ هى التأكيد على أهمية هذا المقرض الأخير، وقد لعب هذا الدور وبكفاءة حكومة الولايات المتحدة بالتعاون مع صندوق النقد الدولى حيث تم ترتيب حزمة إنقاذ (٤٥ بليون دولار) فى أيام محدودة تخطت بكثير حجم الموارد التى تحتاجها الأزمة مما ترتب عليه انتهاء الأزمة فى أيام محدودة، وهو عكس ما حدث تماما فى أزمة جنوب شرق آسيا حيث لم تكف حزمة الإنقاذ لهذه الدول الاحتياجات الحقيقية لمواجهة الأزمة وكان هذا مؤشرًا مهمًا للمستثمرين والمضاربين فى السوق بأن النية غير متجهة نحو حل الأزمة واقتلاعها من جذورها كما هو الحال فى المكسيك. وهكذا تثبت الأيام والأزمات مدى الحاجة إلى هذا المقرض الأخير. ■









إغاثة الأمة بكشف الغمة
تقى الدين المقريزى

يمتاز هذا الكتاب - الذى لا يزيد عدد صفحاته على ٩٢ صفحة - بجدية موضوعه وفرادته، إذ يتناول تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور حتى سنة ٨٠٨هجرية، وهى السنة التى أُلف فيها، والمقريزى فى هذا الكتاب هو المؤرخ المصرى الوحيد الذى تعرض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية والاجتماعية من تاريخ مصر. وهو فى تدوينه لأخبار المجاعات يحاول أن يتقصى أسبابها ويقترح العلاج الاقتصادى الصحيح لها حسب رؤيته. كما يتناول طبقات المجتمع المصرى فى عصره بالتقسيم والتصنيف، وهو فى ذلك قد شابه أستاذه ابن خلدون فى «المقدمة»، فكلاهما كتب فى صميم النواحى الاقتصادية والاجتماعية ماعدا أن كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة» مقصور على مصر الإسلامية بينما المقدمة شاملة للعالم الإسلامى.

والكتاب يقدم عرضًا لطيفًا للأساليب التى كان أرباب الحكم يطبقونها لتخفيف آلام المجاعات وأمراضها عن الشعب المصرى فى العصور الوسطى.

ولد تقى الدين أبو العباس أحمد بن على المقريزى - حسب بعض الروايات - فى لبنان الحالية عام ١٣٦٤م (٧٦٦هـ) وتوفى عام ١٤٤١م (٨٤٥هـ) وعاصر التحولات التى كانت تجرى فى تلك الفترة فى تاريخ مصر وشغل نفسه بتاريخ مصر بعد أن استقر فيها منذ صباه (وأصبح الدارسون يعتبرونه مصريًا). وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى يناير ١٩٤٠ بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال محمد الشيال ثم أعادت الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إصدار الطبعة الثالثة لهذا الكتاب خلال عام ٢٠٠٢.



على مدى عقود، درج القراء العرب على متابعة أى جدل ثقافى أو فكرى أو سياسى يثور مع الغرب من حين لآخر من خلال وسيط غير مباشر.. فالقارئ العربى يقرأ عن الموضوع لكنه لا يقرأ الموضوع.. حدث ذلك مرارًا وتكرارًا دون أن يجد هذا القارئ الفرصة ليحكم بنفسه فى القضية بدلاً من الاعتماد على «وصايا» و«أحكام» و«آراء» «الحكماء» من رجال الصحافة والإعلام.

وعندما تفجرت قبل أسابيع قضية كتاب «حالم بفلسطين» للمراهقة المصرية راندة غازى الذى صدر بالإيطالية، ثم جرت ترجمته إلى الفرنسية، تابع القارئ العربى ردود الأفعال الغاضبة والهستيرية من جانب الجماعات اليهودية فى أوروبا من خلال الصحف التى أسهمت فى نشر اللغط الذى ثار دون أن تعطى القارئ الفرصة لكى يقرأ ما كتبته راندة غازى.

هذه المرة.. الأمر يختلف. فالنسخة العربية لـ«حالم بفلسطين» تصدر بعد أيام عن «دار الشروق» ليعرف القارئ العربى «علام تلك الضجة..» وماذا تقول الأصوات المطلوب إخراسها؟

المحـــرر

يهـــود أوروبـــا يطـــاردون

رائحة الدم والوجع..

وطأة العجز وعيون بعيدة ترصد، نفوس تعبت من استعجال النهاية فاستكانت، وقلوب طرية لا تفهم لغة السياسة التى تحكم الموقف فتحرّكت.

تتصاعد أصوات جمعيات تناضل للدفاع عن حقوق الحيوان، أخرى تهتم بإعادة تدوير المنتجات الصناعية للحفاظ على نظافة هواء يستنشقه المتحضرون الذين لا يهتزون لاستنشاق الظلم.

وماذا بعد؟

عالم مجنون لا يرى الكبار جنونه بحكم العادة التى أوصلتهم لمراحل متقدمة من الخنوع. ليس لديهم خيار آخر بينما سؤال صغير ينبض باستنكار المهزلة: لماذا؟

راندة غازى لم تفهم.

تلك الهمجية التى تطالعها كل يوم على شاشة التليفزيون ببيتها الدافئ فى المدينة الهادئة، كل هذا الموت وكل هذا التنكيل بشعب فى الطرف الآخر من العالم. لم تفهم استسهال الموت فى عيونهم.

أليسوا هم الذين أرادوا العولمة؟ ألم يشجعوا على ازدهار عصر المعلوماتية؟

أم أنهم أرادوا غسل جرائمهم بمسحوق اللامبالاة والتجاهل فلم يخافوا بث نزواتهم السادية على الهواء.

نفس المشاهد تتكرر كل يوم، ونفس التعليق أسفل الشاشة: No Comment (لا تعليق).

تعب الثائرون من الثورة، بحّ صوت الهاتفين.

المتعاطفون أصابهم الشلل.

أنمنع الدهشة عن الأطفال أيضًا؟ أنقتل فيهم روح الاستنكار والغضب؟

نرفض شرودهم عن قطيع مجتمع الاستهلاك الأجوف حين تحركت فيهم بذور حياة تتجسد رفضًا لسياسة الأمر الواقع؟

أنقتل أحلامهم؟

أنقتل حلم راندة غازى بفلسطين لنؤكد رسميًا أننا أمة ممنوع عليها الحلم؟

هل فى نصوص راندة غازى دعوة مفتوحة لمعاداة السامية؟

هل فيها حث على العنف من قبل طفلة تنادى بمجانية التخريب؟

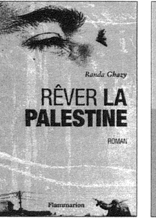
أم هى تجسيد فعلى لصرخة مراهقة تحتج على منطق اللامبالاة السائد، خدّش عيونها منظر الدم السائل فى شوارع فلسطين منذ الأزل؟

غلاف الطبعة الايطالية





غلاف الطبعة الفرنسية



غلاف الطبعة العربية التى تصدر عن دار الشروق



«حالم بفلسطين» رواية راندة غازى، مراهقة مصرية «١٥ عامًا» تعيش فى إيطاليا، أصدرت دار «فلاماريون» الفرنسية ترجمتها عن الإيطالية فى الرابع من نوفمبر الماضى فأشعلت نار جدل حاد فازت فيه المنظمات اليهودية بموقع الهجوم مستندة على كواليس الهولوكوست.

نيران المعركة انطلقت من «الرابطة الدولية ضد العنصرية وعداء السامية» التى طالبت كلا من وزيرى الداخلية والعدل فى فرنسا بسحب الكتاب كونه «يشكل خطرًا على الجيل الناشئ بسبب المكانة التى يحفظها للجريمة، للعنف، للتمييز والكراهية العنصرية».

من جهته ناشد رئيس اتحاد «محامون بلا حدود»: جيل ويليام جولدنايل، «وزير الداخلية» نيكولا ساركوزى بتطبيق القانون العائد إلى ١١ تموز ١٩٤٩ أى بمنع الكتاب، وأبدى المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا اعتراضه عبر بيان نشر فى الصحف، طالب فيه بسحب الرواية من السوق كما يتجلى من نص البيان:

«يعترض المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية بصفة رسمية على نشر دار «فلاماريون» لرواية «حالم بفلسطين» ضمن مجموعة موجهة للصغار والمراهقين. لقد اطلع المجلس على مقاطع كثيرة من الرواية تشكل حسب رأيه دعوة للعنف وتمجيدًا للإرهاب وللجهاد، إضافة إلى التحريض على الكراهية العرقية والعداء للسامية.

فإلى جانب المبالغة والعنف اللتين تتسم بهما اللهجة العامة للرواية، تمجّد بعض المقاطع العمليات الانتحارية، لا سيما تلك المنفذة من قبل المراهقين، كما تدعو لخوض الحرب «باسم الله».

يندهش المجلس من كون دار «فلاماريون» قد ارتأت نشر رواية موجهة لقراء يانعين تنعت اليهود «بشعب ملعون» وتدعوه لكره كل إسرائيلى يعيش على وجه الأرض و«لقتلهم جميعًا». يرى المجلس دون أن يحمل نيّة الاعتداء على حرية التعبير، لا سيما فى مجال الخيال الأدبى، أنه من غير المقبول أن تخالف رواية موجهة للمراهقين أحكام قانون ١١ تموز ١٩٤٩ - حول المنشورات الموجهة للصغار سنًا - والتى أصدرت فى إطاره.

إذا كان من الطبيعى والمحبب توعية القراء الصغار بكبريات المشاكل المعاصرة، فمن المشين التذرع برواية فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى للاسترسال فى هذا التمجيد للحرب.

- لم تقتصر حالات الاعتراض على هاتين الجهتين، فقد تصاعدت الأصوات من عدة مصادر لتعم الشارع اليهودى، موجة غضب ما لبثت أن نبشت حقائب التاريخ كالعادة، لدعوة الأوروبيين إلى التكفير عنه عبر الحكم على الحاضر وإحكام الطوق على تصرفات المستقبل قبل أن تتحقق من هذه الخلفية انطلق مركز سيمون ڤيزنتال «منظمة دولية يهودية لحقوق الإنسان» الآخذ على عاتقه مهمة المثابرة على استحضار واقعة الهولوكوست، وتذكير المجتمع اليهودى خصوصًا والدولى عمومًا بها، ليشن حملة عنيفة على «فلاماريون» داعيًا إياها إلى سحب الكتاب من السوق، وعلى كافة المروجين عمومًا ومن ضمنهم موقع Amazon الذى يوزع الكتاب عبر الإنترنت.

نفت دار «فلاماريون»، ثالث أكبر دور النشر فى فرنسا والتى تعود ملكيتها للمجموعة الإيطالية «ريزوللى كوريرا دى لاسيرا» نيتها سحب الكتاب فى بادئ الأمر إلا أن المعركة لم تتوقف هنا.

فقد طلبت «فلاماريون كندا» من بائعى الكتب فى مونتريال إعادة جميع النسخ لا سيما تلك التى بعهدة Amazon. Co. سقط حصن، والمناورات مستمرة.

على صعيد آخر، دعت فى ٢٠٠٢/١٢/١٠ مجموعة «لا تلمسوا الأطفال» التى يديرها «جيل طيب» رئيس جمعية «من أجل راحة الجندى الإسرائيلى» المنضوية تحت لواء المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية إلى مظاهرة أمام مؤسسة دار «فلاماريون» فى فرنسا تدعو إلى إيقاف توزيع الكتاب، لكنها لم تحقق النجاح المرجو حيث شارك فى المظاهرة

حوالى ٣٥٠ شخصًا، بينما كان منظموها يتوقعون على الأقل ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ مشارك، ويفسر هذا الفشل بالطابع السياسى المتشدد يمينيًا الذى أضفاه المنظمون عليها.



لم تقتصر الحملة على الصحافة المطبوعة والتحركات على أرض الواقع بل إنها شملت أيضًا القطاع الالكترونى حيث اهتمت بعض المواقع بنشر مقالات تشجب الرواية كما فتح البعض مساحات للحوار «Forum» تم فيها بث الرسائل من قبل قراء عاديين حول رأيهم الخاص بالكتاب.

كان موقع (www.proche-orient.info) هو الرائد على هذا المستوى فهو موقع ينشر جريدة فرانكفونية تصدر عن (Proche Orient) أى الشرق الأدنى: جمعية فرنسية غير هادفة للربح تهتم بتوفير «معلومات مهنية حصرية وكاملة، دقيقة وقاطعة عن الشرق الأدنى، لاسيما عن الوضع الإقليمى خصوصًا الصراع الإسرائيلى ـ الفلسطينى».

أطلق هذا الموقع حملته على يد «إليزابيث شملا» التى تدير هيئة التحرير فيه.. وهى كاتبة أيضًا لدى دار فلاماريون عبر مقال أسمته: «حلم فلسطين أو عار دار فلاماريون».

تبدأ شملا بدحض الوقائع التى أوردتها المؤلفة فى الرواية، والتى ـ حسب رأى شملا ـ تعمدت فيها الكذب متسترة بالخيال الذى تحججت به قائلة: بعض الوقائع أتت تغذيه «الجملة لراندة غازى»، ثم تنتقل شملا لتصب سخطها على دار النشر التى اعتبرت على لسان مديرها القانونى: «أن الكتاب جميل، ومتوازن بين الفلسطينيين والإسرائيليين، هو بالأحرى أنشودة حب بين الشباب من الجهتين، المرعوبين مما يفعله أهاليهم، حيث إن أحد أبطال الرواية فلسطينى يقع فى حب شابة إسرائيلية ويطلب منها الذهاب معه إلى مخيم خان يونس، كما يتخلل الكتاب ظهور امرأة من حركة «السلام الآن» الإسرائيلية.

كما هاجمت «شملا» مديرة قسم فلاماريون للناشئين «هيلين ڤادوفسكى» التى صرحت بأن: «الكتاب غير منحاز، وأنه يتكلم عن الحرب، كل ما فى الأمر أنه يتكلم عنها من الجانب الفلسطينى. إنه يبحث عن كيفية الخروج من دائرة الحرب ويتكلم عن الألم بشكل عام، عن فظاعة فقدان الأقارب بالنسبة لمراهق فى الخامسة عشرة من عمره. إنه ليس وثيقة تثير بعض مقاطعها النقاش. إنه رواية، ومن الطبيعى أن تتكلم شخصياتها عن العمليات الانتحارية التى تقع كل يوم».

«حلم» مراهقة مصرية!

رنا حايك

رانـــدة غازى

وتنتهى «شملا» بتوجيه إصبع الاتهام بالعداء للسامية نحو مدير الدار فى فرنسا قائلة: «يبقى أن نعرف ما الذى دفع فلاماريون لنشر هذه الرواية»..

* فى إيطاليا نشرت هذه الرواية المؤسسة العملاقة «ريزوللى» التى تملك فلاماريون، بيد أن «ريزوللى» هى أيضًا الناشر الإيطالى لـ«الغضب والعجرفة» رسالة القدح فى الإسلام الأكثر مبيعًا لـ«أوريانا فلاتشى» التى أثارت ضجة كبيرة فى أوروبا، والتى أيقظت سخط الصفوة الذين لم يهتزوا كما هو واضح برواية «راندة غازى».

لقد كان منطقيًا أن تصدر فلاماريون فى فرنسا رواية «فالاتشى»، لكن «شارل هنرى فلاماريون» المحتفظ بملكية الدار التى أسسها والده لمدة سنة إضافية حسب العقد لم يكن ليقبل بهذا، فقد بدا له كتاب «هولبيك» الأخير بطعم الكبريت بالنسبة للإسلام، والمحاكمة التى تبعته زلزالاً كافية.

و«ريزوللى» لن يقبل أن ترفض دار نشر تابعة له تسويق أحد كتبه، هكذا وجد كتاب «راندة غازى» سبيله إلى كل أنحاء أوروبا.

لم تكن «شملا» الوحيدة التى أثارت موضوع «فالاتشى» و«هولبيك»، فالدعاوى التى رفعت على هذين الكاتبين تعتبر الحدث الأهم فى الواقع الأدبى الحالى.

«فالاتشى» الصحفية الإيطالية المعروفة التى أجرت حوارًا مع آية الله الخمينى خالفت خلاله البروتوكول بجلوسها مكشوفة الشعر أمام آية الله، استفزت الإسلام مرة أولى فى كتابها «الغضب والعجرفة»، ومرات كثيرة فى مقالاتها التى عبّرت فيها عن كرهها للإسلام وللإسلاميين، مما كلفها قضية مازالت تبحث حيثياتها حتى الآن فى المحاكم.

أما «هولبيك» فهو الذى قاضته منظمات إسلامية «المنظمات التى تدير مساجد باريس وليون» والرابطة الإسلامية العالمية، ورابطة حقوق الإنسان بسبب ما قاله عن رأيه فى الإسلام ضمن حوارين له فى مجلتى (Livre) و(Le Figaro) الفرنسيتين سنة ٢٠٠١ «الإسلام هو الدين الأكثر غباء فى العالم».

بينما يمثل الإنجيل بالنسبة إليه «موهبة اليهود الأدبية المقدسة»، تمت تبرئة هولبيك على يد قضاة اعتبروا أن كاتب «جزئيات أساسية»، و«سطوح» : «لم يحمّل تصريحاته دعوة للكراهية وللعنف ضد المسلمين فهى تندرج تحت نظام فكرى خاص به»، وأضاف القضاة: «القول بأن الإسلام هو الدين الأكثر غباء لا يعنى ولا يوحى حتى بضرورة إلقاء هذه الصفة على كل المسلمين».

وهذا التصريح لا يحمل أية رغبة بالإهانة، الاحتقار أو الشتيمة تجاه الأشخاص المعنيين.

تمت تبرئة «هولبيك» منذ شهرين، وعلّق عليها محامى مسجد باريس بعد التصريح عن نيته باستئناف الحكم، قائلاً: «يبدو هذا الحكم مستوحى من معرفة خاطئة بالإسلام الذى يفرق بين شتم القرآن والتطاول على المسلمين.

دافع كثيرون عن «هولبيك»، فى مقدمتهم «سلمان رشدى» فى مقالة له نشرت خلال المحاكمة على موقع: www. emarrakech. info. أسماها «لـهولبيك الحق فى الكتابة»، اعترف فيها أن الإبداع حر ولا محدود، بأن لـ«هولبيك» مطلق الحق فى تضمين كتابه «سطوح» جملاً معادية للإسلام على لسان البطل الذى علم أن مقتل أبيه كان على يد مسلمين.



وتزايد عدد الأصوات التى ربطت بين فالاتشى، هولبيك وراندة غازى، واحتدمت النقاشات التى أتاحها Pnoche Orient عبر المساحة المخصصة لها فى موقع (Commu-Col nau´online)، الذى تملكه الجمعية الخاصة بالطائفة اليهودية، تنادى بعدم التغاضى عن هذا التعدى الذى سمحت به لنفسها المؤلفة «راندة غازى»، المترجمة «أنا بورس»، ودار النشر ذاتها، وتعبر عن سخطها حول ما تضمنه الكتاب من وصف الإسرائيليين، وما حث عليه من ممارسة للعنف ضدهم.

كما تساءل البعض عما قد يدفع شابة مصرية تعيش فى إيطاليا إلى الحديث عن الواقع الفلسطينى فى غزة بين ١٩٩٥ ـ ٢٠٠٠؟



ـ كيف استفزتها قضية يعمل الرأى العام العالمى على تمييعها؟

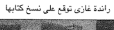
كيف تجرأت على الحلم فى عصر يصادر فيه الكبار أحلام صغارهم؟

بينما يجرى الغرب حاليًا محاكمة لحلم راندة غازى بلا نيّة لإغلاق الملف، تبدو أصوات العرب خافتة، وخلت النقاشات على ساحات الصحف والتليفزيون ومواقع الإنترنت من صوتٍ عربيٍ واحدٍ مدافع.

يبحث الغربُ فى حيثيات إدانة طفلة أذى الظلم عينيها المشمستين وعيون العرب نائمة عن الحلم، جفونهم مثقلة بأحلام قديمة لم تتحقق، وأيديهم مكبلة بالعجز عن خلق غد آخر مخالف أو عن إنقاذ واقع يسلبهم القرار.

راندة غازى صوت جيل لم تنكسر أحلامه بعد، لم يتشبع بالمرارة إلى حد الإحباط، ولم يملأ الصراع جسده بالندوب، لهذا تخشاه المنظمات اليهودية وتحرص على أن تلحقه بجيل آبائه: عاجزًا، معتبرًا أن الخلل فى توازن القوى العالمى أمر واقع لا يجب ولا يصح أن يفكر فى تغييره.

فهل ستظل الأصوات العربية خارج اللعبة؟ أم ستقتحمها حماية لحلم راندة غازى؟ سؤال موّجه لكل حالم بفلسطين؟





راندة غازى توقع على نسخ كتابها

من الرواية عن الطبعة الفرنسية

ـ إبراهيم، ذو الثلاثين ربيعًا، هو بطل الرواية.. الكتاب الوحيد الذى يطالعه عن طيب خاطر هو القرآن.. شغف استمده من أبيه الذى كان مؤذن القرية ورجلاً متدينًا قتلته الحرب.

ـ جمال، شاب بسيط فى العشرين، لا يعرف إلا شيئًا واحدًا: الهتاف ضد الإسرائيليين: شارون قذر، قاتل.. دون أن يكون على علم حتى بشكله أو بما فعله. كان يعرف فقط أنه قذر وقاتل وهكذا تقبّل كراهية لم تكن منه وحده، بل كراهية شعب بأسره.

ـ ص٢٤، جمال ينفذ عملية استشهادية:

«.. هكذا كبر جمال، دون إمكانية الخيار.. ثم إن الجميع كانوا يعلمون بأن هذا سيحصل لا محالة، الجميع كانوا يعلمون، هكذا (.....) اقترب من قاعدة عسكرية إسرائيلية، قاموا بتفتيشه، وفى لحظة معينة انفجرت القذيفة. تكسّر جذعه، تحوّل إلى قطع وجزئيات من اللحم. انفجر جسمه وفجّر وحده منطقة مراقبة إسرائيلية، خمسة جنود ماتوا فى نفس لحظة موته، خمسة، تجعلك فى مقابل المئات المتواجدة فى كل مكان تتساءل عميقًا فى داخلك، لماذا تطيح بحياتك الشخصية لاستهداف خمسة فقط من أعدائك، إنه عدد تافه.....».

(....) سنشتاق إليك، أنت شجاع، أنا حقًا جادة فيما أقول، لا أعرف إن كنت أملك الجرأة الكافية للقيام بالعمل نفسه، سوف نتذكرك.. سوف ننتصر، وسوف ننتصر أيضًا بفضلك، ليكن الله معك، وتركوه يرحل...».

ـ ص٣١ ـ ٣٤ إبراهيم يتذكر أباه «فتحى»:

«كان يعترى إبراهيم شعور جامح بالفخر وهو يسمع صوت والده الجهور يدعو المسلمين للصلاة عبر مكبرات الصوت (...)

.. لم يكن أبوه شغوفًا إلا بشىء واحد خارج نطاق الدين: الحرب.

الحرب المجنونة الدائرة أمام عينيه منذ ولادته، الحرب التى قتلت زملاءه، أصدقاءه وأهله، الحرب التى تغذت على الدم والدموع، والتى تدق بشراسة وبقوة على أبواب الشعب الفلسطينى (...) لطالما قال أبوه أن هذى أرضنا وأن الجهاد شرعى.. شرعى. تذكروا، أوصانا الله بالدفاع عن أرضنا (...) وستكون حربًا مقدسة، جهادًا».

تقدم والده، توقف أمامه وتلا: «ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون».

ص٣٥: قتل الجنود الإسرائيليين للأب:

«.. رأى أباه مطروحًا على الأرض والكل يتفرج، الدمّ لطخ المكان، القرآن مدنس وملقى على الأرض، مفتوح، ممزق غلافه. أبوه على الأرض، كل هذا الدم.

كان قد وصل مسالمًا، بيده القرآن، وبدأ بتلاوة الآيات يدين الجنود، يدين عنفهم وقسوتهم (...) قَلِقَ الجنود واستفزتهم ذراع الأب الملوحة تجاههم وهو يتهمهم بجرائم الدم والإيمان (...) كان فى النهاية مجرّد شيخ يتلو الآيات، لكنهم تدخلوا وأطلقوا عليه النار...

ص٤٤ اقتحام الجنود الإسرائيليين للمسجد:

«دخلوا بأسلحتهم تاركين على سجادات الصلاة آثار الوحل والغبار، كان التوتر يبدو على أشده موشكًا على الانفجار بشكل فظيع (...) ورأى إبراهيم ما كان يخشاه، شيئًا فى عينى أحد الجنود، وأكثرهم تبجحًا وغطرسة (...)

بدأ الناس بالصراخ، وبطرد الجنود، اتركونا فى بلدنا، فى وطننا، اذهبوا، ودعونا وحدنا، لاتدخلوا مساجدنا وتدمروا حياتنا (...)

شاب ملثم فى العشرين يرتدى سروالا من الجينز الممزق رمى بنفسه إلى الأمام متحديًا متمنيًا دور بطولة، القيام بشىء ملموس وواقعى لوطنه. بلمح البصر، بحركة شبه ميكانيكية لمتمرس على سحب البندقية، ضغط زنادها ثم القتل، بحركة ميكانيكية سحب الجندى المتغطرس سلاحه وأطلق النار..».

ص٤٩ مصرع شاب آخر وهو يلقى با الحجارة:

«اندفعت امرأة حاسرة الرأس نحو ابنها، نحو جسد أعزل ممدد على الأرض باكية تصرخ: ابنى، ابنى! فى اللحظة التى رآها فيها الجنود تتقدم أطلقوا النار، كانوا أربعة، فارتمت المرأة أرضًا وتدفق الدم».

ص٥٧: قصة جهاد وريهام، مراهقان فلسطينيان:

أبيد أبوى جهاد وريهام وأخويهما التوءم وهما مازالا صغيرين.

قانون الإصدارات الموجهة للناشئين فى فرنسا

ينص قانون ١١ يوليو (تموز) ١٩٤٩ الذى ينظم الإصدارات الموجهة للناشئين فى فرنسا على الأحكام التالية:ـ

المادة ٢: يحظر على هذه المنشورات أن تتضمن أى تصوير، أو نص، أو حولية، أو فقرة أو إدماج تعرض بشكل محبب للصوصية، الكذب، السرقة، الكسل، الجبن، الكراهية، الفجور، أو كل عمل يقع تحت تصنيف الجرائم أو الجنح أو ما من شأنه إفساد أخلاق الناشئين أو الإيحاء بأحكام مسبقة إثنية أو تناولها».

المادة ٧: «تعاقب كل المخالفات المنصوص عليها فى المادة ٢ بالسجن من شهر إلى سنة، وبغرامة من ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ فرنك فرنسى. «تستطيع الجمعيات الممنوحة صفة «الأهمية العامة» فى حالة لحظت حالات المخالفة هذه أن تطبق الحقوق الممنوحة للمدَّعى بالحق المدنى».

المادة ١٤: «يعود لوزير الداخلية الحق بمنع عرض أو توزيع أو بيع منشورات لقصَّر دون الـ١٨ تشكل خطرًا على الناشئين بسبب ما تفرده من مكانة للجريمة أو العنف».

دخلت الدبابات فى ذلك اليوم القرية وأطلق الجنود النار على كل من صادفوهم: نساء، وشيوخا وأطفالا، دخلوا المنازل بأجمعها، حرقوا بعضها بأهلها، واغتصبوا نساء البعض الآخر. سرقوا محتوياتها ثم دمروها.

ضربوا المسنّين وكسَّروا عظام الأطفال دون أن يقتلوهم، حتى تعيش العائلات طويلاً تحت عبء أطفال وصبيان عليلين فتكرههم، هؤلاء الأولاد الذين لن يستطيعوا حمايتهم ذات يوم خلال انتفاضة».

ص٦٤، ريهام تهتف بتعجب:

«هذه الحرب هى جرحنا (...) اللعنة! أليس هناك من وسيلة لإيقاف هؤلاء اليهود الملاعين؟ إنهم يقتلوننا جميعًا.. لماذا؟

ص٧٦، رامى، الطبيب المسيحى فى المستشفى:

«أنا أعرف يا محمد. هذه المشاهد، إننى أراها كل يوم: فى المستشفى، وفى بيتى حين أعود، ليالى تسكنها الكوابيس. هؤلاء الإسرائيليون وحوش، وحوش، ينبغى قتلهم جميعًا».

ـ محمد يجيب:

«لا يهمنى السلام، السلام مستحيل التحقيق حاليًا! إنهم يريدون إبادتنا جميعًا، هذه هى الحقيقة، فليعذرنى عرفات: لكن يجب أن أفعل شيئًا.

يعيش اليهود هانئين فى بيوتهم بينما تغصّ مستشفياتنا بالموتى، وتدمَّر قرانا، يضرب مسنُّونا، وتغتصب نساؤنا، لا نستطيع أن نقبل باستمرار هذا. اسمع يا رامى، لقد اتخذت قرارًا، يجب أن أفعل شيئًا!».

ص٧٧، محمد يتابع:

«.. لماذا يفعلون بنا هذا؟ إنه شعب ملعون، أقول لك يا رامى، إنه شعب ملعون: لقد عانوا كثيرًا لكنهم يريدوننا أن ندفع نحن ثمن ما عانوه، لماذا يتابعون تلويث أياديهم بالدم»؟

ص٨٥، إبراهيم:

«إذا كان العنف هو الوسيلة الوحيدة المتبقية للتوصل إلى السلام، يجب القبول بها من أجل التفوق عليهم»..

ص٨٦، نضال:

«.. إنهم لا يتساءلون إن كان ربهم يقبل بالعنف (...) إنهم يعاقبوننا بالتعذيب الذى عوقبوا به قبلنا (...) يأتون لاحتلال أراضينا ويطلقون نارهم دون حتى أن ينظروا فى وجوهنا مباشرة.

إذا وجدت نفسى يومًا أمام يهودى ما سأسأله: ألا تخاف الرب؟

أحب فعلاً أن أعرف ما قد تكون إجابته».

ص ٨٦، إبراهيم:

«.. سبل الحوار، جربناها مائة مرة ومائة مرة، لم يحترموا الاتفاقات. قاموا، بما أرادوا القيام به، مواجهين العالم بأسره (...). التفتيش عن سبل للحوار حاليًا لا يعنى سوى الاستسلام لمشاكستهم والخضوع لإرادتهم».

تستمر الحبكة ويكبر المراهقون:ـ

ص ١٢٦:

هكذا كانوا يكبرون، مغمورين بالألم وبالغضب. وكان من الخبث ومن الظلم انتقادهم وهم يرمون الحجارة ويبحثون عن الموت ليصبحوا شهداء كان هذا ظالمًا.

كيف كان لإبراهيم أن يستطيع لوْم أحمد على العنف الذى سيواجه حتمًا به الإسرائيليين ذات يوم؟ من السهل جدًا انتقاد من يستعمل العنف.

ص ١٢٧، حول إبراهيم:ـ

كان أحيانًا، حين تستبد به كراهية الأعداء بعنف يأخذ القرآن بين يديه ويعظ أصدقاءه ﴿يا بنى إسرائيل.......﴾ سورة البقرة

لقد حررهم وأنقذهم. أهكذا يشكرونه؟ بقتل أبنائه؟ إنهم مذنبون»!

ص ١٤٠ ـ ١٤٢

كان إبراهيم يعرف تمامًا أن الحكومة الإسرائيلية لا تريد السلام، لأن السلام يعنى مفاوضات، يعنى تسويات واحتواء إنسانية وإحساس، بينما الإسرائيليون يريدون الأراضى، كل الأراضى يريدون أرض إسرائيل، يريدون تحقيق حلم إسرائيل الكبرى. لن يسمحوا للفلسطينيين بإنشاء دولتهم فهم لم يحترموا فى حياتهم الاتفاقات، إنهم يحاولون الحصول على كل شىء. كل شىء.. الله. والعالم بأسره لا يلاحظون، ماذا يفعلون كى لا يلاحظوا؟ يتساءل إبراهيم ـ ويجيبه صوت فى أعماقه بأن العالم لا يريد أن يلاحظ، لقد أخذ قراره منذ زمن. وقراره أن يغض الطرف عما يحصل وكأن لا شىء هناك. قرّر أن يسمح للإسرائيليين بأن يفعلوا ما يريدون. اختار الحرب. اختار الموت. اختار التخلى عن شعب مهمل منذ الأزل.

كان إبراهيم يعرف ما سيحصل: إنها الإبادة الثانية فى التاريخ.

لم يقبل ذوو السلطة، المسئولون عن هؤلاء القتلى عبرة الوجع. كلاّ، بل قرروا أن يعذّبوا شعبًا آخر كما عذّبوهم، أن يجعلوه يسدّد فاتورة معاناتهم. شعب يائس بائس فقد كل شىء ما عدا شيئًا واحدًا ربما: الإيمان. لهذا يوّجه الانتقاد إليه، لأنه قرر ألا يفقد الإيمان بالله، لهذا ينتقد، يقتل ويعذب.

معسكرات الإبادة. لا. لا تفتش عنها بالنظر، لن تراها. هذه المعسكرات هى فى أذهان العبريين الذين يقودون حكومة نفاق، ويعيدون خلق هذيان رئيس حكومة ألمانى فى عقول يهود يبدون كاليهود الوحيدين فى العالم ولو أنهم ليسوا كذلك.

إبراهيم يعرف، يؤمن، ويتمنى ألا يكونوا كلهم هكذا. لا يمكن لشعب بأكمله أن يكون هكذا.

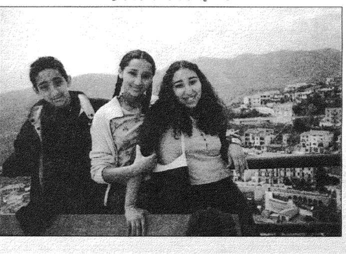
هناك أشخاص مازالوا يؤمنون بذلك، لا يقنعون بالمأساة بالوهم، بل ينظرون إلى وجه الحقيقة، كتلك المرأة التى رآها ذات يوم على شاشة التليفزيون عند جاره رياض، تلك المرأة التى كانت تتكلم باسم المجتمع اليهودى فى سويسرا والتى صرحت بأن حكومة إسرائيل لا تمثلهم، وبأنهم يعترضون على العنف الممارس ضد الفلسطينيين، وبأنهم يهود لكن اليهود لا يلعنون بمجملهم الفلسطينيين ولا يؤيدون بمجملهم تدميرهم. فإذًا، لا يمثل هؤلاء الأقوياء إرادة كل يهود العالم، لكنهم يملكون القدرة على إفهام العالم العكس.

معسكرات التعذيب كامنة فى عقولهم، لا يبنونها ويرمون الفلسطينيين فيها لأن كاميرات التليفزيون ستطالهم، ولأن العالم سينزع عن نفسه فى حينها عباءة الخمود التى يرتديها، الخمود الذى جعله يقبل بالقتل، لأن العالم سيُجبر وقتها على الاستيقاظ. ربى. لا يُصنع السلام بالموتى.

رانده غازى تتسلم جائزة كتابها



رانده مع شقيقتها رشا وشقيقها رامى



ص ١٥٦ ـ ١٦٦، إبراهيم يحضر مظاهرة أولاد معصوبى الجبين تمجيداً للجهاد ـ

«.. حكم على هؤلاء الأطفال بحياة العنف، موتهم كان قد كُتب ونهايتهم تقدَّرت. كانوا سجناء سلسلة لن تكسر قط. سجناء العنف. لم تكن لدى إبراهيم الجرأة على إدانة أهالى هؤلاء الأشخاص، لأنهم كبروا مشوشين بالوجع، مخطوفين بالكراهية. كيف نحاكمهم؟ كيف ندينهم؟

سيبقى الطفل الذى يشهد بعينيه مقتل أبويه مسكونًا طوال عمره بعطش الانتقام، ستشوّشه الكراهية، فلا يستطيع إلا أن يستسلم لها.

بذور الشر أصبحت مزروعة بينهم.

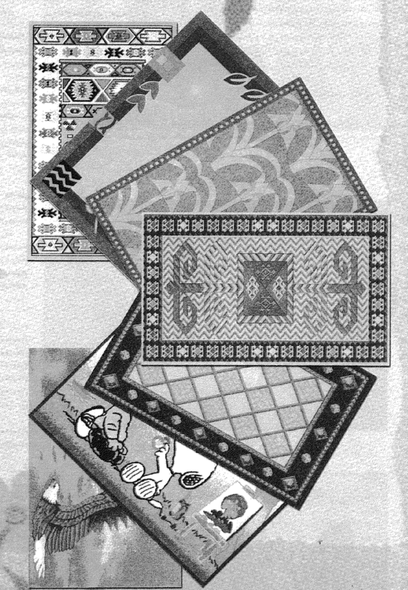
كان يؤلم إبراهيم أن يعترف بأنه فى عمقه مثل هؤلاء الأطفال، أصحابه كذلك، وكل شعبه، كانوا مدمَّرين بالكراهية وبالشر. حتى الهواء الذى يستنشقه أصبح يحمل هذه البذور. الكراهية. حتى الأرض التى يطأها انتقلت إليها العدوى. أرض الكراهية.

ص ١٨٠، موت محمد الدرة:

«.. أفكر فى الثالث من سبتمبر (من أيلول) العام الماضى، عندما قُتلَ هذا الطفل محمد الدرة، عندما استُجوبَ الجندى الذى قتله قال إنه أبقى على الأب حياً كى يظل يتألم. هكذا قال: تركته حياً كى يتألم. ■

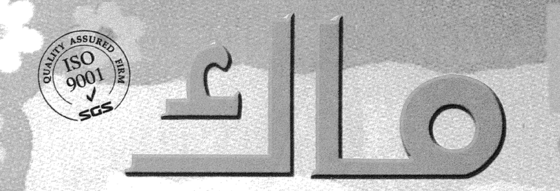
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com



ماك

متواجد فى مراكز بيع بواقى



وع

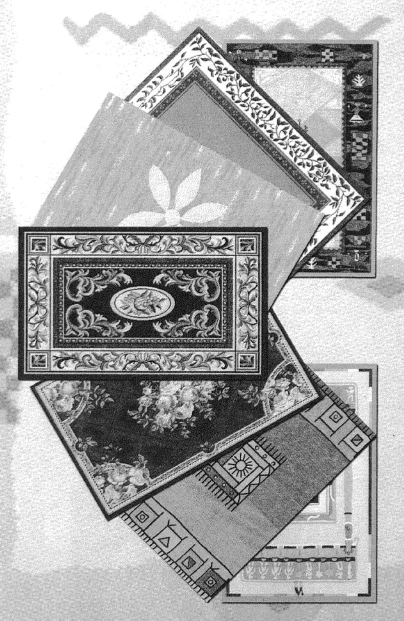
ات

وكيت

حمام

طفال

فى



التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر

أيقـــونـــات.. وعـمـــــارة.. وأوانٍ فخـــاريـــة



فنـــون مصـــر المسـيحية

فـــــاروق وهبـــــة

■■ فى جانب من جوانبه المتعددة، لم يكن الفن سـوى مـحـاولـة من الفنان للتـقـرب من الخالق المبدع. فقد ارتبط الفن، وعلى مدى آلاف السنين بالدين، وحاول الفنان البدائى التعبير عن عميق إيمانه بخالقه من خلال أعمال فنية تلقائية بسيطة تطورت مع الزمن لتنسج ببطء وبشكل تراكمى أحد فصول العلاقة بين الإنسان واعتقاداته.

نشأ الفن - إذن - فى كنف الدين ومضى معه قرونًا طويلة سائرًا على نبراسه ومعبرًا عن مبادئه إلى أن جاء عصر النهضة الأوروبية فبدأ الانفصال رويدًا رويدًا.

من رحم الكنيسة الكاثوليكية وبرعايتها أحيانًا، خرجت الأعمال الفنية العظيمة .إلى أن شق الفن طريقه معبرًا عن الحياة بملامحها وجمالياتها.. ومن ثم تعقيداتها تاركًا بعضًا منه فى علاقته القديمة مع الدين.

ضفاف النيل لم تكن بعيدة عن القاعدة، ففى مصر القديمة، انطلق الفن من المعابد الفرعونية. وكان الكهنة حراسًا عليه: تم إن إبداع المصرى القديم من أهرامات وتماثيل ومعابد لم تكن فى بعض منها سوى محاولة للتقرب من الخالق.

ثم جاءت المسيحية إلى مصر قبل حوالى ألفى عام لتعيد تأكيد العلاقة بين الفن والدين وأبدع الفنان المصرى القبطى فى التعبير عن إيمانه بالمسيحية من خلال الأيقونات والتصوير بالموزاييك والمنسوجات الكتانية والتماثيل والأوانى الفخارية، وحتى شكل العمارة كان فى خدمة الدين.

وبعد أن اعتنقت مصر الإسلام وأصبحت إحدى قلاعه فى العالم، أبدع الفنان المصرى المسلم فى التعبير عن إيمانه من خلال الفنون الإسلامية العديدة كالزخرفة والمنمنمات وأعمال الخشب والتطريز والعمارة وفن الأرابيسك والحلى.. ونظرًا لعمق الفن المصرى - تاريخًا وقيمة، فقد أصبح تخصصًا مهمًا لعلماء الآثار والباحثين، ولا يكاد يمر عام إلا وتظهر فى المكتبات، خاصة الغربية منها، مؤلفات تتناول بعمق مرحلة معينة من هذا الفن الذى يحظى باهتمام كبير من المتخصصين وحتى رجل الشارع العادى فى الغرب.. إنه امتداد بشكل أو بآخر لظاهرة «الهوس» بمصر المنتشرة فى الغرب.

ومن أحدث الكتب فى هذا المجال السفر الضخم الذى أصدرته الجامعة الأمريكية فى القاهرة تحت عنوان «مصر المسيحية.. الفنون والصرحيات المسيحية فى مصر خلال ألفى عام».

وقام بتقديم الأبحاث فيه، ثلاثة من علماء الآثار المعروفين فى مجال الفن المسيحى المصرى حيث عرض الباحث «مينا ردوس» الجانب التاريخى للمسيحية فى مصر بين الماضى والحاضر، وقدمت الباحثة «روتشوسكايا» الاستخدامات الفنية للون فى الفن المسيحى فى مصر، وعرض الباحث «ماسيمو كابوانى» تقدم الطرز المعمارية للكنائس المصرية، ثم بحث فى المناطق والأقاليم المصرية، وقدم الكتاب د. جودت جبرا مدير المتحف القبطى فى مصر.

والكتاب من القطع الكبير، مزود بصور ملونة للفنون والعمارة المسيحية، وواضح اهتمام المكتبة الأمريكية بهذا الجانب من المؤلفات.

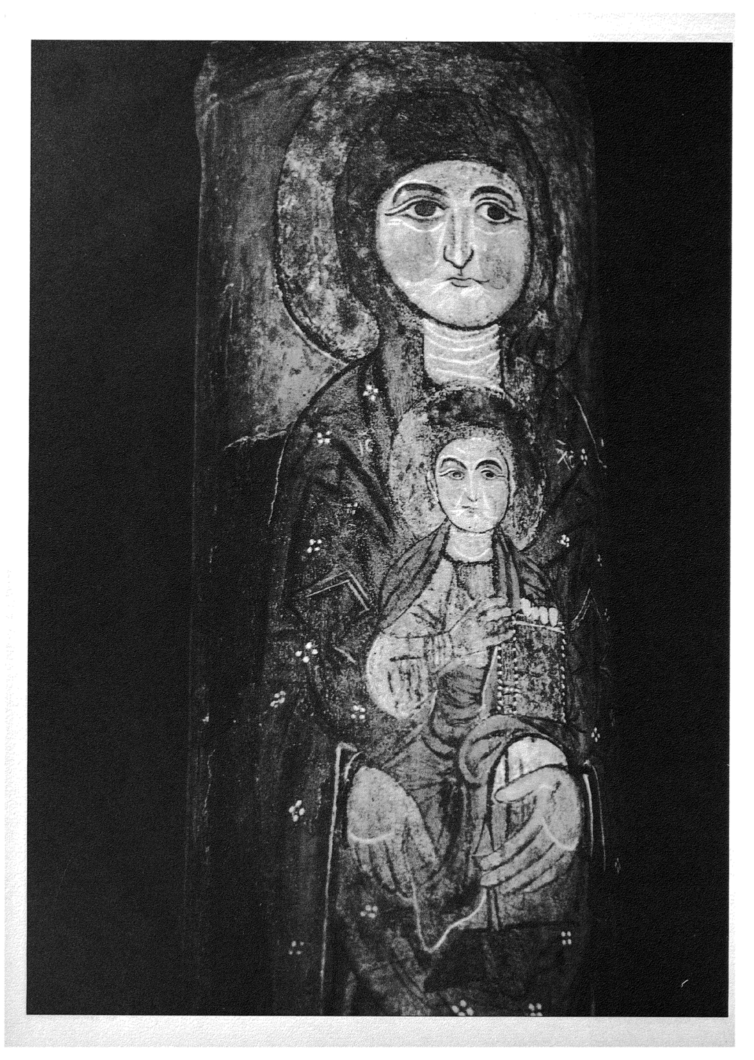
ويعرض هذا المؤلف جانبًا متسعًا من الفنون المسيحية فى مصر والتى تحددت شخصيتها عبر الألفى عام الماضية وظهر تأثير المعتقد الدينى فى تناول الفكر الفنى وفلسفته باختلاف أنواعه منذ تطور الفكر الثقافى فى مدرسة الإسكندرية وظهورها كمؤسسة فكرية لها شأن وتأثير فى ثقافة المنطقة والمناطق المحيطة، وإن برزت المؤثرات الفنية الوافدة على تلك المكونات الفنية لهذه الشخصية للفنون المسيحية فى مصر، مثل التأثير البيزنطى واليونانى والرومانى والفارسى والهندى والمصرى القديم، سواء فى التكوين الفكرى لأعمال التصوير بالموزاييك وتصوير «الفرسكو» وتصوير التمبرا أو فن النحت والعمارة.

وأخذت الأيقونات المصرية شخصيتها الفنية المعروفة من المؤثرات البيزنطية والتى كانت منتشرة فى هذا الوقت ثم التأثير الفارسى فى التصوير فى تحديد حلول شكل الوجه والأعين الواسعة المحدقة والمتأملة، وذلك عند الالتجاء إلى رسم القديسين والقصص الدينى، وكان للأيقونات المصرية بريق فنى انتشر فى منطقة الشرق الأوسط، وحرفت إلى أشكال وإضافات أخرى فى روسيا، حيث اشتقت الأيقونة الروسية من المصرية وأضيف عليها أشكال معدنية لمعالجة الملابس، ولكن ظلت الهالة القدسية التى تبدو فوق رأس القديسين فى الحالتين كرمز للقداسة والنورانية، ويختص الشكل المعمارى للكنيسة المسيحية فى مصر بشخصية منفردة ومعروفة، ويبدو عليها التأثيرات المأخوذة من الطراز البازيليكى، والطراز القبطى والبيزنطى.

وتختص الباحثة «مارى هيلينة روتشوسكايا» بجزء فى هذا المؤلف للاستخدامات الفنية للون فى الفنون المسيحية بمصر، حيث تذكر أن أقدم الأعمال التصويرية المسيحية فى مصر وجدت فى «كرموز» بالإسكندرية «بالكتاكومب» فى نهاية القرن الثالث الميلادى، ولم تكن هذه الأعمال الفنية تحتوى على تشخيص ولكنها احتوت على



Christian Egypt.. Coptic Arts and Monuments Through Two Millennia
مصر المسيحية.. الفنون والصرحيات القبطية خلال ألفى عام
Massimo Capuani
Cairo - Auc Press - 2002









التوريقات النباتية والأسماك، وكانت هذه العناصر ترمز إلى أفكار دينية، حيث استخدمت الرمزية فى هذا الوقت للإفادة الدينية والإشارة إلى مضامين للإرشاد الدينى، وقد وجد أيضًا نماذج من هذا التصوير فى واحة الخارجة بصحراء مصر، وقد استخدمت الألوان المذابة فى الماء والمثبتات والتصوير بها على الجدران، كتقليد كان متبعًا فى العصور الرومانية واليونانية والمصرية القديمة، حيث كسيت المعابد الفرعونية بالألوان والأكاسيد، بل أكثر من ذلك استخدمت الألوان بشكل رمزى كاستخدام اللونين الأصفر والأحمر للدلالة على الرجل والمرأة غير أن اختلافًا فى الأساليب الفنية نشأ تدريجيًا بين الشرق والغرب، موازيًا لما حدث من الانشقاق العقائدى بين كنيسة روما وكنيسة بيزنطة، ولكن فى كل الأحوال كان الاهتمام منصبًا على رفض كل ما هو مرتبط بعصور الوثنية من الصور ورفض ما يمثل الهيئة البشرية، والاتجاه إلى الأعمال الفنية التى تهدف إلى تصوير هالة من القداسة، ثم تلا ذلك إقرار وضع الأيقونات، أو صور القديسين.

ولم يتح للفن المسيحى أن ينمو ويتقدم إلا عندما صارت المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى، فصار عندئذ من الممكن للفن المسيحى أن يتخذ طابعًا عامًا، كما صار من الممكن إقامة أماكن عامة للعبادة وتصميمها وزخرفتها لكى تلبى مقتضيات الدين الجديد.

ولأن الأيقونات كانت تمثل الفن الأمثل للكنيسة المصرية فقد أخذت خطوات لتطور التقنية الخاصة بها وانتهت إلى الرسم على الأخشاب وإعدادها لاستقبال الألوان بخامة الجص، ثم استخدام ألوان «التمبرا» لتصوير القديسين وهى تقنية دقيقة تصنع من زلال البيض أو بياضه مع إضافة الأكاسيد اللونية ومواد حافظة، أما التصوير بالموزاييك أو الفسيفساء، فهو فى العصر المسيحى فى مصر امتداد للتقنية البيزنطية،التى ازدهر هذا الفن فى عصرها (الدولة البيزنطية) وزينت به الحوائط والأسقف والأرضيات، وتقدم هذا الفن كثيرًا باستخدام الألوان المذهبة وقطع الزجاج الشفاف ونصف الشفاف من القطع الخزفية الملونة بمواد «الجليز»، أما عن فن النحت فقد ازدهر النحت على الخشب لتوفر خاماته وكثرة أشجار الجميز والأشجار الأخرى الصالحة لهذا الفن، واقتصر النحت على تماثيل رموز الدين المسيحى مثل تماثيل السيد المسيح والعذراء والملائكة والآباء القديسين واستوردت فى هذا الوقت أنواع أخرى من الأخشاب مثل الأبنوس من بلاد بونت وإثيوبيا والأرز من فينيقيا والجوز والنبق والبلوط من أوروبا، واستخدم أيضًا الفنان المسيحى فى ذلك الوقت خامات أخرى مثل العاج والجص والطين.

ومنذ العصر الفرعونى، ومصر تشتهر بصناعة المنسوجات الكتانية عالية الجودة، وتطورت هذه الصناعة فى العصر البيزنطى فأصبحت الملابس تنسج بطريقة «القباطى» التى لم تعرف إلا فى مصر، وهى زخرفة لونية نسجية بتقسيم الخيوط إلى مجموعتين متساويتين فى الحدود ويجرى توزيعهما بالتعادل، وتحدث الزخرفة عن طريق استخدام خامات ملونة تنسج جميعها غير ممتدة فى العرض، وفى هذا الفن يكون غالبية الثوب من اللون الأبيض أو الأزرق الغامق أو الأرجوانى أما الزخارف فبألوان متعددة.

وتعددت أنواع هذه الثياب المزركشة على طريقة «القباطى» لتناسب الطبقات الاجتماعية، فأصبح منها الثياب الدينية من النسيج الكتانى المزين برسوم هندسية نباتية دقيقة، كما وجدت الثياب جميلة التوشية

للرجال والنساء، وظهرت أيضًا شباك الشعر للنساء وعرائس للأطفال عليها رسوم دينية، والأثواب المرسوم عليها رسوم تمثل حياة القديسين.

وقد تأثرت صناعة النسيج في مصر بمؤثرات يونانية وفارسية وبدأت بعد ذلك صناعة المنسوجات الحريرية في الرواج، نتيجة جلب دودة القز عن طريق اثنين من رجال الدين جاءا ومعهما سر صناعة الحرير.

وكان لصناعة الأقمشة المصرية والمنسوجات الزخرفية أثر كبير في انتقال هذا الفن إلى أنحاء العالم الذي دهش بهذا الفن الذي أوضح ما لمدرسة الإسكندرية الفنية وما أظهرته من الأثر الديني المسيحي من أهمية، من خلال الرسوم والزخرفة بمناظر الكتاب المقدس ومعجزات السيد المسيح عليه السلام، وحوارات الحواريين مع السيد المسيح، ورسوم الشهداء والقديسين وقد انتشر هذا الفن لسهولة تبادل وحمل الأقمشة من مكان لآخر.

وكانت صناعة الأواني الفخارية من الصناعات المزدهرة، حيث زخرفت بالرسوم وأشكال الحيوانات والطيور وأشجار الكروم وعناقيد العنب متأثرة بالتراث الهيليني، وبدأت تأثيرات الديانة المسيحية في زخرفة الأواني الفخارية من خلال رسومات وألوان زاهية. واستخدم زوار الأديرة هذه الأواني (كنائس القديس مينا) وعرفت بقوارير مينا، تملأ بالمياه تبركًا بمهد القديس.

كانت العمارة في مصر في العصر البيزنطي والمسيحي، متأثرة بالنواحي الدينية أكبر تأثير، وقد سارت على الطرق المعمارية السائدة آنذاك، البازيليكي والبيزنطي والقبطي وهذا ما اتبع في الكنائس والأديرة والعمارة الدينية بصفة عامة، فالبازيليكا عبارة عن قاعة مستطيلة يتقدمها فناء أو صحن ذو أعمدة عرضية، ويحيط بالفناء جدار واحد من الخارج، وهذا النظام مأخوذ من النظام الفرعوني في المعابد، ويضم الفناء صفًا من الأعمدة ويتصدره المدخل الخارجي وتوجد أبواب بعدد الأقسام الطولية، التي ينقسم إليها الفراغ الداخلي للكنيسة ويبلغ عرض الأجنحة عادة اتساع المجاز العريض الأوسط الذي يحيط بتلك الأجنحة، وتحمل الأعمدة سقف المجاز الأوسط وتتخلله طاقات أو نوافذ عليا لإضاءة المبنى تسمى النوافذ المشعة. واشتملت بعض النماذج على صفين من الأعمدة، يحمل الجزء المنخفض منها شرفة تخص السيدات وتقع كوة المذبح نصف الدائرية والمسقوفة بنصف قبة في الجانب الشرقي من القاعة المقابلة للمدخل، وتعد القاعة العرضية في بعض الكنائس بمثابة قاطع كوة المذبح، عن البازيليكا فاعلة شكل الصليب للإيحاء بجسد المسيح المصلوب.

وقد قدم الكتاب الفن المسيحي في مصر من زوايا ترتكز على أهدافه الدينية الواضحة التي كرست كل جهود الفنان في خدمة المعتقد أو للإرشاد الديني، داخل أماكن العبادة وأوضح الكتاب قصة كفاح الشعب المسيحي المصري ضد الوثنية حتى استطاعوا بكفاحهم أن ينتصروا على قوى اللاوعي بالدين وبالخالق لتصبح كل الدولة البيزنطية تدين بالدين الجديد.

وحتى شكل العمارة الدينية الذي شيد على شكل جسد السيد المسيح حتى يكرس الإيمان بالمتعبدين وتحل البركة عليهم، فالفن كان في هذا الوقت يخدم قضية معتقد، ويبدو فيه تأثر الفنان بروح التبتل والبساطة والشفافية، والإيمان الكامل بالرسل والباباوات والقديسين، والإيمان بالقصص الديني وقصة آدم وحواء، وبدا هذا الفن برمته بسيطًا شعبيًا يخلو من الحرفيات التي أدخلت بعد ذلك على فن عصر النهضة بأوروبا. ■





«رشيدة» للجزائرية يمينة بشير

غياب مصرى وتراجع تونسى وأمل فلسطينى

السينما العربية فى الانتظار!

إبراهيم العريس

كانت سنوات خمس قد انقضت منذ عرفت «السينما العربية» آخر أمجادها الكبيرة فى مهرجان «كان» السينمائى فى جنوب فرنسا. ففى ذلك المهرجان الذى يعتبر، عادة، الأشهر بين مهرجانات السينما العالمية، كانت السعفة الذهبية التى منحت ليوسف شاهين العام ١٩٩٧، عن مجمل أعماله لمناسبة مشاركة فيلمه «المصير» فى المسابقة الرسمية لتلك الدورة، آخر تكريم تحظى به السينما العربية، والثالث الكبير فى تاريخ المهرجان بعد سعفة الجزائرى محمد الأخضر حامينا (عن فيلمه «وقائع سنوات الجمر» ـ ١٩٧٥) وجائزة لجنة التحكيم التى نالها اللبنانى الراحل مارون بغدادى (عن «خارج الحياة» ـ ١٩٩١). صحيح أن المغرب، وقبل استقلاله، كان فى العام ١٩٥١، قد فاز بالسعفة الذهبية ولكن، تحديدًا، عن فيلم لأورسون ويلز هو «عطيل» الذى صور ـ فقط ـ فى المغرب وشاء مخرجه أن ينسبه إلى هذا البلد العربى لأسباب إنتاجية بحتة.

إذن، كانت سنوات خمس قد انقضت على هذا كله، حين جاء التكريم الجديد فى «كان» فى العام ٢٠٠٢ من حيث لم يكن أحد يتوقع: من السينما الفلسطينية، وعن طريق فيلم «يد إلهية» للمخرج إيليا سليمان. فاز الفيلم يومها بجائزة لجنة التحكيم الخاصة. وكان من المتوقع له، منذ عرض أوائل أيام المهرجان أن يفوز بالسعفة الذهبية.

يومها لم يكن «يد إلهية» الفيلم العربى الوحيد المعروض فى «كان» والخائض مسابقاته. استثنائيًا، كان هناك عدد من الأفلام العربية الأخرى: من لبنان، من فلسطين وأيضًا من الجزائر، من موريتانيا ومن سورية.

لم يكن هناك أى فيلم مصرى. وكان هذا مستغربًا.

ولكن أو لم يُبن التاريخ الراهن للسينما العربية على أمور مستغربة؟

المهم فى الأمر، أن السينما العربية ـ غير المصرية ـ حضرت بقوة وعلى مدى عالمى.

وكان فى هذا بعد غريب أيضًا: ذلك أن هذا الحضور أتى فى وقت تُنعى فيه السينما العربية ككل. فى وقت من الصعب أن نرصد فيه أى حضور حقيقى للسينما العربية (الجادة) فى الصالات العربية أو على الشاشات العربية.

وحسبنا للتنبيه إلى هذا أن نذكر أن «يد إلهية» نفسه، على رغم فوزه فى «كان» ذلك الفوز الاستثنائى، لم يعرض بعد، أية عروض جماهيرية فى أى بلد عربى. بل لا يزال يسعى جاهدًا للحصول على موزعين، فى وقت تدعوه فيه المهرجانات والندوات للمشاركة، فى وقت حقق فيه فى عروضه الفرنسية ما يجاوز المائتى ألف متفرج مما يعتبر أمرًا استثنائيًا بالنسبة إلى فيلم غير أمريكى وغير أوروبى، من دون نجوم ويكاد يكون من دون موضوع حتى.

فلسطين/إنترنت

يشارك «يد إلهية» فى هذا المصير الفيلمان الفلسطينيان الآخران اللذان عرضا فى «كان» ثم فى غيره من المهرجانات، واعتبرا مع «يد إلهية» تجديدًا أساسيًا فى السينما الفلسطينية، يزيد من استقلاليتها ويعطيها حضورًا عالميًا ومحليًا لم يكن أحد ليتوقع له أن يكون حقيقيًا لعقد خلا من السنين، فالسينما الفلسطينية، وخلال العقود السابقة، كانت مجرد شرائط تسجيلية، أو حضور فى السينمات العربية الأخرى، أو نتيجة حماس مخرجين، آتين من آفاق عديدة يعلنون انتماءهم إلى «القضية» عبر تحقيقهم أفلامًا عنها، من الصعب اليوم وصفها بأنها فلسطينية حقًا، ولا سيما بعد ما صار للسينما الفلسطينية أهلها الحقيقيون. ونعرف أن البداية العملية كانت على يد ميشال خليفى الذى بعدما حقق أواخر الثمانينيات فيلمًا تسجيليًا متميزًا هو «الذاكرة الخصبة»، طلع على العالم المنتظر بواحد من أول الأفلام



ايليا سليمان وبالون عرفات فى «يد إلهية»

الروائية الفلسطينية الحقيقية، وهو «عرس الجليل» ثم كرت مسبحة: رشيد مشهراوى وعلى نصار، ونورما مرقص وليانة بدر، وصولاً إلى إيليا سليمان الذى عبر فيلمين طويلين وبضعة شرائط قصيرة حققها خلال أقل من عقد من السنين عرف كيف يضع السينما الفلسطينية، حقًا، على خارطة السينما العالمية. وأتى ذلك فى وقت يكاد يكون فيه ميشال خليفى صامتًا، ولكن، أيضًا فى وقت تضع فيه مى مصرى (التى كانت تحقق أفلامًا مشتركة مع زوجها المخرج اللبناني جان خليل شمعون قبل أن تنفصل عنه، فنيًا، منذ عشر سنوات وتحقق أفلامها بنفسها) بدورها فلسطين أخرى على تلك الخارطة. والحال إنه لئن كان إيليا سليمان قد قدم واحدًا من أجمل الأفلام العربية وأقواها فى العام ٢٠٠٢ عبر «يد إلهية» فإن مى مصرى بدورها قدمت واحدًا من أجمل وأقوى الأفلام الفلسطينية «التسجيلية» فى العام نفسه، وكان أن تقاسم الاثنان الساحة، هو بذلك الفيلم الطريف الجاد والهادف الذى صور الداخل الفلسطينى، ويومياته المرة انطلاقًا من حادث موت أبيه، كما صور استحالة اللقاء، تحت وقع الاحتلال بين حبيبين (هو نفسه أحدهما) إلا عند منطقة محايدة تقع غير بعيد عن حاجز إسرائيلى بين القدس ورام الله. وهى «مى مصرى» عبر لقاء تقيمه فى فيلمها المعنون «أحلام المنفى» بين صبايا وفتيان يقيمون بينهم عبر الإنترنت علاقة تعبر الحدود بين المنفى الفلسطينى فى لبنان والمنفى الداخلى فى فلسطين. إن الإنترنت يلعب هنا نفس الدور الذى يلعبه البالون الذى يحمل صورة ياسر عرفات والذى يطلقه صبيا «يد إلهية» ليعبر الحواجز واصلاً إلى القدس.

الحاجز

الحاجز هو القاسم المشترك بين الفيلمين، وتخطى الحاجز هو الهاجس الذى يهجس به شخوصهما. وفى هذا السياق يبدوان فصيحين، أيضًا، فيلم هانى أبو أسعد ورشيد مشهراوى. وهما بدورهما عرضا فى العديد من المهرجانات («كان» وغيره بالنسبة إلى الأول، و«بينالى باريس» وغيره بالنسبة إلى الثانى) وفازا بالعديد من الجوائز. ففى الفيلم الأول (عرس رنا) أو (القدس فى يوم آخر) كما فى الثانى (تذكرة إلى القدس) لدينا موضوعة الحاجز، فى فيلم هانى أبو أسعد يمنع الحاجز من إتمام مراسم الزفاف بين «رنا» شخصية الفيلم الرئيسية وحبيبها، بحيث أن ضغط أبيها لمحاولة منع ذلك الزواج بدوره يكاد ينجح. أما فى الثانى (تذكرة إلى القدس) فإن رشيد مشهراوى رسم حكاية شاب فلسطينى لا يهمه فى الوجود إلا أن يعرض أفلامًا على الفلسطينيين صغارًا وكبارًا، كوسيلة فعالة (ربما) للوصول إلى وعى فلسطينى جديد.

ولكن هناك أيضًا الحاجز الذى يضع ألف عقبة وعقبة. وفى الحالتين لدينا قدرة الإنسان الفلسطينى على الصمود وعلى تخطى الحاجز.. ولكن هذه المرة ليس من أجل انتصار مباشر، لا يبدو مطلاً فى الأفق، بل من أجل انتصار طويل المدى ينبنى على اكتساب الوعى وعلى تعلم خوض الحياة اليومية فى شكل أكثر صلابة وقوة.

إنه الوعى الفلسطينى الجديد. وعى اليومى والذى يقول أن الأحلام الكبيرة لن تتحقق إلا إذا نحن تعلمنا كيف نحقق الأحلام الصغيرة من الحب والزواج وعرض الأفلام. إنه اقتراح جديد لمستقبل فلسطينى جديد، يشارك فيه (يد إلهية) لايليا سليمان، و(أحلام المنفى) لمى مصرى.. والحال أن هذا الامتزاج ما كان فى إمكانه أن يكون فاعلاً، لولا ذلك الواقع الجديد الذى مكن السينمائى الفلسطينى من أن يقبض على واقعه بيده. إذ وكما نعرف أن العمل السياسى الفلسطينى ما كان فى إمكانه أن يحقق ما حقق منذ عشر سنوات، وبعد الهزيمة الكبرى فى لبنان على يد الإسرائيليين مرة، وعلى يد «الأشقاء» العرب مرة أخرى، وعلى يد الفلسطينيين أنفسهم مرات ومرات، إلا باستقلاله النسبى عن التدخلات والإرادات العربية..وفى يقيننا أن ذلك هو الدرس الأساسى الذى يمكننا استخلاصه من واقع السينما الفلسطينية كما رسم أمام أعيننا فى العام الذاهب.

ولكن، إذ نقول هذا، لن يغرب عن بالنا أن هذه السينما، إذا استقلت فى ذاتها وصارت حرة فى موضوعاتها المطالبة للفلسطينى بأن يعيش حياته ويختار أساليب نضاله، لاتزال غير قادرة على الاستقلال ماليًا .. ولنلاحظ هنا أن (أحلام المنفى) تم بفضل إنتاج أمريكى، و(تذكرة إلى القدس) بفضل إنتاج هولندى أوروبى مشترك، مثله فى هذا مثل (عرس رنا) فيما تولى الفرنسيون إنتاج «يد إلهية» فهل لنا أن نستنتج من هذا شيئًا؟

ربما.. ولكن لابأس أن نلاحظ هنا أن الاستقلالية النسبية التى تحققت لهذه الأفلام تفوق ما تحقق لأية أفلام فلسطينية سابقة كانت عربية الإنتاج.

أين المصريون؟

هذا أمر يمكن أن يُسأل عنه على أية حال، مخرجنا الكبير يوسف شاهين، الذى ما كان فى إمكانه ومنذ سنوات عديدة أن يحقق أفلامه، بغثها وسمينها، لولا ما توافر له من تمويل غربى - فرنسى خاصة - فهل علينا أن نذكر بأن هذا الواقع بات راسخًا فى حال السينما العربية، مشرقًا ومغربًا؟

فمن يسرى نصرالله إلى أسامة محمد، ومن عبداللطيف بن عمار، إلى غسان سلهب اللبنانى، إلى عدد غيرهم من



الذين يؤمنون بـ«السينما العربية» اليوم جديتها وجديدها، لا يمكن لأي سينمائي عربي اليوم أن يحقق فيلمًا إلا إذا استعان بتمويل خارجي. صحيح أن هناك بعض الاستثناءات. هناك جيوب مقاومة، ولكن حتى متى يمكن لها أن تصمد؟

لقد حقق الراحل رضوان الكاشف فيلمه الأخير (للأسف) «الساحر» بتمويل مصري بحت. وكذلك فعل داود عبدالسيد في «مواطن ومخبر وحرامي». والفيلمان على رغم التطويل أحيانًا، واستخدام النجوم بشكل أساء إلى كل من الفيلمين في أحيان أخرى، محمود عبدالعزيز في فيلم «الساحر» وشعبان عبدالرحيم في فيلم «مواطن ومخبر وحرامي»، كانا عملين مشرفين ونالا حظوة لدى المتفرجين، ولكن أي متفرجين؟ أي جمهور؟ وما نوع الحظوة؟ وهل كان يمكن لرضوان الكاشف، لو عاش أن يكرر التجربة؟ وهل في وسع داود عبدالسيد اليوم أن يكرر تلك المغامرة؟ سؤال لابد من طرحه؟ خاصة إذا تذكرنا أن كل المخرجين الذين برزوا في مصر خلال العقدين الأخيرين، قد تراجعوا: فهل يمكن مقارنة (زواج بقرار جمهوري) لخالد يوسف بـ(العاصفة) «فيلمه الأول»؟ وهل يمكن الإجابة حول أسباب عدم إنجاز (بحب السينما) لأسامة فوزي؟ وأين عاطف حتاتة بعد رائعته (الأبواب المغلقة) وأين (كونشرتو درب سعادة) لأسماء البكري من (شحاذين ونبلاء)؟ ثم هل حقًا يمكن لـ(الساحر) نفسه، للراحل رضوان الكاشف أن يصمد أمام فيلميه السابقين (ليه يا بنفسج)، وخاصة (عرق البلح)؟ يسري نصرالله بعد (المدينة) الذي، وفي الحسابات كافة، لم يرق إلى (مرسيدس) أو حتى إلى فيلمه التسجيلي (صبيان وبنات) يجرب حظه اليوم مع رواية يحولها فيلمًا عن القضية الفلسطينية. ولكن هل حقًا كان من طموحات يسري نصرالله وصاحب التجريبية المدهشة في أعماله الأولى، أن يحقق فيلمًا مباشرًا عن قضية يتصور منتجوها أنها، إذ تحول فيلمًا جماهيريًا - يُصور الآن في سوريا - مضمونة النجاح والكسب سلفًا؟

نشك في هذا، ونتساءل في مجال الحديث عن التجريبية عما آل إليه مصير أحمد عاطف، بعد الجرأة المطلقة التي طبعت فيلمه الأول (عمر ٢٠٠٠)؟ وعن جواز المقارنة بين آخر ما حققته ساندرا نشأت، والطابع الإنساني الفني المبدع الذي طبع فيلمها الأول (مبروك وبلبل).

والحال أننا لم نورد هذه الأسماء هنا إلا لأنها هي التي - لأعوام قليلة خلت - كانت تبدو حاملة لعبء النهوض بالسينما المصرية - والعربية - إلى مستويات تكمل مسيرة يوسف شاهين، من ناحية، ومسيرة جيل (الواقعية الجديدة) من ناحية ثانية (جيل محمد خان وخيري بشارة وعلي بدرخان والراحل عاطف الطيب.. ترى أين هو هذا الجيل الآن؟ وهل يكفي «أيام السادات» لإعلان حضوره المتواصل؟) فهل ستخيب الأحلام أكثر وأكثر ومرة أخرى؟

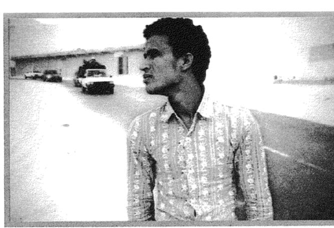
إنه سؤال لابد من طرحه اليوم على ضوء واقع يبدو شديد الغموض إن لم نقل شديد الاهتراء.



ملصق «القدس في يوم آخر» لهاني أبوأسعد



ملصق «وبعد» لمحمد إسماعيل (المغرب)



«في انتظار السعادة» للموريتاني عبدالرحمن سيساكو

جيل لبناني مفاجئ

والواقع نفسه هو الذي يمكن رصده في لبنان. ومع هذا يبدو أن للبنان، في هذا السياق أيضًا، خصوصية لا يمكن نكرانها: ثمة في لبنان، على الأقل، جيل جديد يعد.. ومن المؤسف أنه الجيل العربي الوحيد الذي لديه حتى الآن هذه المواصفات.

وهذا الجيل يحاول أن يكمل اليوم مسيرة متميزة كان بدأها، قبل ٢٥ سنة، جيل الحرب السينمائي، الذي كان أبدع للبنان بعض أفضل الأفلام التي حققت باسمه في تاريخه. وهذا الجيل كان من أعلامه الراحل مارون بغدادي والمخضرم برهان علوية وجان شمعون وجان كلود قدسي وبهيج حجيج إضافة إلى جوسلين صعب ورندة الشهال وهيني سرور.. وبعض الأسماء الأخرى. وقبل ربع قرن، في خضم الحرب اللبنانية كان هذا الجيل واعدًا بدوره، وجديًا. ولقد وصلت نجاحاته إلى ذروتها مع الجوائز العربية (قرطاج) التي فاز بها (كفر قاسم) برهان علوية، والعالمية (كان) التي فاز بها مارون بغدادي، ولكن بعد تلك النجاحات الأولى الكبيرة، اختفى ذلك الجيل تقريبًا: رحل بغدادي وصمت علوية، صحيح أن قدسي وشمعون حققا فيلميهما الروائيين الأولين (آن الأوان) بالنسبة إلى قدسي، و(طيف المدينة) بالنسبة إلى شمعون، لكن النجاح لم يكن مضمونًا. فصمت قديس تقريبًا، وراح شمعون يغوص في أفلامه التسجيلية المتميزة أكثر وأكثر.. وينتج لزوجته مي مصري إذ استقلت عنه سينمائيًا. في تلك الأثناء نهض جيل روائي / تسجيلي جديد من أبنائه سمير حبشي (الإعصار) وديما الجندي (بيني وبينك بيروت) و(طريق الحرير) ثم زياد دويري (النجاح الأكبر محليًا وعالميًا لأي فيلم لبناني عبر «بيروت الغربية») وغسان سلهب وكريستين دبغي، ولكن حين أطل العام ٢٠٠٢، راحت الصورة تبدو على غير ما كانت وعدت به: سلهب حقق فيلمًا ثانيًا، ولكنه بدا فيه كالمقلد نفسه (في تشابه مزعج مع فيلمه الأول «أشباح بيروت»).. فلم يكن «أرض مجهولة» سوى نسخة عرجاء من الفيلم الأول. صحيح أن «أرض مجهولة» عرض في دورة «كان» الأخيرة ولقي بعض الصدى، لكنه كان صدى التشجيع وإحساس الأبوة، أكثر منه صدى ناتجًا عن مفاجأة فنية ما، هذا بالنسبة إلى سلهب، أما الآخرون فصمتوا، أو عملوا في صمت: رنده الشهال حققت فيلمًا جديدًا، وبرهان علوية ينجز الآن شريطًا يحاول أن يعود به إلى الساحة بعد صمت قرن ونصف القرن من الزمن! وجوسلين صعب تحاول أن تعثر على منتج لفيلم جديد تدور أحداثه في القاهرة.

وفي انتظار عودة هؤلاء.. أو إعلان صمتهم النهائي، نما في لبنان جيل جديد. جيل شباب يكاد يكون من دون تراث سينمائي مكبل، جيل صوره آتية من الصورة. جيل يحقق الآن أفلامًا قصيرة، روائية أو تسجيلية، يغلب عليها طابع الذات والاكتشاف، ولكن من الواضح أن بعد الهواية فيها يعد ببعد احترافي مؤكد. ومن أبرز أبناء هذا الجيل أكرم زعتري (الجائزة الكبرى في مهرجان الاسماعيلية عن فيلمه المتميز «هو + هي فان ليو») وميشال كمون الذي حقق فيلمين قصيرين (رائعين) للتلفزة الإنجليزية قبل أن يطوى على مضض مشروع فيلمه الروائي اللبناني الأول ويتوجه إلى برشلونة حيث يصوّر هناك - من دون أدنى علاقة بالسينما اللبنانية التي مع هذا ينتمي إليها بقوة - فيلمه الروائي الطويل الأول.

إن زعتري وكمون وغيرهما من أبناء جيلهم - مهى حداد ومنى مرعي وإليان الراهب ويوسف مكي وإيلي خليفة وفؤاد عليوان وعشرات غيرهم يماثلونهم سنًا - لن يستطيعوا المواصلة من دون دعم، غالبًا ما يأتي من الخارج الآن، أو من الجامعات والمؤسسات الصغيرة التي ترعى مشاريعهم المتواضعة في انتظار ما هو أفضل. غير أن هذا الواقع لم يمنع واحدًا من أبناء هذا الجيل نفسه، وهو أسد فولادكار، من أن يوفر من مصروفه العائلي ١٥ ألف دولار تمكن بها من تحقيق فيلم / مفاجأة، حقق، حتى اليوم العديد من النجاحات ولاسيما في مصر وباريس (جوائز في الإسكندرية وفي البينالي الباريسي) وهو فيلم «لما حكيت مريم» الذي عرف فيه كيف يتجاوز، لقوة موضوعه وبساطة معالجته، مشكلة التمويل، ولكن هل يمكن لفولادكار أن يكرر التجربة نفسها؟ هو يشكك في ذلك. ويشاركه الشك زميله بهيج حجيج، الذي بعد انتظار عشرين عامًا، وبعد سلسلة من الأفلام القصيرة، أنجز أخيرًا فيلمه الروائي الطويل الأول «زنار النار» الذي لم يكلف سوى ١٣٥ ألف دولار، ويتميز بكونه أول فيلم لبناني ينطلق من رواية أدبية («المستبد» لرشيد الضعيف) فاتحًا أمام زملائه أبوابًا جديدة، بعيدة عن تلك الأفلام شديدة الذاتية التي يكتبها المخرج بنفسه وغالبًا عن «تجربته» الحياتية، إذن، مع الفيلم الذي أنجزه حجيج ويواصل أشغاله التقنية حتى الآن، يمكننا أن نقول أن ثمة أربعة أو خمسة أفلام لبنانية تصور أو تنجز اليوم، فهل يكون العام ٢٠٠٣ عام السينما اللبنانية عبر إنتاج يبدو، نسبيًا، كبيرًا؟

البحث عن حرية

العام ٢٠٠٢ كان في سورية على أية حال عام استعادة الأنفاس، وإلى حد ما، تمكن محمد الأحمد الناقد المعروف والذي تسلم مقدرات «مؤسسة السينما» منذ فترة، من أن يفي، ولو جزئيًا بما كان وعد به: أن يعيد السينما السورية إلى خارطة السينما العربية بعد ما غابت لفترة من الزمن. صحيح أن النتيجة لم تكن، حتى الآن، سوى عدد قليل من الأفلام. لكنها كانت أفلامًا حاضرة وكان لها معجبوها وأنصارها، تمامًا كما كان لها ناقدوها. وفي الحالين حضرت السينما السورية. بل كان الحضور استثنائيًا إذا نحن تذكرنا أن من مزايا هذا العام السينمائي السوري المنصرم أنه شهد

امرأة تحقق أول فيلم لامرأة في سوريا: واحة الراهب، التي سوف يعرض فيلمها الأول العام ٢٠٠٣. وفي انتظار فيلم واحة الراهب لنعرف كيف تنظر المرأة السورية إلى مجتمعها، علينا أن نكتفي بالفيلمين اللذين حققهما أسامة محمد («صندوق الدنيا») وعبد اللطيف عبد الحميد («قمران وزيتونة»). وستكون مفاجأتنا الأولى التشابه الكبير بين الفيلمين، في الموضوع والأجواء والحقبة التاريخية. فالفيلمان ريفيان، كل منهما يتناول كما يبدو طفولة مخرجه أو ما يشبهها. وباللهجة العلوية نفسها. والفيلمان سوداويان قاسيان (في حق النساء والأطفال). وأي من الفيلمين، على أية حال، لا يرقى إلى ما سبق لمخرجيهما أن حققاه فـ«صندوق الدنيا» أبقى المعجبين الكثر بفيلم أسامة محمد الأول «نجوم النهار» على ظمئهم. أما «قمران وزيتونة» فإنه سجل تراجعًا في الأسلوب والتعبير، عن المستوى المتميز والشفاف الذي كان طبع فيلم عبد اللطيف عبد الحميد السابق «نسيم الروح». لكن هذين الفيلمين أثارا من السجال مالم يسبق أن أثاره أي فيلم سوري آخر، منذ «أحلام المدينة» لمحمد ملص، الذي من المؤسف أنه يبدو غائبًا تمامًا، عن الساحة منذ رائعته «الليل».

والحال أنه إذا كانت وعود محمد الأحمد - الصادقة حتى الآن - تقول لنا أن السينما السورية سوف تشهد نهضة ما خلال المرحلة المقبلة، فإن فيلمي أسامة محمد وعبد اللطيف عبد الحميد يضعاننا أمام تساؤلات شكاكة: ما الذي يمكن حقًا للسينمائي السوري أن يقوله بعد، في وقت تستنفد فيه الدراما التليفزيونية المواضيع المحدودة، على أية حال، التي يمكن للسينما أن تتناولها؟ ونطرح هذا السؤال لأننا نعرف تمامًا أن السينما - كتعبير فردي - وعلى عكس التلفزة - كتعبير حرفي جماعي - تحتاج إلى قدر من الحرية من الصعب توفره في سورية حيث دلتنا تجارب المنابر المفتوحة - ثم المغلقة - على حدود الحرية في بلد يعيش مجابهة دائمة ومحاصر ومحكوم من توجه سياسي واحد. ولعل هذا الوقع هو الذي يحول اليوم دون انبعاث جيل سينمائي جديد ها هو ينبعث في لبنان. وفي انتظار انبعاث هذا الجيل يبقى المخضرمون يسعون.. ويحتالون على الرقابة، أو يزورون التاريخ والطفولة في تجربة علمتنا السينما الإيرانية حدودها.. وأيضًا كيفية تجاوز هذه الحدود. فهل نقول أن السينما السورية ستعيش هكذا كل تناقضاتها في انتظار مجيء كياروستاميها أو مخملبافيها أو زميلات سوريات لرخشان بني اعتماد وتخمينة ميلاني وجعفر بناهي؟

تراجع تونسي

مهما يكن من الأمر، فإن الحرية التي يتمتع بها بلد مثل تونس، لم تنقذ سينماه من الانهيار. وليست هذه من قبلنا، مرافعة ضد الحرية، بل ضد واقع بات يدمّر السينما أكثر وأكثر، فاليوم وعلى ضوء الإنتاج السينمائي التونسي الذي نرصده، ورصدنا نماذج قليلة منه في العام ٢٠٠٢، يمكننا أن نقول بأن أجمل وأقوى ما حققته السينما التونسية يبدو اليوم وكأنه أصبح وراءها.

من «أرض مجهولة» للبناني غسان سلهب



«عرائس من طين» لنوري بوزيد (تونس)

لقد عاد عبد اللطيف بن عمار، إلى الشاشة الكبيرة بعد غياب أكثر من عشرين سنة، في فيلم «نغم الناعورة». ولكن حتى وإن كان خاض موضوعًا جيدًا عبر «فيلم الطريق» هذا وعبر شخصيات بدت مبتكرة وجديدة على السينما التونسية، فإن تلك الرحلة التي قامت بها مطلقة وعاشقها مع مغترب أتى حديثًا في سيارة عبرت تونس وقدمت لنا صورة عن شتى مجتمعاته وأحواله، لم تبد مقنعة في المحصلة الأخيرة. بدت مفتعلة في سيناريو يفتقر إلى التماسك. «نغم الناعورة» بدا واحدًا من أفلام النوايا الطيبة. لكنه في الوقت نفسه بدا قديمًا جدًا، وعجز عن أن ينسينا أن عبد اللطيف بن عمار كان، خلال المراحل الأكثر بهاءً للسينما التونسية قد قدم رائعتين «سجنان» و«عزيزة». ومع هذا إذا قارنا «نغم الناعورة» وموقعه في سينما صاحبه بالفيلم التونسي الآخر «عرايس الطين» الذي عاد به إلى السينما واحد من كبار الذين صنعوا لها عصرها الذهبي: نوري بوزيد (صاحب «رجل من رماد» و«صفائح من ذهب» و«بزنس» وكاتب سيناريو «صمت القصور» لمفيدة تلاتلي)، سنجده مقبولاً. ذلك أن تراجع نوري بوزيد يبدو هنا كبيرًا، ويواصل تراجعه المعلن منذ «بنت فاميليا». هل معنى هذا أن نوري بو زيد قال كل ما عنده وانتهى؟

ليس بالتأكيد، ذلك أن في «عرايس الطين» - حسبما أكد نقاد شاهدوا الفيلم ويمكننا الوثوق بكلامهم - لحظات سينمائية كبيرة تقول أن مخرجه لم ينته، لكن عليه أن يبحث أكثر وأكثر عن مواضيع جديدة. عن أفكار مبتكرة هي ما ينقص سينما التوانسة الكبار منذ سنوات. وبالتالي يجعل أعمالهم الأولى أفضل أعمالهم: «رجل من رماد» لبو زيد نفسه لا يزال أفضل ما حقق حتى اليوم، و«صمت القصور» هو الأفضل بين الفيلمين اللذين حققتهما مفيدة تلاتلي. ويسري الكلام نفسه على فريد بو غدير الذي كان حقق عبر «حلفاوين» تحفة صغيرة، لم يستطع تكرارها في «صيف في حلق الوادي» فيلمه الثاني والذي صمت من بعده ولايزال صامتًا، حتى اليوم للأسف. وفي مقابل هؤلاء واصل رضا الباهي، الأكثر رسوخًا عند مستوى متوسط على الأقل، مسيرته. في فيلمه الجديد «صندوق عجب» في وقت لايزال فيه محمد زرن في انتظار فرصة جديدة بعد فيلمه الأول «السيدة» الذي برز متميزًا قبل سنوات. فهل عليه أن يطمع في أن تكون نتيجة انتظاره أفضل من نتيجة انتظار زميله ناصر قطاوي الذي - كما حال إبراهيم باباي - لم يتمكن في شريطه الجديد من تجاوز نفسه؟

إن الأسماء التي ذكرناها هي، بالنظر إلى تاريخها، في مقدمة صانعي السينما العربية الجديدة. والمؤسف أنها لم تعد تبدو كذلك اليوم. إن السينما التونسية تعيش تراجعًا مأساويًا. ولعل البحث عن الأسباب يجب أن يكون من مهمة علم الاجتماع على ضوء الواقع السياسي الراهن - المغرب بأكثر مما ينبغي - الذي باتت تعيشه تونس، ذلك البلد الذي عبر مهرجان «قرطاج» كما عبر إنتاج طلع كالمعجزة قبل حقبة، كانت تعد بأن تكون لها مكانة كبيرة في خارطة السينما العالمية، والراهن يكذب هذا.

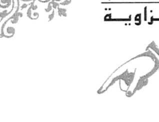
استعادة الأنفاس

في المقابل تبدو السينما الجزائرية وكأنها اليوم، تحاول أن تستعيد أنفاسها. فبعد كانت من الأكثر وعدًا وحضورًا في آخر الستينيات وطوال السبعينيات، أصابها ركود كاد يكون شيخوخة بعد رحيل بومدين. قبل ذلك لم يحدث للسينما الجزائرية أن نمت وكبرت وحدها، بل إنها واكبت في اندفاعتها سينمات أخرى، فأنتجت ليوسف شاهين ولكوستا جافراس، وإيف بواسيه، وبدت ذات حضور في اندفاعة السينما الأفريقية، كما في اندفاعة العالم الثالث ككل. ولكن بعد ذلك، وبالتزامن مع التفات السينمائيين الجزائريين إلى الداخل في حركة كانت منارتها السينما التي راح يحققها مرزاق علواش منذ فيلمه الأول «عمر قتلته»، بالتقابل مع حركة مندفعة إلى الخارج مع فاروق بلوفة، مثلاً الذي حقق «نهلة» عن الحرب اللبنانية، راحت هذه السينما الجزائرية تفقد توجهها الإجمالي الخارجي، لتطلع بإنتاجات أخذت عالميتها وأهميتها من محليتها. ولكن بالتدريج خفتت تلك الحركة: لم يعد ما يحققه محمد الأخضر حامينا متناسبًا مع ضخامة ونجاح عمليه الكبيرين «رياح الأوراس» و«وقائع سنوات الجمر». وصمت أحمد راشدي وسليم رياض تدريجيًا. وهاجر البعض فيما كانت محاولة آسيا جبار في التحول من أديبة إلى سينمائية (في «نوبة نساء جبل شنوة»)، محاولة وحيدة.. وراح التراجع يترسخ على رغم أفلام قليلة وطموحة ظلت تطلع بين الحين والآخر. أما الخاسر الأكبر في هذا كله فكان مرزاق علواش نفسه، فهو بعد تميز «عمر قتلته» واستثنائية «مغامرات بطل»، وكما حدث للعديد من زملائه بدأ يتراجع بمقدار ما راح يغوص في سينما القضايا المباشرة «باب الواد» و«سلامًا يا ابن العم» و«بيروت / الجزائر»، بحيث إن فيلمه الأخير الذي حققه في الجنوب الجزائري لم يبق فيه من علاماته القديمة سوى بعض اللغة السينمائية الجميلة.

ومرزاق علواش كان في هذا كناية عن مسيرة السينما الجزائرية نفسها. فإذ تصل هذه السينما إلى زمن تبسط فيه مواضيعها كما في «رشيدة» الفيلم الجزائري الوحيد الذي برز في العام ٢٠٠٢ (عرض في «كان» وفي «بينالي باريس» وفي عدد من المهرجانات العربية الأخرى)، و«رشيدة» هو الفيلم الروائي الطويل الأول الذي تحققه المؤلفة يمينة بشير، زوجة المخرج محمد



كتاب الزاوية



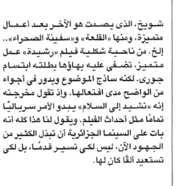
إغاثة الأمة بكشف الغمة

وقع فى أيام المستنصر الغلاء الذى فحش أمره وشنع ذكره، وكان أمده سبع سنين. وسببه ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان، وقصور النيل، وعدم من يزرع ما شمله الرى. وكان ابتداء ذلك فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فنزع السعر، وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضى من الزراعة، وشمل الخوف، وخيفت السبل براً وبحراً، واستولى الجوع لعدم القوت حتى بيع رغيف خبز فى النداء بزقاق القناديل من الفسطاط بخمسة عشر ديناراً، وبيع الأردب من القمح بثمانين ديناراً؛ وأكلت الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير. وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً، وتحرز الناس، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سَلَب وحبال فيها كلاليب، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه ونشلوه فى أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه. ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره؛ وصار يجلس على حصير، وتعطلت دواوينه، وذهب وقاره؛ وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن «الجوع الجوع!»، تُردن المسير إلى العراق، فتسقطن عند المصلى، وتمتن جوعاً. واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه؛ وجاءه الوزير يوماً على بغلته فأكلتها العامة، فشنق طائفة منهم، فاجتمع عليهم الناس فأكلوهم. وأفضى الأمر إلى أن عدم المستنصر القوت، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه فى كل يوم بقعب من فتيت، من جملة ما كان لها من البر والصدقات فى تلك الغلوة.









شويخ، الذى يصمت هو الآخر بعد أعمال متميزة، ومنها «القلعة» و«سفينة الصحراء».. إلخ. من ناحية شكلية فيلم «رشيدة» عمل متميز، تضفى عليه بهاؤها بطلته ابتسام جورى. لكنه ساذج الموضوع ويدور فى أجواء من الواضح مدى افتعالها. وإذ تقول مخرجته إنه «نشيد إلى السلام» يبدو الأمر سرياليًا تمامًا مثل أحداث الفيلم. ويقول لنا هذا كله أنه بات على السينما الجزائرية أن تبذل الكثير من الجهود الآن، ليس لكى تسير قدمًا، بل لكى تستعيد ألقًا كان لها.

أجيال المغرب

هذا الألق يمكن القول إن السينما المغربية تعيشه منذ فترة. حتى وإن كان قد صمت ـ لأسباب غامضة! ـ بعض الذين كانوا صنعوا لها فى الماضى مجدها الكبير: سهيل بن بركة، أحمد المعنونى ورفاقهما، دون أن ننسى جلالى فرحاتى وفريدة بليزيد.

إن من يحضر بقوة منذ سنوات فى السينما المغربية، هم أبناء الجيل الأجد، من أمثال سعد الشرايبى وحسن بن جلون وعبد القادر لقطع، وخاصة نبيل عيوش وعبد الحى العراقى الذى برز هذا العام عبر فيلم عنوانه «منى صابر» تناول وفى جرأة استثنائية موضوعين كانا لسنوات، يعتبران من المحظورات فى المغرب: موضوع المختفين لأسباب سياسية منذ الانقلاب المجهض ضد الحسن الثانى، وموضوع مصير أبناء الزيجات المختلطة. صحيح أن هذا الفيلم لم يلفت الانتباه كثيرًا، غير أنه أتى متميزًا مع هذا. وسد مخرجه الفراغ الذى نتج عن تضاؤل الإنتاج، كميًا، هذا العام.. إذ لايزال سعد الشرايبى منهمكًا بعرض فيلمه الأخير «عطش» وعبدالرحمن القازى يبحث عن موضوع جديد، وكذلك يفعل نبيل عيوش، الذى كان خلال السنوات الأخيرة، وعبر فيلمين على الأقل هما «مكتوب» و«على زاوا» الظاهرة الأبرز فى السينما المغربية، أسلوبًا وجرأة فى التناول. وهذه الجرأة نفسها نجدها فى العديد من الأفلام التى حققها مخرجون أتوا من آفاق أخرى: التصوير الفوتوغرافى بالنسبة إلى داود ولاد سيد (صاحب «وداعًا سويرتى») والإنتاج بالنسبة إلى محمد إسماعيل الذى حقق فيلمًا لفت الأنظار، كذلك بجرأة موضوعه، هذا العام هو «وبعد؟» عن موضوع الهجرة السرية ـ عبر البحر القاتل ـ من شمال أفريقيا إلى أوروبا، حيث الحلم الذهبى بالنسبة إلى ملايين البائسين والعاطلين عن العمل، وحيث السعادة.

سعادة أوروبية

وفى انتظار هذه السعادة، هو تحديدًا موضوع الفيلم الموريتانى الذى حققه الموريتانى عبدالرحمن سيساكو، الذى يبدو أنه وحده الآن يحمل عبء إحياء السينما الموريتانية بعدما صمت مؤسسها الكبير محمد عبيد هندو، لسنوات طالت حتى الآن. و«فى انتظار السعادة» عرض بدوره خلال الدورة الأخيرة لمهرجان «كان» السينمائى ولفت الأنظار قبل أن يفوز بالجائزة الكبرى، عن جدارة، فى بينالى السينما العربية فى معهد العالم العربى فى باريس. والفيلم يتمحور من حول حياة الفتى عبدالله فى مدينة نواديبو، والذى يزور أمه فى انتظار هجرته إلى فرنسا، لكنه يكتشف عجزه عن التواصل مع الناس هناك، لجهله لغتهم، ثم بالتدريج يتعرف إلى شخصيات تحلم مثله وتحزن مثله وتنتظر السفر مثله. ويتعلم فى انتظار ذلك السعادة التى تنتظره.

ترى أفلا يمكننا عبر حكاية عبدالله هذه أن نتلصص على ذلك الأمل الذى يعشش اليوم فى أفئدة السينمائيين العرب أنفسهم ويقول لهم: أوروبا هى الحل.

فالواقع أننا إذا أعدنا النظر فيما آل إليه حال معظم السينمات العربية (الجادة) سنجد أن إنتاجها، بل أيضًا عرضها والتفاعل معها، لم يعد متوفرًا فى البلدان العربية كافة. إنها تنتج اليوم بأموال أوروبية، وتعرض فى أوروبا، فى المهرجانات وعلى شاشات التلفزة. وأحيانًا فى الصالات السينمائية نفسها، وهذا يستتبع بالضرورة تغييرًا فى الموضوعات. وفى اللغة السينمائية. أو الأفضل أو الأسوأ؟ لسنا نحير جوابًا. وفى مطلق الأحوال نعتقد أن الجواب كامن داخل الأفلام نفسها، وقد بدأت تخرج من معطف الجماعة إلى بُرد الأفراد. ومن دون أن نحدد ما إذا كان هذا حسنًا أم سيئًا. خطأ أم صوابًا، لابد أن نختم هذا العرض الذى لم يكن شاملاً، بقدر ما كان مركزًا على الإنتاجات الأبرز والأكثر حضورًا، بغثها وسمينها، بالقول ـ مع شىء من التفاؤل الضرورى ـ أن ماشهدناه هذا العام، كان أشبه بالمرحلة الانتقالية.

فالوعود قائمة..

وثمة ما هو أكثر من الوعود، عبر إنتاجات تحققت وستعرض العام المقبل، وأجيال تولد وتزدهر لتنتظر منضمة إلى قائمة المنتظرين. أجيال ستجد طريقها السليم ولو بصعوبة.

ذلك أن ثمة، بعد هذا، يقينا واحدًا وهو أن السينما لن تموت.

إنها الآن ـ كما يبدو ـ فى غرف العناية الفائقة، لكنها بالتأكيد لن تموت.

BATES EQUITY

أمل واحد

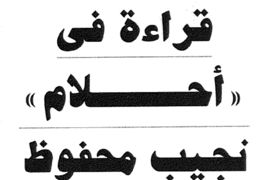
أمل يتحقق يوما بعد يوم باستمرار التطور والنمو. أمل تترجمه الأرقام فقد زادت الخطوط التليفونية فى العشرين عاما الأخيرة من نصف مليون خط إلى ١٠ مليون خط بزيادة ٢٠ ضعفا. اليوم تحقق أمل جديد نستطيع من خلاله أن نلبى أى طلبات للاشتراكات الجديدة دون عناء. و إن كانت الامال تتحقق تباعا فالتطور لدينا لا ينتهى.



المصرية للاتصالات
Telecom Egypt

شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا

أعظم ما نقدمه لشيخنا الجليل ... العمل الجاد



قراءة فى «أحلام» نجيب محفوظ

يحيى الرخاوى

الحلم وعى آخر، والإبداع الحقيقى واقع أعمق وأبعد مدى من كل واقع. الواقع الإبداعى هو أكثر موضوعية من الواقع الظاهر، والإنسان هو الكائن الحى الوحيد - من بين ما نعرف - الذى يستطيع أن يتجول فى ذاته الممتدة خارجه، كما أنه يستطيع أن يحتوى الخارج فى طبقات وعيه، وأن يُبرمج المكان فى الزمان، وبالعكس، ثم هو يعيد تشكيل وجوده والعالم بلعبٍ جميل، أو استشراف مخترِق، أو كشفٍ مرعبٍ، أو حتى شُواش يتخلّق.

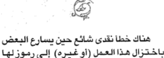
استجابة لدعوة «**وجهات نظر**» الغراء، قررتُ أن تكون هديتى لشيخى الجليل فى هذه المناسبة هى أن أنهل من عطائه أكثر، ثم أحمل بعض ما وصلنى منه - أخطأتُ أم أصبت - إلى أصحابه، لعل فى ذلك تحقيقا لما قلته فى نفس المناسبة: «.. **لو أن كل من يحب هذا الرجل.. يزيد من عمله الجاد أكثر، ويسمح لوعيه أن يتسع أكثر .. لكان هذا أعظم ما يمكن أن نقدمه لهذا الشيخ الجميل**». إن شيخنا يتأسف مكررا على تواضع الحركة النقدية التى بغيرها يسير الأدب والإبداع على ساق واحدة، من هنا انتبهت إلى ما يمكن أن أستجيب به لهذه الدعوة الكريمة، فرحت أطرق أبواب بعض «**أحلام فترة النقاهة**»، وخاصة أنها كانت مثارا للجدل بشكل طيب، وغير ذلك.



إن المتابع لما كُتب عن عودة نجيب محفوظ إلى الكتابة بعد نوبل، وبعد الحادث الآثم، لا بد أن يتوقف كثيرا أو قليلا وهو يتساءل عن الدافع، والمغزى والهدف. نجيب محفوظ لا يعيش إلا مبدعا. لا يمكن أن يستمر إلا مبدعا. هذه الحقيقة بلغت من القوة والحضور مبلغا تكاد لا تصبح معه اختيارا مطروحا، هى حقيقة ماثلة. إبداع نجيب محفوظ يتجلَى فى حياته كما يتجلى فى إنتاجه. إن احتفاظه بالقدرة على الدهشة، والشغف بالتعلّم، والجدّية فى الإنصات، ثم امتلائه بكل ما يصله ليدعه يتحرك فى رحابة وعيه بهذه السلاسة المتجددة، هو إبداع طول الوقت. حتى وهو يحلم، راح يبدع فى الحلم، ثم يلتقط بعض ما تبقى ليعيد صياغته وتشكيله وتأصيله فيما يطل علينا فيما أسماه «**أحلام فترة النقاهة**». لم يكفه أن يقوم بإعادة تخليق مريديه من حوله يوما بعد يوم، ذلك الإبداع الذى أسميتُه يوما فى مثل هذه المناسبة «إبداع : حى(=) حى.(قياسا على صواريخ أرض أرض). البشر يتخلقون من جديد من علاقتهم بعضهم ببعض، فما بالك وهم فى حضور هذا الكيان الفذ الذى يفجّرنا إلينا!! إن من لا يخرج من مجلس هذا الرجل مختلفا هو الآنية والكراسى. حتى الآنية والكراسى رأيتها مرة وقد فرحت به، وهى ترقص على كلماته.

ثمة قصة لا يعرفها الكثيرون تفصيلا عن كيفية ظهور هذه الأحلام أصلا، لا من حيث المضمون والنشر ولكن من حيث إمكانية كتابتها أصلا. شيخنا لا يعرف الإملاء. لم يعتده، وقد رفضه المرّة تلو المرة ونحن نعرض عليه احتماله. وهو لا يعرف التسجيل ويرفضه أيضا. حدث ما حدث من غدر جبان وشيخنا فى حال حُرم معها من القراءة ، ومن مشاهدة التليفزيون والمسرح والسينما، وهو القارئ النهم، والمشاهد المندهش المنتظم. أضاف الحادث إلى ذلك عجزه أن يمسك بالقلم، مجرد إمساك . وهو لا يستطيع أن يعيش إلا إذا أمسك به وخط ما عنده. فما العمل ؟ لم يكن عند أحد منا أى احتمال لأى جواب، لكن يبدو أنه هو وحده الذى كان يعرف الجواب . ظل شيخنا يدرب نفسه كل يوم طوال ست سنوات حتى استطاع أن يكتب بضع كلمات مفهومة فى الصفحة الواحدة، كانت البداية لا تُقرأ أصلا، ثم نجح أن يخط حرفا واحدا فى الصفحة كلها، ثم كلمة، ثم بضع كلمات ، حتى استعاد هذا النبش الذى تُظهره: «نصف الدنيا» مشكورة جنبا إلى جنب مع النص المطبوع (ولكن يبدو أن هذا التصوير الأمين لم يكن أبدا دافعا كافيا لتحرّى الدقة، ومقارنة النص المصوّر بما ينشر تحته مطبوعا، لست أدرى لماذا؟) .المهم أنه قُبَيل، أو ربما بُعَيْدَ كتابة أول حلم (دون علمنا) لاحظنا أن شيخنا يلوح فى أفق وعيه الكامن ضوء فجرٍ جميل، قلنا إنه ينوى خيرا جديدا. ربما أنه بعد أن وثق أنه يستطيع أن يخط بضع كلمات بجوار بعضها سوف يفعلها. سألتُه فاطرق قائلا فى تواضع متردد : «**يعنى .. باين فيه «نغبشة» كده بتشاور عقلها** ». ثم تبين أن هذه «النغبشة» كانت الحَمْل الذى أخرج لنا هذا العمل الجديد غير المسبوق. صحيح أن أصداء السيرة الذاتية كانت الحدس الباكر لهذا النوع من الكتابة، لكن الأرجح أنه لولا الإعاقة والحدود والإصرار وإلحاح الإبداع وحب هذا الرجل للناس والحياة، ما كان يمكن أن يعاود أو يحاول من جديد هذا النوع الخاص جدا من الكتابة.

العجيب أن كثيرين تصوروا أن هذه الأحلام هى أحلام فعلا تحدث أثناء نوم شيخنا، وأنه لا يفعل إلا أن يرصدها مثلما يحكى أى منا حلمه، وقد نفى شيخنا ذلك عدة مرات، كما نبّه إلى أن بعض ما يتبقى من أحلامه عند اليقظة يصبح المادة الخام التى ينسج منها إبداعات الأحلام المكتوبة. إن الإبداع هو الإبداع، سواء كانت مادته أو مثيراته حلما، أم ذكرى، أم حادثا أم شخصًا أم لاشىء.



هناك خطأ نقدى شائع حين يسارع البعض باختزال هذا العمل (أو غيره) إلى رموز لها دلالتها، من أول «حميدة» فى زقاق المدق ، حتى «سمارة» فى ثرثرة فوق النيل. صحيح أن نجيب محفوظ يغلب على وعيه الإبداعى أحيانا مثل هذا الإصرار على الترميز، لكن الصحيح أكثر أنه لا ينبغى أن يعمم النقاد هذا الموقف خصوصًا على أحلام فترة النقاهة، ومن قبل «رأيت فيما يرى النائم» (وقد سبق أن تناولت هذا الأمر فى نقد هذا العمل السابق).

المتابع لتطورات علم المعرفة Cognitive Science لا بد أن يبلغه كيف تراجع موقع الرمز والمنطق الخطى المسلسل عن دوره الطاغى فى التفكير واللغة لحساب التشكيلات الكلية والصورة. هذا ما حدث أيضا بالنسبة لقراءة الأحلام والإبداع. إن الدراسات الأحدث قد تجاوزتْ كل الشائع عن الحلم سلفيًا (ابن سيرين كمثال) أو تحليلاً نفسيًا (فرويد، كمثال). إن نفس هذا العلم المعرفى راح يؤكد كيف أن التفكير يتم فى اللاشعور أساسا، بل وفى الجسد وبالجسد. حين اخترق هذا العلم تقديس الرمز اعتبرت هذه الاختراقة هى «**الهرطقة الأولى**»، وحين تجرأ هذا العلم على نُفْى الدماغ (المخ) كعضو أوحد للتفكير اعتُبِرت هذه الحركة هى «**الهرطقة الثانية**». إذا كان ذلك كذلك بالنسبة للتفكير العادى، فهو أوْلى أن يكون مدخلنا لقراءة الحلم «**صورة ماثلة مكثفة بما هى**» دون الإسراع إلى اختزاله رمزا متعسفا. أيّد هذا الاتجاه (ترجيح حضور الصورة التمثيلية قبل الرمز) زيادة الاهتمام بنوعية عمل النصف غير الطاغى من المخ، مما لا مجال لتفصيله هنا الآن.

ولكن كيف أختار ما يناسب من هذه الأحلام؟ وأنا لم أقرأها مجتمعة؟ وإن كنت قد عايشت الحمل بها حتى ولادتها؟ انحلّ هذا الإشكال فجاة بنوع من القُرعة هدتنى إلى البدء بثلاثة أحلام متتالية، الحلم ٢٥، ٢٦، ٢٧، وقد تصدروا لى فى بداية المجموعة الثانية التى أصدرتها مجلة نصف الدنيا. لا يوجد أى سبب واضح لهذا الاختيار. تذكرت كيف سجّلت قراءتى لأصداء السيرة الذاتية فقرة فقرة، قبل أن أبدأ فى القراءة المشتملة. قلت: لعل هذا هو السبيل المناسب لقراءة مثل هذا العمل المكثف واحدة واحدة أيضا، ثم بعد ذلك قد تلوح الفرصة لاستلهام العمل كله. وهاكم ما جرى:

الحلم [٢٥]

رأيتها فى الحجرة معى. ولا احد معنا، فرقص قلبى طربا وسعادة، وكنت اعلم ان سعادتى قصيرة. وانه لن يلبث ان يفتح الباب ويجئ احد.. واردت ان اقول لها ان جميع الشروط التى أبلغت بها على العين والرأس، ولكن تلزمنى فترة من الزمن ولكنى فتنت بوجودها فلم اقل شيئا، وناديت رغبتى فخطوت نحوها خطوتين، لكن الباب فتح ودخل الأستاذ وقال بحدة «إنك لا تفهم معنى الوقت» واقتلعتُ نفسى، وتبعته إلى معهده القائم قبالة عمارتنا، وهناك قال لى «أنت فى حاجة إلى العمل عشر ساعات يوميا حتى تتقن العزف». ودعانى للجلوس أمام البيانو فبدات التمرين وقلبى يحوم فى حجرتى، وسرعان ما انهمكت فى العمل. وعندما سمح لى بالذهاب كان المساء يهبط بجلاله. وبادرت أعبر الطريق على عجل. ولكن لم يكن ثمة امل فى أن تنتظرنى مدة غيابى. وإذا برجل صينى طويل اللحية بسام الوجه يعترض سبيلى ويقول: « كنتُ فى المعهد وانت تعزف، ولا شك عندى انه ينتظرك مستقبل رائع» وانحنى لى وذهب وواصلت سيرى وانا مشفق مما ينتظرنى فى مسكنى من وحشة.



المتابع لأحلام فترة النقاهة لابد قد لاحظ كيف أن علاقة محفوظ «بالأماكن» ما زالت تمثل المعمار الذى ينطلق منه وبه فى معظم إبداعاته. هذا ليس جديدا طبعا، إلا أنه فى أحلام النقاهة أصبح للمكان حضور أقوى وأكثر مثولا. قلت فى نفسى : لعل هذا هو التعويض الإبداعى لما لحق بالبصر من كلال، وهو نفس التفسير الذى جاءنى حين رصدت عنده يقظة وغلبة نشاط النصف غير الطاغى من الدماغ (المختص بالتصور الكلى، والإيقاع المتداخل، والتكثيف الضام..إلخ) ربما حدث ذلك لشيخنا نتيجة لتناقص فرص تدريب النصف الطاغى لمواصلة طغيانه بالمنطق الخطى والتسلسل التربيطى المتتالى، حدث هذا بعد الإعاقات الحسية المتزايدة التى امتحن بها شيخنا. هل هذا هو ما جعل للمكان كل هذا الحضور الغالب المتزايد فى هذا العمل؟ ذلك الحضور الذى تزيد من الإحساس به سرعة

الحركة، وتداخل النقلات بفجائية تحافظ على الدهشة وتجددها؟

الحجرة هنا هى المشهد الأول الذى جمعه معها وحدهما، وقبل أن يعلن فرحته، أو يرصدها، قفز إليه الزمن يشكك فى الاستمرار. منذ البداية، قبل ومع الفرحة، لاح له التهديد بالفراق «...**كنت أعلم أن سعادتى قصيرة، وأنه لن يلبث أن يفتح الباب**». الزمن الملاحق هنا «لن يلبث» أن يكسر خصوصية المكانَ بفتح الباب، فيختفى وتختفى معه رقصة القلب وسعادة اللقاء. بدا فتح الباب كأنه انتهاك، فإلغاء لهذه الحميمية الواعدة. لم يترك له شعوره بالزمن المهدِّد بالنهاية فرصة أن يعلن قبوله لكل شروطها.

هنا يقفز زمن آخر زمن الحسابات الخطىّ التتبعى حين يقترن قبوله شروطها بضرورة الانتظار «**فترة من الزمن**». الزمن الأول كان ذاتيا محيطا «.. **أعلم أن سعادتى قصيرة**» أما هذا الزمن المحسوب فهو زمن الساعة ذات العقارب الدوارة والأرقام المتدرجة (**فترة من الزمن**). من فرط حرصه وفتنته بوجودها لم يعلن موافقته المرتبطة بفترة السماح المحسوبة. استبدلها بأن «**نادى رغبته**». كيف ينادى الواحد رغبته؟ يقولها محفوظ هكذا ببساطة وكأنها(الرغبة) كانت تنتظر ـ فى حجرة مجاورة ـ نتيجة حسم المعركة بين الأزمان. زمن التوجس بسرعة اختفاء السعادة، ثم زمن الانتظار «**فترة**» حتى يحقق طلباتها. يبدو أن نداءه رغبته كان نوعا من طلب النجدة ليكف عن الحسابات. وبدلا من أن تستجيب الرغبة لندائه يدخل الأستاذ وهو يحمل معه معنى ثالثا لما هو «زمن». يؤنبه الأستاذ مباشرة على ضياع الوقت «**أنت لا تفهم معنى الوقت**» وكما نادى الراوى رغبته وكأنه ينادى الحاجب، «اقتلع نفسه» وكأنه ينقلها نقلا من مكانها. وتبع الأستاذ إلى الجانب الآخر «**قبالة عمارتنا**». أىّ وقت يعنيه الأستاذ بسؤاله ؟ الوقت الذى استجابت فيه الرغبة إلى دعوته حتى عجز أن يعلن قبول شروط الحبيبة؟ أم الوقت الذى يحتاجه لإعداد نفسه للوفاء بطلبات المحبوبة، والذى أسماه «**فترة من الزمن**» حتى يمكنه أن يحقق طلباتها؟ أم الوقت الذى تمنى أن يطول بصحبتها وهما وحدهما وقلبه ممتلئ فرحا وسعادة ؟

نلاحظ هنا، قبل أن نستطرد، قدرة محفوظ على التجول بين حالات ذاته (ذواته)، فاختياره لتعبيرىْ «**ناديتُ رغبتى**» و «**اقتلعتُ نفسى**» يشير إلى ذات محورية axon self (مستعيرين أبجدية ساندور رادو Sandor Rado) وهى الذات التى تتمحور حولها الكيانات (الذوات) الأخرى الداخلية. الرغبة هنا تبدو مُشَخْصَنَة فى «ذات» وليست مجرد عاطفة.

المهم أنه ما إن اقتلع نفسه وتبع أستاذه حتى وجد نفسه فى حال آخر تماما، لا هو الحال الذى رقص قلبه فرحًا به، ولا هو الحال الذى أنساه أن يعلن قبوله شروط حبيبته، وجد نفسه فى حال الابن المطيع، أو الطالب النجيب المجتهد. شعر هنا باستجابة طيبة لحرص أستاذه على تنبيهه لمعنى الوقت، ثم مبادرته بالتدريب الجاد على دروس البيانو (وليس حثه على حفظ جدول الضرب مثلا: انظر حلم ٢٧) . من هذا المنطلق بدأ التدريب على الفور باجتهاد شهد له الحكيم الصينى فيما بعد. إن البديل هَنا كان ملء الوقت بتدريب مهارات إبداعه، لم ينسه هذا البديل نبض قلبه فى حجرة اللقاء الطروب، لكن هذا الشوق بدا وكأنه حافز لمواصلة التدريب، وليس صراعا معه ضد مواصلة التدريب.

هذه اللقطة تشير إلى أن محفوظا فى هذا الحلم لم يلجأ إلى الاستقطاب الشائع بين القلب والعقل، بين سعادة الحب وضرورة الواجب، بين الواقع والحلم، بل هو قدّم بديلا محيطا لملء الوقت بما يجعل له معنى «**إنك لا تفهم معنى الوقت**»، بديلا يحتوى طاقة الوجدان فى تشكيل الجمال بالتزام مثابر (التدريب على البيانو). وهكذا انهمك الراوى فى مهمته غير مقهور.

لكن الحسبة لم تكن سهلة، فبالرغم من أنه يمارس ما رضى أن يستوعب طاقة وجدانه، وليس فقط ما يؤكد تفوقه أو نجاحه، إلا أن قلبه ظل يحوم حول حجرة اللقاء. صحيح أن التدريب على البيانو (الإبداع المثابر الذى اشتهر به شخص محفوظ بالذات) يمكن ـ من حيث المبدأ ـ أن يحتوى الجمال ويطرب له القلب والعقل معا، لكن صحيح أيضا أن القلب الطفل لا يستطيع أن ينتظر حتى تنصقل العواطف وتشحذ الأدوات ليحتوى نبضاته إيقاعُ الإبداع، فيستغنى به عن جوعه العاطفى، وحنينه إلى الوليف ليعيش معه الفرح والسعادة بلاحسابات.

هنا تقفز الحكمة فى صورة الرجل الصينى طويل اللحية تبارك اجتهاده وتطمئنه على مستقبله. هل يكفى تشجيع هذا الحكيم (الصينى) وتنبؤه له بالتفوق أن يحققا التوازن الذى يحتوى جوعه العاطفى الرقيق؟ لايبدو أن الأمر كذلك. فمع هذا الإنجاز الواعد، يرجع الراوى إلى نفسه ليواصل سيره إلى مسكنه (لا إلى حجرتهما ـ لايوجد دليل على أن حجرة اللقاء كانت إحدى حجرات مسكنه) ، يرجع وهو منغمر ببصيرة النضج، راض عن الثمن الذى دفعه فى تحقيق الولاف الصعب، متقبَل لما ينتظره من وِحده. فهو الذى اختارها فى نهاية النهاية حين رضى أن يجعل للوقت معنى بأن يصقل أدوات الإبداع الواعدة باحتواء دفق عواطف طفولته الجائعة. وتشكيل إيقاع نبضات وجدانه الغض فى ضربات البيانو وهو يعزف. كل ذلك على حساب عاطفته الجياشة الجائعة. فليكن انتظار الوحشة هو الثمن. لينتهى الحلم وهو يمضى فرحا بإنجازه متقبلا للوحشة (ولو مؤقتا).

الحلم [٣٦]

جمعنا مقهى بلدى، وقص علينا صاحبى قصة بوليسية من تاليفه.. وقبيل الختام دعانا إلى الكشف عن القاتل. ومن (يفز يعفى من)[1] دفع ثمن طلبه، ووفقت إلى الإجابة الصحيحة وحدث بذلك غاية السعادة. وبعد ساعة استاذنت فى العودة إلى بيتى. ولانشغالى بنجاحى تهت فسرت فى طرق حتى وجدت نفسى أخيرا أمام المقهى مما أثار ضحك الجميع، وتطوع أحدهم فاوصلنى إلى بيتى وودّعنى وانصرف. وبيتى مكون من طابق واحد وحديقة صغيرة وشرعت فى خلع ملابسى ولما صرت بملابسى الداخلية لاحظت أن خطا من التراب يتساقط من أحد أركان الغرفة.. وكان هذا المنظر قد ورد فى القصة التى الفها صاحبنا وكان نذيرا بسقوط البيت على من فيه فبكيت أن بيتى الصغير سينقض فوق راسى. وملكنى الفزع فغادرت البيت بسرعة ولهوجة واستزادة فى الأمان انطلقت بعيدا عن البيت باقصى سرعة فى الهواء الطلق.

المكان هذه المرة هو مقهى بلدى (لاحظ البداية بتحديد المكان فى كل مرة) والبداية بقصة بوليسية يحكيها مؤلفها(يبدو أنه ألفها لتوه) وهو أحد الأصدقاء فنستنتج أنها قصة سطحية للتسلية . وينجح الراوى (الحالم) فى حل اللغز (مَنِ القاتل)، ومع أن الجائزة تبدو تافهة (ثمن ما شرب) إلا أنه يبدو أن نشوة النجاح فى ذاتها كانت غامرة حتى أسكرته فكاد يفقد وعيه وتاه عن بيته ودار حول نفسه حتى عاد إليهم فى نفس المكان مما اضطر أحد أصحابه أن يوصله إلى بيته.

نكتشف من البداية كيف أن نشوة النجاح الذاهلة هذه لا تتناسب مع حقيقة المكسب (ثمن المشاريب) ، ومع ذلك ، فالنجاح هو النجاح، والتنافس هو التنافس، والجوائز هى الجوائز، والنشوة هى النشوة حتى الذهول.

حين يعو د صاحبنا إلى نفسه (بيته) ويتعرى إلا قليلا (بقيت الملابس الداخلية) ينقلب الخيال إلى واقع حتى تكاد القصة ـ على تفاهتها ـ تصبح حقيقة، وهنا يقفز إلينا سؤال آخر غير سؤال القصة اللغز، سؤال يقول «**من القتيل؟**» (لا من القاتل؟). التعرى بعد ذهول الفوز على تفاهة الجائزة أمكن أن ينبه الراوى أنه: إذا كان شخصه بهذه الهشاشة، تسكره نشوة فوزٍ لا قيمة له، فهو مقتول بأى فوز تافه يُغرقه فى اغترابه حتى الذهول.

هكذا فجاة يضعنا محفوظ أمام التساؤل عن معنى النجاح ومعنى التنافس، ومعنى الفوز. يعلن محفوظ أن تمثيلية النجاح التى نمثلها جميعا هى دوّامة فراغ، وأن سعار الفوز الذى يسكرنا برغم تفاهة الجائزة هو الضياع ذاته. إن الراوى برغم فوزه بمكافأة حل اللغز هو هو القتيل بسكره بتافه الفوز ، وهو ـ برغم فوزه، أو حتى بسبب فوزه هذا ـ يواجه انهيار وجوده الهش الذى يعلنه تساقط التراب من أحد أركان الغرفة. فهو الفزع من خدعة فوزٍ لا قيمة له حيث لم يمنع انهيار وجودٍ كان هشًا طول الوقت، ولم ينتبه صاحبه إلى هشاشته إلا حين غمره ذهوله بفوزه الخائب ، فوجب الهرب.

قــراءة فى أحــلام



نجيــب محفــوظ

لكن هل ثم سبيل إلى الإصلاح أو التعديل أو الإفاقة أو البدء من جديد؟ يترك محفوظ النهاية مفتوحة، يترك صاحبنا وهو يبحث عن الأمان بعد أن تيقن من قرب انهيار وجوده (بيته الصغير)، راح يبحث عن الأمان خارج ذاته فهو يعدو بعيدا عن بيته. يجرى بأقصى سرعة فى الهواء الطلق، يجرى من نفسه (لأن بيته هو نفسه)، وهذا الهواء الطلق لا يعد بشىء إلا مواصلة الجرى.

ملاحظ هامشية: فى الحلم الأول توجه الراوى إلى بيته وهو يستشعر ما ينتظره من وحشة، لكنه توجَّهَ مسئولا، وحيدا، مبدعا، ماهرا (عازفا للبيان) رغم الوحدة. أما هنا فالراوى هارب من بيته الوشيك على الانهيار إلى الخلاء، لعل وعسى !!

الحـــلـــم [٢٧]

فى سفينة عابرة للمحيط أجناس من كل لون ولغات شتى. وكنا نتوقع هبوب ريح وهبت الريح واختفى الأفق خلف الأمواج الغاضبة،إنى ذعرت ولكن أحدا لم يكن يعنى بأحد. وقال لى خاطر إننى وحيد فى أعماق المحيط. وأنه لا نجاة من الهول المحيط إلا بان يكون الأمر كابوسا وينقشع بيقظة دافئة بالسرور. والريح تشتد والسفينة كرة تتقاذفها الأمواج. وظهر أمامى فجاة حمزه افندى مدرس الحساب بخيرزانته وحدجنى بنظرة متسائلة عن الواجب. كان الإهمال الواحد بعشرة خيرزانات تكوى الأصابع كيا. وازددت كرها من ذكريات تلك الأيام. (وقال لى الرجل سوف تكتب «....» عن «....» [2]) وهممت بدق عنقه ولكنى خفت أن يكون اى خطا سببا فى هلاكى فسكت على الذل وتجرعته رغم جفاف ريقى. ورأيت حبيبتى فهرعت نحوها أشق طريقا بين عشرات المذهولين. ولكنها لم تعرفنى وتولت عنى وهى تلعن[3] ساخطة وجرت نحو حافة السفينة ورمت بنفسها فى العاصفة واعتقدت أنها تبين لى طريق الخلاص فجريت متعثراً نحو حافة السفينة ولكن مدرس الحساب القديم اعترض سبيلى ملوِّحا بعصاه.

المكان هذه المرة متحرك، لكنه مكان محدد يسمح بالتجمع والتجمهر والانتقال، فقط هو محاط بالمحيط، فلا مجال للهرب إلى المنزل مع الرضا بالوحشة مثلا، ولا مهرب إلى الهواء الطلق قبل انهيار البيت الصغير (نهاية الحلمين ٢٥و٢٦). وكما بدأ حلم «٢٥» بتوقع قصر عمر السعادة، يبدأ هذا الحلم بتوقع العاصفة، **«وكنا نتوقع هبوب الريح، وهبت الريح»** (لاحظ اختفاء أى برهة زمنية بين التوقع والواقع).

ومع أن السفينة بها أجناس من كل لون ولغات شتى، إلا أن الراوى يشعر بالوحدة **«وقال لى خاطر اننى وحيد»**، هذا الخاطر نقله فجاة من السفينة إلى أعماق المحيط. فتمنى بأن يكون هذا الذى يعيشه كابوسا. بدت هذه الأمنية لى وكأنها جذب العودة إلى الرحم الحانى هربا من احتمال الغرق فى المحيط الهادر، إنها أمنية نكوصية واضحة. لو أحسنا قراءة تعبير «يقظة دافئة بالسرور» هذا تعبير نادر. اليقظة عادة تكون نقلة من الدفء إلى النشاط، من سكينة النوم إلى دفع الحركة، لكن هذا الدفء الذى يصف اليقظة بأنها **«دافئة بالسرور»** لم يُحْضِر إلى وعيى إلا خدر الإحاطة بالسائل الأمنيتونى داخل الرحم والجنين ما زال **«يبلبط»** فى الداخل بعيدا عن العواصف والأنواء. لم يدم هذا الخاطر الهروبى طويلا وحل محله واقع أظهر (كما فى الحلم الأول ٢٥) المعلّم هنا من نوع آخر **«مدرس حساب قديم»**. هذا المدرس لا يسأل أو يتساءل عن: **«معنى الوقت»** مثل أستاذ البيانو (حلم ٢٥)، وهو لا يدعو فى حزم إلى تدريب على مهارة (البيانو). هو مدرس جاف لا يتكلم إلا بلغة الواجب، والإهمال، وليس عنده إلا العقاب. المواجهة هنا مع الخيرزانة لا أكثر ولا أقل، فكانت استجابة الراوى هى الرغبة فى قتله. وحين تبين عجزه، استشعر الذل وابتلعه وهو خائف من أن يضبطوه متلبسا بالشروع فى القتل، ثم كان ردّ فعل القتل إلى ذاته، فهو الخوف من الهلاك.

مازلنا فى السفينة، ومازالت العاصفة تحيط بها، وظهور معلم الحساب (الأب القاهر الجاف) لم يكن بديلا إيجابيا ليحتوى الفنّ الرغبة، بل إن هذا المدرس لم يكن واقعا أصلا، كان مجرد تجسيد لذكرى (وازددت كرها من ذكريات تلك الأيام)

يبدو أن الحبيبة التى ظهرت هنا كانت ضربا من الخيال. هى لم تحضر. هو الذى جسدها بخياله ثم راح يشق طريقه إليها (بعد أن فشل فى الهرب إلى الرحم) وهى لا تعرفه، فتولت وهى تلعن ساخطة (لم يقل تلعن من)، ثم إنها اختفت (هل زال الخيال) بأن رمت نفسها فى العاصفة (لم يقل فى المحيط)، فكاد يتبعها وهو يتصور أنها بفعلتها تلك إنما تشير إليه أن هذا هو الحل: إفناء الذات.

الذى حال دون إتمام استجابته لهذه الدعوة هو مدرس الحساب، والصورة التى يقدمها محفوظ تشير إلى أن هذا المدرس لم يكن حريصا على إنقاذه بمعنى دعوته إلى بديل محيط راقٍ مثابر (مثل معلم البيانو فى حلم ٢٥) وإنما الإنقاذ هنا كان أيضا بالتهديد بالعقاب (اعترض سبيلى ملوحا بعصاه). وكأن الدافع لاستمرار الحياة هنا هو الخوف من العقاب الذى ينتظر المنتحرْ (كما يقول النص الدينى) وليس قبول تحدىَ الحياة بخوض تجربتها.

ينتهى هذا الحلم دون أن نعرف ماذا حدث للراوى ولا للمدرس ولا للباقين لينطلق خيال المتلقى كيفما شاء.

فـــمـــاذا بـعــد؟

أولا: إن تحية هذا الرجل الجميل، الذى بلغ الحادية والتسعين من عمره منذ أسابيع، والذى يعانى من كل ما نعرف وما لا نعرف، لا تكون إلا بان ناخذ حياتنا ماخذ الجد، مثلما يفعل، نقف عند كل كلمة قالها، أو خطها، حتى تلك التى لم نستطع قراءتها، ونحاول أن نجد موضعها فى وعينا، وأن نتعلم من حفزها لنا. أن نقابلها بمثلها، أو نكون عند مسئولية حفزها. هذا هو الاحتفال بمثل هذا الإبداع وهذا المبدع.

ثانيا: إن الاقتصار على ثلاثة أحلام متتالية، لم أتعمد اختيارها، هو خطأ نقدى جسيم، إنه لا يعدو أن يكون دعوة للاجتهاد لأخذ هذه النصوص الظاهرة مأخذ الجد مهما بدا الأمر صعبا.

ثالثا: إننى أتصور أن السبيل لاستكمال هذه القراءة إنما يكون بنفس النهج الذى سلكتُهُ فى قراءة أصداء السيرة، وبالتالى يؤَجلُ الربط الشامل للخطوط العامة والأعماق المحورية إلى ما بعد الانتهاء من القراءة المنفصلة حلماً حلماً.

رابعا: إن ما ذهبتُ إليه من قراءة، لم يكن تفسيرا لحلم بالبحث عما يرمز إليه، بل كان محاولة كشف لتركيب النص، وبعض تركيب الكاتب، فمثلا المعلم فى الحلم «٢٥» ليس رمزا لسلطة جادة بقدر ما هو إعلان حضور مثل هذه «الذات» فى ثنايا التركيب المكثف للنفس البشرية (مما يحتاج إلى تفصيل لاحق) وهكذا.

خـــاتـمـــة

يا شيخنا الجليل، ما زلتُ آمل أن يتبنى أهل الحل والربط الفكرة التى اقترحتُها بعد تشريفك لنوبل بإنشاء دورية تختص بنقد أعمالك، ليس لى اعتراض على نصبٍ أو تمثال أو جدارية يقيمونها لك فى الميادينَ، نفخر بها، ونشرف بانتمائنا إليك إذ تذكرنا بك. لكننى أتصور أن الاحتفال الأبقى عاما بعد عام، فى أعياد الميلاد وغيرها، هو أن تصدر دورية باسم **«نقد نجيب محفوظ»**، دعنا نبدأها دورية سنوية، تقوم بجمع النقد الجارى، ثم ما سبق نشره هنا وهناك، ثم نضيف ما تيسر، ثم يكون نقد النقد، ثم معاودة النقد. ولا نتوقف أبدا.

لقد سبق أن أرسلت هذا الاقتراح إلى أ.د. عز الدين اسماعيل رئيس تحرير مجلة فصول (فى: ١١/١١/١٩٨٨) بعد تشريفك لنوبل، وشرحت تصورى وأملى أن الحوار سيكون شديد الثراء، وأن هذه الدورية سوف تكون بداية نهضة نقدية شاملة، لا تقتصر على أعمالك، وهى خليقة أن تنعش جو الإبداع وتثرى حياتنا، وتكشف إمكاناتنا.

فإذا كانت الدولة لم تستجب لهذا الاقتراح طوال أربع عشرة سنة، فهل تستجيب له دار الشروق؟ أو الشركة المصرية للنشر العربى والدولى؟ أو أى ممن يهمه الأمر، ويحبك؟ يا ليت.

أدعو الله أن نرى هذا الأمل يتحقق وأنت بيننا،

وكل عام وأنت بخير.

الهــوامــش

(١) ما بين القوسين فى النص المنشور، وهو موجود فى الأصل المصور.

(٢) ما بين القوسين سقط فى النص المنشور، وهو موجود فى الأصل المصور، والنقط مقابل كلمتين غير مقروءتين.

(٣) فى النص المنشور «تعلن»، وصحتها من الأصل المصور «تلعن».

التفكير العلمى

أزعم - فى البدء - أننى واحد من الإلكترونات الهائمة فى أحد المدارات البعيدة - منذ خمسين عامًا أو يزيد - حول النواة الثقيلة للأستاذ نجيب محفوظ. وقد كنت محظوظًا - بذلك البعد! - لأنه أتاح لى التنقل بين مدارات أخرى فى مادة نادرة مكونة من أنوية عمالقة فى الفكر والعلم والأدب والفن، وأتاح لى - ذلك البعد أيضًا! - امتياز النحلة وحريتها فى الاختيار بين الزهور الجميلة والاستمتاع بصنوف الرحيق الرائق الصافى المعطر.

وأزعم - بعد هذه المعايشة الطويلة الحميمة القديمة - أن الأستاذ نجيب محفوظ عالم مفكر منهجى. وأن كتاباته فى جوهرها بحوث فى فلسفة العلم من أجل التوصل إلى معرفة الحقيقة وصياغتها. وأن عبقرية الأستاذ الكبير - كإنسان مرهف الحس - تكمن فى اختياره الأدب وسيلة لتدوين محاوراته مع نفسه وملاحظاته ونتائج أبحاثه على الغير، فتحول اختياره إلى مهنة له، اشتهر بها، وتفوق فيها على أساتذتها الكبار فى العالم وفى مصر، وكذلك تكمن فى اختياره الأقصوصة والقصة والرواية كبواتق يصهر فيها خام الحقائق لينقيها بمختبر ذهنه المتقد ذكاء وهو سعيد. ذلك لأن أوقات عمله هى أوقات متعته - أو نشوته - بخمر الفكر. وتكمن أيضًا فى اختياره الحوار (الديالوج) كوسيلة يعرض بها من خلال أبطاله رؤاه للحقائق أو للأوهام المعاكسة لها من أجل دحض الأساطير التى ينكرها.. وفى اختياره حوار الذات (المونولوج) كوسيلة أخرى - أمينة وآمنة - يعبر بها عن آرائه.. وأيضًا فى اختياره صيغة الحلم أو (الرؤية الصوفية) كصياغة رمزية للحقائق غير القابلة للنقاش؟ أو للبوح المباشر!، وتكمن - كذلك - فى حساسية استلهامه واستخدامه الوقائع السابقة عليه أو المعاصرة له - التى يلاحظها فى مشيه أو يعايشها فى عمله أو يقرأها فى جرائده أو كتبه أو يسمعها فى جلساته بالمقهى بين صفوة الناس البسطاء - كأردية تستر أو أضواء تكشف عما يريد أن يقول.. (فى العرائض والشكاوى للمظلومين وأصحاب الحاجات.. كما قال فى افتتاحية أولاد حارتنا).



ولعله كان يعنى نفسه حين كتب فى ص ١٩١ من قصر الشوق.. «الأدب متعة سامية بيد أنه لا يملأ عينى، إن مطلبى الحقيقة، ما الله، ما الإنسان، ما الروح، ما المادة؟! الفلسفة هى التى تجمع كل أولئك فى وحدة منطقية مضيئة كما عرفت أخيرًا، هذا ما أروم معرفته من كل قلبى وهذ ه هى الرحلة الحقيقية التى تعد رحلتك حول العالم بالقياس إليها مطلبًا ثانويًا، تصور سوف أجد أجوبة شافية لهذه المسائل جميعًا..! «وحين أكد ذلك فى الصفحة التالية.. «لن ينقطع ما بينى وبين الأدب، إن حب الحقيقة لا يناقض تذوق الجمال، ولكن العمل شىء والراحة شىء آخر، وقد عزمت على أن أجعل الفلسفة عملى والأدب راحتى..». ثم قوله فى ص ٣٢٩ من نفس الرواية.. «ما أجمل أن يكرس الإنسان حياته للحق والخير

عند نجيب محفوظ

حمزة إبراهيم عامر

والجمال..». ثم قوله فى نفس الصفحة.. «المؤمن يستمد حبه لهذه القيم من الدين، أما الحر فيحبها لذاتها..».

ولعله كان يؤمل أن يكون هو نفسه ذلك الشيخ الذى أراد أن يصلح الدنيا البشعة فى أقصوصة «الشر المعبود» من مجموعة قصصه الأولى «همس الجنون» التى نشرها فى صدر شبابه عام ١٩٣٨، حيث يقول - ذلك الشيخ - فى شرح منهجه لتحقيق ذلك الأمل المنشود بالمقارنة مع منهج المسئولين! وهم: القاضى وحارس الأمن والطبيب الذين وهبوا حياتهم لهذا العمل النبيل!، يقول وهو يخاطب القاضى الذى يحاكمه: ص١٦٦ وما بعدها.. «إنهم يا سيدى يطاردون الأشرار ويعالجون الأمراض ويضمدون الجراح.. أما أنا فسبيلى أن أقضى على الداء. إن الداء كمين فى مخبئه آمنًا. وهم لا يكترثون إلا لآثاره. وقد أمعنت النظر فوجدت أن المعدة أصلاً بلاء هذه المقاطعة. وجدت كثيرين لا يستطيعون أن يملئوا منها فراغًا فيعيوا جوعًا، وآخرين لا يتركون بها فراغًا قط فيهلكوا نهمًا، ومن التجاذب والتنافر بين هاتين المعدتين يحدث السلب والنهب والقتل فالداء بين والدواء بين». ويرد على قول القاضى بأن هذا داء لا دواء له!: «هذا قولهم يا سيدى. وما يقولونه إلا لأنه ينقصهم شىء متعنى الرب به: هو الإيمان به: هو الإيمان بالخير. إنهم لا يؤمنون بالخير حق الإيمان، ويجاهدون فى سبيله جهاد الآلات الصماء التى لا تحس، ويعملون بالأجر وللجاه والمجد «فإذا خلوا إلى أنفسهم تهالكوا على ما يجاهرون بمقته من الإثم هذا شأنهم يا سيدى، أما أنا فمؤمن حقًا بالخير، فدعنى أعمل على طريقتى وأمهلنى رويدًا..!».. ثم وهو يصف حال ذلك الشيخ الجليل بعد أن غادر المحكمة وهو يحس بنشوة الظفر، «وكان على وجه اليقين مؤيدًا بروح سام لأنه كان يسير فى الأرض بقوة مارد، ويتدفق فى الحديث بحماسة شاب، ويفيض عليه قلبه بتفاؤل نبى، وكان لسانه ينفث سحرًا حلالاً وحجة تلزم المتكبرين، فاستطاع فى مدة وجيزة أن يستأثر بآذان القوم ويسحر قلوبهم ويهيج عاطفة الخير فى نفوسهم ويوجههم إلى حيث يريد، فاتبعه الفقير وخضع له الغنى وذل له المتمرد العاصى، وكان أساس دعوته الجمال والاعتدال اللذان يعيش فى ظلهما الفقير بالقناعة والغنى بما فيه الكفاية. ووجد فيه ذاك المجتمع المريض طبيبًا صادقًا بارعًا فتعلق بمثله واعتنق مبادئه. وجاءت النتائج باهرة يخطف نورها الأبصار ويذهل عقول العقلاء، فسحقت الجريمة وهزم الشر وأدبرت الأمراض، وأظلت السعادة بجناحيها المقاطعة، فهلل الحكام وكبروا وآمنوا بالرجل الذى كانوا فيه يمترون. وسعدوا جميعًا لبلوغ الغاية النبيلة التى أنفقوا أعمارهم عبثًا فى سبيل بلوغها».

وبعدها.. يتابع الأستاذ نجيب محفوظ تطور الحال فكريًا موضحًا كيف اطمأن الإقليم جميعًا إلى الخير إلا أولئك الذين وهبوا أنفسهم لـ «صناعة الخير». وكيف وجد الحكام أنفسهم عاطلين، وكيف رد حارس الأمن إلى شىء تقتحمه العيون وتستهين به القلوب، وكيف أصبح القاضى يقلب كفيه آسفًا حزينًا لا يسمع تحية ولا رجاء، ولا يساق إلى رحابه من يهابه، وكيف أن الطبيب بشكوى مكتومة، وحبس نفسه فى داره لا يزوره إنسان ولا يزور إنسانًا، وكان يكنز المال فى القدور فأصبح ينفق مما جمع وقلبه واجف. ثم.. كيف اتفقت كلمتهم.. على أمر.

ويقول الأستاذ: ص١٦٩.. «وأشرقت الشمس ذات صباح فإذا بالرجل الغريب قد اختفى، وبحث عنه مريدوه فى كل مكان وفتشوا عنه فى كل بقعة من الإقليم فلم يعثروا له على أثر. وأحدث اختفاؤه دهشة وانزعاجًا، وأثار أقاويل متباينة، فمن قائل إنه هجر المقاطعة إلى غيرها بعد أن اطمأن إلى ثبات عقيدته؛ ومن قائل إنه صعد إلى السماء بعد أن أدى رسالته، وشمل الحزن المقاطعة كلها ووجفت القلوب جميعًا..».

ثم كيف تفتق ذهن حارس الأمن! عن فكرة كفيلة بأن تفقد عامة الناس تمسكها بالدعوة وأن تنسيها ذكرى الشيخ الغريب وذلك عندما اقترح استعارة راقصة فاتنة من إقليم مجاور لكى: «تفرق ما بين الأخ وأخيه والزوج وزوجه، وبأن تغرى الأغنياء بالانقضاض على السلاسل التى وضعوها فى أعناقهم طائعين..»..

ويتضح من تلك الأقصوصة الجميلة هدف المنهج الفكرى المثالى للأستاذ نجيب محفوظ وكيف كانت - تلك الأقصوصة - الترنيمة الأولى التى عزف على تنويعاتها أسمى ألحانه الفكرية رقة وعذوبة وجرأة بعد حوالى عشرين سنة فى «أولاد حارتنا».. ثم بعد ذلك فى غيرها من القصص والروايات من مراحل إنتاجه المتتالية.

ومن الدراسة التفصيلية لإنتاج الأستاذ نجيب محفوظ تعرفت على تلك الحميمية التى تربط بين إنتاج الأستاذ نجيب محفوظ ودوائر التأثير والتأثر المحيطة به، وهو ما أتاح لى أن أميز إنتاجه إلى ست مراحل تاريخية - حتى الآن - هى:-

١- مرحلة الإنتاج الحر - البحث عن الطريق (من حوالى ١٩٣٢ - ١٩٥٢).

٢- مرحلة ما بين الثلاثية وأولاد حارتنا (فترة خمس سنوات توقف فيها عن الكتابة لا التفكير).

٣- مرحلة الإنتاج الرمزى المركب (من ١٩٥٦ - ١٩٧٤).

٤- مرحلة الإنتاج الرمزى المرير (من ١٩٧٤ - حتى تعثرت يده بمحاولة اغتياله ١٩٩٤).

٥- مرحلة الإنتاج الشفاهى (حوارات نجيب محفوظ - أستاذ/ محمد سلماوى).

٦- مرحلة الخلاصة (بدأت بالأصداء فى نهاية الرابعة ومستمرة بالأحلام بالتوازى مع الخامسة).

ولقد تميز منهجه الفكرى بوضوح شبه كامل منذ بداياته الأولى.. واستمر ذلك الوضوح دافقًا بنفس الحيوية والعذوبة والجمال - بلا خوف أو وجل من قهر - مع زيادة فى التحديد والتركيز والعمق بلا يأس أو إحباط حتى الآن. وأن مرحلة إنتاجه الأدبى هى تنويعات فكرية على جميع مستويات التفاعل بين أنغام العقل وألحان الروح التى تتوافق أو تتعارض مع إيقاعات البدن. وهى تنويعات تعزفها النفوس الحية فى حدتها أو هدوئها، وفى قوتها أو ضعفها، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ومن أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، آملاً فى الفوز بالتناغم



إغاثة الأمة بكشف الغمة

وقع الغلاء فى الدولة الأيوبية وسلطنة العادل أبى بكر بن أيوب، فتكاثر مجىء الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع، ودخل فصل الربيع فهب هواء أعقبه وباء وفناء. وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع، فكان الأب يأكل ابنه مشويًا ومطبوخًا، والمرأة تأكل ولدها؛ فعوقب جماعة بسبب ذلك. ثم فشا الأمر وأعيا الحكام، فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخذه أو شىء من لحمه، ويدخل بعضهم إلى جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تتهيأ، فإذا هى لحم طفل؛ وأكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت. ووجدت لحوم الأطفال بالأسواق والطرقات مع الرجال والنساء مختفية، وغُرِّق فى دون شهرين ثلاثون امرأة بسبب ذلك. ثم تزايد الأمر حتى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بنى آدم بحيث ألفوه، وقل منعهم منه لعدم القوت من جميع الحبوب وسائر الخضروات وكل ما تنبته الأرض. فلما كان آخر الربيع احترق ماء النيل فى برمودة حتى صار المقياس فى بر مصر، وانحسر الماء عنه إلى بر الجيزة؛ وتغير طعم الماء وريحه. ثم أخذ الماء فى الزيادة قليلاً قليلاً إلى السادس عشر من مسرى، ثم وقف أيامًا، وأخذ فى زيادة قوية أكثرها ذراع إلى أن بلغ خمسة عشر ذراعًا وست عشرة أصبعًا، ثم انحط من يومه، فلم تنتفع به البلاد لسرعة نزوله. وكان أهل القرى قد فنوا، حتى أن القرية التى كان فيها خمسمائة نفس لم يتأخر بها سوى اثنين أو ثلاثة، ولم تعمر الجسور ولا مصالح البلاد لعدم البقر فإنها فقدت، حتى بيع الرأس الواحد من البقر بسبعين دينارًا، وجافت الطرق كلها بمصر والقاهرة وسائر دروب النواحى بجميع الأقاليم من كثرة الموتان.





إغاثة الأمة بكشف الغمة

لما تجاوز الأمر الحد أمر السلطان بجمع الفقراء وذوى الحاجات، وفرقهم على الأمراء، فأرسل إلى أمير المائة مائة فقير وإلى أمير الخمسين خمسين، حتى كان لأمير العشرة عشرة. فكان من الأمراء من يطعم سهمه من الفقراء لحم البقر مثرودًا فى مرقة الخبز، يمده لهم سماطًا يأكلون جميعًا، وفيهم من يعطى فقراءه رغيفًا رغيفًا، وبعضهم كان يفرق الكعك، وبعضهم يعطى رقاقًا؛ فخف ما بالناس من الفقر. وعظم الوباء فى الأرياف والقرى، وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر، وطُلبت الأدوية للمرضى، فباع عطار برأس حارة الديلم من القاهرة فى شهر واحد بمبلغ اثنين وثلاثين ألف درهم، وبيع من دكان يعرف بالشريف عَطوف من سوق السيوفيين بمثل ذلك، وكذلك حانوت بالوزيرية وآخر خارج باب زويلة - بيع فى كل واحد منها بنحو من مثل ذلك. وطلب الأطباء، وبذلت لهم الأموال، وكثر تحصيلهم، فكان كسب الواحد منهم فى اليوم مائة درهم، ثم أعيا الناس كثرة الموت، فبلغت عدة من يرد اسمه الديوان السلطانى فى اليوم ما ينيف عن ثلاثة آلاف نفس؛ وأما الطرحاء فلم يحصر عددهم بحيث ضاقت الأرض بهم، وحُفرت لهم الآبار والحفائر وألقوا فيها؛ وجافت الطرق والنواحى والأسواق من الموتى. وكثر أكل لحوم بنى آدم خصوصًا الأطفال، فكان يوجد الميت وعند رأسه لحم الآدمى، ويُمسك بعضهم فيوجد معه كتف صغير أو فخذه أو شىء من لحمه. وخلت الضياع من أهلها، حتى إن القرية التى كان بها مائة نفس لم يتأخر بها إلا نحو العشرين، وكان أكثرهم يوجد ميتًا فى مزارع الفول لا يزال يأكل منهُ إذا وجده حتى يموت، ولا يستطيع الحراس ردهم لكثرتهم.







العذب أو النشوة الكبرى بخمر الفكر، وحلمًا بالوصول إلى الحقيقة.

وأنه فى سبيل ذلك جرب جميع الأشكال المعروفة فى دنيا الأدب، بل وابتكر أشكالاً جديدة للحكى أو لنقل رؤاه للقارئ المتجدد بتوالى الأجيال التى كتب لها، والتى قرأت له، عبر سبعين عامًا. وقد عبر الأستاذ نجيب محفوظ عن ذلك بكل صراحة وصدق فى حواره مع الأستاذ الناقد فؤاد دوارة فى مجلة «الكاتب» (العدد الثانى والعشرون - يناير ١٩٦٣) حين نقل إليه رأى ناقد كبير وصف الأستاذ نجيب محفوظ بأنه مؤرخ أكثر منه فنانًا، وبأن أعماله تخلو من وجهة نظر معينة!؟ فرد قائلاً: «وهل يعرض المؤرخ التاريخ بغير وجهة نظر؟» أين هو هذا المؤرخ؟ ليس هذا هو الفارق بين المؤرخ والفنان، فالمؤرخ باعتباره عالمًا يدرس التاريخ كظواهر عامة ويورد من الحوادث والشخصيات ما يؤيد هذه الظواهر ويفسرها، أما الفنان فيعبر عن الحياة عن طريق العلاقات الخاصة بين شخصيات عادية من أفراد الشعب، والأحداث التاريخية بالنسبة إليه ليست أكثر من عوامل ثانوية تؤثر فى الشخصيات.

وقد ناقش الدكتور نبيل راغب فى كتابه «قضية الشكل الفنى عند نجيب محفوظ، فى دراسة تحليلية لأصولها الفكرية والجمالية» الطبعة الثالثة١٩٨٨ بمناسبة فوزه بجائزة نوبل للأدب. وقد خلص فى الخاتمة إلى: ص٣٩٠ «وهكذا يتضح لنا أن نجيب محفوظ استغل أدوات الشكل الفنية فى إثارة إحساسات معينة لدى القارئ تجاه أعماله دون التصريح بوجهات نظر معينة كما فعل من سبقوه الذين اعتقدوا أن الأسلوب المباشر هو الطريق الوحيد المؤدى إلى ميدان الفن الفسيح ونسوا أن العمل الفنى عبارة عن كائن معقد تحكمه العلاقات العضوية التى تربط الجسم الحى وتمنحه الحركة الجمالية، تلك هى الإضافات الجديدة التى أضافها نجيب محفوظ إلى الأدب العربى عامة والرواية العربية خاصة.. عن طريق الشكل الفنى الذى ابتدعه بما يتضمنه من شخصيات تنبض بالحياة وحوار منطلق يكشف ملامح الشخصيات الداخلية والخارجية ومواقف درامية ذات أبعاد عميقة تضيف خصوبة وثراء للشكل العام لأعماله فى ذلك الشكل الذى تميز بالتكثيف التعبيرى، والرمز الموحى، والصور الخصبة والخط الدرامى الواضح. كل هذا يندمج ويتفاعل داخل توليفة درامية رائعة تساعد الشكل الفنى على النمو والتطور والتفاعل من داخله شأنه فى ذلك شأن كل جسم حى..».

وأزعم أنه قد نجح فى جميع مراحل إنتاجه أن يتبع منهجه العلمى الخاص الذى وقر فى وجدانه منذ فجر شبابه الأول، بفضل قراءاته الواعية لمدارس الفلسفة المادية والروحية، وأنه منذ ذلك الحين - وفى خضم موج الحيرة العاتى قد عثر على صخرة نجاة «ثابتة» مثلثة الأضلاع أسماها «بصخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى».. قصر الشوق ص٣٧٠.

ولقد اجتهدت لصياغة ذلك الكشف «المحفوظى» على هيئة قانون فى المعادلات التالية:-

العلم + الفلسفة + المثل الأعلى = ثابت (نجيب محفوظ).

(حيث إن الثابت = حقيقة رياضية لا يمكن تفسيرها، كما لا يمكن تفسير مقدار سرعة الضوء مثلاً) أى أن العلم + الفلسفة +المثل الأعلى = ثابت = الإيمان.

وبما أن البدن + التصور بالعقل = النفس = الإنسان (ابن رشد فى تلخيص أرسطو)

إذًا فإن العلم + الفلسفة = النفس = الإنسان.

بمعنى أن قوة العقل لا تساويها قوة النفس إلا بالإيمان بالله.. والعكس بالعكس.. فلا تستقر النفس إلا بالعقل القانع بالإيمان بالله.. وفى المعادل الاجتماعى (أو الأدبى) فإن النفوس الضعيفة ذوات عقول ضعيفة وإيمان ضعيف بالمثل الأعلى، ومصيرها - دائمًا - إلى شقاء.

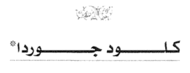
ونستطيع بالقياس أن نتبين أن التوازن الكائن بين العقل (أو الروح) مع البدن فى النفس الواحدة، هو نظير - أو ند - للتوازن الكائن بين الطاقة والمادة داخل الكون المحدود (الذرة) أو فى الكون الوسيط (الإنسان) أو فى الكون الفسيح (الكواكب والنجوم أو المجموعات الشمسية أو المجرات أو.....) وإن اختل هذا التوازن انهدمت الوحدة وقامت القيامة!

إن نجيب محفوظ من خلال نفس صافية آمنة اهتدى إلى ذلك التوازن الرهيف بين شهوات البدن وتسامى الروح فى صوفية خاصة به.

كما يقول الدكتور مصطفى عبد الغنى فى كتابه «نجيب محفوظ.. الثورة والتصوف» ص١٢٢ «والواقع أن فكر نجيب محفوظ كان يحمل دائمًا هذا التقسيم الفطرى، فى دائرة بين العقل والروح، أو الفلسفة والتصوف، وهو ما يقرب به من «حالة» عديد من المتصوفة فى الشرق، ممن كانوا - فى الأصل - فى التراث العربى من أفلاطون وأفلوطين واسبينوزا والسهروردى.. وغيرهم. وإذا كان بعض هؤلاء غاب فى الطريق الصوفى، فإن نجيب محفوظ لم يهبط إلى قاع الفلسفة، كما لم يسقط فى بئر التصوف، فلكل عنده مفهوم، وكل لديه يؤدى إلى غاية، وإذ بدا التمازج فى فكر أو خاطرة، فبقصد الوصول إلى الحقيقة، إما بالفلسفة وإما بالتصوف، أو بكليهما معًا».

ويعيش بيننا نجيب محفوظ - أطال الله عمره - فى صحو متحفز وعقل يقظ ووجدان هادئ مطمئن، يطاوعه إحساسه المرهف فى التفاعل والتعامل مع متغيرات الحياة فى الدائرة الصغرى للإنسان والكبرى للوطن وفى الدائرة الأكبر للعالم كله، ويتابع المكتشفات العلمية الحديثة، ويكتب عن هبوط الإنسان فوق سطح القمر كقمة للعلوم الطبيعية، كما يكتب عن الاستنساخ كقمة للعلوم الحيوية، و«يقيم واقع العولمة المعاصرة التى كانت أحد أحلامه القديمة فى إحدى لحظات النشوة». ■

استخلاص العِبَر



كلود جوردا*

إن القضاء الدولي لا يريد لنفسه أن يكون قضاء المنتصرين، ومن هنا تأتى الصعوبة فى إيجاد توازن بين الواقعية السياسية والعدل كمثل أعلى. إن على القضاء الدولى أن يتكيف مع المحيط السياسي شئنا أم أبينا

أصبحت محكمة العقوبات الدولية CPT أمرًا واقعًا منذ الأول من يوليو/تموز٢٠٠٢.

إنه لحدث بالغ الأهمية جاء يجسد حلمًا قديمًا للبشرية، ووحده المستقبل كفيل بأن يبين لنا إذا ما كانت هذه الهيئة، التى لم يسبق لها مثيل، سوف تستجيب للآمال المرجوة منها. إن ما نحن ملمون به حتى الساعة هو كون هذه الهيئة ترزح تحت عبء ثقيل بسبب عدم إقدام أغلبية كبيرة من الدول، ومن بينها بعض من الدول الأعظم فى العالم، بالتصديق عليها، أى وبتعبير آخر، الاعتراف بها. وعليه، وبغية إقناع هؤلاء، يتوجب على هذه الهيئة القضائية أن تقوم سريعًا بإثبات وجودها. ومن هذا المنطلق تأتى أهمية استخلاص العبر من تلك التجربة التى تمثلها المحكمة الجزائية الدولية TPI المكلفة بمحاكمة من افترض بأنهم مجرمو حرب فى دولة يوغوسلافيا السابقة.

بالرغم من العوائق الكثيرة التى هددت كيانها، نجحت المحكمة الجزائية بعد أقل من ثمانى سنوات من تاريخ تأسيسها، فى إتمام القسم الأكبر من المهمة التى عهد لها بها مجلس الأمن، سواء من حيث عدد الأشخاص الذين حكم عليهم أم من حيث رتبهم. أما أسباب هذا النجاح غير المتوقع فى الحقيقة، فينبغى على محكمة العقوبات الدولية الحديثة العهد أن تقوم بتحليلها كى تتمكن من مواجهة التحديات التى سوف تصادفها والمنبثقة عن خصوصية الدعوى الدولية التى سألخصها كالآتى: هناك مفارقة تكمن فى حاجة القضاء الدولى على بذل المزيد نسبة إلى نظيره القضاء الوطنى، وبسلطات أقل. ما يطلب منه فى الواقع ليس أقل من الحد من حالات الإفلات من القصاص وبالتالى تدارك العود إلى جرائم ضد الجموع، أى تكرارها، بحيث يلقى الضوء على أحداث التاريخ ويفتح الطريق أمام الصلح على الصعيد الوطنى. ولكن وفى نفس الوقت من الجدير القول بأن هذا الأمر يجعل من مهمة القاضى غاية فى التعقيد: بالبُعد الدولى للنزاع، والطابع الجماعى للجرائم، وصعوبة جمع الأدلة التى ينبغى المجىء بها من أراض ليست بقريبة والتى غالبًا ما يكون إعطاؤها رهنًا بإرادة القيادات السياسية الباقية على سدة الحكم، إضافة إلى خوف الضحايا من الإدلاء بشهاداتهم والتعاون المنقوص، ليس فقط من قبل الدول المعنية مباشرة بل أحيانًا من جانب دولة ثالثة تعرف بتعلقها بالفضيلة، وجميع هذه الأمور تشكل عناصر مسيئة ليس فقط للسرعة المتوجبة بل أيضًا لانبعاث الحقائق القضائية والتاريخية، يتعين على محكمة العقوبات، بداية، أن تثبت فعاليتها وذلك من خلال تحديد سياسة جزائية مما يفترض تواجد مرشد فى الدعوى وتعاون من جانب الدول. إن خيار اتباع أصول توجيه الاتهام وتفضيله على إجراءات التحقيق والتحرى فى المحاكمات ليس موضع اعتراض بل يقتضى التخفيف منه، فهو بالأخص الذى يحرم القاضى من إمكانية التحكم بالمسيرة القضائية وتوجيهها. فى هذا النوع من الإجراءات الموضوعة إلى حد واسع بين أيدى الفرقاء، أثبتت التجربة أن صحة الوقائع والاهتمام بحماية النظام الدولى العام تأخذان أهمية ثانوية فى معركة قضائية فريدة تدور بين المدعى والمدعى عليه، ويتحول الضحايا فيها إلى مجرد شهود توثق أقوالهم. فى المحكمة الجزائية الدولية لشئون دولة يوغوسلافيا السابقة تمثل أحد الحلول الناجعة بإسناد مزيد من السلطات للقاضى لتمكينه من اتخاذ المبادرات. إن النظام القانونى الذى اعتمدته محكمة العقوبات الدولية من خلال تأسيس غرفة تمهيدية كهيئة فعلية للتحقيق الجنائى يبدو سائراً على هذا المنحى. يبقى أنه سيكون من الملائم أيًا كان النظام القضائى الذى ينتمى إليه القضاة، أن تقودهم ثقافتهم إلى استخدام سلطاتهم، لأنهم بدون ذلك سينجم عن نفس الأسباب النتائج نفسها، أى البطء فى سير الدعاوى، وإطالة مُهَل التوقف، وقراءة متعثرة لسير عمل المحكمة.



إن التجربة التى قادتها المحكمة الجزائية الدولية قد أظهرت أن هناك خطر انزلاق عندما يكون هناك ادعاء بأنه يتم، بصبر وبشكل تسلسلى، ملاحقة القيادة السياسية والعسكرية وصولاً إلى رأس الهرم، ومن خلال توجيه الاتهام بداية لأفراد منفذين ومن ثم الانتقال إلى مستوى وسطى قبل التوصل إلى أعلى المسئولين. فلقد نتج عن ذلك شبه اختناق عانت منه المحكمة فى الوقت الذى كان يتعين عليها التطرق لأكبر الدعاوى، تلك التى تقع دون شك فى دائرة اختصاصها. قامت المحكمة الجزائية الدولية بعناية فائقة بتحديد القواعد القانونية التى من شأنها حماية مصدر المعلومات وكذلك الشهود الذين عرفوا بالشهود «ذوى الوضع الحساس» وذلك سعيًا لتحقيق التوازن بين ما يعتبر من المصالح العليا للدولة من جهة وحقوق المتهم من جهة أخرى، وقد استلهمت محكمة العقوبات الدولية نظامها القانونى من هذه القواعد.

ويتوجب على محكمة العقوبات الدولية فيما بعد أن تحدد موقعها من هيئات العدل الوطنية. وهنا أود التذكير بأن المحكمة الجزائية قد تم تخصيصها بصلاحية تتفوق بها على المحاكم الوطنية، مما له مفعول الإكراه البالغ على دول المنطقة. إلا أن محكمة العقوبات الدولية قد أنيطت بها صلاحية هى ثانوية بالنسبة للهيئات القضائية الوطنية، وهذا أمر أقول بأننى أرحب به شخصيًا فقد يكون هناك من وجهة نظرى جانب إيجابى للدور المهم الذى ستضطلع به الدول وفقًا لنظام محكمة العقوبات. وبالفعل، لقد تبين على مر السنين بأنه من الضرورى «إعادة إشراك» الهيئات القضائية المحلية بمحاكمة بعض ممن يفترض بأنهم مسئولون عن جرائم مرتكبة. إلا أن العملية ليست بالسهولة التى نعتقد بل شديدة التعقيد. فبعد مرور عدة سنوات على تاريخ انتهاء النزاعات رسميًا وحتى فى الدول التى ارتقت إلى تطبيق ديمقراطية كاملة، تبقى البنية القضائية، التى لم تُحسن إعادة تأسيسها، هشة. وقد أثبتت لنا التجربة أن النوايا المعلنة للدول بالقيام بمحاكمة قضاياها الذاتية غالبًا مالا تتناسب وقدراتها، لا بل ورغبتها، وحتى تكون معاكسة لها. لقد تمكنت المحكمة الجزائية . بعد كثير من التردد والتلمس، من اعتماد نهج يسمح لها بأداء المهمة التى عهد لها بها بمجلس الأمن ويسهل فى نفس الوقت المصالحة الوطنية فى دول البلقان، إن هذا التوازن سيكون من الصعب تحقيقه لدى محكمة العقوبات لأن الدول ستحتفظ بتفوقها على هذه الأخيرة التى سيكون مالديها من سلطة إكراه أكثر ضعفًا: فهى لن تتمتع بالسلطة الآمرة التى يوفرها لها قرار ملزم لمجلس الأمن ولا بمساندة، حتى شكلية، من جانب المجموعة الدولية بمجملها، وذلك لأن جزءًا من دول هذه المجموعة فقط انضم إلى نظام المحكمة القانونى، وعلى هذه الأخيرة بذل مجهود أكبر من مجهود المحكمة الجزائية كى تتمكن علاوة على مراقبتها لمقدرة الدول على محاكمة نفسها بنفسها، من المساهمة أيضًا فى إعادة إصلاح البنية القضائية المحلية. إذ من المفترض أن تقوم محكمة العقوبات بمجهود متواصل لتفسير ماهية تحركها وما يقوم عليه دورها، وأن تؤَمِن مواكبة قضائية بمعنى تعاون تقنى (لاسيما فى مجال التأهيل) وأن تشجع على جميع أنواع المصالحة بالتراضى، أى خارج القضاء. فبغض النظر عن الدور المنمق، المبالغ به برأى البعض، الذى ستعطيه محكمة العقوبات للدول، سوف يتعين عليها الامتناع عن الظهور على شكل غرفة لتسجيل إرادة الدول «فى إجراء المحاكمات محتكمة إلى نفسها»... أو ربما ما هو أسوأ، أى الظهور على شكل نمر من ورق.

إن المهمة الأكثر دقة بالنسبة للقضاء الدولى سوف تكون أخيرًا فى إيجاد نوع من الاعتدال بين ما تتسم به مهمة دولية شاملة من طابع مطلق وما سيتصف به بالضرورة دخول القضاء الدولى وانخراطه من نسبية فى سياق بلد يسعى إلى إعادة إعمار نفسه وشعب يسعى إلى التصالح مع نفسه. إن السياسة هى التى تتقدم إلى القوس بمواكبة سائر التباساتها لتكشف، من ضمن أمور أخرى، عن تقاعس بعض القضاة عن الاضطلاع بدورهم أو عن اللعبة الحاذقة التى تلعبها السلطات الجديدة الحاكمة والتى تأبى أن تفضح أسرارها. إن صعوبة التعايش بين عملية تفاوض سياسى تجريها شرعيًا المجموعة الدولية من جهة ودعوى قضائية أطلقها بشكل لا يقل شرعية المدعى العام. من جهة أخرى تظهر بوضوح خصوصية القضاء الدولى الذى لا يريد لنفسه أن يكون قضاء المنتصرين. ومن هنا تأتى الصعوبة فى إيجاد توازن بين الواقعية السياسية والعدل كمثل أعلى: على القضاء الدولى أن يتكيف مع المحيط السياسى، شئنا ذلك أم أبينا. من المؤكد أن عمل مدعى عام محكمة العقوبات سوف يكون محاطًا بصورة أكبر لاسيما من قبل مجلس الأمن. فالبعض يبدى أسفه بهذا الشأن، ولكننى لا أوافقهم الرأى. إن المجتمع الدولى يتكون أولاً وقبل أى شىء من مجموعة دول ذات سيادة واحترام هذه السيادة هو الثمن الذى ينبغى دفعه للترويج لأى جهاز مؤسسى دولى، و بالأولى لأى عملية قضائية.



إن القرن الجديد يشهد بزوغ نزعة مزدوجة: حماية أكبر لحقوق الإنسان من خلال مضاعفة عدد الأجهزة القضائية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك تراجع فى شكل من أشكال القومية القضائية التى تدفع بالدول إلى النظر بكثير من الريبة والتشكيك إلى كل تدخل أو غزو تمارسه هيئة يمكن تشبيهها بحكومة قضاة. ومما لاشك فيه أن محكمة العقوبات الدولية تتجاذبها هذه النزعة المزدوجة، وفى خضم هذا التشابك القضائى والسياسى يتعين على محكمة العقوبات إعطاء أول الدلائل تثبيتًا لوجودها، وفى سياق مختلف، سمح نشاط المحكمة الجزائية الدولية تدريجيًا بترسيخ فكرة مفادها أن أية تسوية سياسية للنزاع أو أية مصالحة وطنية لن تكون ممكنة إذا لم يتم إنصاف الضحايا والحكم بالعدل لهم، ولقد ساهم بذلك إلى حد كبير تشبث القضاة وكفاءاتهم. لقد أظهرت المحكمة الجزائية الدولية أنه من الممكن وجود عدل جزائى دولى فعلى. يجب على محكمة العقوبات الدولية الآن أن تكمل السير على الطريق الذى تم رسمه متجنبة ما قد تمثله لها من إغواء ممارسة سلطة شمولية لم تكلف بها، أيًا كان نوعها، ومتجنبة أيضًا الانطواء السلبى الذى سوف يحبط أولئك الذين يأملون الحد من حالات الإفلات من القصاص.

(*)رئيس المحكمة الجزائية الدولية لدولة يوغوسلافيا السابقة

مـــاذا يقـــرأ الديكتــاتور قبــل النـــوم؟!....

وائـــل عـبـد الفتـــاح

هذه واحدة من المرات النادرة التى أكتب فيها عنوان المقال قبل الانتهاء منه. لكن السؤال خطر على بالى وأنا أقرأ:

«إن النظم الشمولية ليست الوحيدة التى تخشى القراءة».

هذه الجملة محشورة فى كتاب ممتع من الصفحة الأولى اسمه «تاريخ القراءة». والمؤلف البرتو مانجويل يكملها بجمل أقوى: «.. حتى فى ساحات المدارس، وفى خزائن الملابس، وفى دوائر الدولة والسجون تجرى مراقبة جمهرة القراء بعين الارتياب، نظرًا لما يشعر المرء به من سلطان القراءة وقوتها الكامنة، وعلى الرغم من الاعتراف بأن العلاقة بين الكتاب والقارئ علاقة مفيدة ومثمرة، إلا أنها علاقة تعتبر مترفعة ورافضة ربما لأن مشهد قارئ وقد انزوى فى أحد الأركان ونسى العالم المحيط به يشير إلى جو شخصى غير قابل للاقتحام وإلى نظرة منطوية على الذات وتصرف أنانى..»!!

هكذا كانت أم البرتو مانجويل تقول له عندما تراه يقرأ: «اذهب إلى الخارج وعش حياتك».. وكأن «انشغالى الصامت هذا كان يتعارض مع تصوراتها عن الحياة»، يقول البرتو، وهو يتأمل ذلك الخوف المستشرى مما قد يفعله القارئ بكتابه والذى يشبه الخوف الأزلى الذى يبديه الرجال مما قد تفعله النساء بالأجزاء المخفية من أجسادهن، ومما قد تمارسه الساحرات ويزاوله الكيميائيون فى السر وراء الأبواب الموصدة لمطابخ سمومهم!!



[١]

البرتو يصحبك من الصفحات الأولى فى رحلة مع قراء يتتبع كل إيحاءاتهم وقدراتهم ومسراتهم ومسئولياتهم والطاقات التى تقدمها لهم القراءة. وهو تاريخ مثير ليس لأنه فقط يروى سيرة التحرر الذى يبديه كل قارئ للحظات وهو يمسك الكتاب. ولا لأنه يعتبر أن «القراءة ضرورية مثل التنفس». ولا حتى لأنه يحكى تاريخ القراء العاديين بجوار روايته لتاريخ التطور الذى انتقلت به القراءة من فعل يعلن به الفرد الانتماء إلى الجماعة المغلقة. إلى طريقة لاكتشاف الذات وخصوصيتها المطمورة تحت ركام المعرفة العمومية المستبدة.

طريقته هى التى أعجبتنى بالأساس. بدأ البرتو مانجويل من هاجس شخصى لرواية حكايته مع القراءة التى أعطته عذرًا مقبولا لعزلته..«بل ربما أعطت مغزى لتلك العزلة المفروضة علىّ. فبعد رجوعى إلى الأرجنتين (بلده الأصلى وكان والده كثير السفر لأنه يعمل فى السلك الدبلوماسى) عام ١٩٥٥ قضيت معظم أيام طفولتى بعيدًا عن أفراد عائلتى، محاطًا برعاية مربيتى، حيث كنا نسكن فى أحد الأقسام المعزولة عن المنزل الذى كانت تقيم فيه عائلتى. كان مكان القراءة المفضل لدى هو أرضية غرفتى الصغيرة، حيث كنت أستلقى على بطنى وقد ركزت قدمى الصغيرتين فى أحد الكراسى. ثم سرعان ما أصبح السرير آمن الأماكن لمغامراتى الليلية خلال الفترة الضبابية التى كنت أتأرجح خلالها بين اليقظة والخضوع لسلطان النوم. لا أستطيع أن أتذكر أبدًا أننى كنت وحيدًا فى لحظة من اللحظات. على العكس تمامًا، فإن ألعاب وأحاديث الأطفال الذين ما كنت ألقاهم إلا نادرًا، وجدتها أقل إثارة بكثير من المغامرات والأحاديث التى كنت أعيشها فى كتبى».

«إننى لست وحيدًا»:هذا هو الاكتشاف الشخصى الذى دفعه لتتبع مئات الحكايات واقتفاء آثار النصوص المكتوبة والمقروءة والمطبوعة عبر مختلف العصور وفى الكثير من مكتبات العالم. ليعرف سر القرابة العنيفة بين المتيمين بقراءة الكتب وكأنهم يعيشون حياة سرية متراكمة عبر أزمنة تاريخية. تتناقل الأسرار من شخص إلى آخر. ومن مجتمع إلى آخر..بين «أولئك الذين أظهروا على مر العصور شغفهم بهذه الكتب أو بتلك، الذين اهتدوا بأحكام الأكبر منهم سنًا، أولئك الذين انتشلوا الكتب من طى النسيان، أو أولئك الذين جمعوا على رفوف كتبهم درر الأدب المعاصر».

وهذا هو البرتو مانجويل يكتب «تاريخ انتصاراتهم الصغيرة وآلامهم المحجوبة عن الأنظار».

فى كل مرة كان البرتو يجد حكاية تقوده إلى تفاصيل وحكايات أخرى. يبحث عنها فى النصوص. ويبحث عنها فى داخله. فى ذاكرته التى تبدو دائمًا مثل الكورس فى مسرحيات شكسبير. يمنح مفتاح فهم العالم.

هذه الطريقة هى الممتعة. لم يعتمد فيها على تسلسل زمنى أو تطور تاريخى. فالحكاية هى التى ترسم طريق اكتشاف طريقها. ترك البرتو نفسه تقريبا مثل عاشق فى الظلام ينسى معرفته بجسد العشيقة لينفتح أمامه فى كل مرة عالم جديد. إنه يلهث وراء تاريخ لم ينته بعد. يبدأ مع كل قارئ. وتدمره كل قراءة جديدة..وهذا سر الكتاب الذى ينتمى إلى نوعية الكتب التى لا تنتهى قراءتها. أو التى يمكن أن تعود إليها لتطمئن إلى نفسك.

كانت أمه تخاف عليه من التناقض بين القراءة والحياة. وهاهو يرد عليها بمقطع من رواية «الحصان الأبيض» للتركى أورهان باموك:«..لا يستطيع المرء أن يبدأ الحياة، هذه الرحلة الوحيدة، بعد أن تكون قد انقضت..إلا أنك عندما تمسك كتابًا بيدك، مهما كان هذا الكتاب معقدًا أو صعبًا على الفهم، فإنك تستطيع بعد الانتهاء منه، العودة إلى البداية إن أردت، وأن تقرأه مَن جديد، كى تفهم ما هو صعب، وبالتالى فهم الحياة أيضًا».

وهذا هو التناقض بين القراءة والحياة.



[٢]

القراءة تكسر الحياة الرتيبة. تدمر العلاقة بها فى لحظة خاطفة. وترتب العالم من جديد. الكاتب التشيكى فرانز كافكا كتب عام ١٩٠٤ إلى صديقه أوسكار بولاك:«..على المرء ألا يقرأ أبدا إلا تلك الكتب التى تعضه وتوخزه. إذا كان الكتاب الذى نقرأه لا يوقظنا بخبطة على جمجمتنا، فلماذا نقرأ الكتاب إذًا؟! كى يجعلنا سعداء كما كتبت؟! يا إلهى، كنا سنصبح سعداء حتى لو لم تكن عندنا كتب، والكتب التى تجعلنا سعداء يمكن عند الحاجة أن نكتبها. إننا نحتاج إلى الكتب التى تنزل علينا كالبلية التى تؤلمنا. كموت من نحبه أكثر مما نحب أنفسنا، التى تجعلنا نشعر وكأننا طردنا إلى غابات بعيدًا عن الناس، مثل الانتحار. على الكتاب أن يكون كالفأس التى تهشم البحر المتجمد فى داخلنا. هذا ما أظنه».

كافكا طلب من صديق آخر أن يحرق مؤلفاته بعد موته. لكن صديقه لم يحقق له هذه الرغبة. وتم تفسير تلك الأمنية على أنها لعبة نفسية يصرخ فيها المؤلف: «..أنا غير جدير بالاستحقاق..» وهو ينتظر من الأجيال القادمة أن تصرخ: «..كلا إنك جدير بالاستحقاق».

لكن هناك تفسيرًا آخر، كما يقول البرتو مانجويل، هو أن كافكا كان يريد لأعماله ذلك الخلود الذى منحته أجيال القراء للكتب المحروقة فى مكتبة الإسكندرية، وللمسرحيات الثلاث والثمانين لإسخيلوس، ولكتب لجيوس المفقودة. وللنسخة الأولى من كتاب الثورة الفرنسية لكارلايل التى كانت خادمة أحد الأصدقاء قد رمتها خطأ فى النار، وللمجلد الثانى من الروح الميتة لجوجول الذى أمر أحد البابوات المتشددين بحرقه.

كافكا ممن يرون أن حياة الكتاب تكتمل لدى القارئ. كل قارئ. وربما لهذا لم ينه أغلب رواياته. إنه يبحث عن حياة أخرى لكتابه عبر تلك القراءة المتوحشة التى تقوده كل مرة إلى عالم جديد.

هذا النوع من القراءة مرعب لكل نظام مستقر. مرتب. تبدو المعرفة فيه قادمة من أعلى وباتجاه واحد فقط. اقتربت مرة من تنظيم سياسى من النوع القومى الراديكالى. لم أكن عضوًا لكنى كنت فى مرحلة التصور الساذج الذى يدفعنى إلى أن أذوب فى إحداها كتعبير عن أهمية أو كهروب من فردية محرمة أو حتى من أجل شىء كبير غامض. توقفت أكثر من مرة عند قائمة ممنوعات كانت تسرب فى الخفاء إلى وعى الأعضاء. لا تقرأوا أدونيس. إنه شعوبى. عدو للقومية العربية. لم أقترب أكثر لأعرف بقية القائمة لكننى فوجئت يوما بزعيم التنظيم يتحدث بسعادة كبيرة عن سهرته الممتعة مع كتاب يجمع بعض الإفيهات الساخرة لكاتب صحافى مشهور. سر دهشتى أننى كنت أضع مراتب ودرجات للقراءة تضع الكتابة الساخرة فى مرتبة أدنى من أن تحقق متعة لزعيم سياسى. مثقف. لكن دهشتى بعد ذلك كانت أكبر لأننى وبعد أن أزلت المراتب والفوارق الهرمية بين أنواع الكتب. وبعد أن أصبح ترتيبها يخضع لأفكار مختلفة تمامًا عن تلك الرومانتيكية. وأدركت أن التقييم لا يمكن أن يكون مطلقًا.. المهم كان اكتشافى المدهش أن الزعيم لا يقرأ، وأن هذا الكتاب هو آخر حدود علاقته بالكتب التى قد تتباهى بامتلاك دواوين شعر لمحمود درويش أو سميح القاسم على سبيل الوجاهة الثقافية ذات الطابع السياسى. لكنها لا أكثر فالعالم مرتب. ولا يمكن الاقتراب من ترتيبه «المقدس». فالمعرفة انتهت. وكل قراءة هى من أجل تأكيدها. وليس الخروج عنها. تلك هى وظيفة القراءة والتثقيف السياسى المنظم: أن تؤمن بما سبق أن عرفه الأولون!!



[٣]

«المخاطر المرعبة للقراءة» عنوان مقال ساخر كتبه فولتير مؤكدًا على الفكرة السابقة، فالكتب «تشتت الجهل، هذا الحارس الأمين والضامن الحريص للدول ذات الأنظمة البوليسية». البرتو مانجويل تشجع اعتمادا على مقولة فولتير وقال حكمه التالى: «.. كان الحكام الدكتاتوريون على مر العصور والأزمان، ومازالوا، يعرفون أن الجماهير الأمية سهلة الانقياد، ونظرًا إلى عدم التمكن من إبطال مفعول القراءة بعد تعلمها، يلجأون إلى الحل الثانى الذى يفضلونه ألا وهو منع تعلم القراءة. إن الحكام الدكتاتوريين يخافون الكتب أكثر من أى اختراع بشرى آخر على الإطلاق. ولذا نرى القوة المطلقة لا تسمح إلا بنوع واحد من القراء فقط، هو النوع الرسمى. وبدل المكتبات الكاملة المملوءة بالآراء المتنازعة لا يراد الإبقاء إلا على كلمة الحاكم بأمره».

كانت دهشة القديس أوغسطينوس عندما دخل على القديس الأكبر منه عمرًا وخبرة امبروسيوس وجده يقرأ بطريقة عجيبة:«..كانت عيناه تغطيان الصفحة، وكان يستقبل المعانى بقلبه، وكان صوته يصمت، ويبقى لسانه دون حراك. وكان بمقدور كل واحد أن يقترب منه بمطلق الحرية. ونظرا لأن الضيوف لم يكونوا يعلنون مسبقًا عن قدومهم، كان يحدث عندما نزوره أن نراه يقرأ بصمت مطبق لأنه لم يكن يقرأ بصوت عال قط».

كانت القراءة بصمت فعلاً مدهشًا فى تلك الأزمنة (القرون الأولى بعد الميلاد).

القراءة كانت تدرك بالسمع. وهى جزء من أفعال مقدسة يشترك فيها الجسم كله. كان على الجسم أن ينصهر فى المعانى التى تجعله ينتمى إلى الجماعة المؤمنة. القراءة الصامتة كانت خطرًا لأنها كانت تعنى فعلا من أفعال الناسك المعتزل. والقارئ الصامت يكسب وقتا للتمعن بالكلمات والتلذذ بها، والإنصات إلى ايقاعاتها فى داخله، كما يقول البرتو عن النص المحروس من أعين الدخلاء المتطفلين. ومع تطور تغليف الكتاب وتحويله إلى مخطوطة بغلافين. أصبح ملك يد القارئ كنز معلوماته السرى، وهذا ما كان يزعج بعض العقائديين وقتها. راقبوا التطور الجديد بشىء من الحذر والريبة. إذ أن القراءة الصامتة حسب اعتقادهم تشجع على أحلام اليقظة وكانت مكمنًا لخطر الانزلاق فى الشهوات الحسية.

القراءة المستقلة. الفردية كانت - ولا زالت - خطرًا. فهى تسمح بالاتصال البعيد عن الأعين بين الكتاب والقارئ على نحو لم يكن يتحمله حراس العقيدة المغلقة. وهنا يولد «الإنعاش الفريد للعقل..» كما قال القديس أوغسطينوس صاحب الاعترافات الشهيرة.

تاريخ القراءة
البرتو مانجويل
ترجمة: سامي شمعون
بيروت: دار الساقي - ٢٠٠١

تاريـــــخ القـــــراءة... والســـــلطة

[٤]

ابن خالتى الكبير كان زهوة العائلة. أطلقوا عليه «طه حسين الصغير» لأنه كان يقرأ الثلاث صحف الرسمية وهو فى الابتدائى. يتجمع حوله المهتمون من أهل الحى ليسمعوا تفاصيل ما يحدث فى العالم. هذا فى نهاية الستينيات. وقتها كانت الناس حتى فى ذلك الميدان الحيوى فى مدينة مثل المحلة الكبرى يحرصون على متابعة الحدث السياسى. وعبقرية الطفل فى فك طلاسم الحروف المكتوبة وليست فى نقل الأخبار التى قد يسمعونها فى الإذاعة أو التليفزيون. لكنها سلطة الحرف المطبوع تعطى لقارئ الجريدة ميزة لفتت انتباهى بشكل مبهم وأنا فى سنوات الدراسة الأولى. وقتها منحت رتبة أقل وأطلقوا علىّ اسم ابن خالتى مع إضافة وصف «الصغير» على أساس أننى سارث العبقرية مادمت أحرص على التقاط الصحيفة من زوج خالتى الذى كان يؤجر الصحف من البائع الشهير فى المحطة.

ظلت القراءة هى الميزة الوحيدة التى أنفرد بها. لكنها تحولت من سبب لمكانة متوقعة إلى عنصر مطاردة. فقد بدأ أهلى يعاقبوننى على الهروب من كتب المدرسة إلى كتب أشتريها بعيدًا عن أعينهم. بدأت أعى وقتها خطر القراءة ومتعتها الخفية. حين عثرت وأنا فى الخامسة عشرة على كتاب ملقى فى الشارع بدون غلاف وصفحاته الأولى ضائعة. ظل هذا كتابى السرى. أكثر من عام. أخبئه فى أبعد مكان عن رقابة العائلة وأطلع عليه الأصدقاء المراهقين الباحثين عن منفذ لبركان الرغبات الحسية المحاط بالسيطرة والمنع. بدأت أربط بشكل مبهم بين الحكايات الخرافية فى الكتاب وحمى المشاعر والرغبات الغامضة. قبل أن أكتشف بعد سنوات أن هذا الكتاب لم يكن سوى نسخة من ألف ليلة وليلة. بالتحديد من طبعاتها غير المهذبة. لكن ذاكرتى كانت قد سجلت العلاقة بين القراءة ولذة الخروج عن النص الرسمى.



[٥]

اللافت هنا أن عملية القراءة فى الثقافة العربية مازالت عملية معقدة. تتشابك فيها طبائع الاستبداد فى الأنظمة السياسية مع خريطة الفقر والثراء فى المجتمعات العربية.. إلى جانب علاقات أخرى بين الدولة والمثقفين.. وبين المثقفين والمجتمع.. وأخيرًا هناك الصدى المرعب للتقدم التكنولوجى الذى يخلق فى المجتمعات المتخلفة طبقة من «العارفين الجهلاء» يعرفون استخدام الوسائل المتطورة لكنهم عاجزون عن اكتشاف المعرفة أو إبداعها من خلال هذه الوسائل.

وربما تكون رحلة الكتاب فى العالم مرت بمراحل تقنية من الحفر على ألواح الحجر ثم الصلصال.. إلى أوراق البردى فى مصر القديمة.. وحتى عجينة الورق الحديثة.. وصولاً إلى الكتاب الإلكترونى الذى يهدد بالعودة إلى الثقافة الشفهية بعد قرون من اكتشاف الكتابة.

إلا أن الكتاب العربى مازال أسير رحلة أخرى. تبدأ مصاعبها مع فيروس الأمية المنتشر فى بعض البلاد العربية مثل الوباء. ولا تنتهى عند علاقة العرب المتوترة بفكرة الكتابة والكتب. توتر له أصول دينية. فالإسلام يعتبر أن الكتاب هو القرآن. كتاب الله الموحى به من السماء. وهذا يعنى أن الكتاب بعقد الألف واللام هو صناعة إلهية. وفى المقابل أى محاولة بشرية إما أن تأتى على هامشه. تفسير. شرح. فالعلم هو الدين والعلماء هم شارحو الدين ومفسرو نصه الكبير. وإما ستكون موضع شك. وغرابة. والمرتبطون بكتابة خارج الهامش الدينى غرباء. يستمدون مرجعيات غريبة.

هذه العلاقة المتوترة ربما خفت حدتها الظاهرة. ولم يبق منها إلا فورات ضد كتب تمثل الثقافة الحديثة خاصة فى حال اقترابها من حدود الدين. وهو ما حدث مع طه حسين فى «الشعر الجاهلى» وعلى عبد الرازق فى «الإسلام وأصول الحكم» ومؤخرًا مع نصر أبو زيد فى «مفهوم النص».

لكن هذه العلاقة لم تجعل الكتب عنصرًا أساسيًا فى الثقافة الشعبية. والإنسان العادى لا يلجأ إلى الكتاب إلا فى سنوات التعليم. وخارج هذا ليس هناك غير كتب التفاسير والأحاديث النبوية. ومؤخرًا بعض الكتب السريعة حول قضايا ساخنة.

ولا تنتشر عادة القراءة والاهتمام بالكتب إلا فى لحظات تحول المجتمع. أو فى محطة من محطات التحديث المتعثر أساسًا.

هذه الرحلة الصعبة أسفرت عن وضع أقرب إلى التراجيديا. فالكتاب العربى لا يطبع منه الآن أكثر من ألف نسخة (هناك الآن دور نشر تطبع من الأعمال الأدبية خمسمائة نسخة فقط). ونجيب محفوظ الأوسع انتشارًا بين الروائيين، بسبب السينما ونوبل، طبعته لا تزيد على ثلاثة آلاف. أما نزار قبانى الشاعر الأشهر فيبدو أنه لا يصل إلى رقم العشرة آلاف إلا فى حالات نادرة. رغم أن أغانيه روجت لكتبه. ورغم أنه تعدى فكرة الشعر وأصبح من علامات المراهقة. وبدايات المعرفة.

غير هذا ليس هناك الآن إلا الكتاب السريع الذى يستثمر بهارات القضايا الصحافية المثيرة. توزيع هذه الكتب يعتمد على ضربة الحظ وعلى حساسية خاصة بالسوق ويعتمد أيضا على «الموضة».. ضربة الحظ قد تصل بأحد هذه الكتب إلى رقم ٤٥ ألف نسخة كما حدث مع كتاب أشار عنوانه إلى اسم الراقصة المشهورة فيفى عبده، واعتمد مؤلفه على نجاح كتبه السابقة حول اعترافات الفنانات التائبات والبنات المنحرفات.. لم يصنع قنبلته التى نقلته فى عام واحد إلى نادى المليونيرات!!



[٦]

طه حسين ابن هذه المفارقات. هو مارق فى نظر القراءة السائدة. لكنه مشهور ورمز ويمكن اعتباره مثلا أعلى لفكرة القراءة. ربما يتم هذا بمفهوم اجتماعى يعلى من فكرة التغلب على الظروف الصعبة. وربما أيضا لأنه بنفسه هو الذى طلب الحجر على كتبه وعاد مرة أخرى للعب بذكاء مع القراءة المسيطرة. لكنه يبقى الأعمى الذى رأى ما عجز عنه مبصرون ملتزمون بالتعليمات. لأنه أصيب بهوى القراءة!!

البرتو مانجويل كان أحد قراء كاتب أعمى آخر هو خورخى لويس بورخيس، وكانت القراءة على الرجل المكفوف المسن تجربة غريبة بالنسبة له. لأن بورخيس كان، كمستمع، سيد النص. كنت مثل قائد سيارة، يقول البرتو، أما المكان الذى كان يمتد أمامنا فكان ملك يديه كما يفعل راكب السيارة العادى، الذى ما كان عليه إلا استلهام الطبيعة التى كان يشاهدها. بورخيس كان يختار الكتاب، وبورخيس كان يمنحنى الدعم اللازم، أو كان يطرى الاسترسال فى القراءة، وبورخيس كان يقاطعنى للادلاء بتعليق، وبورخيس كان يترك الكلمات تتوجه صوبه، أما أنا فكنت غير منظور.

لكنه تعلم معه كيف يكون القارئ مخربًا.

تعلم أن القراءة فعل تراكمى يحدث بصورة هندسية.

فى إحدى الجلسات حكى له بورخيس حكاية المظاهرات الشعبوية التى نظمتها حكومة بيرون عام ١٩٥٠ ضد المثقفين المناوئين للحكم التى كان المتظاهرون يهتفون خلالها: «أحذية نعم، كتب لا»!

أما الهتاف المقابل: «أحذية نعم، كتب أيضًا» فلم يقنع أحدًا. وهكذا فإن الواقع، الواقع القاسى العقلانى كان بالنسبة للجماهير لا يتوافق مع عالم الأحلام الخيالى للكتب. بموجب هذه الذريعة يقوم الحكام بنجاح بتأجيج نار التناقضات الاصطناعية بين القراءة والحياة.

الحكومات الشعبوية - يقول البرتو - تطالبنا بأن ننسى، لذا فإنها تدمغ الكتب بأنها بهرجة لا حاجة إليها. أما الحكومات الشمولية فتطالبنا بالتوقف عن التفكير، لذا فإنها تمنع العقل وتلاحقه وتخضعه لمقص الرقيب. إن النظامين يريدان جعلنا أغبياء وإخضاعنا، مما يجعلهما يشجعان على استهلاك القمامات التليفزيونية. ■

أمل الجوعى

أحمد مستجير

كان خبراً غريباً حقاً، لا، كان خبراً يثير الغضبَ والذعر. دولةٌ أفريقية من بين ست ضربتها المجاعة يرفض ساستُها معونةً ضخمة من الذُّرَة. لماذا؟ لأنها مُهَنْدَسةٌ وراثياً! قد نجلس نحن الآن لنتجادل حول صحة هذا القرار، بينما يموت آلاف الناس جوعاً. ثلاثة ملايين من البشر هناك يتضورون جوعاً. أرسلت حكومتُهم بعثةً تستطلع الآثار المحتملة للمحاصيل المهندسة وراثياً على الصحة وعلى البيئة. زارت البعثة الولايات المتحدة وبريطانيا وبلجيكا وهولنده والنرويج وجنوب أفريقيا، ثم عادت ليقول وزير الزراعة «بالنظر إلى الشك العلمى حول القضية، فقد قررت الحكومة - استناداً إلى مبدأ الحيطة - ألاّ تقبل الأطعمة المحورة وراثياً. بذا تتجنب الدولةُ القيام بفعل قد يؤثر سلباً على صحة الإنسان والحيوان، كما قد يؤذى البيئة». قررت الحكومةُ إذن رفضَ ١٨ ألف طن من الذرة المحورة وراثياً التى تبرعتْ بها الولايات المتحدة. وَصَفَ رئيسُ تلك الدولة الطعامَ المُهندسَ وراثياً بأنه «سمٌ». ولقد قالها ذلك الرئيس: «إن جوعَ شعبى ليس مبرراً كي أقدِّمَ له السم... إن الموتَ جوعاً أفضلُ من أكْل ذُرَة محورة وراثياً - كان بالطبع يقصد موت الفقراءَ الجوعى من شعبه، لا موته هو. هو لن ينام جائعاً، ولكنه سيترك للجوعى «مهمة» تأكيد صدْق مقولته!

عَبَّرَتْ الدول الخمس الأخرى من دول الجنوب الأفريقى التى اجتاحتها المجاعة عن القلق من أن العونَ الغذائى من حبوب الذرة المحورة وراثياً قد يُستخدم فى الزراعة: إن بعضَ الفلاحين قد «يأثمون» فيلجأون إلى زراعة بعض البذور، لتنتج نباتاتٌ محورة وراثياً، تنثر حبوبَ لقاحها «الملوَّثة» بجينات غريبة، «فتلوث» النباتات بالأراضى المجاورة، ليصبح قَدْرٌ كبير من الذُّرة فى المستقبل غيرَ قابل للتصدير إلى أوروبا، حيث لا تشيع الأطعمة المحورة وراثياً مثلما تشيع فى أمريكا، وحيث تُرْفَضُ أحياناً لحوم الأبقار إذا دخلت مثل هذه الحبوب المحورة فى غذائها. وقد وافقت أربع من هذه الدول على قبول منحة الذرة بشرط أن تكون مطحونةً. أما تلك الدولة فقد رَفَضَتْها حتى مطحونة. إنها سم. بالرغم من أن الملايين من الأمريكيين يأكلونها كل يوم منذ أواسط التسعينيات، ومن أن ثلثى محصول الذرة الأمريكى عام ٢٠٠٢ كان مُحَوراً وراثياً، ومن أن ٧٠ - ٨٠٪ من الأغذية الأمريكية يحمل شيئاً من محاصيل مُهَنْدَسة وراثياً، ومن أن المساحةَ المزروعة بالمحاصيل المهندسة وراثياً بالعالم قد تزايدت من ٤ ملايين فدان عام ١٩٩٦ إلى ١٢٥ مليون فدان عام ٢٠٠١.



تكمن المشكلة الحقيقية فى هذا الجدل الدائر الآن حول البيوتكنولوجيا، لا فى رجال الدولة المُضَلِّلينَ فى أفريقيا. منْ مكاتبهم الفاخرة يشير معارضو الهندسة الوراثية بأصابعهم، ويُنَظِّرون، دون أن يدركوا النتائجَ الواقعية لفصاحتهم وشعاراتهم. فى بساطة بالغة ينفون أن المحاصيل المحورة وراثياً يمكنها أن تُسْهِمَ فى إطعام الملايين المتزايدة من الأفواه فى العالم، معتمدين على معلومات خاطئة، ثم إنهم يلجأون إلى التخويف وبث الذعر والشك بين الجماهير إذ يرسمون صورةً كئيبة لمجتمع يقوده «علْم فرانكنشتاين» إلى الفناء! ولقد آنَ لهم الآنَ أن يواجهوا «الجنِّى» الذى أطلقوه: أن يواجهوا أمثال هؤلاء الحكام فى جنوب القارة الأفريقية الذين يضحون بأرواح الأبرياء من شعوبهم باسم «البذور المأمونة» و«المحاصيل المأمونة» و«البيئة المأمونة». لمَنْ الأمان حقاً، والمجاعة التى وَلَّدها الجهلُ والعلم الكاذب تحصد أرواح الملايين؟ أى أمانٍ هذا الذى يرنو إليه أصحاب الأيديولوجيا الغافلون عن البيولوجيا؟! يرشفون قهوتَهم «المأمونة» الناتجة عن شجيرات بُنٍّ «طاهرة» «مأمونة»، زُرِعَتْ «عُضْوِيًا» دون استعمال أسمدة كيماوية أو مبيدات، ويتفكرون فى طبيعة الكفاح العقائدى. تفصلهم البحار والمحيطات عَمَّن يموتون جوعاً من جَرَّاء ما أذاعوه ويروجون له من سخف!

الملايين من الجوعى فى أفريقيا يريدون الطعام، ولا تهمهم فى كثير أو قليل مناقشة أيديولوجيا تحوير جينوم النبات الذى يأكلونه، أو حتى جينوم الإنسان!



آنَ لهم الآن أن يواجهوا «الجنِىَّ» الذى أطلقوه: أن يواجهوا أمثال هؤلاء الحكام فى جنوب القارة الأفريقية الذين يضحون بأرواح الأبرياء من شعوبهم باسم «البذور المأمونة» و«المحاصيل المأمونة» و«البيئة المأمونة». لِمَنْ الأمان حقاً، والمجاعة التى وَلَّدها الجهلُ والعلم الكاذب تحصد أرواح الملايين؟

قصة الـ «د.د.ت.»

يُذَكِّرُنى هذا بقصة شبيهة لا بأس من أن أُعيدَ روايتها. فى عام ١٨٧٤ ابتكر أحد الأكاديميين مادة تسمى دايكلورو دايفينايل ترايكلورو إيثان Dichlorodiphenyl trichloroethane، أو الـ «د. د. ت». ثم اكتشف العلماء أن هذه المادة يمكن أن تُستخدم فى مقاومة القَمْل الذى يُعَرِّض جيوشَ الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية لمرض التيفوس، فبدأ تصنيعها بكميات ضخمة بلغت ٢ مليون رطل فى الشهر. ثم عُرِف عام ١٩٤٨ أنها تقتل أيضاً بعوض الملاريا، الحشرة التى تنقل طفيليَّ الملاريا. فى عام ١٩٤٨ كان فى سرى لانكا ٢,٨ مليون شخص مصاب بالملاريا عندما بدأ استخدام الـ د. د. ت ضد البعوض، وعلى عام ١٩٦٤ وصل عدد مرضى الملاريا إلى سبعة عشر شخصاً لا أكثر. وتحت ضغوط أمريكية ودبلوماسية أوقفت الدولة استخدام هذا المبيد لأنه «يؤذى الإنسان والبيئة». وبعد خمس سنين من وَقْف استعماله ارتفع عدد المصابين ثانيةً إلى ٢,٥ مليون شخص. قد لا يكون لمنع استخدام الـ د. د. ت أىُّ أثرٍ فى الولايات المتحدة أو فى أوروبا، لكن الأمر مختلفٌ فى العالم الثالث - سيموت الملايين من الأطفال بالملاريا، سنُنْقِذُ هذا الطيرَ أو ذاك من الانقراض، والثمن؟ بضعةَ ملايين من أرواح أطفال الفقراء!

ما الهندسة الوراثية؟

ربما كان أهم بحث علمى ظهر فى القرن العشرين هو البحث المكون من ٩٠٠ كلمة، لا أكثر، الذى نشره جيمس ديوى واطسون وفرانسيس كريك فى أبريل ١٩٥٣ بمجلة «نيتشر» عن تركيب جزئ الدِّنا DNA، الأساس المادى للوراثة. هذا جزئ يشبه خيطين من الحروف، يشكلان معاً لولبا

هنــاك مشــروع لإنتــاج «أرز الأحـــلام»، يُنْتـظـر أن تعـــرض نتائجُــهُ فى مؤتمــر ســيعقد بالهنـــد فى فبــراير المقبل ســيوفــر هذا الأرز بجانب البيتاكاروتيــن: الحــديد وحمــضَ اللايسيــن الأمينى. يُقدَّر أن ثلث سكان العالم الثالث يعانـــون مـــن الأنيميا بســبب نقص الحــديد. ســيكون لهذا الأرز الحلم قيمته الهائلة بالنسبة لصحة هؤلاء

مزدوجاً يَسْهل نسخُه عند انقسام الخلايا. تتابعاتُ الحروف فيه ـ ومنها أربعة لا أكثر ـ تشكل جُمَلاً نسميها جينات. هذه الجُمَل هى تعليمات لصناعة الخلية الحية وتشغيلها. وهناك من الجمل نوعان: تتابعاتٌ من الحروف تُصْدِرُ التعليمات الضرورية لصناعة واحد من البروتينات المختَلفة اللازمة لإقامة البِنْية والإنزيمات والإشارات وكلِّ الآليات الأساسية للحياة، وتتابعات أخرى تُستخدم كآليات تَحكُّم يمكن بها للخلية أن تَعْرِفَ متى تَصْنعُ هذا البروتينَ أو ذاك، أو تقومُ بهذه المهمة أو تلك.

وعلى عام ١٩٦٦ كان العلماءُ وقد تعلَّموا لغةَ الجينات صانعات البروتين، وهى لغة تشترك فيها كلُّ صور الحياة، فجملةُ الجين اللازمة لصناعة بروتين الإنسولين البشرى، مثلاً، يمكن أن تُنْقَلَ من خلية بشرية إلى خلية بكتيرية، فتقوم هذه الأخيرةُ بصَناعة هذا الإنسولين.

تُوَزَّعُ جيناتُ الكائنِ الحى على عدد من «الكروموزومات» مُحَدَّد لكل نوع. يبلغُ هذا العدد فى الإنسان مثلاً ٢٣ زَوجاً، وفى الغوريلا ٢٤ زوجاً، وفى الفار ٢١ زوجاً وفى الذرة ١٠ أزواج وفِى القطن ٢٦ زوجاً وفِى الأرز ١٢ زوجاً. يرقد كلُّ جين فى موقعٍ محدَّدٍ من كروموزوم بذاته. وقد عُرِفَت مواقعُ الآلاف مَن الجينات فى الكائنات المختلفة، كما عُرفتْ طريقةُ عملها، لكن هناك لا يزال الكثير والكثير مما يحتاج إلى الكشف وتحديد الوظيفة. (قد يكون للقارئ أن يرجع إلى بعض التفاصيل، فى مقال لهذا الكاتب، نُشِرَ بمجلة «وجهات نظر» عدد يوليو ٢٠٠٠ تحت عنوان «الجينوم»).



مع تقدم التكنولوجيا أصبح من الممكن أن يُنْقَلَ جينٌ من نوع من الأنواع إلى دنا نوع آخر، ليقوم هذا الجين فى موقعه الجديد بأداء نفس وظيفته الأصلية. هذه هى الهندسة الوراثية. نُطلِق على الكائنات التى تُنْقَلُ إليها الجينات اسمَ «كائنات مُهَنْدَسَة وراثياً» أو «كائنات محورة وراثياً» أو «كائنات عَبْرَ جينية». ولقد استُخدمت الهندسةُ الوراثية فى كثير من التطبيقات العملية. كانت أولى التطبيقات فى مجال الطب، فقد استُعْمِلَت بكتريا حُوِّرت وراثياً فى صناعة عقاقير مثل الإنترفيرون وهرمون النمو الآدمى والإنسولين البشرى، ولم تظهر حتى الآن أية اعتراضات ضدها. أما المجال المهم الآخر من التطبيقات فكان فى حقل الزراعة. ولقد تسببتْ المحاصيلُ المحورة وراثياً فى هذا الجدل حامى الوطيس الذى يدور الآن فى الغرب، والذى كان من بين نتائجه ذلك الموقف العجيب الذى اتخذتْه دول الجنوب الأفريقى التى اجتاحتها المجاعات. لكن دعنا نلقى أولاً نظرة على بعض الفتوحات التى تمت فى هذا الميدان الزراعى.

* نُقِلَ إلى نبات القطن الأمريكى جينٌ من بكتيرة من بكتريا التربة، اسمها بى تى(Bt)، يُنْتِجُ مادةً تَقْتل ديدان اللوز. ولقد نُقل أيضاً إلى محاصيل أخرى أهمها الذرة ليقتلَ الثاقبات. وهو لا يُسَمِّمُ أىَّ كائن آخر خارج عائلة حرشفيات الأجنحة (عائلة الفراشات وأبى دقيقات). تصبح النباتاتُ المهندسةُ بهذا الجين مقاومةً لتلك الحشرات مقاومةً ذاتية، ولا تحتاج إلى الرش بالمبيدات التى تلوث البيئة وتؤذى الإنسان، والتى تتسبب سنوياً فى نحو ثلاثة ملايين حالة تسمم فى العالم، يموت منهم ٢٢٠٠٠٠ شخص كل عام. ولقد عُثر على جين بى تى آخر يُسَمِّمُ الخنافس، واستُخدم فى هندسة البطاطس وراثياً.

* ثمة مبيدٌ للحشائش رخيصُ السعر سريعُ التحلل غير سام للإنسان يسمى جلايفوسيت glyphosate، لكنه إذا رُش يقتل المحصولَ مثلما يقتل الحشائش. عثر العلماءُ على جين يجعل النبات مقاوماً لهذا المبيد، وأمكن بالهندسة الوراثية نَقْلُه إلى فول الصويا. عندما ترش الحقول بهذا المبيد، فإنه يقتل الحشائش ولا يمس المحصول المهندس وراثياً. ٦٣٪ من فول الصويا الذى يزرع الآن بالولايات المتحدة تحمل هذا الجين وتتحمل الجلايفوسيت. مثل هذه النباتات تعفى الفلاحَ من الحرث والعزق وتوفر وقته وماله.

* من الممكن بسهولة أن تُهَنْدَسَ النباتات وراثياً لحمايتها من الفيروسات المُمْرِضَة، بأن تُولَج فى دنا النبات نسخةٌ من الجين الذى يُشَفِّر بروتين الغلاف الخارجى للفيروس، فيقوم النبات عندئذ بصناعة هذا البروتين، وهو لا يؤذى، لكنه يحث الدفاعات الطبيعية للنبات، فإذا ما أصاب الفيروسُ النباتَ واجهتْه على الفور مقاومةٌ. نُقلت صفة مقاومة الفيروسات إلى الكثير منَ المحاصيل كالطماطم والبطاطس والباباظ. أُصيب باباظ هاواى بفيروس مُهْلِك قضى تقريباً على السلالات التجارية هناك، ولم ينج منه إلاَّ الباباظ عبرالجينى.

* هناك فُطْرٌ يصيب البطاطس باللَّفْحَة blight، وكان هو السبب فى المجاعة الرهيبة التى اجتاحت أيرلنده فى أربعينيات القرن التاسع عشر. فى عام ٢٠٠١ ظهر فُطْرٌ مشابهٌ فى حقول البطاطس بجزيرة البرنس إدوارد، ليدمِّرَ أكثرَ من ٣٠٠ مليون كيلوجرام من البطاطس، المحصول الرئيسى للجزيرة. تمكن العلماء مؤخراً من أن ينقلوا إلى البطاطس، من البرسيم الحجازى، جيناً يجعلها مقاومة للفُطر.

* تُجرى جامعة بوردو الآن التجاربَ الحقلية على سلالة جديدة من الطماطم لمقاومة السرطان، سلالة توفر أكثر من ثلاثة أضعاف كمية الليكوبين lycopene، المضاد للأكسدة، التى تحملها السلالات التقليدية. المعروف أن الليكوبين يقتنص الجزيئات الضارة التى تدمر أنسجة الجسم ودنا الخلايا، وأنه يقلل من خطر سرطان الثدى وسرطان البروستاتا، وكذا مرض القلب الوعائى. ثمة سلالات من الموز ومن البطاطس تحمل فاكسيناً مضاداً للفيروس الحليمى، وهذا أكثر الفيروسات الجنسية انتشاراً ويكاد يكون هو وحده المسئول عن كل حالات سرطان عنق الرحم عند النساء، وقد وصل بها العمل الآن إلى المرحلة الثالثة من التقييم الإكلينيكى.

* من بين المنتجات الحديثة بطاطسُ مهندسة وراثياً لا يُقصد بها أن تُستعمل كغذاء، وإنما أن تعمل كمراقب. يحمل هذا النباتُ جيناً منقولاً من حيوانَ قنديل البحر، وهو يُزْرَعُ بجانب المحصول الأساسى، فإذا أحس هذا النبات «الخفير» بنقص الماء، تَوَهَّج ـ بالمعنى الحرفى ـ ليعرف المزارع أن عليه أن يروى حقله.

* لا تحمل حبوب الأرز الكثير من فيتامين أ. تشيع أمراض نقص هذا الفيتامين فى أفقر مناطق آسيا حيث يشكل الأرزُ الغذاءَ الأساسى للسكان. ولقد تم نقل جينات البيتاكاروتين (سليف فيتامين أ) إلى الأرز، من نوع نباتى آخر. فنتج «الأرز الذهبى» الذى يوفر ما يأكله الفرد منه يوميا نحو ١٥٪ من احتياجاته من الفيتامين، أى ما يكفى لحمايته من العمى. وهناك مشروعٍ لإنتاج «أرز الأحلام»، يُنْتَظَر أن تُعرض نتائجُهُ فى مؤتمر سيعقد بالهند فى فبراير ٢٠٠٣ (وإن كان تتجيره سيحتاج إلى بضع سنين). سيوفر هذا الأرزُ بجانب البيتاكاروتين: الحديدَ وحمضَ اللايسين الأمينى. يُقدَّرُ أن ثُلُثَ سكان العالم الثالث يعانون من الأنيميا بسبب نقص الحديد. سيكون لهذا الأرزِ الحُلْمِ قيمتُه الهائلة بالنسبة لصحة هؤلاء.

* تُنْضِجُ شجيرةُ البُنِّ بضعَ بذور فى كل يوم على مدى بضعة أشهر، وأفضل نوعية من حبوب البن هى تلك التى تُجمع عقب النضج مباشرة. يحتاج جمعُ المحصول إذن إلى عمل مستمر. آه لو كانت البذور تَنْضج جميعاً فىَ نفس الوقت! هناك جين فى نبات البن يعمل كى تبدأ المرحلةُ الأخيرة من نضج الثمار. قام العلماء بتحوير جينِ تَحَكُّم بحيث لا يعمل جينُ النضج الأخير هذا إلا إذا رُشَّ النبات بمادة تَحُثُّه (مسجلة وتبيعها الشركة صاحبةُ السلالة)، وعلى هذا تصل كل شجيرات الحقل إلى مرحلة ما قبل النضج النهائى، ثم تتوقف انتظاراً لإشارة الحث. يمكن للمزارع إذن أن يرشَّ الشجيرات ليحصد محصوله فى بضعة أيام.

تُحَسِّنُ هذه السلالةُ المحورةُ وراثياً من حياة صغار المزارعين. يُمْكِنُ للمزارع الصغير أن يأخذَ إجازة قصيرة دون أن يفقدَ مصدرَ رزقه، يمكنه أن يعملَ ساعات أقل فى اليوم، وأن يجمعَ محصولَه فى أيام قليلة ويزيد دخلَه بالعمل فى مكان آخر. أما المُزارِعُ الكبير فسيحتاج إلى عدد أقل من العمال لجمع نفس الكمية من ثمار البن.

والتحكم فى وقت جنى المحصول سيكون مفيداً أيضاً فى محاصيل أخرى غير البن. تتدهور نوعية العنب مثلاً بعد أن تصل حَبَّاتُه إلى أفضل محتوى من السكر، ويصبح على مُزارِع العنب أن يحشد فى ظرف أيام معدودة عدداً كبيراً من العمال لجنى المحصول بالكامل فى فترة زمنية قصيرة جداً. سيكون الوضعُ أفضل لو أمكن إطالة زمن جمع المحصول ليتم فى أسابيع لا فى أيام.

تَعَرَّفَ الباحثون مؤخراً (أكتوبر ٢٠٠٢) على الجين المسئول فى جينوم البصل عن المُرَكَّب الذى يثير الدموع، ولم يَعُدْ من الصعب إنتاج سلالة من البصل محورة وراثياً لا تحمل هذا المُركَّب. اتضح أن ثمة إنزيماً خاصاً هو الذى يقوم بصناعة هذا المركَّب، وأنه ليس مُنْتَجاً ثانوياً للعمليات البيوكيماوية التى تُخَلِّق مركَّبات النكهة فى البصل. سيكون لمثل هذا البصل المُحَوَّر وراثياً بحيث لا يُنْتِج الإنزيمَ، نفسُ طعمِ البصل ونكهته، ربما بتغييرات طفيفة. يُقال إن المركَّبَ الذى يثير الدموعَ يساعد فى حماية النبات من آكلات العُشب. لكن اتضح أيضاً أن هذا المركَّبَ ذاته هو الذى يهدى أحد الفُطْريات المُمْرِضَة إلى النبات!

فى يناير ٢٠٠٢ أعلَن أَحد العلماء اليابانيين أنه وفريقه البحثىَ قد تمكنوا من إنتاج خنازير (وفئران) مهندسة وراثياً تحمل جينات من نبات السبانخ ـ قال إنه أولُ من نجح فىَ إيلاج جين نباتى فى حيوان! تَحْملُ الخنازير المحورة وراثياً جيناً من السبانخ يُسَمَّى FAD2، يُحَوِّل الدهنَ المُشَبَّعَ إلى دهن غير مُشَبَّعٍ هو حامض اللينوليك الأفضل صحياً للإنسان: ظهر أن الخنازير عبرالجينية تحمل من الأحماض الدهنية المُشَبَّعَة نسبةً تقل ٢٠٪ عَمَّا تحمله الخنازير العَادية. وُلدَت هذه الخنازير فى أواسط عام ١٩٩٩ وأثبتَت نتائجُ ثلاثة أجيال أن التحويرَ يُمَرَّرُ إلى النسل.

تُصْنَع الأجبانُ الجافة من اللبن الكامل بإضافة إنزيم يسمى الكيموزين أو المنفحة، يؤخذ من معدة العجول الرضيعة. نُقل جين الكيموزين من الأبقار إلى الخميرة. تُنْتِجُ هذه الخميرةُ المُحَوَّرَةُ الإنزيمَ بصورة أنقى وأرخص كثيراً من منفحة العجول. ٩٠٪ من الجبن الجاف فى زماننا هذا يصنع بإنزيم الكيموزين الذى تنتجه الخميرةُ عبرالجينية.

سيظهر قريباً بُنٌّ بلا كافيين. يُزال الكافايين حالياً من البُن بعملية كيماوية مكلِّفة، وستقوم الهندسة الوراثية بهذا العمل وحدها بأقل تكلفة. ويجرى الآن إنتاجُ فول سودانى عبرجينى لا يصيب الحساسين له بأذى. ولقد اكتشف العلماءُ الجينَ المسببَ الأصلى للحساسية من فول الصويا، وأنتجوا فولَ صويا يخلو من الألّيرجين (مسبب الحساسية).

هل الهندسة الوراثية ابتكار شيطانى؟

هل الهندسةُ الوراثية شىء لم تعرفه الطبيعة قبلاً، ومن ثَم فهى ترفضه، ولا يجوزُ لنا نحن البشر أن نفرضَه عليها، لأنَّا بذلك نحطمها ونحطم أنفسنا؟ هل هى حقاً ابتكار شيطانى غير مسبوقٍ لعقل الإنسان، يجب أن يُوءَدَ قبل أن يُخَرِّبَ الحياةَ على سطح الأرض كما يقول الرافضون لها؟

إن الطبيعة ذاتها تقول غير ذلك!

القمح كما نعرف هو قوام الحياة البشرية، ولهذا النبات قصةٌ وراثية تستحق أن تُرْوَى، فالواقع أنه قد نشأ نتيجةً لثلاث وقائع منفصلة من هندسة وراثية طبيعية: إنَّا ندين بحضارتنا للهندسة الوراثية.

تُوَزَّعُ جيناتُ النجيليات الشبيهة بالقمح بين سبعة أزواج من الكروموزومات. من بين أقدم سلالات القمح المستأنسة هناك قمح آينكورن einkorn (واسمه العلمى Triticum monococcum) وله سبعة أزواج من الكروموزومات. لكن هناك سلالةَ قمحٍ أخرى لها ١٤ زوجاً، هى سلالة قمح إيمَّر emmer، جاءت عن تهجين



«مستحيل» بين القمح وحشيشة برية اسمها إيجيلوبْس .(Aegilops) حدث هذا التهجين قبل ظهور «البيوتكنولوجيا» ببضعة آلاف من السنين، حدث طبيعياً، أو ربما بمساعدة الفلاحين السومريين. كان لهذا النبات الهجين الجديد خصائصُ جديدة استغلها المربون في إنتاج الكثير من السلالات المعاصرة من القمح الصَّلْد durumذى الحبوب التي يمكن فَصْلُ قشورها والذى منه تُصْنَعُ المكرونة. لم تنته قصة الهندسة الوراثية الطبيعية عند هذا الحد. فلقد حَصَلَ في عصر الإمبراطورية الرومانية تهجينٌ آخر «مستحيل»، مع حشيشة برية أخرى (Tr. tau (sii فنتج قمح الخبز الذى نأكله (Tr. aestivum) وله ٢١ زوجاً من الكروموزومات: الجينومات الكاملة لهذه الأنواع الثلاثة من النجيليات وقد اجتمعت في نبات واحد. ولقد جاءت مع هذا التهجين «المستحيل» الأخير صفةُ وجود الجلوتين gluten الذى يعطى عجينَ القمح خصائصه المتفردة. وسجِلُّ هذه التهجينات مكتوب في جينومات القمح، ويكشفه تحليل الحبوب في المواقع الأثرية.

ثم كانت الحلقةُ الأخيرة من التهجينات «المستحيلة»، وقد قام بها الإنسانُ الذى هَجَّن القمح بالجُويْدار ryeدون استخدام تكنولوجيا نقل الجينات. القمح الذى نأكله نشأ مؤكداً عن هندسة وراثية طبيعية.

لكن، لماذا نذهب بعيداً، فلنتأمل جينوماتنا نحن. في داخل كل خلية من خلايا أجسادنا أجسامٌ تُسمى السُبْحيَات. كانت السبحياتُ يوماً بكتيرةً حرة. لها دناها الخاص، وهى تصنع إنزيماتها الخاصة، وبها كل الآليات اللازمة لتسيير الخلية، سوى أنها بعد أحقاب زمنية طويلة نَقَلَتْ معظمَ جيناتها إلى جينومنا نحن. بل إن أكثر من نصف دنا الجينوم البشرى قد نشأ عن دنا فيروسات مهاجمة.

ثمة نوع من البكتريا له طريقة عجيبة في الحياة، إذ يُهَاجِمُ النباتات ليُحدث تَدَرُّناً يستخدمه كمأوى. تَفرض هذه البكتيرة نفسَها على النبات الذى تهاجمه، إذ تولج في دناه عدداً من جيناتها. هذه البكتيرة في الواقع مُهَنْدَسَةٌ وراثية طبيعية تغير من جينوم النباتِ الذى تصيبه بحيث ينتج لها ما تحتاج من غذاء ومأوى، والحق أنها كانت من أولى الوسائل التي استخدمها العلماءُ في تقنية الهندسة الوراثية، إذ كانوا يُحَمِّلُونها بالجينات الغريبة التي يرغبون في نقلها إلى النبات، ثم يتركونها لتصيب النبات وتولج الجينات في دناه.

هذه الأمثلة للمزج الطبيعي للدنا عبر الأنواع، وحتى بين النباتات والحيوانات والبكتريا والفيروسات إنما تقول إن الطبيعة تعرفها، إنها هى التي «اكتشفتْ» الهندسة الوراثية قبل أن يكتشفها الإنسان، وأن الطرقَ التكنولوجية الحديثة ليست سوى عوامل تُسرع من عملية نقل الجينات بين الأنواع والأجناس والعائلات، بل وحتى بين ممالك الكائنات الحية، تُسرعها حقاً بملايين المرات وتوجهها إلى حيث نرغب نحن.

عن تربية المحاصيل

كان التحوير الوراثي للمحاصيل، والانتخاب للصفات المرغوبة جزءاً من التقدم الزراعى عبر الزمن. وفَر اكتشاف قانونيْ مندل عام ١٩٠٠ الدافعَ لتطوير الزراعة، الذى قاد إلى المحاصيل التي نراها اليوم. طور المربون سلالاتِهم الجديدةَ من المحاصيل مستخدمين ما وجدوه من تباين في النبات أو ما استحدثوه من تباين فيه (بالإطفار مثلاً عن طريق التشعيع). فإذا أرادوا نقل جين من واحد من الأقارب البرية إلى النبات الذى يعملون عليه، فقد يجدون أن التهجينَ غيرُ ممكن، وهنا يتعذر عليهم العمل تماماً. فإذا كان التهجين ممكناً، فسيُنْقَلُ مع الجين الهدف آلافٌ أخرى من الجينات، ويصبح على المربى أن يعمل سنين طويلة كي يخلص نباتاته منها ليستبقى فقط هذا الجين المطلوب. كان مُرَبِّى النباتات التقليدىُّ حبيسَ النوعِ الذى يعمل عليه وأقاربه البرية التي يمكن أن تتهاجن معه. لكن الهندسةَ الوراثيةَ قد جعلت من الممكن إيلاجَ الجين المطلوب إيلاجاً مباشراً. فَتَحَتْ أمامه مَنْجَماً من الجينات يستطيع أن يَلِجَهُ وينتقى منه ما يشاء يُضيفه إلى نباتاته، منجماً يحمل في جوفه كلَّ ما خلقه الله لنا من جينات في كل نوع حيٍّ على الأرض. إنها مجرد امتداد لطرق التربية التقليدية، نقفز فيه فوق حاجز الأنواع، نستحضر به جينات قد لا تكون موجودة من أصله في النوع الذى نُحَسِّنُه. وقد تكون للجين المنقول آثارٌ جانبية إذا ما وَجَدَ نفسَه داخل متن وراثي جديد مختلف. يحدث هذا في التربية التقليدية مثلما قد يحدث بالهندسة الوراثية.

أين تستقر الجينات العابرة؟

المهندس الوراثي لا يعرف بالضبط أين سيستقر الجين الجديد الذى سيولجه في دنا نباته، فقد يولَج الجين في مكان يُفْسِدُ عملَ جينٍ طبيعى، فالهندسة الوراثية لم تتمكن (بعدُ) من تحديد الموقع الذى سيحتله الجينُ المضاف داخل الجينوم. والجين، كما ذكرنا، إنما يمثل جُمْلَة. افترضْ أن بجينوم النبات المتلقِّى جيناً يقول «الماء ملوث»، وأن الجين المنقول يقول «جيد، هذا الطعام». فإذا أُولج الجينُ الأخير بعد كلمة «الماء» كانت النتيجة: «الماء جيد، هذا الطعام ملوث»، وتكون الهندسة الوراثية قد أفسدت المعنى تماماً! ولما كان من الممكن أن يقع الجينُ المنقول في أى مكان بالجينوم المُتَلَقِّى، فمن الصعب أن نكتشف ما سينجم عن نقل الجين من مشاكل: غرسُ الجينات الغريبة في النبات ليس حتى الآن علماً مضبوطاً، وبذا فقد تحدث آثار جانبية في بيوكيمياء النبات، فتتزايد مثلاً سمومٌ توجد طبيعياً في النبات بنسَبٍ لا تؤذى، وربما تدهورت أيضاً القيمة الغذائية للنبات.

هذه مشكلة حقيقية تنشأ عن إيلاج جينات جديدة، بالهندسة الوراثية أو بالتربية التقليدية. لكن القضية زائفة، ولا يجوز أن تُستخدم في الهجوم على الهندسة الوراثية. صحيح أن المهندس الوراثي لن يَعْرفَ أين سيستقر الجينُ المُولَج، ويعرف أن هذا الجين قد يُمَزِّق جيناً في النبات ويُفْسِد عملَه، لكنه سيعرف بعد إيلاج الجين أين استقر، ومن ثَمَّ يمكنه أن يَسْتَبعد النبات الذى استوعبه في الموقع الخطأ. ثم يجرب ثانيةً. والواقع أن المحاصيل المهندسة وراثياً تُخْتَبَرُ قبل تتجيرها بصورة أقسى كثيراً من المحاصيل الناتجة عن التربية التقليدية. لابد أن يكون كلُّ محصول مُحَوَّرٍ وراثياً مأمونا كطعام، ليس فقط لمصلحةِ المستهلك، وإنما أيضاً لمصلحة الشركة التي تنتجه. ثَم إن التقنيات التقليدية لتربية النبات يمكن أن تنتج هى الأخرى في بعض الأحايين أغذيةً ضارة. ثمة مثال شهير هو إنتاج سلالة محسَّنة من الكرفس تسببتْ في أن يُصبحَ العمالُ الذين يقطفونه في غاية الحساسية لضوء الشمس. وهناك أيضاً صنفٌ من البطاطس (اسمه لينيب lenape) سُحِب من السوق الأمريكية في ستينيات القرن الماضى بعد ما اتضح أنه يحمل مستوياتٍ مرتفعةً من سموم جليكوسيدات السولانيدين solanidine glycosides.

حملة ضارية على الهندسة الوراثية

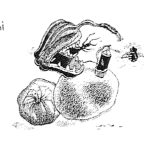
الكثيرون ممن يعارضون الهندسة الوراثية لا يرقى الشك إلى نواياهم الطيبة. والحق أن معظم المعارضين هم من هذا القبيل. فلأن النَّاسَ معظمَهم لا يعرفون الكثير عن العلم، فسيكون من السهل العبث بمشاعرهم وإثارة مخاوفهم. وكل ما وصل إلى أسماعِ الجماهير ضد الغذاء المُحَوَّرِ وراثياً قد جاء عن عَرْض خادع غير أمين قام به متمرسون في البروباجنده لم تكن أهدافهم دائماً فوقِ مستوى الشبهات: يحكون نصف الحقيقة، يهوِّلون من أخبار ويخفون أخرى، حتى أنْ يصل الأمر بالبعض إلى تخريب الحقول (في إنجلترا مثلاً والنمسا وألمانيا والهند وعدد من الولايات المتحدة)، وإلى الهجوم على المعامل الجامعية بالقنابل (في ميتشجان) وإلى إحراق مراكزِ لبحوث النبات.

الدكتور أرباد بوزتاى Arpad Pusztai من معهد روويت بأبردين باسكتلنده أجرى تجربة. بدأت التجربة عندما نُقل جين من نبات سام (زهرة الثلج snowdrop) إلى البطاطس، وهذا الجين ينتج مركَّباً ساماً (هو اللكتين lectin) غَذَّى الباحث عدداً من الجُرَذان على هذه البطاطس النيئة التي هُنْدست لتحمل السم، واستعمل مجموعةً للمقارنة غُذِّيَتْ على بطاطس طبيعية وأُعطيت كمية من اللكتين تعادل الكمية التي ستأكلها المجموعةُ المعامَلَةُ عندما تأكل البطاطس عبرالجينية. طورت المجموعتان أعضاءً مشوهة، ولم تكن هناك فروقٌ إحصائية معنوية بين المجموعتين. لكن بوزتاى ادعى أن بياناته تقول إن الجرذان التي أكلت البطاطس النيئة المحورة كانت تحمل أعضاءً مشوهةً أكثر. لم تَقبل المجلاتُ العلميةُ تفسيرَ بوزتاى، ولم يقف معهدُه إلى جانبه. قام خبيرٌ إحصائى بمراجعة البيانات وأكد أنها لا تشير إلى فروق حقيقية بين المجموعتين. تفاقم الخلاف بين المعهد والرجل، فأُعفى من عمله.

سنحت الفرصة! قام معارضو الهندسة الوراثية بتهويل الأمر ليصبح قضيةً تثير اهتمام الرأى العام. صُوِّر الدكتور بوزتاى وكأن المؤسسةَ العلمية قد كَمَّمَتْهُ لأن نتائجه تدين الهندسة الوراثية. نشرتْ مجلة «لانسيت» الطبية البريطانية المعروفة البحثَ في نهاية الأمر بسبب هذا الخلاف الحاد، وقامت الصحافةُ البريطانية بتغطية القصة دون ملل، ونَشَرَتْ صوراً لأعضاء الفئران المشوهة، وأصبحت هذه البطاطس ـ التي هُندست أصلاً لتكون سامة ـ مرادفةً لكل غذاء محوَّر وراثياً.

هناك سلالاَت جديدة عديدة من البطاطس، رُبِّيَتْ بهدف غذاء الإنسان، وإنما هُنْدست لمقاومة الحشرات أو الفيروسات أو الفُطر، غُذِّيت عليها الجرذان، وأبداً لم تُصبْ فرداً واحداً بأى أذى. لم يقدم المعارضون تفسيراً لهذا. التقطوا تجربة بوزتاى التي تسىء إلى النباتات المحورة وراثياً، والتي استُخدمت فيها بطاطس لم يُقصد بها أبداً أن تؤكل، واستغلوها للتخويف وتحريك الشك.

سيظهر قريباً بُنٌ بلا كافايين.
يُزال الكافايين حالياً من البُن بعملية كيماوية مكلفة، وستقوم الهندسة الوراثية بهذا العمل وحدها بأقل تكلفة. ويجرى الآن إنتاجُ فول سودانى عبرجينى لا يصيب الحساسين له بأذى



للدكتور بول بيلنجز Paul Billings قصة أخرى. كتب هذا الرجل مقالاً فى أغسطس ١٩٩٩ فى «بوسطون جلوب» يحمل حقيقة واحدة، وكل ما عداها إما معروف وإما خاطئ. قال إن فول الصويا عبرالجينى تنقصه مادة غذائية، لم يُحَدِّدْها (اتضح أنها الفيتوإستروجين أو الفيتوستيرول)، وأن هذه المادة تساعد فى الوقاية من السرطان. وقد جاءت هذه «الحقيقة» عن الدكتور مارك لاب Marc Lappe المعروف بتحيزه ضد الهندسة الوراثية.

إليك الطريقة التى أثبتَ بها لاب هذه «الحقيقة». قارن الرجل بين سلالة صويا تقليدية وأخرى محورة وراثياً، فوجد اختلافاً قدره ١٢٪، لكن الأصناف المختلفة تتباين بأكثر من ١٠٠٪ فى محتواها من الفيتوستيرول. بل إن مصلحة الغذاء والدواء الأمريكية لا تُقَدِّرُ محتوى الغذاء من هذه المادة، وإنما تقول إن الصويا الخضراء (الصغيرة) تحمل ٥٠ ملليجراما لكل ١٠٠ جم، أما الصويا الناضجة فتحمل ١٦٠ ملليجراماً، ثم إن المحتوى من هذه المادة غير ثابت فهو يتدهور بالتخزين بأكثر من ١٢٪ بكثير. لكن لاب كان على الأقل أميناً إذ أشار إلى البيانات التى تَوَصَّلَ منها إلى تفسيره المتحيز. أما بيلنجز فقد نشر التفسير وأخفى أنه عن عَالِمٍ متحيز بل وأخفى اسم المادة نفسها، ولمَ يذكر أن دورها فى صحة الإنسان لم يتأكد بعد. مَنْ مِنَ القراء سيبحث حقاً فى القضية؟ كان الهدف هو زراعة «الشك» فى أذهان الناس، ليبقى ويمتزج بغيره من المعلومات الخاطئة حتى يصبح فى النهاية حقيقةً مسلماً بها لا تقبل «الشك».

حاولتْ إحدى الشركات مرةً أن تستغل جيناً من سمكة الفلاوندر القطبية التى تتحمل الماء البارد، لأن دمها يحمل مضاداً طبيعياً للتجمد، على أمل أن تُنتج طماطمَ مقاومةً للبرد. تَمَّت عملية نقل الجين، واختُبر النبات فلم ينجح، فأهملت الشركة الموضوع بلا عودة. لكنك لازلت تجد ملصقات ضخمة عليها صورة ثمرة طماطم ذات زعانف! أو سمكة ذات ساق وأوراق خضراء!

الهندسة الوراثية والتنوع البيولوجى

يقول معارضو الهندسة الوراثية إن المحاصيل عبرالجينية ستؤدى إلى محو التنوع البيولوجى، وهذا ادعاء يصعب حقاً تصديقه، فالمتوقع أن يحدث العكس. يقولون إن الفلاحين فى طول العالم وعرضه يزرعون سلالاتِهم المحليةَ من المحاصيل، سلالات متباينة الصفات، لكن المحاصيل عبرالجينية «المتطابقة» ستطرد كلَّ السلالات المحلية وتحل محلها ليصبح كلُّ محصول رئيسى سلالةً واحدة فى العالم بأسره، وقد تحمل السلالاتُ المحلية هذه التى ستندثر جينات مفيدةً ستضيع إلى الأبد، فإذا احتجناها يوماً فلَن نجدها!

نعم، هناك فى المناطق المختلفة سلالات محلية من معظم المحاصيل الرئيسية، تسمى السلالات البلدية landraces، لاسيما فى المَوَاطِنِ التى نشأتْ فيها المحاصيل، فى بيرو مثلاً نَجد المئات من سلالات البطاطس، وهي مستودع للتنوع البيولوجى. ولقد استغل مربو النبات التقليديون هذا التنوع الوراثى فى تحسين خصائص المحاصيل. لكن المحاصيل عبرالجينية ليست أبداً متطابقة. أما أن بعض السلالات المحلية سينقرض، فهذا أمر يرجع إلى مربى النبات. فهناك سلالات تَفْضُلُ السلالات المحلية إنتاجاً، سلالاتٌ ليست بالضرورة عبرجينية، وقد يرى المربى أو المزارع أن يُكْثِرَ منها بديلاً عن سلالته البلدية. الأمر لا علاقة لَه بالهندسة الوراثية. ثم إنه قد أصبح من الممكن أن نحفظ بضع مئات من بذور كل سلالة محلية فى بنوك خاصة أُقيم منها الكثير حتى قبل أن يظهر أى محصول عبرجينى بعشرات السنين. بل الواقع أن البيوتكنولوجيا الجديدة قد قَضَتْ على التهديد بانقراض أى سلالة، فمن الممكن الآن أن يؤخذ دنا خلية واحدة من النبات، وأن تُكَاثر جيناته إلى ما لا نهاية. إن البيوتكنولوجيا المعاصرة يمكنها أن تنقذ الأنواع النباتية المهددة بالانقراض.

يحمل النبات النمطى نحو ٤٠ ألف جين، من بين هذه هناك نحو ١٠٠٠ جين قد تتباين ما بين السلالات. هذه الجينات الألف هى التى تشكل التنوع البيولوجي لأى نوع. ومن الممكن بالهندسة الوراثية أن نُضِيفَ إلى المستودع الجينى للنوع جيناتٍ جديدةً من خارجه، وهذا يعنى زيادة التنوع البيولوجى. هذا أمر واضح للغاية، واجهه معارضو الهندسة الوراثية بالقول إن كل المحاصيل عبرالجينية متطابقة، وأن السلالات البلدية ستصبح عرضة للانقراض بسبب السلالات عبرالجينية، وبأن خطر انقراضها يزداد بسبب الهندسة الوراثية!

الهندسة الوراثية والبيئة

يقول البيئيون إن أحداً لا يعرف ما إذا كانت النباتات المحورة وراثياً ستتهاجن مع أى نبات آخر فى الطبيعة، لا أحد يعرف أثرها على النباتات البرية، فلماذا المغامرة؟ والواقع أن التهجين بين الأنواع المختلفة من النباتات أمر غير شائع، ولم يُكْشَفْ عن تهجينٍ تم بين أنواع بعيدة الصلة، اللهم إلا حادثة القمح التاريخية. الطماطم مثلاً لا تتهاجن مع البطاطس رغم أنهما من عائلة واحدة. هم يريدون الناس أن يصدقوا أن أىَّ نبات يمكن أن يُهَجِّن أىَّ نبات آخر! أذاعوا مثلاً أن تهجيناً قد حدث بين نباتى الكانولا والخردل البرى، لكنهم لم يذكروا أن الكانولا ذاتها هجين بين نوعين من نفس الجنس، هما براسِّيكا نَابَصْ وبراسِّيكا رابا، وأن براسيكا رابا هو الخردل البرى!

كان يوماً مشهوداً للبيئيين عندما أعلن البروفسور جون لوزى J. Losey من جامعة كورنيل، مؤخراً، أن حبوب لقاح ذرة بى تى (التى أولج فيها جين بى تى) تَقْتُلُ يرقات فراشة الملكة، الفراشة الجميلة المحبوبة. فسرعان ما أُذيع الخبر على أوسع نطاق، وظهرتْ القصةُ فى اليوم التالى بمئات الجرائد. وبعد يومين أعلن الاتحاد الأوروبى تعليقَ أىَّ موافقة على أى محصول مُهَنْدَسٍ وراثياً بسبب قصة فراشة الملكة هذه. فى كل أسبوع يظهر شخص وقد ارتدى ما يجعله يشبه فراشة الملكة ليحتج على الأطعمة المهندسة وراثياً!

إليك تجربة لوزى: رَشَّ الرجل حبوب لقاح ذرة بى تى فوق أوراق حشيشة اللبن، ثم وضع يرقات فراشة الملكة في برطمان لا يحمل غذاءً سوى هذه الأوراقِ المُعَفَّرة، فلاحظ نسبة نفوق مرتفعة. لم يتذكر أحد أن الفراشات تتغذى فقط على رحيق الأزهار لا حبوب اللقاح، وأن اليرقات لا تأكل إلا أوراق حشيشة اللبن، ومن يا ترى سيُعَفِّرُها لها بحبوب لقاح الذرة؟!

بل إنهم قد يلجأون إلى القضاء ـ مثل جيريمى ريفكين، عدو التقدم العلمى الذى رفع قضايا ضد خمس شركات كبرى تنتج النباتات المهندسة وراثياً. بل ثمة دعوى رفعها حاخامٌ وإمامُ مسجدٍ ادعيا فيها أن التهجينَ بين الأنواع إهانةٌ للدينَ اليهودى والإسلامى (رفضت المحكمة نظر الدعوى).

البيئيون والزراعة العضوية

من بين أسلحة مقاومة الهندسة الوراثية انتشرت فكرةٌ غريبة روَّج لها البيئيون، تقول بضرورة أن نعود إلى الوسائل البدائية للزراعة «من أجل صحة الإنسان وصحة البيئة»، لأن الأسمدة الكيماوية سيئة، ولأن الوراثة هى الأخرى سيئة. لنَعُدْ إذن إلى الاعتماد على السماد البلدى، إلى الزراعة العضوية (Organic farming)، حيث لا تُستخدم المبيدات، ولا الأسمدة الكيماوية، ولا البيوتكنولوجيا والنباتات المهندسة وراثياً، ولا المضادات الحيوية، ولا التشعيع، ولا هرمونات النمو. ويا لها من فكرة مدمرة!

هم يقولون إن الأسمدة العضوية يمكن أن تسد النقص فى خصوبة التربة وأن تضمن زيادة فى الإنتاج الزراعى فى حدود ٤ ـ ٦٪ سنوياً. لكن تجربة الصين تقول غير ذلك. كان الفلاح الصينى، ولقرون عديدة، هو خير مَنْ يستخدم المادة العضوية فى التسميد. كان إنتاج الفدان من الحبوب فى الصين عام ١٩٦٠ أعلى من مثيله فى الهند بنحو ١٦٠ كيلوجراماً لأن الصينى يستخدم مخلفات الحيوان فى تسميد حقله بينما يستخدمها الهندى وقوداً للطبخ.

ثم حدث أن اجتاحت الصينَ مجاعةٌ رهيبة فى عام ١٩٦٠ ومات من الجوع أكثر من ٣٠ مليوناً من البشر، ولم يعد فى استطاعة الدولة الاعتماد على الأسمدة العضوية للحفاظ على خصوبة التربة وزيادة إنتاج المحاصيل لمواكبة التزايد السكانى، فبدأت على الفور استراتيجية جسورة لبناء مصانع الأسمدة الكيماوية، وكانت هى السبب فى الطفرة الكبرى التى حدثت فى إنتاج المحاصيل هناك.

والزراعة العضوية فى واقع الأمر قد تقود إلى التصحر. تقول إحدى الجمعيات التعاونية البريطانية التى تقوم بزراعات عضوية وزراعات تقليدية إنها تحصد محصولاً من القمح من الحقول العضوية يقل بنسبة ٤٤٪ عن الحقول التقليدية. فإذا كان هذا الرقم صحيحاً فمعناه أن أوروبا إذا لجأت إلى الزراعة العضوية فستحتاج كى تكفى حاجاتها الغذائية، بلا تصدير، أن تضيفَ إلى المساحات المحصولية مساحات تعادل كل غابات ألمانيا وفرنسا والدانيمرك والمملكة المتحدة. يقول بورلوج، قائد الثورة الخضراء الأولى فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى: «إننا لا نستطيع أن نطعم ستة بلايين فرد (تعداد العالم الآن) بالأسمدة العضوية. إذا حاولنا ذلك فعلينا أن نجتث معظم الغابات، ثم إن الأراضى المُضَافَةَ عن هذا الطريق ستنتج لفترة زمنية قصيرة فقط». إذا كان كوكب الأرض ينتج هذا القدر من الطعام اليوم، فلم يكن هذا بسبب «الزراعة العضوية»، إنما بسبب العلم.

لو استخدمنا كلَّ ما يَنْتُجُ على الأرض من أسمدة عضوية ـ رَوْث المواشى، مخلفات البشر، بقايا النباتات ـ فلن نستطيع أن نُطْعِمَ أكثر من أربعة بلايين شخص. يستخدم العَالَمُ اليومَ ٨٠ مليون طن من الأسمدة الأزوتية فإذا أردنا أن نوفر هذا القَدْرَ من الأزوت عضوياً فسيلزم أن نُضيف ٥ – ٦ بلايين من رؤوس الماشية. كم يا ترى من الأرض

> **القمح كما نعرف هو قوام الحياة البشرية، ولهذا النبات قصة وراثية تستحق أن تروى، فالواقع أنه قد نشأ نتيجة لثلاث وقائع منفصلة من هندسة وراثية طبيعية: إنا ندين بحضارتنا للهندسة الوراثية**




سنُخصص لهذه الرؤوس نزرعها بمحاصيل العلف بغرض تحويلها إلى روث؟! ثم من قال إن الغذاء «العضوى» أفضل غذائياً من المُسمَّد بالكيماويات؟

بل إن الكثيرين يرون أن زراعة الفاكهة والخضروات عضوياً بشكل خطراً صحياً على الإنسان، فقد تنتقل مُمرضات مثل إ. كولاى والشيجيلاً والسالمونيلاً - التى تتكاثر بمعدة الحيوان، إلى أوراق الخضروات وثمار الفاكهة والدرنات. لقد اتضح أن نسبة تتراوح ما بين ١,٢٪ و ٤,٤٪ ممّا يسوّق من هذه المنتجات العضوية تحمل السالمونيلا والشيجيلا، إذ تلتقطها من التربة أو من الرَّوث المستخدم فى التسميد، أو من الماء الذى تُغسَل به الفواكه والخضروات عند تجهيزها للبيع. وقد وجد البعض أن احتمالَ التسمم من بكتريا إ. كولاى بالطعام العضوى يفوق بكثير جداً احتمالَ التسمم من الغذاء غير العضوى.

إطعام الجوعى

تحمل الأرضُ الآن من البشر ستةَ بلايين، يُضاف إليهم فى كل عام ثمانون مليوناً. يعانى ٨٠٠ مليون إنسان من الجوع ونقص الغذاء، ويعانى أكثر من بليونين من سوء التغذية، ونتيجةً لذلك يموت من الجوع وسوء التغذية فى كل عام خمسةُ ملايين طفل بالعالم الثالث الذى يحمل ٨٠٪ من سكان العالم. وإمكانياتُ زيادة الرقعة المزروعة، ومياه الرى، محدودةٌ فى الكثير من بلاد العالم. لابد أن تزدادَ غلةُ ما ينتجه فدانُ الأرض من المحاصيل، نوفر بذلك الغذاءَ ونحمى الطبيعة فلا نلجأ إلى اجتثاث الغابات. والبيوتكنولوجيا والهندسة الوراثية هى السبيل الذى هدانا له الله لمواجهة المشكلة. والحركاتُ البيئية معظمُها ليست مهيأةً لإيجاد الحلول. الحلول التى تقدمها هزيلة وهزلية وتتسم أحياناً باللاإنسانية - وظيفتها الحقيقية هى الدراما والفضائح. تنسى حياة ملايين الفقراء وتخشى موت فراشة!

تَزَايُدُ الطلب فى أوروبا على الطعام العضوى الأغلى سعراً، وكُرهُ الأوروبيين للأطعمة المحوَّرة وراثياً يثير البلبلة فى الدول النامية كما رأينا، ويعطل قبولها لهذه الأغذية. والتعطيل أصبح يعنى أرواحاً بريئة تُزهَق. قد لا يتأثر مجتمع الرفاهية الأوروبى بمثل هذا السلوك، حيث فائض الغذاء، أما فى العالم الثالث فالأمر جد مختلف. منذ عام ١٩٩٨ والاتحاد الأوروبى يرفض الترخيص بأية محاصيل عبرجينية جديدة، ولقد ظل طويلاً متمسكاً بموقفه هذا على الرغم من أن الملايين من الأمريكيين يأكلون هذه المحاصيل كلَّ يوم دون أية آثار سلبية (وغياب الشواهد على وجود آثار سلبية ليس شاهداً على غيابها، كما يقول مذهب الحيطة!!)، وعلى الرغم من أن السائحين الأوروبيين فى أمريكا لا يصطحبون معهم حقائبَ مليئةً بالطعام «المأمون»، وعلى الرغم من أنهم فى بلادهم يأكلون أجباناً صُنِعَت بإنزيمات أنتَجَتها كائناتٌ دقيقة مُهَنْدَسَةٌ وراثياً، وعلى الرغم من أنهم لا يعترضون على لِبْسِ منسوجات من قطن مُحَوَّر، أو على الإنسولين البشرى الذى تصنعه لهم البكتريا عبرالجينية. ولقد دفع هذا بعض المراقبين إلى القول إن كلَّ هذا الجدل الذى يدور الآن فى أوروبا حول الأغذية المحورة وراثياً، ليس فى واقع الأمر سوى محاولة لستر تخلف الزراعة الأوروبية عن الزراعة الأمريكية: هو فى جوهره صراع اقتصادى بين الشركات الأوروبية والأمريكية!




وأخيراً تحولتْ سياسةُ المفوضية الأوروبية (فى ١٧ أكتوبر ٢٠٠٢) لتقبل ثانية طلبات تسجيل المنتجات المحورة وراثياً، وإن كان هذا التحولُ لا يعنى أن العقبات أمام تسويق هذه المنتجات قد أُزيلت تماماً، فهناك من القوانين فى دول الاتحاد الأوروبى ما يُمَكِّنُ أقليةً منها من أن تُوقف تداول هذه الأطعمة فى بقية الدول - والدول المعارضة هى فرنسا والنمسا وبلجيكا والدانيمرك وفنلنده واليونان وإيطاليا. ولقد وافق البرلمان الأوروبى مؤخراً (فى ٢١ نوفمبر ٢٠٠٢) بأغلبية ٢٨٤ صوتاً ضد ١٦٠ (وامتناع سبعة) على تعضيد إلغاء وقف التسجيل.

كما أن البعض من حكومات العالم الثالث قد رأت أن تطرح المخاوف جانباً وأن تدخل المجال بجسارة. فى عام ٢٠٠١ زَرَعَتْ الصين من قطن بى تى المُحَوَّر وراثياً مليون فدان ونصف المليون، وكانت فى عام ١٩٩٨ تزرع مائة ألف فدان فقط. تنوى الشركةُ صاحبةُ هذا القطن أن تزرع منه بالهند مليون فدان فى مايو ٢٠٠٣، بعد أن وافقت الحكومة على ذلك (فى أكتوبر ٢٠٠٢). كان الفلاحون الهنود فى مارس ٢٠٠٢ قد هددوا بأن يقوموا بحركة عصيان مدنى ويبدأوا بزراعة بذور هذا القطن إذا لم توافق الحكومة، وذلك بعد أن رأوا بأعينهم التجربة فى بلادهم، وظهر لهم كيف أنه يقاوم الحشرات ويعطى محصولاً أوفر بكثير من سلالاتهم المحلية.

ولقد وَصَلَتْنَا رسالةُ التخويف، وأصبح الناسُ فى بلادنا يتوجَّسون خيفةً من الهندسة الوراثية. كم مرة سمعتُ فيها من يؤكد أن الغذاءَ المُهَنْدَسَ وراثياً أقلُّ جودةً من طعام «الأيام الخوالى»: كانت الفراولة «أطعَم»، ذات نكهة، أما الآن فهى «ماسخة»! هذا فى الوقت الذى لا توجد فيه بأسواقنا أصلاً أية فراولة محورة وراثياً! لقد بَلَغَتْنَا المخاوفُ والشكوكُ حتى قبل أن نبدأ جدياً فى استخدام الهندسة الوراثية فى تحسين المحاصيل الرئيسية. هذا المناخ يعم بلادنا. التكنولوجيا الحديثة أصبحت تعنى عندنا الكمبيوتر والإنترنت والتليفون المحمول. أما البيوتكنولوجيا فليس ثمة مَنْ يَذْكُرُها. أصبح من بين أهم المشاريع «القومية» تزويدُ كل طالب وكل بيت بجهاز كمبيوتر. كما بدأت بعض الشركات الزراعية تُنتج «الغذاء العضوى» (لتصديره إلى أوروبا، ربما). متى نسمع مَنْ يتحدث بصوت عال ويقول إن البيوتكنولوجيا أهم لبلدنا بكثير من الكمبيوتر، وأن توفيرَ الرغيف لكل طالب أهم كثيراً من توفير الكمبيوتر له! ■

لكل منا صوته الخاص...

جيمس ميك

■ فى المدرسة، تعلمت الرياضيات على أيدى الزوجين دياز. بالنسبة للسيدة دياز، تطلب الأمر بعض الخيال. فقد كانت تعلمنا ما يعرف فى المنهج الإسكتلندى بالحساب، الذى كان سهلاً بشكل عام. فمازلت أذكر درساً اسمه «كيف تكتب شيكاً»، وغياب الدرس الذى يقابله «كيف تصرف شيكاً». لم تكن السيدة دياز فى حاجة إلى أن تشرح الفائدة من معرفتنا بكيفية الحساب. ورغم هذه المعرفة، لا أمتلك القدرة على حساب الفوائد المركبة، التى تفيد كثيراً فى التعامل مع صاحب القروض العقارية.

أما السيد دياز فقد ركب الصعب، حيث كان يقوم بتدريس الرياضيات نفسها. وكان عليه أن يبنى على أسس الجبر التى تعلمناها فى المدرسة الابتدائية عالماً متألقاً من حساب التفاضل ونظرية المصفوفات. لقد بدا آنذاك بصورة تثير الإعجاب. وكان مأسوراً بما فى البراهين التى يقدمها لنا من رونق. واستهواه دور مصارع الثيران، الذى يعترض مسار الجنون المرعب لدنيا الرياضيات قبل أن يظهر قدرته على وضعها تحت السيطرة. ولم تكن سيطرته على الوحوش الأخرى فى الفصل - نحن - أقل شدة. فقد أعطاه صوته البارد، مثل أجلاف هوليوود، عبقرية طبيعية فى إشعارنا بالإزعاج.

لكنه كان يفتقد القدرة على التخيل ليشرح لنا جدوى دراسة موضوعات غامضة ومعقدة مثل حساب التفاضل. وكجيش من الريفيين تم حشده وتلقينه، افتقدنا بدورنا التخيل الذى يدفعنا إلى التساؤل.

كان بفصلنا عدد من الطلبة الجيدين، وإن تميز أحدهم بشكل استثنائى. وقد مارس هذا الأخير نوعاً من الانتقام السلبى من السيد دياز، بأن صار محاسباً بدلاً من التوجه إلى دراسة الرياضيات. وانخرط آخرون فى دراسة الرياضيات والفيزياء بالجامعة. وتخلصت البقية من الامتحان، ثم نسيت كل ما تعلمته. وبالنسبة لى، مازلت أستطيع الجمع والطرح وحساب النسبة المئوية البسيطة (وكتابة الشيكات) لكننى لا أستطيع حل أقصر المعادلات. ولا ألوم السيد دياز على ذلك. لقد كان من الأفضل أن يربط ما يعلمه لنا بما فى الواقع من أمور وأشخاص، كالأسلحة النووية أو إينشتين أو السفر فى الفضاء. نعم، كان ذلك أفضل، لكنه ما كان ليجعلنى جيداً فى الرياضيات. فالرياضيات صعبة، وتحتاج إلى موهبة خاصة للتميز فيها. فلا يكفى أن تدرسها، أو أن يكون لديك مدرس يثير إلهامك، أو ألا تكون كسولاً. عليك أن تمتلك الرغبة، والقدرة على السباحة فى الأرقام، دون أن تكتفى بحبس أنفاسك وتغطس.

إن العلماء يستمدون القوة من تماثلهم. فالكل ينتمى إلى الامتهان بالعلم، ولديهم نظم اجتماعية مشتركة - ضغوط النشر فى مجلات علمية والسعى وراء الحصول على منح بحثية. ومع ذلك، عندما نقترب منهم بدرجة أكبر لا نجد علماءَ. هناك فقط مشتغلون بالرياضيات أو الفلك أو البيولوجيا الجزيئية، وآلاف المتخصصين فى مجالات أخرى، ولكن فى عقول غير المشتغلين بالعلم تعانى هذه التخصصية من تداعى المعانى. ولعل الغموض السحرى للرياضيات، الذى نتذكره بعدم ارتياح من أيام الدراسة، يمثل أكثر من أى شىء آخر الدوافع لإثارة الرهبة عند الجمهور والحرص عند الصحفيين بالنسبة للعب دور الوسيط بين العلماء والناس.

هذا الأمر يعد غريباً، لأن القضايا العملية الخلافية فى وقتنا الحالى، وبغض النظر عن الوصف الجامع المانع «للعلم»، لا تتصل كثيراً بالرياضيات والمعادلات. فقضايا الاستنساخ وبحوث الخلايا الجذعية والعلاج الجينى والاختبارات الوراثية، والأغذية المحورة وراثياً (التى تمثل موضوع الكتب الثلاثة التى نعرضها) قد تكون صعبة فى تفاصيلها الدقيقة، لكنها ليست كذلك فى أساسياتها. فغير المتخصص يمكن أن يستوعبها بدرجة تفوق بكثير استيعابه للحوسبة الكمية أو الفلك أو فيزياء الجسيمات. وهو أمر لا يصدق فقط بالنسبة لغير المتخصصين، بل ينطبق على العامة الذين تركوا الدراسة دون تأدية الامتحان فى المواد العلمية.

إن انعدام الرغبة لدى العامة، والإعلام فى بعض الأحيان، بالنسبة لاستيعاب أسس البيولوجيا، يعد عند أنصار المحاصيل المحورة وراثياً ومؤيديهم فى المعسكر المختلط للعاملين فى الكيماويات الزراعية، السبب فى معارضة هذه الأغذية. فالعلماء محبطون. والتساؤل الذى بدأ بمقولة «لماذا لا يثقون فينا، ما دمنا نعرف أفضل؟» يمكن أن يكون قد تحول إلى «لو أنهم فهموا، إذاً لوثقوا بنا»، لكن مصدر الاستياء واحد: جهل غير منطقى أو ضرورى، يغذيه بشناعة نشطاء ينشرون الخرافات. هذا ما يجب أن نلومه بالنسبة للحركة المعادية للتحوير الوراثى.

لكن هذا الاستياء غير مبرر. صحيح أن معظم الناس يمكنهم فهم الجانب العلمى لهذه المحاصيل بمجهود أقل مما يتصورون، وأن الرغبة غير متوفرة لبذل هذا الجهد. لكن المعارضة الجماهيرية للمحاصيل المحددة وراثياً ليست لها علاقة كبيرة بفهم العلم من عدمه. لكنها ترتبط إلى حد كبير بكراهية أن تسيطر شركات لا يمكن محاسبتها على الزراعة، وبحس

١- A Grain of Truth: The Media, The Public and Biotechnology
(الإعلام والجمهور والتكنولوجيا الحيوية)
Susanna Hornig Priest
Rownan & Littlefield, 2002, 160PP.

٢- Travels in the Genetically Modified Zone
(رحلات فى منطقة التحوير الوراثى)
Mark Winston
Harvard UP, 2002, 88PP.

٣- Seeds of Contention: World Hunger and the Global Controversy over GM Crops
(الجوع والجدل العالمى حول المحاصيل المحورة وراثياً)
Per Pinstrup-Arderson
Johns Hopkins, 2002, 176PP.

المحاصيل المحورة وراثيًا.. لماذا يخشاها الناس؟

دقيق يوصى بأن العلماء قد لايكونون على معرفة تامة بما يعملونه، وأخيرًا بارتباط بفكرة «الطبيعة»، التى تعد انفعالية وعاطفية ولا منطقية، وبالتالى لا يمكن تخطئتها أو إثبات صحتها بالأساليب العلمية. ولعل الاعتماد المتزايد على رأس المال الخاص جعل الكثير من العلماء غير مدركين للفارق بين العلم وتطبيقاته العملية. وعلى هؤلاء أن يتذكروا أن حكم العامة على تطبيقات العلم، حتى لو بنى على معايير غير علمية، لا يمكن تجاهل فعاليته.



فى كتاب A Grain of Truth تذكر سوزانا هورنج بريست أن دراسة مسحية جرت فى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٩٨ أوضحت أن ما يزيد قليلاً على خمس العينة فقط استطاع أن يقدم تعريفًا معقولاً للدنا (DNA). وتواصل قائلة: إن عدم قدرة البعض على إعطاء تعريف مقبول للدنا لا يستتبعه بالضرورة ألا يكون لهم صوت فى المجالات الدائرة حول التكنولوجيا الحيوية».

لقد زرت منذ بضعة أسابيع مزرعة لنباتات الكلوف (كبش القرنفل). وبراعمها، المصطفة على الشجرة بلحائها الأسود والأبيض تشبه إلى حد ما البتولا. هذه البراعم التى لم تكن قد نضجت بعد، كانت صغيرة ذات لون أخضر زاه وعصيرية. وبتشجيع من الدليل، التقطتُ أحدها من على الشجرة، وقمت بمضغه. هذا البرعم، كان قبل التعاطى له مباشرة جزءًا من شجرة حية. وهو يتكون من ملايين من خلايا الكلوف، كل منها يحتوى على مجموعة كاملة من جينات الكلوف المبنية من الدنا. وفى كل خلية عشرات الآلاف من بروتينات الكلوف التى تتفاعل فيما بينها. فباستخدام جينات الكلوف كقوالب تقوم بعض البروتينات ببناء بروتينات جديدة، وتتبادل بروتينات أخرى الرسائل فيما بينها، بينما تقوم مجموعة أخرى من البروتينات باستخدام القوالب الجينية فتكرار الجينات نفسها كجزء من عمليات بناء خلايا جديدة. هذا هو جوهر استمرارية الحياة: الجينات تعمل كقوالب للبروتينات، التى تنسخ بدورها الجينات، التى تعمل مرة أخرى كقوالب للبروتينات، وهكذا وهكذا إلى الأبد.

لقد وضعت هذا الشيء الأخضر الصغير فى فمى، بكل ما فيه من بلايين من جينات وبروتينات الكلوف الغريبة عنى. ومع كل ما كان يموج بها من جراء هذا الطارئ المفاجئ الذى تعرضت له، لم أتحول إلى كلوف.

لكن شيئًا ما قد حدث بالطبع. لقد تفاعلت مجموعة صغيرة من البروتينات فى خلايا الكلوف مع بروتينات خلاياى وأرسلت إلى عقلى إشارة الإحساس بالمرارة والمذاق الشديد للكلوف، كما جعلت فمى يشعر بالخدر الذى جعل من زيت الكلوف علاجًا قديمًا لآلام الأسنان.



إن الفارق بين الجينات والبروتينات يعد محور سوء الفهم الشائع بالنسبة للجانب العلمى للخلاف حول المحاصيل المحورة وراثيًا. الجينات هى المعلومات: والبروتينات مستخدمو هذه المعلومات. فبدون البروتينات تعتبر الجينات كمجموعة من التعليمات التى لا يقرأها أو ينفذها أحد. وبدون الجينات تصير البروتينات كعشيرة نسيت كل ما تعرفه وليس لها من سبيل لتعرف ما الذى تقوم بعمله بعد ذلك. والبروتينات الخطأ قد تكون سامة أو ممرضة، أو حتى قاتلة إذا ما هضمناها.

أما الجينات الخطأ، فلا تستطيع ذلك من تلقاء نفسها. من السهل جدًا أن تصل البروتينات الغريبة إلى خلايانا وتسبب المتاعب، لكنه أمر بالغ الصعوبة بالنسبة للجينات الغريبة. ففى الظروف الطبيعية، هنالك طريقتان لدخول الجينات الغريبة إلى خلايانا ـ عبر الفيروسات، وعن طريق الجنس بين الأنواع شديدة القرابة. إننا نتناول الجينات الغريبة طوال الوقت، لكنها لا تؤثر فينا. فعندما نتناول التونة الطازجة نقوم بهضم العديد من تريليونات النسخ من المجموعة الكاملة لجينات التونة، دون أن نتحول إلى تونة. وفى نفس الوقت، يمكن أن نكون قد هضمنا ملايين النسخ من مجموعات جينات البكتريا المصاحبة، دون أن نتحول إلى بكتريا. لكن البروتينات السامة التى تنتج عن هذه المجموعة من الجينات البكتيرية قد تتسبب فى تسممنا.

لقد مارس الإنسان التحوير الوراثى للمحاصيل بصورة محدودة لأكثر من عشرة آلاف عام، أى منذ أن كان هنالك مزارعون. فى البداية، تم ذلك ببساطة بانتقاء أفضل النباتات بعد كل حصاد ووضع بذورها جانبًا لاستخدامها كتقاوى لمحصول العام التالى. هذه العملية بلغت أوجها على يدى روزول جارست، وهو مقاول من كون رابيدز بأيوا، ابتدع منذ الثلاثينيات وما بعدها نموذجًا للصناعات الزراعية جعل إدماج المحاصيل المحورة وراثيًا فى الزراعة الأمريكية بالغ اليسر. لقد جمع جارست بين التكنولوجيا الجديدة (زيادة محصول الحبوب من خلال البحوث الخاصة بالتهجين بين سلالات الذرة) وفن البيع والتنظيم. لقد أقنع المزارعين بشراء كميات التقاوى المطلوبة سنويًا من شركة كبيرة تنتج الهجن بالطرق العلمية، بدلاً من شرائها من تاجر التقاوى المحلى، ناهيك عن استخدام تقاويهم الخاصة. وتمثلت قمة انتصاره فى قيام خروشوف بالسفر إلى كون رابيدز لمقابلته وشراء تقاويه (يشير مارك ونستون إلى أن كلاً من نظامى الزراعة الأمريكى والسوفيتى، اللذين يحتاجان إلى كميات كبيرة من الأسمدة، قد عانى من الانهيار فى نفس الوقت تقريبًا فى الثمانينيات، بسبب العجز المالى فى النظام السوفيتى، وبسبب وفرة الذرة فى النظام الأمريكى، بحيث صارت تكلفة زراعته تفوق ضعف ثمنه فى الأسواق). إن التقنيات الحديثة للتحوير الوراثى ليست موجهة بالضرورة لإنتاج كائنات مشوهة شكلاً وحجمًا، بحيث تبدو المحاصيل التقليدية اليوم بالمقارنة بأصولها البرية مثل سلالة كلاب الدشهند الألمانية بجانب الذئاب. إن كيزان الذرة التى تنتجها، والتى تبلغ طول الساعد، لا تستطيع أن تعيش فى البرية. بينما لا يتجاوز حجم أول كيزان ذرة زرعت منذ سبعة آلاف عام حجم الإبهام. ولكن، بالنسبة لتحسين المحصول نجد أن الحنكة المتزايدة فى عمليات التربية عبر القرون القليلة الماضية، أدت إلى نتائج ملحوظة. ففى العصور الوسطى فى أيرلندا، لم يكن المزارعون يتوقعون الحصول على أكثر من نصف طن من القمح لكل هكتار من الأرض. وفى عام ١٩٩٠ بلغ الرقم أكثر من ثمانية أطنان.

إن لوبى (جماعات ضغط) الصناعات الزراعية ـ الذى يوصف عادة بكونه أمريكيًا، رغم أنه يتضمن العديد من الشركات متعددة الجنسية الأوروبية ـ يحبذ النظر إلى حلول المحاصيل المحورة وراثيًا باعتباره امتدادًا لبرنامج جراست: المزيد من التحسينات العلمية، محاصيل أكثر تحملاً وأكثر غلة. استخدام أكثر كفاءة للأسمدة ومبيدات الآفات والحشائش، وقدرة أكبر على استزراع الأراضى منخفضة الجودة. كما أن مؤيدى المحاصيل المحورة وراثيًا فى المجتمع العلمى (رغم صعوبة التفرقة بين العلماء ورجال الأعمال بالنسبة لعلوم الحياة فى هذه الأيام) يعتقدون أن العامة قد ضللوا بواسطة جهل وحقد وإثارة الإعلام الغربى، ودفعوا إلى عدم الثقة فى الجانب العلمى للتحوير الوراثى بشكل لا عقلانى.

ومن أكثر أشكال التحوير الوراثى للمحاصيل شيوعًا ما يتضمن إدماج جينات البكتريا العصوية باسيلى ترنجنسس (Bacillus Thuringiensis) أو Bt اختصارًا. هذه البكتريا، التى توجد عادة فى التربة، تنتج بروتينات سامة تضر ببعض أنواع الآفات الحشرية. وعندما نقوم بإدماج الجينات التى تُشفِّر لهذه البروتينات ضمن الجينات الطبيعية للنباتات، تبدأ هذه النباتات فى إفراز السموم فى أوراقها، مما يجعلها قادرة على صد هجوم العديد من الحشرات دون استخدام المبيدات. وقد تم السماح بالاستخدام التجارى للمحاصيل المحورة بجينات Bt فى الولايات المتحدة عام ١٩٩٥، وبحلول عام ٢٠٠٠ كان ما يقرب من ثلث الإنتاج الأمريكى من الذرة والقطن محورًا بهذه الطريقة.

وكما هو الحال بالنسبة للكلوف والتونة، فإن هضم مثل هذه الذرة المحورة لا يعطى لجين Bt فرصة ليتسلل داخل خلاياك ويصير جزءًا منك ـ أو على الأقل ليست هنالك فرصة لحدوث ذلك أزيد من المتاح لجينات الذرة الطبيعية. أما إذا كان البروتين السام للحشرات له نفس التأثير بالنسبة للإنسان، فإن من الخطر تناول ذرة Bt. لكن هذه البروتينات تعتبر آمنة بالقدر الكافى الذى جعلها من بين المبيدات القليلة التى يستخدمها أنصار الزراعة العضوية. إذا كان الأمر كذلك، فما هو الخطأ بالنسبة لمحاصيل Bt؟



يميل اللوبى المؤيد للتحوير الوراثى إلى المبالغة فى تقدير ما نعرفه عما يحدث فى الخلايا الحية، النباتية أو الحيوانية. نعم، من غير المحتمل أن تحدث الجينات الغريبة المولجة اصطناعيًا بنفسها ضررًا لأحد، كما أن البروتينات التى تنتجها هذه الجينات يمكن اختبار درجة أمانها بصورة منعزلة.

ولكن مالا نعرفه هو كيفية تفاعل الجينات المولجة مع الجينوم، أو مجموع الجينات الطبيعية. إن العلماء يعرفون أن هنالك من البروتينات فى الخلايا ما يفوق كثيرًا ما يوجد من الجينات، مما يعنى أن بعض الجينات لابد أنها تنتج أكثر من بروتين. كيف تقوم بذلك؟ لسنا متأكدين بالقطع. إن البروتينات معقدة جدًا حتى أن



إغاثة الأمة بكشف الغمة

حصلت الفتنة بين السلطان والأمراء، وتوقفت أحوال الوزير فخر الدين بن الخليلى، وازداد ظلم أتباع السلطان ومماليكه، وتكاثر جورهم وعظم طمعهم فى أخذ البراطيل والحمايات، وكثر عسفهم وغصبهم من الأمراء. ولعبت الناس فى الفلوس لما ضربت، فنودى أن يستقر الرطل منها بدرهمين، وزنة الفلس درهم؛ هذا أول ما عُرف من وزن الفلوس. واشتد ظلم الوزير ـ وهو الصاحب فخر الدين بن الخليلى ـ لتوقف أحوال الدولة من كثرة الكلف، فأرصد متحصل المواريث للغداء والعشاء، وأخذ الأموال الموروثة ولو كان الوارث ولدًا أو غيره: فإذا طالبه الولد بميراث أبيه، أو الوارث بما أنجر إليه من الارث، كلفه إلى إثبات نسبه أو استحقاقه، فلا يكاد يثبت ذلك إلا بعد عناء طويل ومشقة، فإذا تم الإثبات أحاله على المواريث، حتى إذا مات آخر وله مال ووارث من ولد ذكر أو غيره فعل معهم كذلك، فتعجز الورثة من الطلب، فتترك المطالبة.

ووقع بآخر هذا الغلاء أعجوبة فى غاية الغرابة لم يسمع بمثلها: وهى أن رجلاً من أهل الفلح بجبة عسال ـ إحدى قرى دمشق الشام ـ خرج بثور له ليرد الماء، فإذا عدة من الفلاحين قد وردوا الماء، فأورد الثور حتى إذا اكتفى نطق بلسان فصيح أسمع من بالمورد، وقال: «الحمد لله والشكر له. إن الله تعالى وعد هذه الأمة سبع سنين مجدبة، فشفع لهم النبى صلى الله عليه وسلم، وإن الرسول أمره أن يبلغ ذلك، وإن قال يارسول الله فما علامة صدقى عندهم، قال: أن تموت بعد تبليغ الرسالة»، وأنه بعد فراغ كلامه صعد إلى مكان مرتفع وسقط منه ومات.



كل ما وصل إلى أسماع الجماهير ضد الغذاء المحوَّر وراثيًا جاء نتيجة عَرْض خادع غير أمين قام به متمرسون فى البروباجنده لم تكن أهدافهم دائمًا فوق مستوى الشبهات: يحكون نصف الحقيقة، يهوّلون من أخبار ويخفون أخرى



أقوى كمبيوترات العالم تحاول أن تقوم بنمذجة عمليات الطى لأحدها. ولأن هنالك من يظن أن جنون البقر كان نتيجة للطى الخاطئ لأحد البروتينات الطبيعية، كيف لنا أن نعرف ما إذا كان أحد التفاعلات غير المتوقعة بين بروتين طبيعى وبروتين محور وراثيًا ليس من المحتمل أن يؤدى إلى جزىء هجين غير مرغوب؟ لا ندرى.

إن القاعدة العامة التى تقصر سبل انتقال الدنا من كائن إلى آخر على الفيروسات والجنس ليست مطلقة. فالانتقال الأفقى للجينات، كما يسمى، يحدث بصورة محدودة عندما تتناول الحيوانات، بما فى ذلك الإنسان، أى غذاء ـ فجينات الغذاء تدخل عددًا قليلاً من الخلايا المبطنة للجهاز الهضمى دون أن تحدث ضررًا، ولا تذهب إلى أبعد من ذلك. لكن الأكثر مدعاة للقلق هو النقل الأفقى للجينات الذى يتضمن البكتريا. فالأسلوب التى تولج به الجينات فى المحاصيل المحورة وراثيًا قد يعنى انتقالها من النبات إلى البكتريا البرية ومن البكتريا البرية إلى البكتريا التى تعيش فى أحشاء الإنسان. وهذا أمر مزعج، إذا ما عرفنا أن بعض الجينات التى تولج اصطناعيًا فى النباتات تستطيع إكساب البكتريا القدرة على مقاومة المضادات الحيوية.

ومن المخاوف ذات الصلة، إن انتشار محاصيل Bt قد يؤدى إلى التلقيح والإخصاب الخلطى بينها وبين النباتات البرية شديدة القرابة وإنتاج حشائش فائقة؛ وأن تعرض الحشرات الثابت لهذه المحاصيل المحورة قد يجعلها مقاومة، مما يحرم مستخدمى الزراعة العضوية من واحد من أهم خطوطهم الدفاعية ضد الحشرات، وربما يتمثل أكبر المخاوف فى أن السيطرة العلمية الأكبر على البيولوجيا تعنى سيطرة أكبر للشركات على هذا العلم، وبالتالى سيطرتها على الحياة نفسها.

إننى أشك فى أن يؤدى الفهم الشعبى الأكبر فى هذا البلد (بريطانيا) للجانب العلمى للتحوير الوراثى إلى درجة أكبر من الحماس فى الاقتداء بأمريكا وتطبيق هذه التكنولوجيا بالجملة، ومع ذلك يبقى الفهم أمرًا محبذًا وضروريًا. إن بريست، وهى أستاذ الصحافة المشارك فى جامعة تكساس، تدين وسائل الإعلام المطبوعة فى أمريكا لكونها جاهزة لقبول موقف الشركات بالنسبة للمحاصيل المحورة، وأنها شديدة الاعتماد على السطوة المحلية لوكالة أنباء عملاقة واحدة، هى الأسوشيتد برس (تذكر مصحوبة بأداة التعريف فى أمريكا، وبدونها فى بريطانيا). وهى تقارن بشكل سلبى بين الصحافة الأمريكية غير الموالية ووسائل الإعلام الأوروبية الموالية. فبينما تصور الصحافة الأمريكية على أنها «حرة قانونيًا لكنها مقيدة اقتصاديًا، تقول إن الوضع فى المملكة المتحدة وأغلب أوروبا يؤدى إلى أن التقارير الإخبارية لا يتوقع أن تكون موضوعية بمعنى خلوها من المغزى السياسى ـ رغم وجود توجه نحو تسيد وجهة نظر مؤسسة أكبر، كما هو الحال فى الولايات المتحدة.

والأكثر من ذلك، بالنسبة لحالة المحاصيل المحوَّرة وراثيًا، نجد أن وصف بريست للصحافة المنحازة، لا ينطبق على الحالة فى بريطانيا، على الأقل بالنسبة لتصنيف الصحف باعتبارها مؤيدة أو معارضة. فليست هنالك جريدة لم تتملق المحاصيل المحوَّرة بذكر ما يمكن أن يكون لها من استخدامات وفوائد، وفى نفس الوقت ليست هنالك جريدة غير متحفزة لإطلاق النار عند أية إشارة ضعيفة لما قد يكون لها من أضرار. والقواعد الطبيعية التى تحكم «اليسار» و«اليمين» لا تنطبق هنا. أى وجهة يمكن أن تتخذها الصحف الملكية، عندما يعلن ولى العهد اعتباره أن المحاصيل المحوَّرة معرَّضة للنتن؟ وما موقف الصحف التى كانت تؤيد أفكار التقدم بالنسبة لكل البشر، وتدعو إلى أن يعالج العلم المشكلات العالمية، بعد أن تمت خصخصة البيولوجيا؟

ليس هنالك من بين هذه الكتب ما هو بريطانى أو حول الوضع فى بريطانيا، عدا ما جاء فى كتاب ونستون من التغطية الواعية، وإن كانت أقل من الواقع، عن الصدام بين أحد خبراء النحل الكنديين ومناصرى التحوير الوراثى، هذه التغطية تعرض صورة أمينة للمزاج السائد فى بريطانيا فى ضوء زيارته لها. فهو يتفهم المغزى الكبير لكارثة جنون البقر فى تشكيل الموقف الشعبى تجاه العلم. ويشير إلى تمسك البريطانيين بنقاء الريف، الذى تم تطويقه لخدمة احتياجاتهم منذ آلاف السنين. ويرى فى العداء البريطانى لقيام الشركات بتصدير التكنولوجيا الحيوية كالتزام يمليه الضمير تجاه الطبيعة الاستغلالية لإمبراطوريتها. وبالمقارنة بأمريكا الشمالية، التى توجد بها المحاصيل المحوَّرة فى كل مكان، تعد بريطانيا «عالمًا بديلاً». لقد «أخذ العلماء على حين غرة بقوة المعارضة، وأصيبوا بالحيرة حيال قصور القضايا العلمية لدى المحتجين».

يميل لوبى التحوير الوراثى إلى لوم وسائل الإعلام المتشككة فيه، لقد كان هنالك بالقطع نوع من التحريف والتبسيط الزائدة فى التغطية البريطانية للتحوير الوراثى، تمامًا مثلما كانت هنالك صحافة أكثر حرصًا، وذات ضمير حى. وإن كان على العلماء ولوبى التكنولوجيا الحيوية أن يتذكروا أن الصحف والتليفزيون والإذاعة، مهما كانت طموحاتهم، لا




يمكن أن يكونوا معلمين، وأن قراءهم ومشاهديهم ومستمعيهم ليسوا تلاميذ. إن وسائل الإعلام تحذر وتعطى المعلومات وتشرح وتجادل بعنف وتسلى وتُذكّر وتسترجع وتحُث. ولا يعد أى من هذه الأمور تدريسًا. ليس هناك اختبار. لقد عرف العالم «لغة» علم النفس من وسائل الإعلام، ونجم عن ذلك اعتبار من لا يستطيع اتخاذ قرار بسهولة مصابًا بالفصام، أو يعانى من البارانويا إذا ما استشعر أن هنالك من لا يحبه، أو عصابيًا إذا ما عانى القلق، أو شاذًا سلبيًا إذا ما كان رقيقًا، أو ذهانيًا إذا كان غضوبًا. إن التدريس يجب أن يتم بواسطة المدرسين. وفى عالم امتلك فيه العلماء القدرة على تحويل الكائنات على المستوى دون الخلوى، فإن السماح للأبناء بمغادرة المدرسة دون أبسط خلفية عن بيولوجيا الخلية، يعد أمرًا غير مسئول مثل السماح لهم بتركها دون معرفة الكتابة والقراءة والحساب. كل فرد عليه أن يعرف ما هو الجين، وما هو الدنا، وما هو البروتين. ومن العظيم أن نعرف أن لب هذه المعرفة يتميز بدرجة كبيرة من المباشرة والبداهة، ولا يقتضى معرفة بالرياضيات. إن تدريس هذه المعارف للأطفال، الذى يفضل أن يتم فى المرحلة الابتدائية، يعد مرغوبًا فيه، وإن كان لا يؤدى بالضرورة إلى قناعة أفضل لدى الناس بالمحاصيل المحوَّرة وراثيًا.

لقد أشار برينستربـ أندرسن، وإيبى شولر فى كتابهما، الذى طُبع أولاً بالدانماركية، إلى نقطة جيدة بشكل غير جيد. لقد حاولا البرهنة على أن أكثر دول العالم فقرًا، التى لا تستطيع إطعام نفسها أو شراء الطعام من الآخرين، فى حاجة إلى إتاحة المحاصيل المحوَّرة وراثيًا حتى تستطيع زيادة إنتاجها واستخدام الأراضى القاحلة لإطعام الأعداد المتزايدة من السكان. ويرون بالتالى أن من حق هذه الدول الفقيرة، وليس من حق معارضى هذه المحاصيل فى الدول الغنية، تقرير الحاجة إلى استخدامها من عدمه. وهنا علينا أن نتذكر أن المتاح من الأرض المزروعة لكل فرد من سكان الكوكب يتوقع أن يكون ٠,١٥ من الهكتار فقط فى عام ٢٠٥٠، فى مقابل ٠,٢٦ فى الوقت الحالى.

لم يوضح العالمان لماذا يبدو مقبولاً بالنسبة لعلماء العالم الغنى التعاون مع علماء العالم الفقير، وبالنسبة لشركات العالم الغنى أن توقف التعامل مع حكومات العالم الفقير، بينما لا يبدو مقبولاً لديهم أن تتضافر جهود الحركات المناهضة للمحاصيل المحوَّرة وراثيًا فى كلا العالمين الغنى والفقير. إنهم يقرون بداية بإمكانية أن تؤدى طرق الزراعة العضوية بالأسلوب الغربى إلى تحسين المحصول فى الأراضى الأقل إنتاجية بالدول النامية. ومن الأمور ذات الدلالة الكبيرة، أنهم وجدوا عددًا قليلاً جداً من الأصوات الأفريقية والآسيوية التى تساند حججهم. وهذا لا يعنى أنهم مخطئون بالنسبة للدول التى تعانى من الجوع؛ إن تغذية عالم مكون من عشرة بلايين نسمة تستلزم علمًا بارعًا. والواقع أن الكتاب تجرى به حركةَ مخادعة، تجعل من المحتمل أن تكون النقطة التى يريد المؤلفان تسجيلها ليست وجوب ألا تعيق الدول الغنية دخول المحاصيل المحوَّرة وراثيًا إلى العالم الفقير، ولكن الإشارة إلى أن حاجة الفقراء الملحة إلى هذه المحاصيل تواجه بموقف غير مسئول من الأوروبيين، يعطون به قدوة سيئة لمستعمراتهم السابقة.

نعم، يجب أن تكون القرارات المتعلقة بالمحاصيل المحوَّرة وراثيًا فى الهند من حق الهنود، ولكن يجب أيضًا أن تكون القرارات المماثلة فى بريطانيا من حق البريطانيين. إن المؤلفين يقتبسان بموافقة واضحة من جريدة «وول ستريت جورنال» تساؤلاً فى كلمة المحرر المنشورة فى فبراير الماضى «هل يمكن لأحد أن يشرح لنا بالضبط ما هو الخطأ بالنسبة للأغذية المحوَّرة وراثيًا؟ إن السؤال يحتاج إلى إجابة رياضية. وهذا ما لن يحصل عليه. إن اعتراضاتى على المحاصيل المحوَّرة وراثيًا، مثلى فى ذلك مثل الكثيرين فى هذا البلد، ليست علمية، أو حتى دينية، بل عاطفية رومانسية ووجدانية. إن نظامنا الإيكولوجى يمكن أن يكون قد تعرض للتسمم والنهب والخصخصة أكثر من مرة، وكذلك التحوير والترويض؛ لكنه مازال يعمل على أساس التجديد الذاتى، باعتباره النظام الذى صممه التطور فى الطبيعة. إنه مازال مصدرًا للعجب والتواضع والأمل المتبقى غير القابل للتوقع بالنسبة للموارد، التى نعانى بشدة من نقص إمداداتها. إن النظام الإيكولوجى مازال مشاعًا فى الواقع، وبما أن تكنولوجيا التحوير الوراثى لا يمكن احتواؤها بشكل آمن فى الأملاك الخاصة، فكل منا له صوت.

إننى غير متأكد من كونى قد أجبت على سؤال الجريدة. قد تأتى الإجابة الأفضل من مصدر متصل بالشركات: چين هارونج من سنسبرى.

ففى الحديث عن المستهلكين البريطانيين (لابد أنك تذكرهم، فهم البشر الذين اعتادوا أن يكونوا مواطنين فى هذا البلد) تقول هارونج: «إنهم ينظرون إلى الأمر ولسان حال كل منهم يقول: «إنكم تتلاعبون بحياتى ولستم متأكدين بالقطع أنكم تفعلون هذا الأمر بشكل آمن، وحتى يمكنكم ذلك أريدكم ألا تفعلوا». ■

بترتيب خاص مع مجلة: لندن ريفيو أوف بوكس.

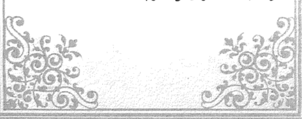
ترجمة: أحمد شوقى



إغاثة الأمة بكشف الغمة

فى أول شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعمائة «٧٣٦هـ» وقع الغلاء بالديار المصرية، فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ وعزّ القمح ووصل كل أردب إلى سبعين درهمًا، والفول إلى خمسين، والخبز كل خمسة أرطال بدرهم، ولا يكاد يوجد. وعدم القمح من الأسواق، وصار على كل دكان من دكاكين الخبازين عدة من الناس، وصار الخبز كالكُسب من السواد؛ فرتب الوالى على كل حانوت أربعة من أعوانه معهم المطارق لدفع الناس عن حوانيت الخبز لئلا ينهب. فضج الناس للسلطان واستغاثوا، فجمع الأمراء وقال لهم: «يا أمراء! شهر عليكم، وشهر عليّ، وشهر على الله»؛ ففتح الأمراء الشون، وباعوا كل أردب بثلاثين درهمًا، ففرج عن الناس؛ وفتح السلطان حواصله فى شعبان، وباع كل أردب بخمسة وعشرين درهمًا. ودخل الفول الجديد والشعير، فأكل الناس منه إلى أن دخل شهر رمضان، فجاء القمح الجديد، وانحل السعر.

ثم وقع الغلاء فى أيام الأشرف شعبان، وسببه قصور النيل فى سنة ست وسبعين وسبعمائة، فلم يبلغ ستة عشر ذراعًا. وكُسر الخليج، فانحط الماء وارتفع السعر، وعزّت الأقوات وقل وجودها، فمات الكثير من الجوع حتى امتلأت الطرقات؛ وأعقب ذلك وباء مات فيه كثير من الناس. وفى هذا الغلاء بلغ الفرّوج إلى مائة درهم فما فوقها، والبطيخة إلى مائة وخمسين؛ فأمر السلطان بجمع الفقراء، وفرقهم على الأمراء ومياسير التجار. ودام هذا الغلاء نحو سنتين، ثم أغاث الله الخلق وأجرى النيل، فارتوت الأراضى، وحصل الرخاء بعد ما خامر اليأس القلوب.



أياً ما كان الخطأ أو «التعمد» في دخول أو «اختراق» الطائرات الأمريكية الأجواء السورية المحاذية للعراق قبل أسبوعين، والذي كان «رسالة لنا» كما وصفه بشار الأسد، فإن الحدث - الذي بدا للبعض عرضيًا ولآخرين غير ذلك - لابد أن يُذكِّر بما كان من تصريحات أدلى بها زعماء عرب كبار قبل حوالي عام، أكدوا فيها أن واشنطن لن تضرب بغداد (بعد كابول). وأن تأكيدات أمريكية طمأنتهم.

يومها بدا أن التوقعات - رغم ما يتطلبه استشرافها من تجرد - اختلطت بالتمنيات مع ما يسكنها بحكم الطبيعة من أحلام وذاتية.

أياً ما كان الأمر فإن خبر الطائرات التي أخطأت دقة المسار، ذكَّر الكثيرين أيضًا بما شاع (أو تم تسريبه) من خطة الأمريكان «الشرق أوسطية» ذات المراحل. ولم يكن غريبًا بحال أن تعمد مواقع الإنترنت التي نقلت خبر الطائرات إلى وضع أخبار الخطة الأمريكية على الهامش في خانة (الموضوعات ذات الصلة).

ماذا بعد؟ يظل إذن السؤال الأهم. بعد أن بات السؤال: «هل يضرب الأمريكان العراق؟» غير ذي موضوع. إذا وضعنا التمنيات - على أهميتها ورغم الحاجة المعنوية إليها - جانبًا. وإذا وضعنا جانبًا أيضًا كل الجدل: عقيمه ومفيده، حول علامات الاستفهام: «هل.. ومتى» وأيهما أقرب للواقع، وأولى بالرعاية والاهتمام.

ماذا بعد؟

السؤال المهم له إجابات «غامضة» ثلاث: عراقيًا، وفلسطينيًا.. وفي المنطقة كلها التي لن يقتصر «الصدى» في أجوائها حتمًا على ذلك الناتج عن ضجيج طائرات دخلت «عرضًا» المجال السوري قبل أسابيع.

ماذا بعد..؟

عراقيًا، انفضت «اللويا جيرجا» -Version 2 بوثيقة توفيقية صدرت عن مؤتمر في لندن للمعارضة العراقية يُذكِّر حتمًا بخلافاته الكامنة تحت السطح، بذلك الذي كان قبل حوالي العام في العاصمة الألمانية بون، للبحث «أمريكيًا» في مستقبل أفغانستان بعد طالبان.

يختلفُ الفندق.. والعاصمة.. وتختلف السحنات والوجوه. وربما أزياء بعض المؤتمرين.. وتبقى ثوابت ثلاثة: المفردات.. وأمريكا.. وكاميرات التليفزيون.

تحدثوا هناك عن الاثنيات والمذاهب الدينية والأقليات. وامتلأ خطابهم هنا بالمفردات ذاتها، وبغض النظر عن الفارق بين الاثنى عشرية والباشتون وبين الصابئة والآشوريين. إذ يبقى ذلك من التفصيلات.

وأمريكا التي تظللت هناك بشعار الأمم المتحدة واسم الأخضر الإبراهيمي وسماحته، لم تتردد هنا في أن تعد الطبخة - علنًا - في واشنطن قبل أن ترسل «مبعوثها» - الأفغاني الأصل - ليتولى التنسيق و«التحكم». إن لم يكن بحكم حق الطاهي في طبخته، فبحكم واقع الحال de facto.

وهنا أيضًا، ورغم غياب أناقة كرازاي اللافتة، و«نساء بلا شادور» كانت كاميرات التليفزيون متواجدة ومتزاحمة. تُرهِقُ مصوريها بحثًا عن لقطة مختلفة «تقَطع الكادر» الممل لخطباء يتتابعون يقرأون من أوراق صيغت نصوصُها بعناية حسب ما يستوجبه المقام والمناسبة التي رغم أنها لم تفاجئ أحدًا، إلا أنها تفتح من أسئلة المستقبل (ناهيك عن جروح الماضي) أكثر مما تجيب.

اجتماعات لندن احتفظت - بحكم التاريخ القريب والبعيد - من العاصمة البريطانية بضبابيتها. فرغم برودة طقس ديسمبر وثلجية العبارات الدبلوماسية لخطباء القاعة المكيفة.. وربما حُسن نواياهم، إلا أن ضباب لندن لم يكن بوسعه أن يخفي حقائق التاريخ.. أو تعقيدات الجغرافيا. وبدا أن تحت السطح المتململ والذي يبدو هادئًا - الآن في حضرة الأمريكان - محاور استقطاب مستقبلية حادة، فمع من رأى أن الجيش العراقي هو ضمان للوحدة، كان هناك من لم يخف - ولو في لقاءات العشاء والغداء - رغبته في ضرورة أن نستبدل بالجيش الذي حاد عن نهجه «مليشيات» وطنية وشعبية. لاحظ أننا نتحدث عن وطن مترامي الأطراف، وفير الثروات، متعدد الأعراق والطوائف والاثنيات. ترتبط بعض من ألوان فسيفسائه بألوان في دول مجاورة. ويحفل تاريخ المنطقة كلها - القريب والبعيد - بالنتائج الطبيعية للموزاييك.

هل تفلح الاتفاقات أو الاجتماعات - غير المعلنة - للمندوب الأمريكي في جناحه الخاص بعيدًا عن ردهات المؤتمر، بل وعن المؤتمرين المعارضين / المتعارضين، فضلاً عن عدسات الصحفيين وأنوفهم في ضمان مستقبل واضح للعراق؟



(Iraq War Peace Syndrome) كان هو المسمى الذي اختاره أنتوني كوردسمان (المحلل الاستراتيجي والناصح للإدارة الأمريكية) موضوعًا لتقريره الذي طرح مسودته قبل أيام فقط أمام «مركز دراسات الاستراتيجية الدولية» في واشنطن.

ولم يكن كوردسمان مبالغًا أبدًا عندما ذكر في العبارة الأولى من تقريره أن السلام هو غالبًا المرحلة الأصعب في أي حرب -The Hardest part of war is often the peace. وأن هذه القاعدة ستجد تطبيقها المثالي في حالة العراق بعد أن يذهب الأمريكيون للحرب هناك.

وفي مسودة تقريره الذي حمل عنوان Us Policy to Reshape a Post - Saddam Iraq يعدد كوردسمان أعراض Syndrome حالة ما بعد الحرب في العراق، في ثماني عشرة نقطة مؤكدًا أن هذا «ليس على سبيل الحصر».

«أعراض كوردسمان»، ومفردات مؤتمر لندن، وجدول أعماله الذي تضمن بندًا واحدًا: «ماذا بعد؟»، وكذا دبلوماسية صياغة خطبه وكلماته، لم تكن بعيدة عن معنى ومناسبة ودلالات بل وحتى لهجة المحاضرة «متقنة الصياغة» التي ألقاها كولين باول على الناحية الأخرى من الأطلنطي في قاعة مؤسسة Heritage الأمريكية المحافظة.

المحاضرة التي طال انتظارها تضمنت التصور الأمريكي - أو ربما الخارجية الأمريكية - للإصلاح الديمقراطي والتنموي و«التعليمي» في بلدان الشرق الأوسط العربية.

وواقع الحال أن لا أحد بإمكانه أن يجادل باول - عن قناعة - إذا تعلق الأمر بواقع الاقتصاد أو الديمقراطية في بلادنا، فهنا جمهوريات يُعَدَّل دستورها بالطلب. وهنا تعليمٌ يكرس الجهل، أو في أحسن الأحوال «النقل لا العقل» وهنا عصبية «عشائرية أو طائفية» وأحزاب ورقية؛ تتساوى في ذلك تلك الحاكمة أو تلك «المكملة للصورة». وهنا فقرٌ وبطالةٌ وفسادٌ ومحسوبية. ولافتاتٌ فخمة بلا كيانات حقيقية. وهنا برلماناتٌ تقبل أن تكيل بمكيالين.. و«قوانين لها أنياب» نتذكرها - أو يتذكرونها - فقط عند الحاجة!! وهنا - أيضًا - حكامٌ وخلفاءٌ يزيد عدد صورهم في الشوارع الفقيرة - وربما ألقابهم أيضًا - على عدد المارة. هل زرت بغداد أخيرًا؟!

«الحرب الأمريكية ستعيد العرب عقودًا إلى الوراء..».

الرئيس السوري بشار الأسد - (١٧/١٢/٢٠٠٢)

«إذا ضربت أمريكا العراق.. سننفذ قرارنا بالانسحاب من الجامعة العربية..».

عبد المنعم الهوني - المندوب الليبي لدى الجامعة العربية - (١٨/١٢/٢٠٠٢)

«ما يتعرض له العراق وفلسطين جزء لا يتجزأ من معاناة شعوب العالم بسبب انفراد الولايات المتحدة بالنفوذ الأكبر.. وفرضها هيمنتها باستخدام القوة وعسكرة العالم».

من إعلان القاهرة - الصادر عن مؤتمر مناهضة الحرب بمشاركة ٧٠ شخصية دولية - (٢٠/١٢/٢٠٠٢)

«نخشى أن يخدعنا الأمريكيون ويتركونا في منتصف الطريق.. مثلما فعلوا دائمًا..».

د. محمود عثمان - ممثل الأكراد المستقلين - إلى مؤتمر المعارضة - (١٥/١٢/٢٠٠٢)

«هذه كارثة حقيقية بالنسبة للعراق.. سأهاجم المنظمين عندما ألقي كلمتي، فقد زرعوا بذور الانقسام في صفوف العراقيين قبل أن يبدأ المؤتمر».

كنعان مكية - المعارض والمثقف العراقي البارز - واشنطن بوست ١٤/١٢/٢٠٠٢

أيمن الصياد

نتفق ويتفق المثقفون إذن مع كثير مما قاله باول. وبالطبع مع ما استشهد به من شعر حافظ إبراهيم. ولكن هل يقصد الأمريكيون حقًا ما يقولونه؟ لا ماضيهم يعد بذلك.. ولا حاضرهم يثبته.

ويكمن المأزق فى أنه ورغم أن لا أحد هنا بإمكانه أن يزعم استتباب الديمقراطية فى عالمنا العربى، إلا أنه - وبنفس الدرجة - ليس بوسع أمريكا بعد أن أسفرت عن وجهها القبيح تسويق بضاعتها مهما بدت/ أو كانت جيدة. فبعد أيام فقط من «محاضرة» باول، وقبل أن ينتهى حتى المدافعون عنها (أو عنه) من مرافعاتهم، كان أحد مرؤوسى وزير الخارجية الأمريكى نفسه يستخدم حق الفيتو ليمنع قرارًا يستنكر قتل الجيش الإسرائيلى لموظفى الأمم المتحدة ذاتها. والتى تحت شعارها استخدم الأمريكان حق النقض. ومشكلتنا مع واشنطن أننا نعرف - وهم يعرفون - أنها ليست المرة الأولى، كما أنه بالقطع لن يكون «الفيتو» الأخير.

لا أعرف لماذا أشعر بأن كولين باول - حتى وإن كان حسن النية - خدم ربما دون أن يقصد أنظمة استبدادية، بمشروعه هذا الذى استفز البعضَ مصدرُه «الآن»، وتحرَّج الكثيرون من تبنيه حرجًا من المجاهرة بما يؤمنون به خشية وضعهم مع «المتغطرسين الجدد» فى قارب واحد. ومن سوء الطالع أن البعض الآخر انتهز الفرصة ليماهى بين أمريكا «غير المقبولة» والديمقراطية التى هى بالضرورة غير ذلك.

الموقف الملتبس هذا، ومشاهد الأباتشى شبه اليومية تطلق قذائفها المجنونة «المقصودة» فى أزقة غزة الترابية الفقيرة.. فضلاً عن الاستمراء الأمريكى الفج لسياسة الكيل بمكيالين. يبدو أنها لسوء الحظ تدفع - إن لم يكن بين أوساط المثقفين فبين العامة - بالشعار المصرى القديم «الاحتلال على يد سعد أفضل من الاستقلال على يد عدلى».



ماذا بعد..

فى المنطقة العربية الحافلة بعوامل الارتباط والانفجار فى آن، لا أحد يعرف. ولذا لا أحد يريد تلك الحرب مجهولة التوابع، عدا هؤلاء الذين يريدون التشفى وتصفية الحسابات القديمة، مكتفين بالنظر تحت أقدامهم. وأولئك الذين أرهقهم الانتظار و«اللأيقين».

لا أحد يعرف.. بل لا أحد يمكنه أن يتوقع «مطمئنًا» كيف سيكون شكل تلك المنطقة بعد الحرب. وما هى بالضبط توابع الزلزال الكبير، غير الفوضى طبعًا. فالأسد رغم التوضيح لم يخف إدراكه للرسالة الأمريكية حين اخترقت طائراتها الأجواء السورية.

والإيرانيون يتذكرون إعلان بوش «إن الإرهاب ينتشر فى ستين دولة وأن الحرب عليه ستستمر عشر سنوات كاملة..». ولذا فهم يتخوفون - ولهم كل الحق - أن يكونوا المحطة التالية. رغم وعيد الخطباء كل جمعة بأن «إيران غير أفغانستان.. والعراق». وهو بالضبط ما كان يقوله العراقيون والمتفائلون العرب على مدى عام كامل.

والمصريون حذروا غير مرة من ردة فعل شعبية ومن فوضى غير محسوبة.

والليبيون يرون فى الحرب «مشهد النهاية للتاريخ العربى» ويعلنون أنهم سيتصرفون على هذا الأساس.

والأتراك الذين حصلوا من قبل على ثلاثة مليارات من الدولارات لدعمهم الحرب الأولى، قلقون على تجارتهم الحالية الحيوية مع العراق وعلى مصير «الدمل» الكردى المتقيح فى الجنوب.

والسعودية التى دمجت عقيدتُها السياسية والشعبية لعقود بين «الاستقرار والاستمرار» تمنت ألا تسفر «عاصفة الصحراء» إلا عن إثارة الرمال وتحريك كثبان هنا وكثبان هناك. وهو أمر تعرفُه - بحكم الطبيعة - الباديةُ التى لم تألف الزلازل ولا البراكين.

وحتى أكراد العراق قلقون على وضعهم المتميز «شبه المستقل» تحت مظلة الحماية الغربية لمناطق حظر الطيران الشمالية. ويعلمون قطعًا أن القادم لن يخبئ لهم بالضرورة ما هو أفضل.

رغم كل ذلك فهناك أيضًا من أرهقه الوضع المتوتر، وكثرة «العجيج بلا طحن» فأصبح يتمنى إزاحة الرئيس العراقى صدام حسين بأسرع وقت «حتى نرتاح.. لكن الأمر ليس فى أيدينا. الأمر برمته يعود إلى أمريكا. وما علينا سوى الانتظار والفرجة».. كما قال المواطن الكويتى مشعل المطيرى لمراسل «الشرق الأوسط».



ماذا بعد؟

حتى الأمريكان لا يعرفون (راجع تقرير كوردسمان) إلا أن كل هؤلاء وأولئك يعلمون، أو على الأقل يتخوفون من أن يؤدى الجهل الأمريكى بشئون المنطقة وتعقيداتها الاثنية والمذهبية، فضلاً عن تدخلات للجيران ستمليها حتمًا حقائقُ الجغرافيا السياسية، إلى خلق مشكلة أخرى، وربما فرض واقعٍ لا يختلفُ فى نتائجه النهائية عن الوضع الذى يشكو منه البعضُ الآن.

الثابت فقط أن الولايات المتحدة الأمريكية، التى لم تعد تُخف نهجها الإمبراطورى (راجع تصريحات بوش) أعادت صياغة انتشارها الاستراتيجى فى المنطقة، وسط الضجيج الحالى للأزمة العراقية. فالوجود العسكرى فى قطر يمتد قانونًا عشرين عامًا. والقواعد الأمريكية تغطى ثلث الأراضى الكويتية كما ذكرت الواشنطن بوست. وخطط الإصلاح الديمقراطى وتعديل مناهج التعليم.. و«تمكين المرأة» أصبحت جاهزة.

والثابت فقط أن الإسرائيليين يجهزون للعمل «على الأرض» وسط دخان الحرب الكثيف القادم من الخليج مع رياح الشمال. إذ لم يعد خافيًا على من يحسن القراءة، أنهم يستعجلون «الزلزال» وأن لديهم أجندتهم الخاصة لاستغلال الفوضى. ويوم يكون «لكل امرئ شأن يغنيه..».



إلى أين؟!

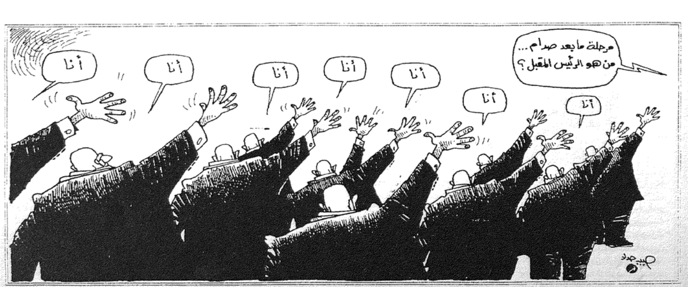
رغم كل الانضباط وتوخى الحكمة و«الحذر»، لا أحد أبدًا يعرف.

البعض تعلق بالمركبة الأمريكية. وفتح لهم - علنًا - أبوابه وقواعده وسماواته. متبنيًا - بلا حرج - حكمة «الاعتراف بحقائق القوى». والبعض يكتفى - أو لا يملك ربما - غير الإعلان عن قلقه. والبعض الآخر يتمنى. ويحاولُ - رغم الاستحالة - أن يعيشَ فى أمنياته.

والأمريكيون تجاوزوا بزمان ما كان يبدو أنه حساباتهم القديمة. فَلم يعد يعنيهم. أو لعلهم لم يعودوا يصدقون، بعد خبرة أفغانستان التى قصفت فى رمضان، مقولة «الشارع العربى».

ماذا بعد؟

تقرأون هذا - ربما - فى اليوم الأول من الشهر الأول من عام ٢٠٠٣، الذى يبدو أنه سيصبح بالنسبة لتلك المنطقة «عام الحسم». وبالاعتذار لكل من لا يزال يذكر التعبير «السبعينى» وصاحبه.. وقصته. ■



الحياة اللندنية ١٧/١٢/٢٠٠٢

عـــــروض موجـــــزة

كتب عربيـــة

توجهات فى المجتمع الإسرائيلى

أعده للنشر: بروفيسور أفرايم ياعر وزئيف شابيط
الجامعة المفتوحة ـ تل أبيب، ٢٠٠١، ٧٠٠ صفحة (بالعبرية)





يمثل الكتاب إضافة مهمة إلى إصدارات جماعة من المؤرخين الجدد التى دأبت على إعادة النظر فى كتابة تاريخ دولة إسرائيل بحيادية تنأى عن أفكار الصهيونية التى أسست لقيام الدولة.

والكتاب يقوم على محورين رئيسيين: الأول دراسة أبعاد الهوية الجماعية للمجتمع الإسرائيلى، مضامينها؛ مسلماتها؛ والاختلافات التى نشأت حولها. والثانى التعرض بالتحليل لمجالات شكلت الأساس للواقع والنشاط الاجتماعى، كالهجرة والاستيعاب؛ عدم المساواة الاجتماعية؛ الاقتصاد السياسى وغيرها.

إن الصهيونية ـ كما ورد بالكتاب ـ لم تكن إلا أحد عدة حلول أخرى للمشكلة اليهودية، وكانت البدائل الذاتية بصورها المختلفة هى أكبر منافس للصهيونية. فمثلاً فكرة الاندماج كحل كانت تعنى بالنسبة للجماعة التنازل عن وجود قومى مستقل، بينما كانت فكرة الانعتاق تعنى التخلى عن الوحدة القومية اليهودية مقابل بقاء الوحدة الدينية فقط؛ فى حين كانت الهجرة كحل تعنى استمرار الوجود اليهودى كأقلية قومية وسط أهم «مضيفة أخرى».

ولقد لفت الكتاب نظرنا إلى أن الشرعية التاريخية لليهود فى أرض إسرائيل، ظهرت فعليًا فى سياق الجدل حول أوغندا كوطن قومى. ولكن فى أعقاب الصدام مع عرب فلسطين والانتداب البريطانى، برزت دعاوى أخرى تجهر بشرعية مطالبة اليهود بحق فى فلسطين، من بينها محاولة اعتبار الصراع بين اليهود والعرب لعبة لا خاسر فيها، بما يعنيه ذلك من فائدة ستعود على عرب فلسطين من وراء الاستيطان الصهيونى، وفشلت محاولة ترويج هذا الادعاء، فى حين نادى فريق آخر بتوسيع مفهوم الصراع وتعميمه على جميع العرب وليس فقط من يسكنون فلسطين، وبذلك يمكن القول بأن العرب لديهم أراض كثيرة ومن العدل أن يحصل اليهود على هذه المنطقة الضئيلة فى أرض فلسطين.

وبمرور الوقت راجت دعاوى أخرين، أهمها القول ـ فى أعقاب كارثة الإبادة ـ بأن كيانًا سياسيًا يهوديًا ذا سيادة على أرض فلسطين، هو الضمان الوحيد لعدم تكرار هذه الكارثة.

□ □ □

السلطانة منيرة المهدية

رتيبة الحفنى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ١٩٠ صفحة



بين الفئات التى انتشرت فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر فئة من الفنانات عرفت بالعوالم، تمتعن بمكانة ممتازة بين الأغنياء وعلية القوم، الذين كانوا ينثرون الذهب والفضة تحت أقدامهن، وبين هؤلاء أمينة الصرفية وبمبة كشر وأمينة شخلع وسيدة صوانى. واسما الكمسارية وشفيقة القبطية.

وفى هذا المناخ المشحون بالتحولات والإرهاصات الفنية الكبرى ظهرت منيرة المهدية التى لقبت بسلطانة الطرب، وتربعت على عرش الغناء لأكثر من ثلاثين عامًا.

ولدت منيرة المهدية فى بيت متواضع بقرية المهدية بمحافظة الشرقية عام ١٨٨٥ فى أسرة متوسطة، توفى والدها وهى رضيعة فقامت برعايتها أختها التى كانت متزوجة من أحد الملاك الزراعيين ومقيمة بالإسكندرية، ودرست فى المدرسة حتى تعلمت القراءة والكتابة ثم تركتها واتجهت مبكرًا جداً للفن، وحين ارتحلت للقاهرة التقت بالشيخ سلامة حجازى الذى تبناها واستأجرت لنفسها بعد أن ذاعت شهرتها قليلاً مقهى أسمته مقهى «نزهة النفوس» اكتسب شهرة كبيرة، بعده انتقلت إلى مقهى برنتانيا وقدمت فيه أغانى عديدة حتى ذاع صيته بين مقاهى ومسارح ذلك الزمان، وبعده بدأت تتجه نحو المسرح الغنائى بتشجيع من أستاذها الشيخ سلامة حجازى وقدمت عدة أوبريتات غنائية ناجحة لحّنها أساطين التلحين فى ذلك الزمن: سيد درويش، زكريا أحمد، سلامة حجازى، القصبجى، داود حسنى وكامل الخلعى.

ولحبها فى فن التمثيل ظهرت فى دور رجالى فى مسرحية لعزيز عيد، حيث كان ظهور النساء المسلمات على المسرح آنذاك من المحرمات، وكانت الأدوار النسائية تلعبها اليهوديات، وكان ظهور منيرة المهدية ـ حتى فى دور رجالى ـ بداية للاستعانة بالمصريات فى المسرح.

«أسمر ملك روحى» هى أشهر أغنيات منيرة المهدية، التى غنّت أيضًا بعضًا من الأغنيات الهابطة التى كانت شائعة فى زمانها، ومثلها فعل سيد درويش وآخرون، لكنها أيضًا غنت أغانى وطنية خصوصًا فى أوبريتاتها الغنائية.

وقد توقفت منيرة المهدية عن الغناء بعدما ذاعت شهرة أم كلثوم ولكنها عادت بعد انقطاع دام عشر سنوات، وبالتحديد فى عام ١٩٤٨، لكن الجمهور كان قد نسيها فآثرت الانسحاب وعاشت حياة زوجية هادئة حتى توفيت فى مارس ١٩٦٥ عن عمر يناهز الثمانين.

□ □ □

سينما العالم الثالث والغرب

روى آرمز
ترجمة: أبية الحمزاوى
الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٢، ٢٤٨ صفحة



يوحى عنوان الكتاب بمنهج مؤلفه، الذى يفترض أن ثمة تأثيرات مؤكدة للغرب المستعمر على سينما العالم الثالث، الذى وقعت دوله جميعًا فى قبضة استعمار واحد أو أكثر عبر تاريخها الحديث، والحكمة البليغة التى تلخص هذه التأثيرات تأتى من كتاب فانون «سود البشرة بيض الأقنعة»، يقول: إن زنوج الأنتيل يزدادون بياضًا مع اطراد إتقانهم اللغة الفرنسية.

لهذا السبب يحلل الكتاب فى القسم الأول منه التأثيرات الحادة ـ نفسيًا وإنسانيًا ـ للاستعمار على دول العالم الثالث التى تبدو مدفوعة لمحاكاته، خصوصًا النخبة التى تتم صياغتها بمزاج المستعمر ووفق رغبته، وتتجلى هذه التأثيرات فى الأدب وفى أشكال الإبداع المختلفة ومنها السينما.

ومنذ اخترع لويس لوميير السينما عام ١٨٩٥ عرفها العالم الثالث، حيث قدم أول عرض سينمائى فى أمريكا اللاتينية عام ١٨٩٦، بعد أشهر قليلة من باريس ولندن ونيويورك، وبعدها بشهور زار فريق لوميير بومباى وشنغهاى والقاهرة والإسكندرية، وقدم أول عرض فى مانيلا عام ١٨٩٧، وشهدت أفريقيا السوداء أول عرض لها فى داكار عام ١٩٠٠، وشهدت سيول أول فيلم عام ١٩٠٣.

وكانت السينما الغربية فى البدايات مسيطرة على السوق المحلية فى العالم الثالث، وحتى فى الهند التى حققت فيما بعد سيطرتها على السوق المحلية، كانت العروض الأجنبية تشغل نحو ٨٥٪ من مجمل عروضها حتى عشرينيات القرن الماضى، وحين عرضت السينما الصوت ـ أى انتقلت من مرحلة السينما الصامتة ـ انتعشت السوق المحلية وأقبل الجمهور على سينما تخاطبه بلغته، كان ذلك فى بدايات العقد الثالث من القرن العشرين، وقد وصل إنتاج دول العالم الثالث إلى أكثر من ٢٠٠ فيلم متجاوزة أكثر من ٥٠٪ من الانتاج السينمائى العالمى فى أواسط السبعينيات، كانت أغلبها ذات طبيعة تجارية.

لكن المؤلف يشير إلى نماذج عديدة من الأفلام التى انعكست عليها مجريات السياسة العالمية منذ أواسط الخمسينيات، ونمو مفهوم جديد للهوية الفردية والقومية وبروز تيار الواقعية الجديدة الذى عكس الالتزام تجاه المجتمع وطموحاته، ونفذت شرائطه بتكاليف قليلة، وكان صلاح أبوسيف على سبيل المثال تعبيرًا واضحًا عن هذا التيار فى مصر ومعه توفيق صالح ثم يوسف شاهين فيما بعد.

يتابع المؤلف تطور صناعة السينما متوخيًا المنهج ذاته، الذى يقرن بين لغة السينما والسعى نحو الفرادة والتميز، بالسعى للتخلص من الاستعمار وتحقيق الاستقلال الوطنى، ويقدم «شبه سيرة سينمائية» لعدد من أبرز مخرجى سينما العالم الثالث الذين عكسوا ـ وانعكست فيهم ـ تلك التحولات، منهم ساتيا جت راى من الهند ويوسف شاهين من مصر وجلوبير روشا من البرازيل ويلماز جوناى من تركيا وعثمان سمبين من السنغال وجورج سانجينس من بوليفيا.

□ □ □

قبر يوسف النبى.. بين النصوص الأثرية والمرويات التاريخية

علاء عريبى
أبوظبى: مركز زايد للتنسيق والمتابعة، ٢٠٠٢، ١٢٣ صفحة



الفكرة الأساسية التى سعت إليها الدراسة منذ البداية، هى إثبات أن المرويات التاريخية والأثرية بشأن قبر النبى يوسف عليه السلام ليست صحيحة، وأن ما وصلنا منها تم استغلاله من قبل اليهود المعاصرين للاستيلاء على مزيد من الأراضى العربية، وأن ما كتب حول هذا الموضوع سواء استنادًا إلى الروايات التاريخية أو نقلاً

عــــــروض مـــوجــــزة

عن مؤرخين مسلمين، انتهى إلى روايتين تتأرجح بينهما نسب الصحة والخطأ، تقول إحداهما أن قبر يوسف فى نابلس (شاكيم قبل الفتح الإسلامى)، وتقول أخرى إنه فى الخليل (حبرون قبل الفتح الإسلامى).

ثمة روايات أخرى تشير إلى موقعين لقبر يوسف فى مصر، حسب بعضها فقد دفن يوسف فى قلب مياه النيل، وهى رواية يدحضها المؤلف ولا يرى لها سندًا تاريخيًا صحيحًا، ويرجح أن من قالوا بها استقوها من اليهود المصريين الذين عاشوا بمصر فى تلك الفترة (القرن الثالث الهجرى) فالمصريون لم يتحدثوا العربية (لغة الفاتحين الجدد إلا فى القرن السادس الهجرى) وكان طبيعيًا أن يلجأ مؤرخوهم إلى من سبقهم من اليهود لمعرفة قصص أنبيائهم التى جاءت مجملة فى القرآن الكريم، وكان طبيعيًا أيضًا أن يعطيهم اليهود من مخزونهم الثقافى والشعبى الذى يخلط الأسطورة بالحقيقة.

أما رواية «نابلس» فيراها المؤلف أيضًا غير صحيحة. ولا توجد شواهد أثرية أو تاريخية عليها. كما أن الأثريين أكدوا أن مدينة نابلس الحالية ليست هى القديمة التى تعرضت لتدمير شديد، كما أن عالم الآثار الإسرائيلى «منير بن دوف» فحص مقام يوسف فى قرية بلاطة القريبة من نابلس عام ١٩٨٦ وأكد أنه من أضرحة المسلمين ويرجع للعصر المملوكى ولا علاقة له باليهود.

والأمر ذاته ينطبق على الرواية التى تشير إلى وجود قبر يوسف فى مدينة الخليل الحالية، فهى بدورها لا يمكن للباحث أن يطمئن إلى صحتها.

وينتهى المؤلف إلى أن هذه الروايات لم تكن سوى أدوات للصهاينة، استخدموها فى صراعهم مع أصحاب الأرض الأصليين من الفلسطينيين، بهدف ضم هذه الأراضى إلى ممتلكاتهم بزعم ضمها رفات أنبيائهم، وهذه افتراءات لا تصمد أمام أى بحث تاريخى جاد.

□ □ □

ريادة الثورة فى الأعمال

غارى هاميل

تعريب: مروان أبو حبيب

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢، ٥٠٥ صفحات

المؤلف الذى سبق له أن ألهب خيال مديرى الشركات الراغبين - أو الذين يتحتم عليهم - أن يدخلوا سوق المنافسة العالمية بكتابه «المنافسة من أجل المستقبل»، يسوق الحجج فى هذا الكتاب الجديد على أن الشركات إذا أرادت أن تحقق ازدهارًا فى السنوات المقبلة، فإن عليها أن تتبنى برنامجًا راديكاليًا.

خطوات عديدة يشرحها المؤلف لتحقيق الثورة فى إدارة الشركات، وتحت عنوان «كيفية البدء بالعصيان» نبدأ الخطوات: الخطوة الأولى أن يدرس المدير المتغيرات فى العالم والفرص التى تتيحها هذه المتغيرات.

وينبه المؤلف الراغبين فى التغيير الإدارى إلى أنه لا يكفى أن يكون لديهم أيديولوجية للتغيير وإنما ينبغى أن يتمتعوا بالقدرة على نقلها للآخرين، فالأفكار مثل العدوى تنتقل من فرد لآخر، وأن هذه الأيديولوجية يجب أن تخاطب القلب والعقل معًا كى تصبح أخاذة وأكثر تأثيرًا. والخطوة الثانية هى تحديد الأهداف كتابة وبعبارات بسيطة وقوية تتيح للعاملين تداولها بسهولة.

والخطوة الثالثة هى إنشاء تحالف يعمل مع الإدارى الناجح صاحب الأفكار التقدمية، فهو لن يتمكن من تحقيق أهدافه بمفرده، ومن ثم فيجب أن يؤازره تحالف يضم الموالين لأفكاره.

والخطوة الرابعة هى التقاط اللحظة المناسبة لتنفيذ هذه الأفكار الجديدة لضمان أن تؤتى ثمراتها بأقل خسائر ممكنة. والخطوة الخامسة هى ألا يجد فيه رفقاء العمل من المديرين الآخرين منافسًا يشير إلى قصورهم وتقاعسهم بقدر ما

اعترافات حافظ نجيب

الناشر: دار الحسام، ١٩٩٦، ١٨٣ صفحة

هل كان مقدرًا لأوراق صفراء قديمة كتبها صاحبها قبل ما يزيد على نصف قرن أن تحدث كل هذه الجلبة؟

هل توقع «المغامر» كاتب المذكرات أن تشعل يومياته خيال فنان فيجد فيها ما يستحق أن يروى تمثيلاً؟

هل قاربت أحلام حافظ نجيب (الأصل) ومحمد صبحى (الصورة) فى أقصى حالات شططها وانفلاتها، أن يحتدم الجدل حول دراما «فارس بلا جواد» إلى حد الأزمة السياسية، وأن يتبادل رؤساء الدول المخاطبات بشأنها توضيحًا وتفسيرًا؟

أغلب الظن أن لا، لكن ذلك كله جرى، وتحولت مغامرات حافظ نجيب أو ذكرياته من أوراق ملقاة لدى أحد باعة الكتب القديمة بسور الأزبكية، إلى حدث ملأ الدنيا وشغل الناس.

مهدت لهذا الجدل حملة إعلانية ضخمة سبقت المسلسل بشهور، بشَّرت بـ «دراما نضالية»، تفضح ممارسات الصهيونية العالمية وتكشف مخططاتها، مما استفز الصهاينة فى أمريكا وخارجها، فطالبوا بإجراءات عقابية ضد مصر التى سمحت بعرض هذه الدراما العنصرية.

بعيدًا عن هذا كله، وبعيدًا حتى عن سطحية المسلسل وركاكة لغته الدرامية، فإن مذكرات حافظ نجيب تكشف البون الشاسع بين ما خطه صاحب المذكرات نفسه، والصورة التى طلع بها على الناس.

أول ما يصدم قارئ المذكرات المتابع لسيرة حافظ نجيب على الشاشة هى صورة الأب، ففيما يبدو حنونًا عطوفًا شديد الاعتداد بكرامته ومصريته على الشاشة، يراه ابنه - فى مذكراته - قاسيًا متلافًا بلا أخلاق، لم يعترف بفضل مَن ربوه، الباشا التركى الذى التقطه من الشارع وزوجته، وكلاهما احتضنه ورَبياه وزوجاه من ابنتهما. وبدلاً من أن يرد لهما الجميل، عاد مخمورًا ذات ليلة إلى القصر وحاول دخول غرفة الأبوين، ولما اعترضته الخادمة راودها عن نفسها فأبت، استفزت الجلبة الباشا فطرده من قصره.

أما الأم فتفرط المذكرات فيما لاقته من قسوة على يد الجدة إلى حد إصابتها بالعمى وتشغيلها مع الخدم حتى وفاتها محترقة عقابًا على إخلاصها لزوجها الفاسد، الذى لم يضيع وقتًا فتزوج من أخريات بينهن حبشية عاش معها الابن (حافظ) على الكفاف إلى أن ألحقه أبوه بمدرسة عسكرية مجانية.

وليس أدل على كراهية حافظ لأبيه من هذه العبارة التى ترد تعليقًا على وفاة أمه.. «كانت النتيجة فقدها البصر ثم الحياة، فماتت شهيدة الإخلاص لمن لا يستحقه».

الصورة التى يقدمها حافظ عن نفسه وبخط يده هى صورة مغامر لا مناضل، بارع فى نصب شباكه حول النساء وإيقاعهن فى براثنه، وفى كل مرحلة من مراحل حياته التى قضى سنوات منها مسجونًا لتهم النصب والاحتيال، كان مسنودًا بدعم مادى ومعنوى من امرأة أو أكثر، فالأميرة الروسية فرنسكى هى التى أتاحت له الدراسة العسكرية فى فرنسا والتحاقه بالمخابرات الفرنسية فيما بعد. ولما فشل فى المهمة الوحيدة التى أسندت إليه عاد إلى القاهرة بلا عمل ولا مأوى، ليعيش فى كنف الراقصة حميدة ويقيم معها بصفة دائمة، ويصاحب فى الوقت نفسه «ألكنسدرا فرينو» صاحبة مجلة «أنيس الجليس» والتى كانت على صلة قوية بالعائلة المالكة فى مصر، والتى اتهمته بسرقة أحد نياشينها. وكشف صديقه السورى «جورج طنوس» عن أنه أهدى النيشان إلى الراقصة حميدة. كما كشف كثيرًا من حياته الماجنة فى كتاب أصدره عنه جعل عنوانه «نابغة المحتالين»، يحتوى على عديد من عمليات النصب التى مارسها حافظ حتى على «الحوذية» الذين تقدم ستة منهم فى يوم واحد ببلاغ إلى الشرطة ضده، فقد كان يركب الحنطور يلف به شوارع القاهرة بالساعات ثم ينزل أمام أحد المحلات أو المقاهى ذات البابين، فيدخل من باب ويخرج من الآخر دون أن يدفع الأجرة.

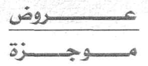
يذكر طنوس أيضًا أن حافظ سافر إلى دمياط سنة ١٩٠٤ وادعى أنه السكرتير الأول لسفارة فرنسا بالقاهرة ونصب على أحد الشعراء وحصل منه على مبلغ كبير، كما نصب على أحد رؤساء الأديرة التى دخلها بوصفه راهبًا واستولى من الرجل على ستمائة جنيه وهو مبلغ ضخم بمعايير ذلك الزمن، كما أن هروبه إلى دير المحرق واختفاءه فيه وتنكره فى زى راهب لم يكن بدوافع وطنية أو بسبب مطاردة الجنود الإنجليز، وإنما بسبب جرائم النصب التى اتهمته فيها بنات الهوى وراقصات المقاهى العامة!

وبعيدًا عما كتبه طنوس عن حافظ نجيب، فإن حافظ نفسه لم يدع فى مذكراته وطنية من أى نوع، ولم يبد ندمًا لعمله فترة فى المخابرات الفرنسية، ولم يذكر مرة واحدة شيئًا عن بروتوكولات حكماء صهيون. وهذا مما يتسق مع طبيعة المرحلة، إذ أن مذكرات حافظ نجيب تنتهى فى يناير عام ١٩٠٨ قبل صدور وعد بلفور وبدء الاهتمام بالمسألة الصهيونية بتسع سنوات. أما ادعاءات حافظ نجيب بأنه دخل الدير بترتيب مع أحد الزعامات الوطنية الكبيرة (يقصد مصطفى كامل أو محمد فريد) متنكرًا فى زى الراهب غالى جرجس، فليس ثمة ما يؤكدها حتى داخل المذكرات نفسها.

وتبرهن واقعة دفنه حيًا ثم تحطيمه جدار القبر بأدوات كان وضعها إلى جواره «سلفًا»، ليظهر بعد ذلك بزى آخر واسم آخر ويتزوج من الكونتيسة الإسبانية رائعة الجمال «سيجريس»، إننا أمام خيال مبدع تتشابك عنده الحدود الفاصلة بين الحقيقى والمتخيل إلى حد مذهل، وخصوصًا أن حافظ نجيب كتب شعرًا وترجم كتابين فى الفلسفة وكتب مغامرات على شاكلة مغامرات أرسين لوبين جعل عناوينها (صريحة هكذا «مغامرات حافظ نجيب».

نحن إذن أمام شخصية مغامرة درامية بامتياز، تتماهى بداخلها وقائع حياتها بهواجس النفس وتخيلاتها وأمنياتها على نحو مدهش، وأغلب الظن أن المذكرات تحمل من هذا وذاك بمقادير مختلفة.

عماد الغزالى



يرون فيه باعثًا على التجديد لمصلحة المجموع. والخطوة السادسة هى أن يكون لأفكارك «مترجم» أى ناقلاً أمينًا وهو واحد أو أكثر من بين مشايعينك. والخطوة السابعة هى ألا تفرط فى تقديم الوعود، وتعلم أن تربح قليلاً ومبكرًا كى تبقى رابحًا دائمًا. وأخيرًا فإن المكافح من أجل التغيير ينبغى أن يتحلى بعدة صفات شخصية مهمة منها الصدق وتجاوز النزعة المصلحية الشخصية الضيقة وحب المغامرة مع القدرة على تحمل المخاطر المحتملة.

□ □ □

غبار

وديع سعادة

بيروت: دار المسار، ٢٠٠١



العابرون سريعًا جميلون. لا يتركون ثقل ظل.

ربما غبارًا قليلاً، سرعان ما يختفى.

الأكثر جمالاً بيننا، المتخلى عن حضوره. التارك فسحة نظيفة بشغور مقعده، جمالاً فى الهواء بغياب صوته. صفاء فى التراب بمساحته غير المزروعة. الأكثر جمالاً بيننا: الغائب.

ربما يلخص هذا النص من «جمال العابر» والذى يجىء على الغلاف الأخير للكتاب الذى يضم ثلاثة عشر نصًا، بينها نص «النسيان» يتضمن ثمانية تنويعات على اللحن ذاته، منها: مأساة الذاكرة وذاكرة الرغبة وذاكرة الوصول.

يحيى وديع سعادة الغبار وتضجره الأصوات والرغبات والغايات وراغبو الوصول إلى المحطات وأصحاب الذاكرة.. «الذاكرة تعيق الراغبين فى الموت. وتجعل الراغبين فى الحياة موتى».

وربما لهذا هو يُجل المنتحرين الذين «كلما سقط واحد منهم فى الماء ولدت موجة، وكلما هوى واحد فى فضاء هبَّت نسمة. المنتحرون يبتكرون بحارًا ورياحًا جديدة.

النصوص تبحث فى بلاغة الصمت وعبقرية اللاجدوى ورجاحة الجهل.. فـ«كل معرفة قلق، كل جهل اطمئنان» و«العارف يهلك فى قلق معرفته، أما الجاهل فيهلك فى اطمئنان الجهل».

النصوص تحفل بالهامشى والمنسى والعابر وتكشف عن الجمال الكامن فى الوحدة والشرود والعزلة وفقدان الذاكرة، وترى «المنحرفون الذين ماتوا فى المصحات أو فى السجون، هم آباؤنا الحقيقيون» و«المنبوذون هم رئة الحياة، قلب الحياة، هم العالم».

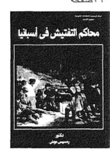
□ □ □

محاكم التفتيش فى إسبانيا

رمسيس عوض

القاهرة: مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، ٢٠٠٢، ٢٦٠صفحة





مهد آباء الكنيسة العظام من أمثال القديس أوغسطين وتوماس الإكوينى لظهور محاكم التفتيش، فهما اللذان طالبا بضرورة موت المهرطقين كى لا يصبحوا خطرًا على المؤمنين. وفى القرن الثانى عشر زادت الهرطقات والمهرطقين بدرجة كبيرة خصوصًا فى جنوب فرنسا، وعقد البابا «إنسونت الثالث» العزم على استئصال شأفة الهرطقة لا من فرنسا فقط وإنما من أوروبا كلها.

وفى هذه الظروف لقى كثيرون حتفهم حرقًا فى فرنسا وإيطاليا وسواهما من دول أوروبا بزعم أنهم مهرطقون، وفى العام ١٢٣٢ أنشأ البابا جريجورى التاسع أول محكمة تفتيش، وهذا البابا نفسه هو الذى أوعز إلى الإمبراطور فردريك بالقيام بحملة صليبية فى العام ١٢٢٧ لاستعادة بيت المقدس من المسلمين، وفى عهده سُنَّت القواعد التى تبنتها محاكم التفتيش فى أوروبا كلها، والتى بمقتضاها كان الحرق هو عقاب أى مهرطق يرفض التوبة.

لكن لماذا كانت محاكم التفتيش الإسبانية هى الأكثر عنفًا وضراوة بين محاكم التفتيش الأوروبية، يقول المؤلف إن الاستعمار المتكرر لإسبانيا من شعوب وجنسيات مختلفة، ربما كان هو السبب فى أن ملكها فرديناند الخامس وملكتها إيزابيلا يتطلعان إلى إنشاء محاكم تفتيش قوية تعيد للبلاد وحدتها وتماسكها، وهكذا تعاملا بعنف بالغ مع المسلمين بعد القضاء على آخر معاقلهم فى غرناطة، وكذلك تعرض اليهود لمجازر أودت بحياة عشرات الآلاف منهم.

المؤلف يورد تفاصيل كثيرة عن مجازر محاكم التفتيش الإسبانية وآليات عملها ويشير إلى ملاحظتين لافتتين، هما استمرار المعارضة لمحاكم التفتيش رغم ضراوتها، وخلو إسبانيا من المذهب البروتستانتى والحركات الإصلاحية، ويخصص فصلاً من فصول كتابه الثمانية عن حالة الآداب والفنون فى ظل محاكم التفتيش الإسبانية، ودورها فى حرق كثير من الكتب والمؤلفات، وعمليات الرقابة الواسعة التى مارستها على العقول والكتابات.

كتب أجنبية

The Cage
An Englishman in The Vietnam War

(القفص.. رجل إنجليزى فى حرب فيتنام)

Tom Abraham

Bantam Press, 2000, 299PP., £16.99

THE CAGE
AN ENGLISHMAN IN THE VIETNAM WAR
TOM ABRAHAM

القصة المحيطة بهذا الكتاب ربما تكون أكثر إثارة من الكتاب نفسه، رغم أنه لا يخلو من مادة ثرية ومثيرة وأحيانًا مرعبة، فالمؤلف إنجليزى هاجر مع والديه إلى الولايات المتحدة فى سن ١٩ والتحق بالجيش الأمريكى وحارب وجرى أسره فى فيتنام وحصل على عديد من الميداليات من الحكومة الأمريكية تقديرًا لدوره فى تلك الحرب. وبعد عودته من فيتنام بدأ حياة جديدة، فقد تزوج وأصبح أبًا ثم نجح فى عالم الأعمال والتجارة، وبدأ المؤلف توم إبراهام كما لو كان قد نسى كابوس ماضيه فى فيتنام لكن بعد ٣٠ عامًا من نهاية هذا الكابوس بدأ توم بشرب الخمور بحدة لدرجة جعلته يدخل فى مشاكل عنيفة مع البوليس. وتعرض لسلسلة من الكوارث حيث فقد كل شىء تقريبًا.. أسرته ومنزله واحترامه لنفسه. وتدريجيًا أدرك أن جروحه النفسية والعاطفية من جراء حرب فيتنام لم تندمل بعد. وفى محاولة لإعادة بناء نفسه كان على توم أن يواجه هذه الذكريات المريرة من خلال التخلص منها بسكبها على الورق.

إن الكتاب يحيى قصة توم فى الحرب والألم الذى تركه سجنه على أيدى الفيتناميين، وللغرابة فإن الأسر أو السجن لم يدم سوى أسبوع واحد تمكن بعده من الهرب، لكن المؤلف خلال تلك المدة الشديدة القصر تعرض لتعذيب هائل، فقد تم وضعه فيما يشبه القفص وإذا تذكرنا أن هناك من الأمريكيين من أمضى سنوات فى الأسر الفيتنامى لأدركنا كم كانت المدة التى قضاها المؤلف فى الأسر قصيرة بشكل لا يقارن إلا أن التأثيرات التى تركتها كانت على ما يبدو شديدة التأثير لدرجة أن توم لم ينسها بعد أكثر من ٣٠ عامًا.

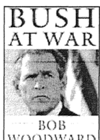
□ □ □

Bush At War

(بوش محاربًا)

Bob Wood Ward

Simon and Schuster, 2002,400PP



أخيرًا أدركت المؤسسة السياسية فى أمريكا كيفية التعامل مع الصحفى الشهير بوب وود ورد الذى تمكن من خلال التحقيقات التى نشرها مع زميل له فى صحيفة «واشنطن بوست» من القضاء على رئاسة ريتشارد نيكسون فيما عرف «بفضيحة ووتر جيت» لقد ظل وود ورد يحوم فى كتاباته حول السلطة الرئاسية فى الولايات المتحدة ولكن بدلاً من أن يبتعد عنه السياسيون الأمريكيون ويختفون منه، فإنهم دعوه إلى فنجان شاى وتحدثوا معه. وبعد أن كان هذا الصحفى الشهير يناضل بكل ما أوتى من موهبة وقدرة للحصول على المعلومة فإن هذه المعلومة أصبحت فى متناول يديه ومن أكبر السياسيين وفى مقدمتهم الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى تحدث معه طويلاً فى مزرعته بتكساس عن أسلوبه فى إدارة شئون البلاد خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

إن الكتاب «بوش محاربًا» ملئ بالاقتباسات من أهم المسئولين فى إدارة بوش سواء فى البيت الأبيض أو المخابرات المركزية أو وزارة الخارجية كما أنه يحتوى على مذكرات وأوراق صادرة عن البنتاجون وهيئات أخرى وتتضمن معلومات لا تقدر بثمن وعلى سبيل المثال فقد كشف كوفر بلاك مدير فريق مكافحة الإرهاب فى المخابرات المركزية أنه أبلغ أحد أبرز جواسيسه بأنه يريد رأس أسامة بن لادن فى صندوق لكى يراها الرئيس بوش بنفسه، إلا أن أهم ما فى الكتاب هو التفاصيل التى أوردها المؤلف عن الصراع بين جناح الصقور بقيادة ديك تشينى نائب الرئيس وجناح الحمائم بقيادة كولين باول وزير الخارجية ومحاولات الصقور تقويض سلطة باول بإقناع الرئيس بأن الأفكار التى يطرحها باول، ومن بينها ضرورة عرض قضية العراق على مجلس الأمن قبل أى ضربة مرتقبة، ليست فى صالح واشنطن، وكيف نجح باول فى النهاية فى اكتساب ثقة الرئيس. إن أمورًا كثيرة فى هذا الكتاب كان يمكن أن تبقى فى السر إلى أن يتم الكشف عنها بعد سنوات طويلة بمقتضى قانون الوثائق.

□ □ □

عــــــروض مــــوجــــزة

Russia: Experiment With A People from 1991 th The Present

(روسـيـا: تجربة مع شعب من ١٩٩١ حتى الآن)

Robert Service
Macmillan, 2002, 408PP., £ 20.00



فى أكتوبر الماضى، احتفل الرئيس الروسى فلاديمير بوتين بعيد ميلاده الخمسين، وقد قدم إليه مجموعة من المعجبين الروس به هدية نادرة باهظة الثمن عبارة عن مجسم للتاج الذى وضعه على رأسه أول قيصر روسى وهو إيفان الرهيب وتكلف المجسم ١٠ ملايين دولار. ويثور التساؤل هل بعد كل الأحداث الدموية الرهيبة التى تعرضت لها روسيا على مدى القرن الماضى لازال هناك من الروس من يريد قيصرًا أو على الأقل شخصًا يتصرف مثل قيصر؟

منذ أن أصبح بوتين رئيسًا، أعاد الحكم المركزى وقص أجنحة حكام الولايات والمناطق وصعد حملته على الشيشان وضيق على وسائل الإعلام والصحفيين وأيضًا زاد من مكانة روسيا خارجيًا وحتى بعد انتهاء احتجاز الرهائن فى نوفمبر الماضى والذى أسفر عن وفاة أكثر من ١٢٠ رهينة بغاز القوات الخاصة الروسية فإن شعبية بوتين مازالت فى قمتها.

ويحاول مؤلف هذا الكتاب أن يكتب تاريخًا لروسيا من ١٩٩١ ليحاول أن يفسر لماذا يحدث كل ذلك. لقد كان جورباتشوف ويلتسن الشخصيتين الرئيسيتين فى بداية التسعينيات فى روسيا فمن جانبه كان جورباتشوف فى نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات مازال ملتزمًا بالشيوعية ويحاول الإصلاح إلا أن يلتسن هو الذى امتلك «حسب المؤلف» شجاعة كبيرة فى إنهاء الاتحاد السوفيتى والانتقال بروسيا إلى النظام الرأسمالى وأعطى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق الاستقلال، لكن كوارث يلتسن كانت معروفة للجميع فقد قصف البرلمان الروسى عام ١٩٩٣ وغزا الشيشان عام ١٩٩٤، وفشل فشلاً ذريعًا، ثم اندلعت فى عهده أزمة الروبل عام ١٩٩٨ وأحاط نفسه بشلة سيئة، ثم إنه كان سكيرًا وجعل من نفسه مثار سخرية الآخرين.

وفى ٣١ ديسمبر ١٩٩٩، استقال من الرئاسة وطالب الشعب بأن يسامحه على أخطائه الهائلة، ثم جاء بوتين فحاول أن يعيد الكرامة الروسية ويلملم أشلاء الوطن الباكى على أمجاد الماضى. إن فى روسيا حاليًا نوعًا من الحنين إلى الماضى إلى روسيا القوة المهابة الجانب لكن مع ذلك فإن المخاطر لازالت قائمة، فبينما لدى البلاد ثروات هائلة فإن ٤٠٪ يعيشون تحت خط الفقر والبنية الأساسية على وشك الانهيار والمشاكل الاجتماعية فى تصاعد مستمر.

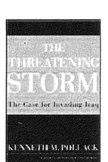
ويقول المؤلف: ربما يحاول بوتين أن يعيد الثقة فى الروس وأن يوقف نزيف التدهور وأن يعطى لبلاده دورًا على المسرح العالمى، لكن ذلك كله لا يعنى أن روسيا ستعود كما كانت قوة عظمى.

□ □ □

The Threatening Storm.. The Case For Invading Iraq

(العاصفة المتوعدة.. حجة غزو العراق)

Kenneth M. Pollack
Random House, 2002, 494PP., $25.95



يقدم كينث بولاك مؤلف الكتاب، والذى عمل محللاً فى المخابرات المركزية الأمريكية، ثم مدير شئون الخليج فى مجلس الأمن القومى الأمريكى، ما يعتبره حججًا قوية لتبرير غزو العراق. وهو يجادل بأن إرسال حوالى ٢٠٠ ألف جندى أمريكى لغزو العراق ليس أمرًا مرغوبًا فيه، لكن الغزو، حسب رأيه، هو أقل الخيارات ضررًا. إن الغزو هو الخيار الوحيد، كما يقول بولاك، لإنهاء موقف خطير. ويتصاعد خطره مادام صدام حسين فى السلطة.

ويشير المؤلف إلى أن سياسة الاحتواء التى أعقبت حرب الخليج ١٩٩١ وتعتمد على فرض عقوبات اقتصادية واستمرار التواجد العسكرى الأمريكى فى الخليج ومواصلة فريق التفتيش الدولى عمله، تآكلت بسرعة.

إن التواجد الأمريكى الحالى فى الخليج يثير استياء المواطنين، كما أن العنصر الأهم فى سياسة الاحتواء وهو فريق التفتيش على أسلحة الدمار العراقية توقف عن العمل عام ١٩٩٨، وفى نظر المؤلف فإنه لن يكون فعالاً لو تمت إعادته للعمل مرة أخرى.

ما العمل؟ يستعرض بولاك كل الخيارات من فعل لاشىء إلى عمل عسكرى يعتمد على المعارضة العراقية ومدعوم بضربات جوية على غرار ما جرى فى أفغانستان ضد نظام طالبان.

ويتناول مميزات وعيوب كل خيار. ثم يخلص إلى أن العمل الوحيد العملى أمام الولايات المتحدة هو القيام بغزو شامل للعراق لتحطيم القوات المسلحة العراقية وإسقاط نظام صدام حسين والتخلص من أسلحة الدمار الشامل.

ويعدد بولاك المزايا التى ستنجم عن التخلص من صدام حسين وأهمها قيام نظام ديمقراطى على النمط الغربى. لكنه رغم كل تلك الحجج لا يركز على سؤال أساسى وهو.. هل يمثل العراق بالفعل تهديدًا خطيرًا للولايات المتحدة والعالم الحر كما يقول بولاك؟ بمعنى هل بقى لدى صدام أسلحة دمار شامل بعد كل عمليات التفتيش التى تمت وبعد أن أكد خبراء فى فريق التفتيش أن ما لا يقل عن ٩٥٪ من ترسانة أسلحة الدمار العراقية جرى التخلص منها؟

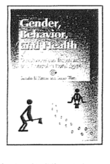
ثم إن بولاك لا يعير المعايير والمواثيق الدولية الكثير من الاهتمام. فالقضية واضحة أمامه وهى أن على أمريكا أن تغزو العراق وتتخلص من صدام حتى لو أدى ذلك إلى إثارة استياء الرأى العام العالمى والأوروبى بشكل خاص، ومسألة احترام واشنطن لسيادة الدول أو دور الأمم المتحدة ومجلس الأمن أمر غير ذى جدوى فى نظر المؤلف. لقد أعطى بولاك رأيه المؤيد بشدة لغزو العراق دون أن يتساءل عن عواقب ذلك على الشرق الأوسط والعالم.

□ □ □

Gender, Behavior and Health Schistosomiasis Transmission and Control in Rural Egypt

(النوع، السلوكيات والصحة.. البلهارسيا، الإصابة والوقاية فى ريف مصر)

Samiha El Katsha and Susan Watts
Cairo-Auc Press, 2002, L.E 75.00



اعتمد هذا الكتاب على نتائج الدراسة الميدانية المتعمقة أجرتها المؤلفتان عن مرض البلهارسيا، تلك المشكلة ذات الأبعاد المتداخلة والتى تعتبر من أهم المشاكل التى تواجه الصحة العامة فى ريف مصر. وتم إجراء هذه الدراسة فى قريتين بدلتا النيل وذلك فى الفترة من عام ١٩٩١ حتى عام ١٩٩٧ بدعم من مشروع بحوث البلهارسيا بوزارة الصحة والسكان وتحت إشراف مركز البحوث الاجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

وروعى فى تكوين فريق الدراسة أن يكون متعدد التخصصات حيث اشتمل على متخصصين فى علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا والأوبئة والإصحاح البيئى حتى يمكن دراسة هذه المشكلة من جوانبها وزواياها المتعددة.

بدأ مشروع الدراسة بالتركيز على مدى تأثير المياه الآمنة والبيئة على مدى الإصابة بمرض البلهارسيا، وفى ضوء تطور الدراسة قام فريق البحث بالتمحيص والبحث والتعرف على الصورة الكلية لمرض البلهارسيا، السلوك البشرى تبعًا للنوع والوضع البيئى فى مجتمع الدراسة. وذلك للوقوف على كيفية انتقال المرض، التشخيص والعلاج والاستراتيجيات والآليات الممكنة للتحكم ولتجنب الإصابة بمرض البلهارسيا.

إن دراسة الظروف المحلية المحيطة المرتبطة بالتعرض للإصابة بمرض البلهارسيا تأخذ فى الاعتبار الربط والجمع بين الظروف البيئية التى تعمل على استمرارية دورة حياة البلهارسيا.

ويحاول علماء الاجتماع تفهم أسباب إصرار الناس على ممارسة هذه السلوكيات التى تعرضهم للإصابة بالرغم من إدراكهم لخطورة انتقال هذا المرض فيما بينهم. إن الإصابة بهذا المرض هى سلوك بشرى ولا تتم بصورة عشوائية حيث إنها ذات نمط اجتماعى تتم على نفس المنوال، إنها نتيجة للأنشطة الحياتية اليومية التى تمارس بواسطة الفئات المختلفة من أفراد المجتمع كل فى موقعه ووفقًا لوضعه ومكانته الاجتماعية.

إن أحد الأهداف الرئيسية لهذا الكتاب هو التركيز على سلوكيات النوع (چندر) والأدوار التى يلعبها كل منهما فى القرية بوجه عام. وفيما يتعلق بمرض البلهارسيا ـ على وجه الخصوص ـ يتم التركيز على السمات الاجتماعية والثقافية والوضع الاقتصادى للنوع (چندر) ومدى ارتباط ذلك وعلاقته بانتقال مرض البلهارسيا، والتشخيص والعلاج والوقاية من التعرض للإصابة بالمرض. لقد تبين من دراسة سلوكيات النوع (چندر) بأن لكل منهما أدوارًا متميزة وواضحة وتوقعات يكمل بعضها البعض الآخر حتى لو كانت ـ أحيانًا ـ تبدو فى نفس الوقت متعارضة.

ولقد قام الباحثون فى فريق العمال بالتعرف على معلومات العاملين فى القطاع الصحى فيما يتعلق بصفة خاصة بالتعامل مع مرض البلهارسيا، وملاحظة ممارساتهم الفعلية اليومية أثناء أدائهم للأعمال الموكولة إليهم من حيث الفحص وتقديم العلاج والمتابعة الدورية للحالات المصابة، مع العمل معهم وإشراكهم فى كيفية الارتفاع بكفاءة وفعالية هذه الممارسات فى حدود مسئولياتهم والإمكانات المتاحة.

□ □ □

قــــــراءات جــــــديدة

اجتماع

ضرب المرأة (وسيلة لحل الخلافات الزوجية)

عبد الحميد أحمد أبو سليمان

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

هل ينهى ضرب المرأة خلافات الزوجين ويقدم الحل المناسب لها، وهل يعنى الضرب القسوة البالغة التى تنال من جسد المرأة ومن كرامتها، فى زمن ترتفع فيه الأصوات المطالبة بمزيد من الحقوق للمرأة ووضعها فى مكانتها اللائقة.

المؤلف يجيب عن عديد من الأسئلة ذات الصلة بالموضوع خصوصًا تلك التى تتردد فى دوائر غربية، ويزيل اللبس عن بعض المفاهيم الخاطئة عن الإسلام فى الغرب.

اقتصاد

Beyond Sweatshops: Foreign Direct Investment and Globalization in Developing Countries

(الاستثمار الأجنبى المباشر والعولمة فى الدول النامية)

Theodore H. Mooran

Brookings Press, 2002, 224P, $ 18.95

يحارب المعارضون للعولمة الاستثمار الأجنبى المباشر فى الدول النامية بسبب صور استغلال العمالة الرخيصة فى المصانع التى تقام فى هذه الدول، خاصة تلك التى تنتج الملابس والأدوات الرياضية والأحذية ولعب الأطفال. حيث يعانى العمال فى هذه المصانع من ضآلة الأجور وظروف العمل الضارة صحيًا ونفسيًا. لهذا يقوم الكتاب الذى يدافع عن العولمة بالتأكيد على فوائد الاستثمار الأجنبى المباشر فى تحقيق النمو والرفاهية فى المجتمعات النامية، مع تقديم عدة حلول عملية لوضع قوانين وضوابط تمنع من استغلال العمال. ويشير الكتاب إلى أن الاستثمار الأجنبى المباشر فى الصناعات المتقدمة مثل الدواء والإلكترونيات والسيارات يتطلب عمالة مدربة وبالتالى ليس من السهل استغلالها.

■■■

A Consumers Republic: The Politics of Mass Consumption in Postwar America

(جمهورية المستهلكين: سياسات الاستهلاك الجماهيرى فى أمريكا ما بعد الحرب العالمية)

Lizabeth Cohen

Knopf, 2003, 480PP, $ 32.50

تشكلت حياة الأمريكيين بعد الحرب العالمية الثانية على نظم اقتصادية وسياسية واجتماعية تعمل بافتراض أن الاستهلاك الجماهيرى الكبير سوف يحقق الرفاهية والمساواة الاجتماعية.

فى هذا الكتاب تحاول المؤرخة اليزابيث كوهين إثبات إخفاقات ثقافة الاستهلاك فى مجال تحقيق المساواة الاجتماعية، خاصة مع التطور الذى لحق بأساليب التسويق التى تستهدف شرائح معينة لبيع منتجات معينة وتسويق أسلوب حياة معين، مما يساهم فى زيادة الفوارق والفواصل بين شرائح المجتمع المختلفة.

بيئة

The Voice of the Infinite in the Small: Re-Visioning the Insect - Htuman Connection

(إعادة تصوير علاقة الإنسان بالحشرة)

Joanne Elizabeth Lauck

Forward by: Thomas Berry

Shambhala, 2002, 320PP, $ 14.95

تشجع المؤلفة التى تعمل بمجال البيئة القراء على بذل الجهد من أجل فهم أعمق للحشرات. فالصلة التى تجمع الإنسان بالحشرة انقطعت، كما ترى المؤلفة، بسبب الثقافة التى تحفز على كراهية وقتل الحشرات، مما أدى إلى تلوث البيئة من فرط استخدام المبيدات والإخلال بالتوازن الحيوى الطبيعى.

الكتاب ملىء بالمعلومات الشيقة عن الحشرات وما تتمتع به هذه الكائنات الصغيرة من صفات مميزة وحميدة، إلا أنه سيصعب على الكثيرين احتمال دعوة المؤلفة بأن نقبل أن يشاركنا البعوض فى دمائنا من حين إلى آخر!

تاريخ

الشرق الأدنى فى العصرين الهيللينستى والرومانى

أبو اليسر فرج

القاهرة: دار عين، ٢٠٠٢

فى هذين العصرين حدث تبادل وتلاقح حضارى وثقافى بين بلاد شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر، واستفادت حضارات المنطقة من بعضها البعض بما يؤكد حوار الحضارات لا تصادمها، وأثمر هذا الحوار فوائد جمة على الصعيد العلمى والفنى والأدبى.

■■■

النبى ويهود المدينة

محمد الجميل

الرياض: مركز الملك فيصل، ٢٠٠٢

يدرس المؤلف العلاقة بين النبى ويهود المدينة، كيف استقبلوه فى هجرته المباركة، وكيف كان وقع محاولاته لتوطيد أركان دولته الإسلامية، وهل كانوا فعلاً صادقين فى إظهار المودة له أم كانوا يضمرون شرًا، وكيف تحالفوا لإسقاط دولته الوحيدة وهز أركانها وتأثير ذلك على الغزوات الإسلامية، ثم يعرض لبعض آراء المستشرقين فى هذه القضية.

■■■

تاريخ طبرستان

محمد بن حسن بن اسفنديار

ترجمة: أحمد محمد النادى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

يرسم المؤلف خريطة لمنطقة طبرستان فى العصرين الأموى والعباسى وعصر الدويلات، متضمنة الأوضاع الاجتماعية والدينية والعلمية والسياسية، ويتضمن الكتاب ترجمة لكتاب «وتنرنامة» وهو من الوثائق المهمة ذات الصلة بتاريخ طبرستان.

■■■

Natasha's Dance: A Cultural History of Russia

(رقصة ناتاشا: التاريخ الثقافى لروسيا)

Orlando Figes

Henry Holt & Co, 2002, 729PP, $ 35.00

يشير عنوان الكتاب إلى مشهد من رواية تولستوى الشهيرة «الحرب والسلام». فالمؤلف يعود إلى الأدباء والفنانين والموسيقيين الروس لمعرفة كيف فهموا وعبروا عن الروح الروسية، وحقيقة روسيا نفسها؛ فهل قلب روسيا فى أوروبا أم فى آسيا؟ وهل الشخصية الروسية تتجلى فى عبيد الأرض الأميين أم فى الثقافة الأوروبية لرجال البلاط الإمبراطورى؟ يمزج المؤلف فى رصده لهذا التاريخ، الذى يتركز فى الفترة من القرن الثامن عشر إلى نهاية المرحلة السوفيتية بين أعمال وأفكار تشيكوف ودوستويفسكى وسترافنسكى وبين التطريز الشعبى وأغانى الفلاحين والرموز الدينية، بالإضافة إلى العادات اليومية فى المأكل والملبس والمعتقدات.

■■■

How the Scots Invented the Modern World: the True Story of How Western Europes Poorest Nation Created our World and Everything in It

(كيف اخترع السكوتلانديون العالم الحديث: قصة أفقر أمة فى أوروبا الغربية وكيف أبدعت عالمنا وما فيه)

Arthur Herman

Crown, 2002, 400PP, $ 14.95 (pb)

يؤكد المؤلف إن إسهام السكوتلانديين فى الحضارة الحديثة، خاصة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يفوق إسهام أى أمة أخرى على الأرض. وقد تجلت هذه العبقرية السكوتلاندية التى يزعمها المؤلف فى كل من آدم سميث الذى أرسى مبادئ اقتصاد السوق، والفيلسوف دافيد هيوم الذى أنتج فكرًا سياسيًا تأثر به مباشرة جيمس ماديسون فى وضع الدستور الأمريكى. إلى جانب جيمس وات الذى اخترع فى جامعة جلاسكو التكنولوجيا التى قامت عليها الثورة الصناعية وهى آلة البخار، وجون نوكس الذى أضاف إلى المذهب البروتستانتى سمات رئيسية تجلت بشكل واضح فى الولايات المتحدة. يسترسل المؤلف حتى يصل إلى آرثر كونان دويل مبدع شخصية شيرلوك هولمز وينتهى بالعميل رقم ٧.. السكوتلاندى: جيمس بوند.

■■■

14 - 18: Understanding the Great War

(١٤-١٨: فهمًا للحرب الكبرى)

Stephane Audoin - Rouzeau and Annette Becker

Hill & Wang, 2002, 272PP, $ 24.00

قام الدارسون أو المؤرخون الفرنسيون فى الخمس عشرة سنة الماضية بإنتاج مجموعة من الدراسات حول الحرب العالمية الأولى، غيرت كثيرًا من التصورات السائدة بين الدارسين والمؤرخين فى الولايات المتحدة الأمريكية. هذا الكتاب قام بتأليفه اثنان من مديرى «المتحف الفرنسى للحرب الكبرى» ويقدمان فيه أهم التحليلات والنتائج التى قدمتها الدراسات الفرنسية السابقة.

تراث

حرق الكتب فى التراث العربى

ناصر الحزيمى

ألمانيا: دار الجمل، ٢٠٠٢

عرف التاريخ العربى ظاهرة إحراق الكتب وإعدام المخطوطات حتى من قبل مؤلفيها أنفسهم، بعض ما جرى من عمليات إحراق وتدمير كانت أسبابه سياسية وبعضها كانت له دوافع نفسية وشخصية.

■■■

رسالة الكلم العثمانى

الشيخ حسين المرصفى

تحقيق: محمد حافظ دياب

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

نادى الشيخ حسين المرصفى فى كتابه الذى ألّفه عام ١٨٨١ فى أعقاب ثورة عرابى بإلغاء الطبقية والنظام الإقطاعى، ورسم تصحيحًا للأوضاع السياسية والاجتماعية فى مصر، وقد لاقى النص اهتمامًا من قبل المستشرقين الذين سعوا لتحليل الأوضاع فى مصر.

تعليم

التخاطب والسمع والكلام

المجموعة الاستشارية لنظم المعلومات

القاهرة: لندن، ٢٠٠٢

عن الصعوبات التى يواجهها ذوو الاحتياجات الخاصة فى التعلم والتأقلم مع الحياة، وكيف يمكن لأسر هؤلاء الأطفال أن يتعاملوا مع هذه الاحتياجات وينموا ذكاء أطفالهم وقدراتهم، كى يتواصلوا مع المجتمع ويصيروا أفرادًا نافعين.

■■■

القراءة وقاية وعلاج

عبد الغنى عبود

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

تمثل القراءة أهمية لا تنكر لتربية جيل جديد، وهو ما جعل المنظمات الدولية وحكومات عديدة بينها مصر، تهتم بمشروعات تيسر القراءة للجميع، المؤلف يتعرض لأهمية القراءة فى إنقاذ شبابنا من حالة التيه والضياع التى يعانيها، وكيف يمكن للقراءة أن تبنى شخصيته وتوجه أهدافه.

■■■

Reaching Higher: The Power of Expectations in Schooling

(الطموح إلى الأعلى: أثر التوقعات فى عملية التعليم)

Rhona S. Weinstein

Harvard UP, 2002, 352PP, $ 39.95

يتناول الكتاب «نظرية التوقعات» فى مجال التعليم التى تتضمن أن التوقعات السلبية أو المنخفضة لأداء الطفل الدراسى يجعله يحقق النبوءة ويفشل بالفعل.

وتحاول المؤلفة التى تعمل أستاذًا لعلم النفس بجامعة كاليفورنيا أن تقدم أفكارًا لتطوير نظام التعليم والتقييم، بحيث نتجنب تلك النبوءات التى تحقق ذاتها. فهى ترى أن هذه النتائج يخلقها مناخ وثقافة عامة داخل المدارس وفى مفهوم المجتمع باكمله لمعنى الإنجاز. تنطلق جهود المؤلفة وأبحاثها فى هذا المجال من إيمانها بالمساواة فى فرص التعلم، وإمكانية أن يصل جميع الأطفال إلى إمكاناتهم وقدراتهم الكامنة.

دوريات

المناهل

مثقفون وكتّاب مغاربة

المغرب: وزارة الثقافة المغربية، ٢٠٠٢

يتناول هذا العدد من هذه الدورية المهمة جدل الحوار بين الأنا والآخر فى الإبداع المغربى وفى الواقعين السياسى والاجتماعى، ويلقى الضوء على جذور وتداعيات الأزمة المغربية الإسبانية الأخيرة، ٥٥٠ صفحة يشارك فيها عبد الله إبراهيم وعبد السلام الحيمر ومهنا يوسف حداد وآخرون.

■■■

Sight and Sound

(صوت وصورة)

London: The British Film Institute, January 2003

يتضمن عدد يناير من المجلة السينمائية الشهرية التى يصدرها معهد الفيلم البريطانى مجموعة من العروض النقدية للأفلام الصادرة حديثًا، إلى جانب عدد من التحقيقات والمقابلات الصحفية. من بين الأفلام التى يتناولها العدد فيلم «١١ سبتمبر» الذى شارك فيه مجموعة من المخرجين من كل أنحاء العالم ومن بينهم المخرج المصرى يوسف شاهين. كذلك يضم العدد مقابلة مع المخرج الفلسطينى إليا سليمان، وتحقيقًا واسعًا حول فيلم مارتين سكورسيز المنتظر «عصابات نيويورك».

■■■

Foreign Policy

(سياسة خارجية)

Washington D.C: Carnegie Endowment For International Peace

November/ December 2002

تصدر العدد الأخير من مجلة «فورين بوليسى» التى تهتم بالقضايا السياسية والاقتصادية الدولية، ملفًا بعنوان «سلة مهملات التاريخ». يطرح التساؤلات حول النظريات التى سيطرت على الخطاب السياسى فى القرن العشرين وما إذا كانت توارت نهائيًا أم لا. ضم الملف ستة مقالات باقلام مفكرين غربيين معروفين تناولت بالترتيب كلاً من الماركسية، والقيم الآسيوية، والتدمير المتبادل، وحدود النمو، نظرية الاعتمادية، وأخيرًا العقدة العسكرية ـ الصناعية.

إلى جانب هذا احتوى العدد أيضًا على مقالات عن بارونات الإعلام الكبار، والانقسام السياسى الأوروبى ـ الأمريكى، ثم مقال يكتبه «حسين حقانى»، وهو خريج إحدى المدارس الفرعية، عن المعاهد الإسلامية التى انتشرت عالميًا، وما إذا كان لها دور فى دعم الإرهاب.

دين

قصة السفور والنقاب

محمد سلام زناتى

القاهرة: دار البستانى للنشر، ٢٠٠٢

ترتبط قضية السفور والنقاب بفكرة الاختلاط التى يرى المؤلف أنها كانت موجودة قبل الإسلام، ولم ينل منها التشريع الإسلامى الذى أبقى على الاختلاط مادام لا شبهة ضلال وإفساد فيه، وأما النقاب بالشكل الذى تغالى فيه بعض النساء فليس من الإسلام الذى لم يحدد زيًا محددًا للمرأة وإنما اشترط الحشمة فى الملبس.

■■■

مشكلة التأليه فى فكر الهند

عبد الراضى عبد المحسن

الرياض: دار الفيصل، ٢٠٠٢

تحتوى الهند بامتدادها الجغرافى وكثافتها السكانية على عشرات اللغات واللهجات فضلاً عن عشرات العقائد السماوية وغير السماوية، المؤلف يناقش الإله فى فكر الهند وكيف تطور هذا المعنى متأثرًا بحضارات وديانات أخرى.

■■■

Before the Flood: Dramatic New Evidence that the Biblical Flood was a Real Event

(قبل الطوفان: الأدلة الحديثة على أن طوفان الكتاب المقدس كان حادثًا حقيقيًا)

Ian Wilson

St. Martins Press, 2002, 352PP, $ 26.95

يشرح الكتاب الاكتشافات العلمية والأثرية التى ظهرت فى السنوات الماضية والتى تثبت وقائع طوفان النبى نوح التى ذُكرت فى الكتب المقدسة، وتضيف إليها بعض الملابسات والتفاصيل.

يقول ويلسون فى كتابه إنه فى حوالى عام ٦٠٠ قبل الميلاد، تسبب ذوبان الجليد الذى تبقى من أواخر العصر الجليدى فى تكون موجة كبيرة فى البحر الأبيض المتوسط غطت الأراضى الواقعة بين تركيا وأوروبا، مكونة مضيق البوسفور. هكذا غرقت المجتمعات الزراعية المحيطة بالبحر الأسود، وتشتت من نجا منها فى كل من مصر والعراق ومناطق أخرى فى الشرق الأوسط.

■■■

The Place of Tolerance in Islam

(مكانة التسامح فى الإسلام)

Khaled Abou El Fadl With Tariq Ali, Milton Viorst, John Esposito et al

Beacon, 2002, 128PP., $15.00

يقدم أستاذ القانون فى جامعة كاليفورنيا خالد أبو الفضل المقال الأول فى الكتاب عن التسامح فى القرآن، والآيات التى يساء تفسيرها من قبل غير المتسامحين، مبينًا التفسير الصحيح من وجهة نظره لهذه الآيات فى ضوء السياق التاريخى والسياق العام لتعاليم فى القرآن ذاته. يلى هذا مجموعة من الردود على مقال خالد أبو الفضل، بعضها من كتاب ومنظرين مشهورين مثل طارق على وجون إسبوزيتو وأمينة ودود وعابد علاجان. ينتهى الكتاب برد ختامى من خالد أبو الفضل يعلق فيه على الأفكار التى طرحها المشاركون فى هذا الحوار.

رواية

العيون السود

ميلسون هادى

عمان: دار الشروق، ٢٠٠٢

لوحتان متقابلتان للحياة فى الأراضى العراقية، يتبدى فيهما مشهد ما قبل الحرب العراقية وما بعدها، كيف أثرت الحرب فى الناس، كيف أثرت فى الشوارع والحوارى والبنايات، وكيف صاغت العلاقات بين البشر كما صاغت علاقات العراق بالمجتمع الدولى الذى صار محصورًا فى المفتشين الدوليين والرعب الذى يسببونه للناس هناك، وكيف سرق المفتشون الأمن والسلام من هذه البقعة من العالم.

■■■

الفنطاس، قصة حياة أمّة

عمرو عبدالسميع

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٢٣٩ص

أحدث رواية للصحفى والكاتب عمرو عبدالسميع الذى سبق أن قدم من خلال الأدب الساخر عددًا من الروايات التى تعكس الواقع الاجتماعى المعاصر فى مصر، ومن بينها روايات «الأشرار»، و«النسوان»، و«العنكبوت». تدور الرواية الجديدة حول شخصية «سمير متولى» الذى تتبعه الراوى فى مسيرته إلى الشهرة التى وصل إليها من خلال عمله فى «المركز الوطنى للدراسات» واستفادته من علاقاته بأمريكا وإسرائيل، وترويجه لفكرة «السلام».

■■■

بيروت ونهر الخيانات

محمد على اليوسفى

بيروت: دار الفارابى، ٢٠٠٢

رواية تجمع خلائط من عوالم متشابكة من الذكريات والأحلام والوقائع، تسعة فصول تدور فى هذا المزيج منها رواية عمران وأنا، عزوز المرداسى، ثمار على الضفتين، نهايات، القناع قبل الأخير، وغيرها.

■■■

مسك الليل

أحمد الشريف

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

عالم سحرى غريب ملىء بالمتناقضات، أبطاله من المهمشين الذين لفظهم الواقع ولفظوه، وبعضهم من المشردين المعتوهين غريبى الأطوار، هؤلاء هم من تحفل بهم قصص المجموعة، فتعيد إليهم الاعتبار بعد ما طردتهم الحياة خارج دوائرها المتباعدة.

■■■

Seek My Face

(فتش عن وجهى)

John Updike

Knopf, 2002, 288PP, $ 23.00

أحدث رواية للكاتب الأمريكى جون أبدايك الذى بلغ السبعين من عمره، وبلغ عدد رواياته العشرين. وهذه الرواية تدور أحداثها جميعًا فى يوم واحد طويل من خلال حوار صحفى بين صحفية شابة وفنانة كبيرة تبلغ من العمر ٧٩ عامًا. حيث تعود الفنانة الطاعنة فى السن إلى ذكريات حياتها وماضيها الذى يرتبط بأهم الحركات الفنية التى ظهرت فى القرن العشرين. حيث تحكى عن زواجها من فنان تجريدى عبقرى (مستمد من شخصية جاكسون بولوك الحقيقية)، ثم زواجها من فنان آخر ذى توجه ما بعد حداثى. (مستمد من شخصية الفنان الشعبى آندى وارهول الحقيقية).

■■■

Oscar Wilde Discovers America

(أوسكار يكتشف أمريكا)

Louis Edwards

Scribner, 2003, 304PP, $ 24.00

تصور روائى يركز على الرحلة التى قام بها الكاتب الأيرلندى الشهير أوسكار وايلد فى أمريكا عام ١٨٨٢. بطل الرواية ليس وايلد، وإنما الخادم الشخصى الأسود الذى صاحب وايلد فى رحلته.

سياسة

العولمة والإرهاب.. حرب أمريكا على العالم

مجموعة من الكتاب الأمريكيين

ترجمة: حمزة المزينى

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٣

يضم هذا الكتاب مجموعة من المقالات لكتاب أمريكان بينهم أستاذ اللغويات الشهير نعوم تشومسكى والمعروف بمواقفه المساندة للعرب، وعلى نهج تشومسكى يسير المشاركون فى الكتاب، الذين يعلنون تمردهم على عمليات الابتزاز والتجهيل التى تقوم بها الجماعات الصهيونية فى دوائر صنع القرار داخل أمريكا وخارجها، والمحوران الأساسيان اللذان تدور حولهما مقالات الكتاب هما حرب أمريكا على العالم

وانتهاكها لمبادئ القانون الدولي وسعيها لتصدير القيم الأمريكية عبر منظمة التجارة العالمية، والمحور الثاني يدور حول المجازر الإسرائيلية في فلسطين والتستر الأمريكي عليها وتأثير ذلك على مصداقية أمريكا التي تقدم نفسها دومًا بوصفها زعيمة للعالم الحر ومنبر الديمقراطية في العالم.

■■■

أزمة الأقليات في الوطن العربي
حيدر إبراهيم - ميلاد حنا
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

جدل حول موضوع من الموضوعات المؤرِّقة في العالم وفي الوطن العربي على وجه الخصوص، وهو جدل لم يحسم بعد برغم الاجتهادات التي أطلقها البعض، والسجال هنا يحمل بالضرورة آراء مختلفة ربما إلى حد التضاد، لكنها تثري الحوار حول هذا الموضوع المهم.

■■■

الثورة فوق الديمقراطية نحو حكم الفرد
محمد الجوادي
القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٢

قراءة في مذكرات عدد من الضباط الأحرار مثل محمد نجيب وخالد محيي الدين وعبد المنعم عبد الرءوف وغيرهم، وتركز بالذات على آراء ومواقف الضباط الأحرار من فكرة الديمقراطية ورؤيتهم لها، وكيف غابت الديمقراطية في خضم الصراع بينهم، وكيف غابت عن مشروعهم برغم أنها جاءت ضمن مبادئهم الستة الشهيرة.

■■■

الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية
رشاد الشامي
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢

لم يتوقف الكيان الإسرائيلي بوصفه كيانًا استعماريًا استيطانيًا أبدًا عند حدود جغرافية بعينها، لكنه اتسم بسمات نفسية واضحة، هي نتاج عقود طويلة من الشتات والنبذ من مجتمعات أوروبا التي صدرت المشكلة اليهودية إلى منطقتنا العربية، بكل ما انطوت عليه الشخصية اليهودية من ميل للابتزاز والعنف والسيطرة، وهي سمات شكلت الروح العدوانية التي تتبدى في صراعهم الآن مع أصحاب الأرض الأصليين.

■■■

المجتمع المدني وأبعاده الفكرية
الحبيب الجنحاني - سيف الدين عبد الفتاح
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

مؤسسات المجتمع المدني رديف للدولة، تربط بين الحقوق والواجبات وتتيح فرصة الممارسة والعمل، إلا أن هناك تيارًا آخر يرى فيها تهديدًا لسلطة الدولة وتأثيرًا للتماسك الاجتماعي للجماعات على حساب الانتماء الوطني، فهل حقًا للمجتمع المدني كل هذا التأثير، وما هي أبعاده الفكرية؟

■■■

النص والسلطة في المجتمع
عمار علي حسن
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٢

يجيب الباحث عن عدة تساؤلات مهمة منها: هل يتأثر النص الروائي بالانتماء الطبقي والانحياز الأيديولوجي للأديب، وهل يتأثر بنمط السلطة القائم والأوضاع الاقتصادية ومدى انعكاس القيم الإيجابية مثل الحرية والمساواة والانتماء، وكذلك القيم السلبية كالانفلات والإكراه والجور والأنانية في الرواية السياسية العربية.

وهذه الكتب في الأصل أطروحة جامعية للمؤلف.

■■■

النهضة اليابانية المعاصرة
مسعود ضاهر
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

تمثل النهضة اليابانية المعاصرة معجزة حقيقية في المجال الاقتصادي والتكنولوجي، ورغم ما تعرضت له اليابان من تدمير شبه كامل في الحرب العالمية الثانية، فإنها نجحت في تجاوز محنتها والوقوف بقوة في مصاف الدول العظمى وتجاوز أكثرها في معدلات التنمية والتطور، ما هي أسرار هذه المعجزة، وهل ثمة ما يفسرها من داخل التقاليد اليابانية والإرث العقيدي والتاريخي، هذا بعض ما يجيب عنه المؤلف.

■■■

بوش ضد العراق لماذا؟
ويليام ريفرزبيت
ترجمة: فاطمة نصر
دار سطور، ٢٠٠٢

برغم كل المساعي لتجنب ضربة أمريكية محتملة ضد العراق، وبرغم الإذعان العراقي الكامل لمطالب الأمم المتحدة التي توعز بها أمريكا وعمليات التفتيش المهينة لسيادة العراق، فإن بوش يصر على ضرب العراق، المؤلف يجيب عن السؤال: لماذا يقف بوش ضد العراق؟

■■■

ديمونة والتوبوليف العاملان الوحيدان للحرب والسلام بين العرب وإسرائيل
محمد حسام الدين
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٢

يتناول الكتاب في جزءين فكرة تحويل مفاعل ديمونة الذري الإسرائيلي من سيف في يد إسرائيل على رقاب الحكومات العربية وفقًا لنظرية توازن القوى، إلى سيف في يد الشعوب العربية على رقبة إسرائيل وفقًا لنظرية توازن الرعب والإيلام.

لذا فإن إصرار شارون على تنفيذ عملية الترانسفير (الترحيل الجبري) للعرب من فلسطين، سوف يجعل العرب ييأسون من عملية السلام ويتحركون ضد ديمونة، مما سيؤدي إلى عملية الترانسفير لليهود من إسرائيل هربًا من الإشعاعات النووية، لذلك فعزل اليمين الإسرائيلي المتطرف برئاسة شارون هو الحل الوحيد للأمن والسلام بين العرب واليهود.

■■■

ضد الهيمنة
مصطفى عبد الله
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

جمع المؤلف عددًا من المقالات التي نشرها في زاويته الأسبوعية بجريدة أخبار الأدب القاهرية ويتصل معظمها بقضية الحوار الثقافي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ويرى المؤلف أن أخطر موضوع ينبغي التصدي له في الوقت الحاضر هو التصدي للمحاولة الغربية الظالمة لصنع صورة سلبية عن العرب والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية اعتمادًا على ضلالات وافتراءات كاذبة.

■■■

The Mission: America's Military in the Twenty First Century
(المهمة: العسكرية الأمريكية في القرن الواحد والعشرين)
Dana Priest
Norton, 2003, 384PP, $ 26.95

تحلل مراسلة الشئون العسكرية في جريدة الواشنطن بوست الدور المتنامي للعسكرية الأمريكية في مجال السياسة الخارجية، حيث أصبحت تحظى بمسئوليات وسلطات واسعة من جديد، يقابلها الإعداد اللازم والحكمة الواجبة. يركز التحليل بشكل خاص على القوة المتعاظمة لرؤساء الأركان الإقليميين منذ عاصفة الصحراء، إذا تجاوزوا هذا الدور ليصبحوا مستشارين سياسيين للإدارات المتعاقبة دون أن يطوروا سياسات خارجية متماسكة. تهتم المؤلفة بنموذج الجنرال أنتوني زيني كمثال بارز لهذه العملية.

■■■

World on Fire: How Exporting Free Market Democracy Breeds Ethnic Hatred and Global Instability
(العالم يحترق: كيف يؤدي تصدير ديموقراطية السوق الحرة إلى الكراهية العرقية وعدم الاستقرار العالمي)
Amy Chua
Doubleday, 2002, 304PP, $ 26.00

تلوم المؤلفة - وهي أستاذ في جامعة ييل الأمريكية - الغرب لإصراره على تصدير نموذج من الرأسمالية والديموقراطية في دول العالم النامي لم يتبنه الغرب نفسه في يوم من الأيام. فالرأسمالية الغربية، كما تقول المؤلفة طبقت بشكل حكيم آليات لإعادة توزيع الثروة بحيث تتجنب الصراعات العرقية، في حين أن التحولات نحو رأسمالية السوق والديموقراطية في الدول النامية الآن تخلو من هذه الممارسة. وبالتالي يتجمع الثراء في أيدي أقليات مسيطرة، بينما تتزايد القوة السياسية للأغلبية المحرومة اقتصاديًا، الأمر الذي يفسر عنف المسلمين في إندونيسيا الموجه ضد التجار الصينيين الأثرياء على سبيل المثال.. وهي المسألة المتكررة في كل من روسيا وبوليفيا والشرق الأوسط.

"سير ومذكرات"

أعلام مضيئة في تاريخ مصر
إعداد: مينا بديع عبد الملك - أحمد عبد الفتاح
القاهرة: بيت مدارس الأحد، ٢٠٠٢

نحو مائة شخصية قدموا إسهامات مهمة كل في مجاله، في السياسة والاقتصاد والفن والإبداع الأدبي ومجالات العمل العام في عمومه، شخصيات نسائية ورجالية معظمها من الأقباط الذين أسهموا إلى جانب المسلمين في رفعة المجتمع المصري ورقيه.

■■■

سيرة محمود البدوي
علي عبد اللطيف - ليلى محمود البدوي
القاهرة: مكتبة مصر، ٢٠٠٢

دراسة عن القاص الذي أولى اهتمامًا استثنائيًا بقضايا مجتمعه والتحولات من حوله وتأثيرها على الحياة والناس، كيف بدأت هذه المسيرة وكيف تشكلت وما المؤثرات التي صاغتها حتى النهاية، ورؤية لأهم القضايا التي طرحها البدوي في أعماله.

■■■

نساء في امرأة - سيرة لور مغيزل
إيمان شمس شقير
بيروت: دار النهار، ٢٠٠٢

عن واحدة من الشخصيات النسائية البارزة التي جاهدت لتحرير المرأة وصمودها في وجه التيار الذكوري في المجتمع اللبناني، نادت لور مغيزل بالحرية الاجتماعية والسياسية للمرأة وأنشأت عددًا من الجمعيات لمساندة الحقوق الاجتماعية والشرعية لها وتفعيل دور النساء في المجتمع.

■■■

Frida: A Biography of Frida Kahlo
(فريدا: قصة حياة فريدا كاهلو)
Hayden Herrera
Harper Collins, 2002, 528P, $ 24.95 (Pb)

قصة حياة الفنانة التشكيلية المكسيكية فريدا كاهلو، التي نشأت أثناء الثورة المكسيكية وارتبطت بالحزب الشيوعي من خلال زوجها الفنان دييجو ريفيرا. امتلأت حياة فريدا بعلاقات غرامية صاخبة، واحتجاجات سياسية راديكالية، إلى جانب معاناة طويلة مع المرض، مما جعل منها مادة شيقة لعدة كتب تناولت سيرتها إلى جانب فيلم سينمائي أنتجته هوليوود مؤخرًا تمثل فيه النجمة سلمى حايك دور فريدا.

■■■

Condi: The Condoleeza Rice Story
(كوندي: قصة كوندوليزا رايس)
Antonia Felix
New Market, 2002, 260PP, $ 19.95

قصة السيدة الأمريكية السوداء التي ولدت في ولاية ألاباما الجنوبية عام ١٩٥٤، وكسرت كل الحواجز حتى أصبحت مستشار الأمن القومي للرئيس في مجال يتسيده البيض من الرجال.

قـــــــراءات جـــــــديـدة

ترجع المؤلفة الفضل لأسرة كوندوليزا التى كرست كل الجهود من أجل دفع ابنتها الوحيدة للإنجاز من خلال الدراسة والخدمة العامة. كما ترى أنها تأثرت كثيرًا بوالدها الذى كان لاهوتيًا وراعيًا لكنيسة إنجيلية، وأمها مدرسة البيانو. يبين الكتاب كيف تعددت وتلاحقت هوايات كوندوليزا فى صباها من الموسيقى إلى رفع الأثقال وكرة القدم!

شعر

القصيدة العباسية
ترجمة وتقديم: إلهام عبد الوهاب المفتى
القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٢

معالجة تحليلية ونقدية لعدد من قصائد أبى نواس والأجواء النفسية التى كتبت فيها والأغراض التى عالجتها والموضوعات التى عنيت بها أكثر من غيرها، وكيف كانت هذه القصائد انعكاسًا للحالة الاجتماعية والسياسية فى ذلك الوقت، ويقدم تحليلاً لقصيدة الربيع لأبى تمام بوصفها حالة لغوية مميزة فى وصف الطبيعة.

■■■

درجة حميمية
ظبية خميس
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

بعد «خطوة فوق الأرض» و«وصبابات المهرة العمانية» و«انتحار هادئ جدًا» و«المشى فى الأحلام الرومانتيكية»، تعيد الشاعرة اكتشاف مساحات أخرى من ذاتها المبدعة، بعد سنوات من الترحال فى أوروبا وأمريكا واستقرارها أخيرًا فى مصر، والديوان يعكس هذه الأجواء.

■■■

ديوان ابن المقرب العيونى وشرحه
تقديم: أحمد موسى الخطيب
الكويت: مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعرى، ٢٠٠٢

خصصت المؤسسة واحدة من دوراتها لهذا الشاعر الذى أثرى ديوان الأدب العربى برغم كونه مجهولاً حتى بين الدارسين والمختصين. وقد أثمرت هذه الدورة شرحًا للقصائد التى كتبها العيونى وتفسيرًا لها فى ديوانه الذى يعكس صورًا من البيئة الاجتماعية والحياة الأدبية فى فترة تاريخية معينة.

■■■

ديوان نبوية موسى
تقديم وتحليل: عفاف عبد المعطى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

عرفت نبوية موسى بوصفها رائدة من رائدات النهضة فى مصر والعالم العربى، وحطمت السور الذى وقف حائلاً بين المرأة والتعليم والخروج للعمل العام، لكن أحدًا لم يلتفت إلى موهبتها الإبداعية، المؤلفة تقدم لنا ديوان هذه الرائدة النسائية الذى نشرته فى العام ١٩٣٨، وترسم فيه صورة للمرأة الجديدة كما تخيلتها.

■■■

ليل خارجى
محمد خير
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

يستخدم الشاعر فى ديوانه الأسلوب السينمائى، حيث يرسم فى أبياته صورًا متحركة لمشهد كامل له بداية ونهاية، ففى إحدى القصائد صورة لشخص يحاول الانتحار، ويتابع المشاهد مع البطل ذاته الذى يسقط على الأرض فى ليل حالك السواد، وتتعالى صرخاته ساعية لإنقاذه، بطريقة تتابع المشهد الدرامى على شريط سينمائى.

طب وصحة

عقم الرجال بين الإسلام والطب
عبد الخالق يونس
القاهرة: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٢

تمثل هذه القضية حساسية خاصة فى المجتمعات الشرقية والإسلامية منها خصوصًا، وتؤثر فى حياة آلاف الأسر، المؤلف يشرح القضية فى هيئة أسئلة وأجوبة، يشرح فيها أسباب العقم وكيفية علاجه والتعاطى معه دينيًا وطبيًا، كما يقدم عديدًا من الفتاوى التى صدرت عن الأزهر الشريف فى هذا الموضوع.

■■■

مكافحة التدخين بين النظرية والتطبيق
حسن البنا محمد عبد المعز
المدينة المنورة: المؤلف

يوثق هذا الكتاب تجربة عملية متميزة فى المدينة المنورة التى اعتبرتها منظمة الصحة العالمية فى العام الماضى خالية من التدخين.

ويبين المؤلف أن مسئولية مكافحة التدخين تقع على عاتق الجميع دون استثناء كل حسب موقعه ودوره فى الأسرة والمجتمع، ويجيب عن أسئلة المدخنين وراغبى الإقلاع عن التدخين واستفساراتهم.

■■■

A Map of the Child: A Pediatrician's Tour of the Body
(خارطة الطفل: رحلة طبيب أطفال داخل الجسم)
Dar Shak Sanghavi
Holt, 2003, 320PP, $ 24.00

المؤلف، وهو طبيب أطفال وأب، يكتب بالتفصيل عن التشوهات الخلقية والأمراض التى يمكن أن تصيب الأعضاء المختلفة فى جسم الطفل، كما يستعرض من خلال الحالات التى تعامل معها إمكانات الطب فى معالجة هذه الأمراض. يؤكد الطبيب فى النهاية أنه بالرغم من التقدم فى الطب والتكنولوجيا إلا أنه فى كثير من الأحيان يستحيل إنقاذ الأطفال من الأمراض التى تصيبهم أو التى يولدون بها.

فنون

المنمنمات فى إسبانيا الإسلامية
رحيل إربى
الرياض: دار الفيصل، ٢٠٠٢

تمثل الأندلس جرحًا فى التاريخ العربى والإسلامى، وقت أن كانت الأندلس جزءًا من الدولة الإسلامية التى مدت أجنحتها شرقًا وغربًا، وقد غادرها العرب قبل خمسة قرون، لكن آثارهم الفنية فى العمارة على وجه الخصوص مازالت باقية، المؤلف يعرض لفن المنمنمات وهو فن إسلامى أصيل فى إسبانيا، كيف عبر هذا الفن عن الحضارة الإسلامية وكيف تطور.

■■■

مغامرة المسرح
أسامة أبو طالب
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

محاولة لإحياء هذا الفن الجميل الذى كان سابقًا على عشرات الفنون التى عرفها العرب، والذى عرفته المعابد والساحات وبلاط الحكم، المؤلف يدعو إلى تجديد دماء هذا الفن عبر المغامرة والتجريب ويقدم نماذج تطبيقية لما يطرح.

للأطفال

Hey, Frog!
(أيها الضفدع!)
Piet Grobler
Front Street, 2002, 32PP., $ 15.95

(للأطفال من سن عامين إلى ٦ سنوات). حكاية من التراث الأفريقى، يكتبها كاتب من جنوب أفريقيا قام بنشرها أول مرة فى هولندا. الكتاب يصور الحياة المرحة بين الحيوانات فى منطقة السفانا الأفريقية. فبالرغم من وجود مشكلة يسببها الضفدع لمجتمع الحيوانات حين ابتلع كل المياه مسببًا الجفاف وفقدان بعض الحيوانات المائية لمأواها، إلا أن الحيوانات تتوصل إلى حل للمشكلة يخلو من العنف.

■■■

Tales of Thieves and Robbers
(حكايات اللصوص والحرامية المستمدة من التراث العربى)
Retold by Denys Johnson-Davies
Illustrated by Walid Taher
Cairo, Sunflower Books: 2002, 53 PP., 20 L.E.

عشر حكايات من التراث العربى القديم، تدور معظمها حول لصوص اعتقدوا أنهم أذكياء وحاولوا الاحتيال على عدد من الشخصيات مثل جحا أو تاجر كبير، أو القاضى أو إمام الجامع.. إلخ. ثم ينتهى الأمر بطبيعة الحال إلى اكتشاف مكرهم والقبض عليهم.

الحكايات يكتبها المؤلف الإنجليزى دنيس جونسون دايفز الذى يعد من رواد ترجمة الأدب العربى الحديث إلى اللغة الإنجليزية. أما الرسوم الملونة التى تتخلل جميع صفحات الكتاب فللفنان المصرى وليد طاهر.

مراجع

الألمانية فى الإرشاد السياحى
علية عزت عياد
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

يتناول الكتاب الحضارة المصرية من خلال نصفين أحدهما بالعربية والآخر بالألمانية، ويقدم شرحًا لأهم الأعمال الفنية ووصفًا للتماثيل الضخمة والنحت البارز والرسم على الحوائط والجدران، كما يتضمن قاموسًا بأهم المصطلحات المتخصصة حسب ورودها فى كل فصل من فصول الكتاب الأربعة.

نقد أدبى

الأدب الجاهلى (قضاياه - أغراضه - أعلامه - فنونه)
غازى طليمات - عرفان الأشقر
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

لا يستطيع الإنسان العربى فى العصر الحديث أن يدرس حضارة العرب فى صيرورتها ويتعرف إلى لسانهم وبيانهم، مالم يدرس الأدب الجاهلى فى عمومه شعرًا ونثرًا، خصوصًا الموزون منه، لا لرفعة الموزون وضعة المنثور، بل لأن المنظوم بالذاكرة أعلق وبالذائقة ألصق.

■■■

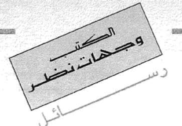
عين ترى
هدى النعيمى
الدوحة: المؤلفة، ٢٠٠٢

رؤية نقدية وتحليلية لعدد من الأدباء والمفكرين من أمثال أمل دنقل ويوسف إدريس وسعد الله ونوس وعبد الله الفزانى وغيرهم، والدور الذى لعبه كل منهم فى مجال إبداعه ومدى إثرائه لواقع الأدب العربى والفكر العربى إجمالاً.

■■■

نظرية الأدب المقارن
أحمد درويش
القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٢

تنهل الفنون والآداب من بعضها البعض، ومن العسير صد التلاقح الثقافى حتى فى ظل أقصى درجات الجمود السياسى وعداء الكيانات السياسية لبعضها البعض، والأدب واحد من المجالات التى تخضع لعمليات تأثير وتأثر مستمرة، وكثير من الأجناس الأدبية دخلت أدبنا العربى بعد أن ظهرت وتوطدت فى أوروبا، المؤلف يدرس نظرية الأدب المقارن فى المدرستين الفرنسية والأمريكية وتأثيرهما على الأدب العربى.



❞ ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها.
مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها ❝

هيكل.. نبع لا ينضب

طابت أيامكم وأوقاتكم، وزادت «وجهات نظر» انتشارًا وتالقًا، بعمق أبحاثها، بسعة آفاقها، برصانتها، بانضباط ساعتها على عقارب الحدث وقضايا الفكر.

أتناولها آخر كل شهر، أتلقى العدد، ومن لحظة تلقيه يبدأ انتظارى للعدد الذى يليه، ومعه يبدأ اشتياقى إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل، إلى كلماته أترقب وصولها، أتسقط الأيام بما يشبه الوله والإدمان.

عجيب هذا القلم، هذا البحر الزاخر بما يعرف ويكتب، بما يكتشف ويكشف، بما يحلل ويقول. يُمسك قطعة من الزمن بين يديه فيؤديها بين يديك قطعة من التاريخ. ينقل المشهد بأشخاصه، بمواقعه ووواقعاته وظروفه وثناياه، فينساب الحديث متعة من متع الكلام فى سبك وسلاسة سرد ورصف بالصورة واللون، أين لسينما الأخوين «لوميير» أن تكون لها هذه البلاغة وذلك الإيقاع.

وفيما أنت مسحور بأجواء القصة وكانك فى رحلة هى أجزل مما لو كنت مع «بلوتارك» أو «ابن خلدون» أو «فولتير» أو «سان سيمون» أو «برنارد شو» أو «الجاحظ»، إذ يُفاجئك فى أحد المنعطفات بين السطور رعد يلعلع على القرطاس أو لذعات إبرة يا لنحس من تغرز جلده!

عذرًا، فالكلام عن أستاذنا الكبير نبع لا ينضب.. تجدون سيادتكم مع رسالتى هذه بطاقة اشتراك، ذلك لأن العدد الذى سأتلقاه هنا آخر كل شهر هو بحاجة إلى رفيق، فأحفظ الاثنين بما أن ما يرد فيه خليق بأن يحفظ مرتين.

إميل بجانى
محامٍ بالاستئناف



سمو روحى

مقالة الأستاذ سلامة أحمد سلامة رئيس التحرير «نون» فى ختام العدد السادس والأربعين - نوفمبر ٢٠٠٢ كانت ضربًا من السحر والسمو الروحى للكاتب حين يكتب متخلصًا من كل قيود اللغة الصعبة والمشاعر الحادة، قرأنا مقالتك ونحن نشعر بانتشال الروح للجسد من أكاذيبه وأثقاله، ومع كل سطر وكل جملة سبحنا لدقائق غنية بفيض من الأحاسيس الإنسانية السهلة الغضة، بدائية البكورة والسلام الذاتى والهدوء المستحيل.

.. انتهت المقالة ومازال عطرها الهادئ يغمرنى ويغمر ويفيض على المكان، ومازال صدى معانيها الخضراء الرقيقة يريح العيون والآذان والنفس والروح.

.. شكرًا لكاتبنا الكبير لنصائحه الثلاث التى ختم بها مقالته الصوفية وعدده الرائع، وليتنا نتذكرها ونعيها ونتلمسها ونتمسك بها كلما تهنا فى سراديب العمر والزمان أو غابته الشاسعة الضيقة.

د. سمير عنتر
استشارى حميات الطالبية - الهرم




«وجهات نظر» فى أمريكا

أكون شاكرًا لو تفضلتم بالنظر فى إيجاد طريق آخر لإيصال مجلتكم للمشتركين بخارج مصر حتى تصلهم بانتظام ذلك لأن الطريق المستخدم فى الوقت الحاضر لا يضمن وصول المجلة لهم - وقد فهمت من مكتب الأهرام بواشنطن والذى يقوم بإرسال مجلتكم (وغيرها من المجلات والمطبوعات) أن عدم الانتظام يعود إلى قصور من الشركة القومية للتوزيع التى كثيرًا ما ترسل أعدادًا أقل من عدد المشتركين للتوزيع، هذا وقد لاحظت أن المجلات والمطبوعات التى تصلنى من مصر مباشرة هى أكثر انتظامًا من تلك التى تصلنا عن طريق الشركة القومية.

كما أكون شاكرًا أيضًا لو تكرمتم بالنظر فى أمر إعادة ترتيب موقعكم على الإنترنت حتى يأتى متمشيًا مع ما يجب أن يكون عليه مستوى مجلتكم الرفيع.

فحرام أن تنقطع بنا السبل. فلا المجلة (الاشتراك) وصلت، ولا تمكنا نحن من الوصول إليها على الإنترنت.

د. رشدى سعيد
واشنطن




«وجهات نظر».. والمستقبل

أطلت علينا مجلتنا الناضجة «الكتب.. وجهات نظر» قبل أربع سنوات، بوجه ثقافى صبوح وعقل ثرى بالمعلومة والرأى والبحث والدراسة. ولدت كبيرة تقودها مجموعة من رواد الفكر وقادة الرأى وصناع الثقافة.. منهم أساتذة الأجيال ومنهم عمالقة الفكر.. ومنهم أصحاب الرؤية المستقبلية والتحليل العميق.

طافت بنا فى بحار الفكر والأدب والفن والسياسة والثقافة والتاريخ والجغرافيا. وأتحفتنا بالصورة المعبرة والرسوم المجسدة لمعان كبيرة. ولا يضيق صدرها بنقد.. بل تناقش الرأى والرأى الآخر.. وتقارع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان.. فهى معين يفيض بالفكر.. ونبع لا يغيض من الثقافة.

وقد لا يسعدها قول مادحيها.. قدر حرصها على تفهم رأى ناقديها.. فهى أرض خصبة للفكر تثمر للأجيال ما افتقدوه زمنًا.. وعجزوا عن بلوغه ثمنًا.

لكن - والحق يقال - نرجو لها المزيد قيمة وانتشارًا على الساحة الثقافية العربية فنجدها فى ندوات الرأى وعلى موائد الثقافة.. حضورًا ماديًا ومعنويًا.. ومن أجل ذلك نتمنى أن نجد على صفحات مجلتنا نظرة المستقبل التحليلية سياسة واقتصادًا تفوز باهتمام أكثر ومساحة أوسع.. فالعالم من حولنا يتغير بسرعة ورؤية المستقبل غائمة ومشوشة خاصة لدى كثير من الشباب.. فالصحافة التى تصنع الرأى المستنير تنير العقول والقلوب، ونحن أحوج ما نكون فى وقتنا هذا لهذه المهمة.. لتظل مصر غنية بعقولها لا ببترولها.. ولادة معطاءة كما العهد بها دائمًا.. وتمتلئ ساحتنا الثقافية بالأعلام فى الأدب والفن والفكر، بل فى المجالات كافة.. وتظل مائدة القاهرة عامرة بالعمالقة والرواد.

ولتظل مجلتنا «وجهات نظر» دائمًا لها من اسمها حظ ونصيب.. فهى وجهات نظر فى الماضى والحاضر والمستقبل.. عامرة بالأفكار الخلاقة والآراء البناءة.. تترك بصمة بل بصمات على صفحات الحضارة.. وأرجو أن نقرأ على صفحات مجلتنا «ندوة فكرية» نلتقى فيها بحوارات مع أسماء متعددة من صناع الفكر.. نتعرف فيها على تجارب وخبرات هؤلاء المفكرين.. لتتفاعل الأجيال الجديدة مع الكتاب الذى هبط إلى ذيل القائمة فى اهتمامات الشباب وأصبحت العقول الشابة تتعثر فى القراءة وتتعسر فى فهم محتوى الكلمات..

أعلم أن هذا حصاد مر.. لمراحل سابقة خاصمنا فيها القراءة فخاصمتنا الثقافة.. وصارت الشاشة الصغيرة هى المربى والمعلم والمُثقِّف.. وفرح النشء بدعابات وابتسامات.. ضمنت لهم وقتًا مسليًا وأحلامًا جميلة.. لكنها تركت العقول خواء والأفئدة هواء.

«وجهات نظر» رسالة سامية ومهمتها رفيعة.. تحية عظيمة لفرسانها وقادتها وأدعو الله أن يثمر جهدهم المزيد والمزيد.

محمد السيد
القاهرة

صين جديد

لقد كانت مجلة «وجهات نظر» عدد ديسمبر ٢٠٠٢ أكثر من رائعة، فلقد كانت حافلة بأكثر من موضوع فى أكثر من مجال، ولقد استوقفنى مقال «الطريق إلى السلطة.. الجيل الرابع يحكم الصين» لأندرو ناثان وبروس جيلى، حيث يحسب لمجلة وجهات نظر طرحها هذا الموضوع المهم الذى يعد تغييرًا واضحًا فى الأيديولوجية السياسية المطبقة فى الصين، فالسماح للرأسماليين بالدخول فى صفوف الحزب الشيوعى يعد تغييرًا ليس فقط فى الطرق والاستراتيجيات بل فى الأفكار الشيوعية ذاتها، والذى يعتبره البعض تهديدًا للوجود الشيوعى فى العالم ونكسة قد تكون قاضية للشيوعية بعد انهيار الاتحاد السوفيتى السابق، وربما يكون هذا الانهيار هو السبب فى مراجعة الأيديولوجية الشيوعية ككل، وعلى الرغم من وجود العديد من الأصوات المناهضة لهذا التغيير باعتبار أنه نذير بسقوط الصين كما حدث للاتحاد السوفيتى السابق، إلا أننى أراه تغييرًا حتميًا وضروريًا فى عالم متغير بل وأكثر من ذلك، فإننى أراه محاولة لتفادى السقوط الصينى، فهو يضمن انتقالاً تدريجيًا وهادئًا فى أيديولوجية استمرت لأكثر من خمسين عامًا وأدت وظيفتها على نحو جيد وتبعًا لظروف الوقت والمجتمع، إلى أيديولوجية أخرى أصبحت مطلوبة لاستكمال المسيرة الصينية، فلقد قبلت الصين التغيير المنطقى الحتمى واستطاعت إيجاد وسائل تطبيقية فى حين أنه كان فرضًا حتميًا على الاتحاد السوفيتى.

منى محمد عقيل القويضى
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
طالبة بالفرقة الأولى



تصويب

ورد فى العدد الماضى من مجلة «الكتب.. وجهات نظر» عدد ٤٦ - صفحة ١٧ فى الفقرة الثانية أن «عمر بن العزيز ولد لأب هو عبد العزيز بن عبد الملك بن مروان» والصحيح أن الأب هو عبد العزيز بن مروان وقد أضيف اسم عبد الملك سهوًا، ويتضح ذلك مما جاء فى الفقرة التالية أن «عمر بن عبد العزيز تزوج من فاطمة ابنة عمه الخليفة عبد الملك بن مروان».

و«وجهات نظر» تشكر القارئ المدقق الذى حرص على لفت الانتباه إلى خطأ مثل هذا.

المحرر



إغاثة الأمة بكشف الغمة

اعلم تولى الله أمرك بالحياطة والهداية، ولا أخلاك من الكفاية والعناية، أن الغلاء الذى حل بالخلق منذ كانت الخليقة، فيما نُقل من أخبارها بسائر البلاد فى قديم الزمان وحديثه، إنما يحدث من آفات سماوية فى غالب الأمر: كقصور جرى النيل بمصر، وعدم نزول المطر، أو آفة تصيب الغلال، أو جراد يأكلها، وما شابه ذلك. هذه عادة الله تعالى فى الخلق، إذا خالفوا أمره وأتوا محارمه، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم.

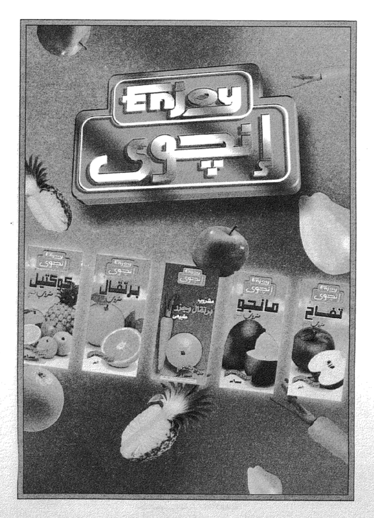
وسبب ذلك كله ثلاثة أشياء لا رابع لها:.

السبب الأول: وهو أصل هذا الفساد، ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة، كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل.

والسبب الثانى: غلاء الأطيان، وذلك أن قومًا ترقوا فى خدم الأمراء يتولفون إليهم بما جَبَوا من الأموال إلى أن استولوا على أحوالهم، فأحبوا مزيد القربة منهم، ولا وسيلة أقرب إليهم من المال، فتعدوا إلى الأراضى الجارية فى إقطاعات الأمراء، وزادوا فى مقادير الأجر. حتى بلغ الفدان لهذا العهد نحوًا من عشرة أمثاله قبل هذه الحوادث.

والسبب الثالث: رواج الفلوس، إن النقود التى تكون أثمانًا للمبيعات وقيمًا للأعمال إنما هى الذهب والفضة فقط، لا يعلم فى خبر صحيح ولا سقيم عن أمة من الأمم ولا طائفة من طوائف البشر أنهم اتخذوا أبدًا فى قديم الزمان ولا حديثه نقدًا غيرهما، حتى قيل إن أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه الصلاة والسلام، وقال لا تصلح المعيشة إلا بهما.





نون

استنساخ الديمقراطية على الطريقة الأمريكية

في أعقاب الهجمات التي تعرضت لها أمريكا في سبتمبر ٢٠٠١، فرضت وسائل الإعلام الأمريكية على نفسها حظرًا يقرب من التحريم، على ما يمكن أن يشير من قريب أو بعيد إلى مسئولية أمريكا نفسها عن الأسباب والظروف التي أفضت إلى وقوع هذه الهجمات. وأبعدت بعض محطات التليفزيون والصحافة المطبوعة بعض الصحفيين الذين حاولوا ترديد مثل هذه الأقوال والآراء.

غير أن أي شخص على قدر من الجدية ممن يحيطون علمًا بطبيعة العلاقات التي تربط بين الولايات المتحدة الأمريكية والعالم العربي والإسلامي في الشرق الأوسط، كان يدرك عن يقين أن هذه هي الحقيقة. بل إنها لا تعدو أن تكون غير جزء من الحقيقة. فليس هناك من يجهل أن ممالأة أمريكا لإسرائيل سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، منذ عام ٦٧، بل وقبل ذلك، قد أدى إلى تآكل الموقف الأمريكي تدريجيًا في العالم العربي، وأنشأ علاقة مركبة من الحب والكراهية، من الانبهار والازدراء، من استجداء المساعدة وصب اللعنات بين الغالبية الغالبة من طبقات الرأي العام على اختلافها.

ولكن السياسيين والمفكرين الذين يعملون تحت عباءة المؤسسة الأمريكية اكتفوا بالوقوف عند أعراض المشكلة دون جذورها. فالمسألة في نظرهم لا تعدو أن تكون تعارضًا حادًا في منظومة القيم بين أمريكا والغرب من ناحية، والعالم الإسلامي من ناحية أخرى.. المجتمعات الإسلامية في رأيهم. وقد يكون ذلك صحيحًا بدرجة ما ولكنه ليس السبب في أحداث سبتمبر. تعاني من تخلف شديد في درجة الحريات المدنية والسياسية، وفي التنمية الاقتصادية، وفي وضع المرأة. ومرد ذلك في تصورهم إلى أن المجتمعات الإسلامية تمسكت بنظام للقيم يرفض الحرية الدينية، والتكنولوجيا الغربية، وأساليب الحكم السائدة في الغرب. وهو ما أدى في اعتقادهم الذي ما فتئوا يرددونه إلى جمود هذه المجتمعات وافتقارها إلى الديناميكية اللازمة لمواجهة تحديات العصر. حتى أصبحت بمرور الوقت تربة صالحة لتوليد الإحباط واليأس بين الشباب. واختمار نزعات العنف والإرهاب في ظل تزايد الهوة بين الأغنياء والفقراء، وتضاعف معدلات البطالة، وعجز النظم التعليمية وامتلاء المناهج بالمبادئ التي تروج للجهاد والثورة من ناحية أو للخضوع والخنوع للسلطة من ناحية أخرى.



وخلال الفترة الأخيرة تصاعدت هذه النغمة في الغرب وفي أمريكا على وجه الخصوص، لتبرر للرأي العام الأمريكي أسباب الهجمات التي تعرضت لها البلاد في سبتمبر. وفي المحاضرة التي ألقاها باول فولفيتز نائب وزير الدفاع الأمريكي في لندن أخيرًا، ودعا فيها صراحة إلى ضرورة تغيير الأنظمة في عدد من الدول العربية، لم يتردد في القول بأن نظام الاختيار الحر الذي تقوم عليه الديمقراطية. يصطدم بمبادئ الأصولية الإسلامية، التي انقلبت إلى نوع من الثورة على الحكومات غير الدينية وعلى الغرب.. وانتهى في محاضرته إلى التنبؤ بأن «لونا» جديدًا من «الإسلام» سوف ينبثق من أعماق هذه التيارات، أكثر تلاؤمًا مع الديمقراطية وتكيفًا مع منظومة القيم التي تعبر عنها حضارة الغرب.. إسلامًا يصلح للعصر، ولا يعادي أمريكا والغرب، ولا يكون عقبة في طريق التقدم. وبينما يرى فولفيتز في التطور الذي حدث في تركيا مدعاة للتفاؤل بقرب انتشار هذا الاتجاه، فإنه يرى أن «الأنظمة السلطوية في مصر والسعودية وباكستان لا تبدي استعدادًا للتكيف مع هذا الزلزال التاريخي الذي يكتسح العالم».

ثم انضمت إلى «الكورس» أصوات أخرى غير فولفيتز، مهدت للخطاب المهم الذي بشر به كولين باول وزير الخارجية العالم العربي والإسلامي بقرب انبلاج فجر الديمقراطية على العرب بمساعدة أمريكا. وكان من أهمها تلك المحاضرة التي ألقاها ريتشارد هاس مدير إدارة التخطيط بوزارة الخارجية الأمريكية، ونعى فيها على العالم الإسلامي تلك الفجوة الديمقراطية الهائلة التي تفصل بينه وبين العالم. ولكي لا تبدو تلك المقولة اختراعًا أمريكيًا صرفًا، فقد استند هاس إلى تقرير التنمية البشرية عن العالم العربي الذي نشرته الأمم المتحدة قبل عدة شهور، وصور فيه المنطقة العربية في وضع متخلف عن مناطق العالم الأخرى في العديد من أوجه الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وكان لابد أن تحمل أمريكا على عاتقها مسئولية الرسالة التي نذرت نفسها لها وهي نشر الديمقراطية في العالم.. وفي العالم العربي على وجه الخصوص.

ولا يجد هاس في ذلك شيئًا غريبًا أو خارجًا عن المألوف. فمبادئ المنفعة الأمريكية تطوع كل شيء لخدمة أهدافها.. انتشار الديمقراطية في العالم الإسلامي لن يعود بالنفع على شعوب هذه الدول فحسب، بل يعود بالنفع أيضًا على أمريكا نفسها. لماذا؟ لأن الديمقراطية تفتح آفاق الحرية الاقتصادية، وتحرر الأنظمة السياسية المغلقة، وتخفف من الضغوط الداخلية التي تولد التطرف، وتجعل من اليسير على الأنظمة الحاكمة أن تتحالف مع أمريكا في محاربة الإرهاب ونزع أسلحة الدمار الشامل. تلك هي فلسفة «المشاركة الجديدة» التي ستحكم العلاقات الأمريكية بالعالم الإسلامي، والتي تردد كولين باول وزير الخارجية الأمريكية ثلاث مرات قبل إعلانها. وفي ظنه أن هذه المشاركة لابد أن تدعم التنمية في ثلاثة مجالات رئيسية من أجل دفع التقدم في العالم العربي لإصلاح الاقتصاد، والتعليم، والنظام السياسي.



يحار المرء كثيرًا في فهم الدوافع الأمريكية وراء توقيت إعلان هذه المبادرة وأهدافها الحقيقية. وعلى الرغم من أن الإدارة الأمريكية تنكر تمامًا أن يكون لها أجندة خفية وراء الدعوة المباغتة للإصلاح المدني والاقتصادي والسياسي الذي وضعته وخططت له دون مشاورة أحد من أصحاب الشأن في العالم العربي الإسلامي.. إلا أن التصورات الأمريكية لتنفيذ هذه الرؤية الإصلاحية تبدو وكأنها ستتم في معامل البحث الأمريكية. وكأنها تجربة لاستنساخ الديمقراطية تتم وسط شروط معملية في أحد مراكز الأبحاث الأمريكية، بعيدًا عن أجواء الريبة والسخط التي تسد أفق الرؤية في العالم العربي. سواء بالنسبة لخضوع السياسة الأمريكية للتأثيرات الليكودية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، أو بالنسبة لمنطق الحرب الذي فرضته إدارة الرئيس بوش على الأزمة العراقية وأخذت تهيئ الظروف الدولية والإقليمية لخوضها.

غير أن هذه الحيرة سرعان ما تتبدد، حيث يتأكد أن ثمة تطابقًا في الأهداف بين طموحات الإمبريالية الأمريكية الجديدة التي باتت مقتنعة بضرورة القضاء على الأنظمة العربية التي أفرزت مشاعر عداء ضد أمريكا، كمقدمة لإدخال الديمقراطية والإصلاحات السياسية فيها.. وبين هدف إسرائيل الاستراتيجي باستئصال النظام العراقي من جذوره، وإيجاد قيادة فلسطينية بديلة على استعداد لقبول الحلول التي يضعها شارون واليمين الإسرائيلي. وهذا ما يوصف أحيانًا بإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط.. طبقًا لمخططات أمضى اليمين الأمريكي وقتًا طويلاً في تدبيجها بالتعاون مع إسرائيل قبل أن يصل إلى البيت الأبيض.

وفي مقال نشرته «لوس أنجيلوس تايمز» الأمريكية لباحثين أمريكيين في جامعة بيركلي بولاية كاليفورنيا هما ساندي تولان وجاسون فليش، فإن الخطة الأمريكية تبدو قريبة في طموحها وأهدافها من اتفاق «سايكس - بيكو» الذي عقد بين فرنسا وبريطانيا عام ١٩١٦، لتقسيم الإمبراطورية العثمانية بين البلدين. ويستند هذا التحليل إلى أن الأنظمة العربية قد وصلت الآن إلى حالة من الضعف، تؤهلها للسقوط كثمرة ناضجة. وباستثناء أربع دول عربية تحت حكم شبان يفتقرون إلى الخبرة، فإن بقيتها في قبضة حكام متقدمين في السن، تحيط الشكوك بأسلوب خلافتهم.



لا جدال في أن صعود اليمين الأمريكي المحافظ، يقابله من ناحية أخرى صعود اليمين الإسرائيلي المتطرف، قد أسهم في خلق بيئة دولية جديدة هي التي ستحدد معالم الموقف في الشرق الأوسط ونحن في بدايات القرن الواحد والعشرين. ولا تبدو عملية استنساخ الديمقراطية من جينات أمريكية غير ذريعة لتفكيك المنطقة، بهدف سيطرة أمريكا على البترول العراقي والتحكم في أسعار النفط العالمية، بكسر احتكار الأوبك إذا لزم الأمر. هو ما سوف يضمن لإسرائيل سيطرة عسكرية على الشرق الأوسط.. وبعد العراق سوف يأتي الدور على إيران وسوريا والسعودية لتغيير أنظمة الحكم فيها.

هذه هي «خريطة الطريق» الحقيقية التي تتضمنها أجندة البيت الأبيض. وعندما تنتهي فترة الولاية الأولى للرئيس بوش، فإن البند الرئيسي من جدول أعماله، ربما يكون قد تحقق. وهو غزو العراق والإطاحة بنظام صدام حسين وإقامة نظام عميل ولكنه يحمل جينات الديمقراطية الأمريكية كما في أفغانستان. ليضمن بذلك إعادة انتخابه واستكمال مخططاته العظمى!

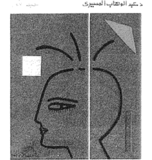
سلامة أحمد سلامة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

يصدر قريباً عن

دار الشروق

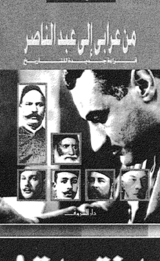
اطلبها فى معرض القاهرة الدولى للكتاب
من ٢٣ يناير إلى ٦ فبراير ٢٠٠٣

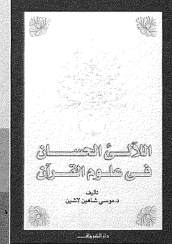


دار الشروق
مواقف وتحديات فى العالم العربى
د. عصمت عبد المجيد













تطلب من

دار الشروق : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق : ١ ميدان طلعت حرب تليفون : ٣٩١٢٤٨٠
ومكتبة الشروق : مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون : ٥٧٣٥٠٣٥

ومن أجنحة دار الشروق والمكتبات الكبرى بمعرض القاهرة الدولى للكتاب

كما يمكنكم شرائها إلكترونياً www.e-kotob.com

سيارة أحلامك..
معنا تصبح حقيقة.

دلوقتي تقدر تقسط
السيارة المستعملة!

قرض السيارة الجديدة والمستعملة من البنك العربي

- أقل سعر فائدة.
- أعلى نسبة تمويل.
- أطول مدة تقسيط.
- تأمين مجاني على الحياة.
- أسعار مميزة للتأمين على السيارة.
- سهولة وسرعة في الإجراءات.

RESALA





رؤية جديدة



أرض المعارض بمدينة نصر
جناح رقم ٥

البنك الرسمي
الراعي لمعرض

إتصل الآن بـ ٢٢ ٩٩ ٣٣١ سبعة أيام في الأسبوع
من التاسعة صباحاً حتى التاسعة مساءً

www.arabbank.com